

ويليام سيبروك

السحر

قوته في العالم اليوم

منتدى إقرأ الثقافي
WWW.IQRA.AHILAMONTADA.COM

منتدى إقرأ الثقافي

للكتب (كوردى - عربى - فارسى)

www.iqra.ahlamontada.com

ترجمة:

سليم عبدالامير حمدان



منتدى إقرأ الثقافي

لتحميل أنواع الكتب راجع: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

پراي دائلود کتابهای مختلف مراجعه: (منتدی اقرا الثقافی)

پۆدابه زاناندنی جۆره ها کتیب: سەردانی: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

www.iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتيب (كوردی , عربي , فارسي)

السحر

قوته في العالم اليوم



Author: William Seabrook
Title: Witchcraft- Its Power
in the world today
Translator: Seliem A. Hamdan
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : ويليام سيبروك
عنوان الكتاب : السحر
قوته في العالم اليوم
المتـرجـم : سليم عبد الأمير حمدان
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص.ب. ٨٢٧٢ او ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail: al-madahouse@net.sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون - بناية منصور- الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٣٦١٧-٧٥٣٦١٦

E-mail: al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٢- بناية ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماتاً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ويليام سيبروك

السحر

قوته في العالم اليوم

ترجمة: سليم عبد الأمير حمدان



المعضلة

ها هي ذي المعضلة التي نشأ عنها هذا المؤلف ببطء
بوصفي منكرًا ثابتاً لما فوق الطبيعي- إذ أرفض الإيمان بالعفاريت، آلهة الغابات
والشياطين، وإذ أرفض- لهذا السبب- حتى الإيمان بالروحانيات، التخاطر، الاستعباد
أو الأشباح- فقد اقتنعت مع ذلك، بعد سنوات في الغابات أن الأطباء السحرة يمارسون
ما هو، في الظاهر، قوة خفية"، مميتة، خطيرة وحقيقية.
وإذا أخذت أكثر التجليات شيوعاً باعتبارها مثلاً، اقتنعت أن بمقدورهم أن يقتلوا
باستخدام السحر وحده، أي بالسحر الخالص، من دون اللجوء إلى السم، الحوادث
المفتعلة، العنف أو أي وسائل مساعدة كيميائية- فيزيائية مهما كانت.

ملاحظة الكاتب

هذا الكتاب مبني على الحقائق.
تكاد كل أسماء الأشخاص تكون حقيقية. ولكن كان ضرورياً، في مواقع قليلة
نادرة تغيير الأسماء والأماكن من أجل حماية أشخاص معينين في مراكز عليا لا يزالون
على قيد الحياة.

ملاحظات المترجم

ولد هذا المواطن العالمي- إن صحت التسمية- ويليام سيبروك- سنة ١٨٨٦، تعلم في سويسرا، وخدم في الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى. عاش سنتين بين العرب- ومن هنا معرفته بالمولوية والرفاعية التي يجدها القارئ في هذا الكتاب، وعاش مدة بين أهالي هايتي، وأخرى بين أكلة لحوم البشر في أفريقيا.

وقد كتب عن ذلك كله.

أدمن الكحول، فقلتفاعليته وخمد نشاطه، مما اضطره إلى دخول مصحة مجانين- طوعاً- على أمل التخلص من إدمانه.

وقد كتب عن تجربته تلك في سيرته الذاتية، الموسومة "لا ملجأ" أو: لا ملاذ. لم يتخلص من الإدمان، على الرغم من ذلك، فوضع حداً لحياته سنة ١٩٤٥ بتناول جرعة زائدة من حبوب منومة.

ترد في هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ أسماء أعلام عدة، بعضها مشهور وبعضها غير معروف، ربما كان لمع إلى هذا الحد أو ذاك على أيام حياة الكاتب. لكنه لم يميز بين الاثنين، وتعمد عدم تعريفنا على أي منهم، لذلك لم أجد من الضروري- ولا المناسب- التحري عن هذه الأسماء وتعريف القارئ بها.

ولكن ما لفت نظري بشكل خاص أنه تعرض لفرانك هاريس (١٨٥٦-١٩٣١)، الكاتب الأميركي الإيرلندي المولد، بالنقد المهني دون أن يعرف القارئ بالسبب، غير سيرة هاريس الذاتية، المسماة "حياتي وغرامياتي" (ثلاثة أجزاء)، التي اعتبرها كتاباً مسفهاً هبط بمكانة مؤلفه.

صحيح أن هاريس تناول المسائل الجنسية في سيرته هذه بصراحة، وأنه وضع مقدمة دافع فيها عن هذا تناول، إلا أنني لم أجد ذلك مسوغاً لتناوله بهذه القسوة. وصحيح أيضاً أن كتابه منع في إنكلترا والولايات المتحدة، حتى أصدرته دار نشر فرنسية ضمن سلسلة ايروتيكية وبورنوغرافية، إلا أنني شخصياً - وقد قرأت جزئيه الأول والثالث - وجدته ايروتيكياً لا بورنوغرافياً، علماً بأنني قرأتها في ستينيات القرن الماضي ضمن نظرة تلك الأيام. ولعل هذا يوضح نسبية النظرة إلى الأعمال الفنية و الأدبية، وطريقة تناولها.

وضع المؤلف لكتابه الحالي ملاحظات توضيحية، اعتمد في الإشارة إليها الترقيم، وقد حافظت على ذلك، إلا أنني أضفت ملاحظات لتوضيح بعض العبارات والتعبيرات في الترجمة، وملاحظات أخرى - وهي نادرة جداً - للتعريف ببعض ما ذكره الكاتب، وقد اعتمدت في الإشارة إليها علامة (X) تمييزاً لها.

سليم حمدان

تقديم

تفجير استنباط خلفي* جائم على قرون المعضلة

مع أن هذا الكتاب قد يغلي ويبقى بالأفعال القذرة للسحرة المحدثين، بيضاً وسوداً، بالمشعوذين، بالرقى، بمصاصي الدماء البشر على الريفيرا، الرجال الفهود في أفريقيا والشيطنيين في باريس، عبدة الشيطان في نيويورك، المستذنبين في ميدان واشنطن، العلاجات السحرية ووقائع القتل الواقعة سنة ١٩٤٠ في الولايات المتحدة، إلا أنه سيكون مخيباً لآمال من يؤمنون بما فوق الطبيعي.

إنني أوجهه إلى الناس العقلانيين فقط.

سببين لهم- إن استطعت- أن السحر، في الوقت الذي هو غير شيطاني، قوة خطيرة، شريرة عندما تستعمل للشر، غامضة في بعض تجلياتها، ولكنها قابلة للتحليل دائماً، قابلة للفهم دائماً ضمن حدود العقل، وخلافية بالنتيجة، كالجريمة، عضة الأفعى، الجنون، والحمى الصفراء.

لقد كتبت آلاف الكتب، والتواريخ، والبحوث في عصر الخرافة، للبرهنة على أن هذه الأفعى المميّنة كانت تنيئاً. كما كتبت آلاف المجلدات في عصرنا عما يسمى السبب للبرهان على أنه ما دامت الأفعى تنيئاً، فهي بالنتيجة لا تستطيع أن تعضك. إنني منكر ثابت للثنين، ولكنني منكر أيضاً للاستنباطات الخلفية.

لقد فقدت مع الزمن الحيرة، وتجاوزت- أيضاً- موقف الرغبة والتعجب الرومانسي الذي ميز كتبي الأسبق.

لم تكن قط موقف سذاجة خرافية، لم أحاول قط أن أدعها تتدخل بالنقل النزيه والموضوعي- إن كان في بعض الأحيان مثيراً جداً.

* - استنباط (استنتاج) لا يتفق مع المقدمة المنطقية .

ولقد كانت حيرتي صادقة تماماً تركت عدة أسئلة تتعلق بحدود السحر مفتوحة على نحو واسع، لأنني لا أعرف الأجوبة، وكتمت عدة أحداث لأن معالجتها كانت ستبدو في غير محلها في كتب السياحة والمغامرة. إن السياحة والمغامرة موضوع سطحي ظاهري، وكانت الكتب كتباً سطحية. لم أكن أعرف، لمدة طويلة، ما يجب عمله بالمادة التي تحت السطح. ولم تساعدني المحاورات مع الدكتور ألكسي كاريل بعد أن عدت من أفريقيا مرتين.

انه يعتقد أن السحر الأبيض (LOURDES)، والأسود أيضاً، يمكن أن يسيطر على قوة فوق ما هو عضوي- بما في ذلك إيقاع جروح فاعرة وشفافها- تقترب كثيراً بالتعريف الاعتيادي من حافة ما فوق الطبيعي. لم يسبق قط أن رأيت شيئاً يؤكد سذاجة البيولوجي العظيمة. وعلمت، بعد عشر سنوات من الحدث، أن "فتياتي السوداوات الصغيرات المطعونات بالسيوف" كن إما زائفات أو ضحايا لجرائم قتل طقوسية بالغة القبح.

عندما ترى ظواهر من هذا النوع إجرامية أو غير مؤذية، سواء في أفريقيا أو الهند، في جلسة استحضار أرواح أو في عرض جانبي في (جزيرة كوني)، فهي دائماً إما أن تكون جريمة احتيال، أو توهم بريء. إن السيدة التي تنشر إلى قطعتين في جزيرة كوني، وحيلة الحبل في الهند، تخرجان من قبعة الأرانب نفسها، وأرجو أن تكون فتياتي الصغيرات كذلك.

وعلى رغم ذلك كله، فقد تم تثبيتي لسنوات على قرون معضلة أحاول الآن أن أحلها في هذا الكتاب. كانت تلك القرنين الوحيدتين اللذين عدت بهما من أفريقيا، ولقد تمثيت عدة مرات لو أنني كنت تركتهما هناك. إنهما ليسا لطيفين للعيش معهما. ها هي ذي المعضلة التي نشأ عنها هذا المؤلف ببطء:

بوصفي منكرأ مؤكداً لما فوق الطبيعي- إذ أرفض الإيمان بالعفاريت، آلهة الغابات والشياطين، وإذ أرفض- لهذا السبب- حتى الإيمان بالروحانيات، التخاطر، الاستبصار أو الأشباح- فقد اقتنعت، مع ذلك، بعد سنوات في الغابات، بأن الأطباء السحرة يمارسون ما هو، في الظاهر، قوة "خفية"، مميتة، خطيرة وحقيقية. وإذا أخذت أكثر التجليات شيوعاً باعتبارها مثلاً، اقتنعت بأن بمقدورهم أن يقتلوا باستخدام السحر

وحده، أي بالسحر الخالص، من دون اللجوء إلى السم، الحوادث المفتعلة، أو العنف أو أي وسائل مساعدة كيمياوية- فيزيائية مهما كانت.

لقد عشت متعاملاً بحذر مع المشعوذين الذين يمتلكون هذه القوة ويستخدمونها، والذين أعطوني أخيراً، فيما أعتقد، قدراً كاملاً من ثقتهم بالحجم الذي سبق لأي مواطن محلي أن منحني إياه، ولكن فيما كانوا يكشفون فهم الخفي في بعض الأحيان، كانوا عاجزين تماماً عن إلقاء أي ضوء على ما كان، بالنسبة لي، المشكلة الحاسمة، لأنهم هم أنفسهم يعتقدون على نحو راسخ بالمنايع فوق الطبيعية لقوتهم التي يمارسون، ويؤمنون بقناعة عميقة بآلهتهم العفريتية من الغابة القديمة.

ثمة محتالون، مخادعون، ودجالون بين أطباء السحر الأفارقة، كما بين الدكاترة في نيويورك ولندن. إنني أكتب هنا عن المخلصين والحقيقيين منهم.

كنت متأكداً بأنهم كانوا مخطئين تماماً في اعتقادهم، ولكنهم على درجة التأكد ذاتها- كانوا يمتلكون قوة من نوع ما. وكانوا يمتلكون أيضاً معرفة عملية بكيفية التصويب، التركيز، واستخدامها بكفاءة محيرة. لم يكن يسيراً علي أن أصالح هذين العنصرين:

١- التوهم عند المشغل فيما يتعلق بطبيعة أدواته أو سلاحه.

٢- الكفاءة العملية في استخدامها.

ولكي أوضح هذه النقطة الأولية لنفسني، ابتكرت قياساً تمثيلاً أرغب في الوقوف عنده. إنني أدعوه "قياس البندقية التمثيلي"، وهذا هو:

أرجوكم أن تتصوروا رجلاً مفترضاً، متوحشاً لو شتم، عنده ذكاء طبيعي حاد، ولكنه جاهل تماماً بالبارود، المتفجرات، المقذوفات، والأسلحة النارية. إنه يراها تستعمل. يراها عن كثب. يدرسها مع الجهل بطبيعتها الأساسية، ولكن بعينين حادتين، لا غبيتين. وهو يحصل بالتالي على ملكيتها، معبأة. إنه لا يدري بم هي معبأة، ولكنه يعرف عملياً أنك لو أطلقت زر الأمان، وصويتها نحو ضحيتك المنوية، وسحبت الزناد، فستحصل على ضجة عالية، ومضة نار، هبة من الدخان، بينما يتمدد الضحية ذواً، وعلى رأسه مفجر، أو بثقب في بطنه. الآن، صاغ هذا المسلح نظرية

خاطئة. انه يعتقد، بقناعة راسخة، أن ما قتل ضحيته هو الضجة العالية، ومض النار وهبة الدخان. إنه مخطيء بشكل خرافي بشأن القوة التي استخدمها، ولكنه تعلم أن يستخدمها بكفاءة ممتدة.

هنا، فيما اعتقد، ثمة توازٍ مع سيكولوجيا طبيب السحر الحقيقي، المشعوذ الحقيقي، والساحر الحقيقي.

إذا ما سلمت بالموازي، فأنا واثق من أنك ستحمل القياس التمثيلي خطوة أبعد. إنني أقترح عليك. في حالتي مسلحي الافتراض وطبيب السحر، أن الضحية ميت والمشلل مجرم كما لو أن أي جهل أو خرافة لم يربط بالموت.

إن التوهم فيما يتعلق بطبيعة القوة لا يهبط، بالضرورة، بالقوة إلى لا شيء، أو يجعلها غير مؤذية كما أنه لا يجعل المشعوذ أو الساحرة فقيراً، أو روحاً مضللة يتم التمسك أو الشفقة عليها، أو تبرأ لأنها، أو لأنه، لم تفعل غير أن غرزت إبراً في دمية بدل أن تغرز سكيناً في حوصلة الجار.

إن الساحر الحقيقي في التاريخ، كالساحر اليوم، ليس - ولم يكن - الضحية الجديرة بالشفقة المضللة لخرافة جوفاء. إن حقيقة كون العديد من النسوة البرينات، المسنات، والشابات - على نحو اقل - قد أدنَّ خطأ وأحرقن على الخازوق، هي الحقيقة الجانبية المأساوية التي حظيت بأكبر تأكيد في التاريخ، ولكنها ليست الحقيقة كاملة عن السحر.

إن كل البدائين وأكثر من نصف البشر البيض المتعلمين في العالم اليوم يؤمنون بالسحر، وما من مقدار من العقلنة الكاذبة ولا نشر التعليم الأعلى يمكن أن يزعزعا ذلك الاعتقاد، لأن السحرة ما زالوا يعيشون، يعملون، يساعدون، يؤذون، يعالجون، ويقتلون من دون اللجوء إلى وسائل مقبولة علمياً للعلاج أو القتل. إن هذه الأغلبية المؤمنة محقة في الاعتقاد بأن السحرة يستخدمون قوة حقيقية، ولكنها مخطئة في افتراض أنها فوق طبيعية.

إنني أقترح البرهان على أن السحر صورة هي، ببساطة، معتمة، مقلوبة مسكوكة مألوفة صارت عملة شائعة في الحقول اليومية للسايكولوجيا والتعليم، ولا سيما في الحقول المتخصصة التي تكاد تكون اليوم على الدرجة عينها من المألوفية

للسايكولوجيا الطبية، وطب الأطفال والعلاج الذهني^١. إنني أنوي البرهان على أن "الاقتراح" الخالص والبسيط مفتاح أساس لقوة السحر، واعتقد أن بمقدوري أن أقدم تعريفه الكامل بثلاث كلمات بسيطة: **اقتراح ذاتي محدث**

إنني استخدم هذه الكلمات بمداولها الأبسط وليس الفني جداً. لا أقصد بالـ "اقتراح" أكثر من أن الناس إن واصلوا إخبارك بأنك عصبي فمن الممكن أن تصير كذلك، حتى إذا لم يكن لديك ميل متأصل بذلك الاتجاه. وبصفة "محدث" لا أعني أكثر من أن جراثيم الاقتراح قد زرعت عمداً فيك من مصادر خارجية.

وأقصد بالـ "ذاتي" أن الاقتراح قد تجذر وأنت تبدأ في توليد همومك ومخاوفك- إن الاقتراح الذي زرع من الخارج يبدأ "بتأكلك". إنني لا أعني شيئاً مأكراً، مرتبطاً بالتنويم المغناطيسي أو لا تفهمه إلا فئة قليلة. أعني أنك تستطيع أن تأخذ أي شخص طبيعي متوازن عقلياً وجسدياً- طفلاً، أو راشداً- في بيتك بالذات، أو في بيت جارك. واصل إخباره بأنه أخرق، وواصل التركيز على هذا القول. سيقوم حالياً بتوتير السهم على شيء ما بمصادفة محض، كما نفعل جميعاً بين آونة وأخرى. استفد الآن من الحادث. واصل التركيز وستبقيه أخرق طيلة حياته. واصل السؤال عما يقدميه، واصل النق بشأن ذلك- وسيبدأ الآن يتعثر. واصل إخباره بأنه مريض، واصل قول ذلك، وسيبدأ الآن بالإحساس على نحو مخيف ينام، يراجع الطبيب. إن الجزازة من الأوصاف النمطية، التكنيك والأدوات هي جوهر "السحر الأسود". إنه الجانب القذر والصورة المعكوسة لكل علاج ذهني، سواء في عيادات المستشفيات أو كنائس العلم المسيحي. والآن، غلف الاقتراح الذاتي المحدث بالتكنيك الخرافي وأدوات الغابة، أو التقليد الشيطاني للعصور الوسطى. خز الدمية بالإبر، ادفن خصلة الشعر، انبح بالعزائم ورتلها. اقرع الطبول.

إن للقرع والتعزيم زخماً عاطفياً رهيباً. والطبول جوهرية كما هو نبضك وضربات قلبك. وللعزائم، لدى تحليلها، البساطة التكرارية والدعوة العاطفية المباشرة لأدب

١ - انظر الملحق ص ٢٦٨ .

ستويل، كيرترود ستاين و - وزة. تنبثق مرحلة الحضانة عن المجيم. عندما تضيف الخرافة، الخوف، والأدوات الكريهة- تكون قد شرحت اللعنة التي حلت بالسيدة شالوت. لقد شرحت لماذا كانت عمليات قتل الساحرات الممارسات في بنسلفانيا على أيدي الضحايا المنويين قتلاً مشروعاً للدفاع عن النفس. في أفريقيا، تكون قد فسرت لعنة الموت الـ "اووانغا" العظيمة.

لو كانت نظرتي هذه صحيحة، فالسحر لا يقدم إلا في العقل والعواطف، يمكننا أن نبدأ على الفور في تحديد قوى السحر، وتأمل عدد من النتائج الطبيعية المفروضة التي اقترح تقديمها واختبارها:

١- يجب أن يعرف الضحية، أعني: يجب أن يكون قد أعلم حرفياً بما يجري ضده.
٢- يجب أن يخشاه. يجب أن يكون، في وقت ما، خائفاً منه، إما عن وعي أو من دون وعي. كنت أعتقد زمناً أنه، إن تماسكت نظرتي، يجب أن يكون له خوف واعٍ. ولقد تعلمت منذئذ، لا من أطباء السحر بل من الدكاترة أ. أ. بريل، سميث إلي جليفة، وإجماع زملائهم، أن الغياب الواعي والمعتقل للخوف لا يخلق، بالضرورة، مناعة. إن الضحية المنوي قد يكون مسلحاً بمعتقد، تحد، استهانة، ثقافية، ضد هذر طبيب السحر، ولكن إن كان ثمة راسب من الخوف غير الواعي أو ما دون الواعي، فهو قد يموت على نحو حتى أسرع من الضحية الذي يكون خوفه على السطح.
إن هذه فكرة غير بهيجة، ولقد أحسست بالأسف حين عرفت هذا. لم أتمكن قط من التأكد من صحة حالة تكون المعرفة فيها- من جانب الضحية- غير موجودة، ولكنني عرفت عدداً من الحالات التي بدا فيها الضحية غير مؤمن بالخرافات، وبدا أنه لا يحس خوفاً واعياً- ومع ذلك فقد خضع لأطباء السحر.

٣- والنتيجة الطبيعية الواضحة الثالثة هي لو أن السحر الحقيقي يجري عبر الذهن والعواطف، فهو لا يمكن أن يعمل إلا وظيفياً، ولا يمكن أن يعمل إلا على كائنات نشطة وواعية. إنني مقتنع بأن هذا صحيح. إنني مقتنع بأنه ليس كل السحر، في أفريقيا أو ذلك الذي وجد في أي وقت في مصر أو أوروبا العصور الوسطى، يمكنه أن يحرك أصغر حصاة أو يحطم أرق زجاج- من دون اللجوء إلى "سحر المسرح"، إلى الحيلة، خفة اليد، دعامات المسرح، والوهم. لا يمكنه أن يكسر بيضة أو أكثر كؤوس النبيذ هشاشة- فكيف بإسقاط جدران صخرية أو فتح الأقفال- كما لا يمكنه شعب

بيضة مكسورة أيضاً. لا يمكنه أن يسقط كائناً سحرياً عن الجدار، ولا يمكنه أن يعيد تجميعه ثانية.

لو كان الكائن السحري بيضة، فليس بمقدور السحر حتى أن يجعلها تتدرج. لو كان الكائن السحري ذا حس، لكان بمقدور السحر أن يجعله يسقط عن الجدار وربما يكسر عنقه- ولكن ذلك حقل مختلف تماماً من القوة في الحقل المادي من "سحر المسرح"، لا أعتقد أنه كان ثمة، أو سيكون ثمة، ساحر غابة أو فقير هندي قادر على فعل شيء لم يكن بمقدور المرحوم هو ديني أو جون مولهولاند المعاصر أن يستنسخه. أما فيما يتعلق بالنقر الخفيف على المائدة، والظواهر الفيزيائية- الميكانيكية الأخرى التي تقع في جلسات تحضير الأرواح، فأعتقد- كما كان هو ديني يفعل وكما يفعل مولهولاند- أن لها جميعاً أصلاً فيزيائياً- ميكانيكياً.

عند تجريد السحر من حالته فوق الطبيعية، ومحاولة تحليله، ومحاولة رسم حدوده، أدرك أن أحد هذه الحدود التي أفترض أنها تقوم عبر هذا الكتاب يجب تعديلها، إذا ما نجح، وعندما ينجح البروفسور جي. بي. راين في جامعة ديوك (الذي تبع وليام ماك دوغال من جامعات اوكسفورد وهارفارد وديوك) وكاردنر مورفي في كولومبيا، في إثبات وجود الإدراك فائق الحسية، التخاطر والاستبصار. إن عملهم المختبري، الذي لم يشمل بعد كل زملائهم علماء النفس، قد رفع- إلى حقل العلم من حقل الخرافة وحجرات المستبصرين في المعارض الريفية- إمكان دخول المفهوم عبر وسائل معينة. من بين الحواس الخمس. لو كان هذا حقيقياً فسيفتح مشهداً صانعاً للتاريخ للناس الشرفاء، ولكنه سيفتح في الوقت نفسه الإمكان الخفي الذي يمتلكه الساحر، وربما كان امتلكه دوماً، قوة الإطلاق الفعال لتعاويذه الشريرة، حتى على بعد كبير، من دون المعرفة الواعية للضحية المنوية. لو أن ثمة شيئاً أعمق، أخطر، أكثر غموضاً في السحر مما أنا مستعد للاعتراف به، فهو ينبثق من مفهوم فائق الحساسية أكثر مما هو ينبثق عن الشياطين والأرواح والأشباح والعرافيت. من أجل التنافس إنها تنبثق مما هو فوق طبيعي يعود، ببساطة، إلى عقل طفل الحضانة، العقل الغابي البدائي، العقل الأوروبي المسكون بالخرافات في العصور المظلمة. لو كان ثمة شيء أعمق مما أنا فيه، يستقر في الحقل الذي ما زال غير مبرهن عليه الذي يقوم راين باستطلاعه.

لو كانت قوة بالغة الحساسية موجودة وكان أي امرئ يمتلكها، فمن الأكيد أن أولئك الذين أعلنوا أنفسهم مالكين خصوصيين لها وأحدثوا- بين أوان وآخر- بقعاً مستديمة في تاريخ العالم للطبيب والشرير لما يقرب من عشرة آلاف سنة، بمن في ذلك المشتغلون بالروحانيات، "المكشوف عنهم الحجاب"، والمعالجون بالإيمان، ولكن الذين يشملون أيضاً الشيطانيين و"قاتلي الإيمان" الذين كانوا يستخدمونه منذ مطلع التاريخ، والذين ينبغي لهم أن يعرفوا أكثر عنها حدساً وعملياً مما عرفه حتى الآن العلماء النزيهون والمختبرات النزيهة.

زرت مختبرات البروفسور راين في جامعة ديوك، وناقشت هذه النتيجة الطبيعية الباعثة على القلق لأطروحتهم الرئيسة، معه ومع زملائه. لقد اتفقنا على أن القوى فوق الاعتيادية، إن كانت موجودة حقاً، يمكن، كما هو واضح، استخدامها- وبالطريقة نفسها باعتبارها قوى اعتيادية مثل القدرة التنفيذية العليا، المتفجرات العليا، الكهرباء، والراديو- من أجل الخير والشر معاً. إنه لتأكيد مثير، ولكنه غير سار، على أن أوراق البروفسور راين الباردة المعلمة بالنجوم والدوائر يمكن أن تبعث أي فيض، مهما كان، يمكن أن تلتقطه أية وسائل مهما كانت غير الحواس الخمس الطبيعية- ثم دمية تخزينها الإبر يمكن أن ترسل خيوطاً أيضاً.

إن هذه الزاوية الجانبية، هذه المسألة الجانبية، مسألة مفتوحة على سعتها- سواء إذا كانت تمس علاج الإيمان وقتل السحر. القراءة العمياء لأوراق اللعب المعلمة في اختبارات المختبر، أو تحذير عمك شارلي المسبق منان زوجته ستدوسها شاحنة.

لقد رأيت أموراً تقع بين السحرة وأطباء السحر هي أكثر تحييراً وإقناعاً ظاهرياً من أي شيء رآه عمك شارلي بالهاجس القبلي، أو من أي نتيجة يتم الحصول عليها في أي مختبر. ومع ذلك، فأنا أبقى على الجانب السلبي. إنني فقط لا أؤمن بها. وعلى أي حال، سأكون عادلاً بشأنها كما يمكن لرجل عنده مجموعة أطروحات في تاريخ الأحداث التي وقعت خارج كل سيطرة مختبرية- خارج إمكان الفحص العلمي.

راينبيك، ١٩٤٠.

الكاتب

القسم الأول

الساحرة ودميتها

١ - عن الدمى بشكل عام

أحرزت الدمى - المنتجات عديمة الروح والعديمة الحياة، جوهرياً، للكائنات البشرية الحية، وللآلهة أيضاً، والجن، والحيوانات - جاذبية غريبة وليست دائماً مأمونة الكائنات البشرية من الشباب والمسنين، من المهد إلى اللحد.

في الطفولة، تكون عادة دمي من خرق، رؤوسها من الصيني، أو دمي محشوة بنشارة الخشب. في فترة الحضانه، تصير أكثر اتقاناً وتشمل الآن دمي تصيح "ماما" أو "بابا"، وتبلل حضائنها وهي تشمل أيضاً دمي صغيرة ممتلئة الأجسام، اراجوزات، أقزام خرافية، رعاة مع خرافهم تحت شجرة عيد الميلاد، وكل الحيوانات الخشب التي تخرج من فلك نوح. ودمي توني سارغ هي متعة الطفل الأولى والأعظم في عالم المسرح الوهمي. إن دمي الطفولة هذه جميعاً هي لعب. إنها تصنع وتباع باعتبارها لعباً. وعندما نكون أطفالاً نلعب بها.

ولكن، بعد أن نكون كبارنا وبلغنا السن المفترضة للعقل، نختلف - نحن المدعوين بيضاً وكذلك متوحشي الغابات - فئة جديدة تماماً من الدمى، وماذا نفعل بها؟ إننا، عادة، نعبدها، نقبل أصابع أقدامها البرونزية، نحرقها بوصفها تماثيل، نزينها بمجوهرات براقه، ونسافر آلاف الأميال كي نركع أمامها، نركبها السكك الحديدية، نضربها بالهراوات، نطلق عليها النار، نشنقها - نباركها ونقدسها في الكاتدرائيات إذا كانت عبادتها الآن شعبية - نشنقها بدون محاكمة إن كانت "عبادتها" تخشى الآن أو تكره - ننق ملابسين الدولارات ونحتفظ بها في المتاحف إن كانت عبادتها ميتة. إن رد الفعل العاطفي للراشدين تجاه الدمى ليس محدوداً على الدوام بأي شكل،

١ - انظر الملحق . على ص ٢٧٤ .

بالعبادة والعنف. إن واجهات المخازن في الجادة الخامسة تحوي من الدمى، والمانيكانات، والصور الجقية بقدر ما تحوي كنيسة القديس توماس أو كاتدرائية القديس باتريك- وهي تستثير الإعجاب، المسد، الغيرة وما شابه لدى السيدات. إن شارلي مكارثي يسمعه أسبوعياً جمهور بسعة أولئك الذين يستمعون عندما يتحدث قداسة البابا من الفاتيكان. إن الدمى- التي تلزم صمتاً ثابتاً، كما يفعل القديس بيتر عندما تقبل الحشود إصبع رجله في روما، أو سيدة حبلنا غير المدنس عندما تزور الحشود مغارتها، في (الوردس)- تمارس أصلاً قوة هائلة على عينة جامعة التمثيل للإنسانية الراقية. ولكن عندما تقنع، أيها البروفسور، دمية بأن تتكلم، سواء في استوديو إذاعي أو في معبد، تكون عندئذ قد حصلت على شيء ما! سواء أكنت ادغلر بيرغن في هوليود أو كاهن ممنون المصري ذاك الذي تعود أن يجعل تمثاله ينعب عند شروق الشمس، فإنك ستبلغ مستمعين أكثر ويتم تذكرك أطول مما لو كنت قلتها بلسانك البسيط- أو مع زهور.

لقد أثارت الدمى من كل نوع وحجم، دائماً، البشرية- دمي الخرق، القديسون الجقيون، والأصنام البرونزية، الصور على البرونز، على الخشب، وعلى الرخام، الدمى الصغيرة السمينة، دببة "تيدي"، المادونات، والقديسون جوزف، جويتر وفينوس، مامون، ممنون، فيشنو، بعل، وبوذا، والدمى المزينة حسب الزي الرائج في الواجهات والقوى الماحقة المرشوشة بالدم على العجلات، الشيطانية بشكل مقدس أو السخيفة، من المسيح الخشب على الصليب لدوناتلو إلى الدمية المتكلمة من البطن المصنوعة من الخشب على ركبة صاحبها.

كنت "مقتنياً" وذواقة لنمط معين من الدمى طيلة سنوات- ذلك النوع الذي يصنع في السر، ثم يخرق بالإبر، أو يجرح دائرياً بخيط الموت الأحمر، أو تصنع من شمع لتذوب أمام نار. وإنني اقترح أن أتحدث عنها جميعاً في هذا الكتاب.

لقد "جمعت" منها أكثر مما يبدو قابلاً للتصديق، أو أعرف عنها أكثر مما يبدو جديراً بالاحترام، ذلك أنها ترتبط بالموضوع الأبعد عن الاحترام الذي كان موضع اهتمامي ومستحوذاً على ذهني طيلة حياتي.

لو أنني أعزو لهذه الدمى الشريرة قوة لعمل الشر أكبر مما ترغب أنت في

تصديقها ، فإنني اطلب إليك أن تتذكر بأنني لن أؤكد أبدا بأنها أكثر من مجرد رموز. وإنني أطلب إليك أيضا أن تتذكر القوة غير القابلة للحسبان التي تمارسها الرموز- الدمى المقدسة في حقل الدين. إنني لا أنوي أي تجديف في هذا القياس التمثيلي، ولا حتى أي ظل من الخط من قدر الدين إنني أعتبر الدين، باحترام مكني، الوجه اللامع والبراق للمسكوكة التي أنوي كشف وفحص صورتها الظهيرة الشريرة.

٢- دمية الساحرة ومقارنها

في أغلب الحالات التي يخطط فيها السحر لتدمير حياة إنسانية، ولفعل ذلك بالسحر الحقيقي، أي من دون اللجوء إلى سكين أو مسدس أو أي من وسائل القتل الاعتيادية، تستخدم دمية أو مقارن دمية. يمكن أن تبدأ بأن تكون أية دمية اعتيادية كتلك التي لا يزال يلعب بها الأطفال في جميع أنحاء العالم كما كانوا يفعلون منذ فجر الحضارة المصرية المبكر. فيما هي رمز طفولي قديم، يمكن أن تكون معبأة بشر على الدرجة ذاتها من القدم. ويأتي ذكر هذه الدمي، التي هي عموماً موهوذة بالمسامير أو الإبر، أو مصنوعة من الشمع كي تذوب أمام النار، أو ملفوفة بخيط صوف، قرمزي باستمرار في سجلات وآداب السحر في العصور الكلاسيكية وخلال العصور الوسطى. ويرد ذكرها، أو ذكر مقارنها، اليوم في كل حالات ما يدعى بالسحر "البداي" تقريباً، سواء في أفريقيا أو جزر بحر الجنوب. وهي تذكر أيضاً على نحو ثابت هنا في ولاياتنا المتحدة ذاتها وفي كل البلدان المتحضرة الأخرى.

في الصيف الماضي نشرت مجلة لايف في عددها الصادر يوم ١٩ حزيران ١٩٣٩ سلسلة من صور جبل اوزارك التقطها د. ف. فوكس وعلق عليها فانس راندولف من غالينا، ميسوري. تظهر الأولى "امرأة- ساحرة" من اوزارك ومعها دمية من القاذورات وشمع الدبابير صنعتها وسمتها باسم عدو.

وتعرض مسامير مغروزة في الدمية لـ "إيذاء" الأجزاء المقابلة من جسد العدو. إنها ليست صورة جميلة، وإن حقيقة كون أهالي ميسوري من غير المؤمنين

بالخرافات قد احتجوا على نشرها على أساس أنهم قد عاشوا هناك طيلة حياتهم ولم يروا قط دمية مثل تلك لا يحو الصورة، التي تبعها في العدد نفسه من مجلة لايف صورة كرهية لدميتين من خرق كسيت إحداها بملابس الرجال والأخرى بملابس النساء، وقد انطرح على وجهها على مذبح أمام النجيل تعلوه جمجمة.

على مقربة من سانت ريميه، في جنوبي فرنسا، ساعدت سنة ١٩٣٢ على تحطيم تركيب مشابه يعلو الإنجيل فيه صليب مقلوب يتدلى منه وزغ مصلوب ورأسه إلى أدنى. في تلك الحال، تنطرح دمية مملوءة بالخزات وتغطيها الإبر، ملوثة بدم الوزغ، وقد نوي القتل.

في صورة الاوزاراك، نجد الأنثى من الدميتين موخوزة بالمسامير في ظهرها. وينص التعليق، المكتوب بحذر، على "... مدردمة بتعاويز سرية، تأمل زوجة غيورة في أن تفصل زوجها عن امرأة أخرى. تمثل الدميتان الشنائي الخائن". التأكيد مني. في التعليق تحت الصورة الاوزاراكية الأولى، توصف المسامير بأنها مغروزة لـ ("إيذاء" الأجزاء المقابلة من جسد العدو).

لا أدري ما الذي فكر السيدان فوكس ورائدولف أنهما يلعبان به. ربما كانا اقنعا امرأة عجوزاً ما لتربهما كيف تقوم أمور من هذا النوع، ولكن الصورة تفوح أساساً برائحة القتل.

في آب ١٩٣٩، من (القاهرة) في (إيلينوس)، كتب "بن لوسيان بورمان"، الذي كان يدرس الفولكلور بوساطة عمال غير مهرة على زورق بخاري على نهر الميسيسيبي اسمه العقاب الذهب"، مقالة نشرت في عدة صحف في آن واحد، روى في مجراها فناً يستخدم فيه تصوير الضحية المنوي بديلاً عن الدمية

من الطرق الأكيدة لقتل إنسان وضع صورته تحت الأفاريز عند زاوية بيتك أثناء جو ماطر وترك الماء ينصب عليها".

في آب وأيلول ١٩٣٩، كرست "اوماها ايفنتك وورلدهيرالد" أعمدة وصوراً لحالة سحر كان بديل الدمية المزعومة "قطعة كبيرة من العظم عليها بعض اللحم، مدفونة تحت نافذة الضحية المنوي.

وهذا تنويع شاهده في أفريقيا أيضاً، ولكن بندرة.

إن لحالة الأوماها بعض الأوجه الغربية، بما فيها جلسة دينية في قاعة كنيسة سو كول الكاثوليكية، حضرتها الصحافة، وحضرتها الشرطة أيضا على نحو غير رسمي، اتهم فيها "الغيو لافيرلا"، رئيس الجمعية الإيطالية-الأميركية المسماة "ريسفليو"، امرأة بممارسة السحر ضد حماته، السيدة كرازيا ترينو، وبأنها دفنت العظم بتعازيم بحيث تبلى السيدة ترينو وتموت فيما تأكل الديدان اللحم عن العظم".

عرفت السيدة ترينو، في هذه الأثناء، بالمسألة كلها- بالطبع- واعتقدت أنها فعالة، فركبها الخوف حتى اليأس، أصابها مرض شديد، "وأحست بلحمها يذوب متلاشياً". لو أن أطروحتي الرئيسة صحيحة فإنها كانت ستموت بالتأكيد، مقتولة بالتأكيد باقتناع موحى به كما لو كانت مقتولة بالزرنيخ، وما كانت لتبقى حية إلا عن طريق كشف السحر والتعويذة المزعومين للعنات الشريرة. على أية حال، فقد استقرت الريسفليو بكامل جلالها، سمعت التهم والأدلة. التي نهضت أثناءها المتهمة وزعقت منكرة. قرروا أنها مذنبة، ونبذوها من المجتمع. وقد لاحقت الجمعية قضائياً عن الأضرار وطالبت بإعادة الاعتبار. ربما تكون بريئة تماماً.

في جريمة قتل يورك- في بنسلفانيا- التي وقعت بفعل سحر كاهن هندي في تشرين الثاني ١٩٢٨، التي صارت إثارة صحفية على نطاق الأمة، وأعيدت إلى الحياة السنة الماضية بإطلاق سراح الشابين اللذين أدينا بـ "القتل بالسحر"، كان بديل الدمية خصلة شعر كان الطبيب الساحر، جون بلايمير، يحاول أن ينتزعها من رأس الطبيب الخصم نيلسون ريمير. لقد تعاركا كما تذكر، وقتل ريمير لا بالسحر بل بضربه بالهراوات والخنق. وعلى أية حال، لو أن بلايمير تمكن من الحصول على خصلة الشعر، لما كان مارس عنفاً آخر. كان قد خطط على نحو آخر- أن يدفن الشعر على عمق ثمانية أقدام تحت الأرض، بالتعازيم لو كان ريمير قد علم بشأن ذلك وصدقه وخافه لكان مات كما مات بضرب الهراوات. اتهم بلايمير بالتسبب في الموت بفعل السحر المحض "لضحايا آخرين".

إن خصلة الشعر، بديل الدمية، كانت الموضوع المركزي، الدافع المركزي. إنه لتاريخ

مشارك للسر اليوم، كما في الماضي، إنه بالإضافة إلى السحر المحض"، تقع أيضاً باستمرار هذه النتائج الجانبية "للقتل بالفأس، بالهراوة، بالبندقية، بالسكين أو بالزرنخ. إن أعمال القتل من النوع الأخير، بسم طنان لتحصيل التامين، قدمت مانشيتات الصحف أثناء سنة ١٩٣٩ لعمدة تقارير "الاسوشييتد برس" عن عمليات قتل واسعة في (فيلادلفيا). محوكاً باستمرار مع نسيج الجريمة لتلك المأساة ظهرت سداة أو خلفية للسحر الشرير والصحيح، المستخدم هنا للقتل - فقد استخدموا الزرنخ لذلك الغرض - بل لتهديد وإرعاب الأدوات، الضحايا، الأقرباء والجيران.

إن مغفلي حلقة الزرنخ الذين لا يزالون أحياء شهدوا بإسهاب على ذلك. ثمة سكان إيطاليون كثر في فيلادلفيا، وكان ظهور الإيطاليين واسعاً في هذه الصورة، بين مغفلي المتأمرين.

في بعض الأحيان يكون بديل الدمية بين الإيطاليين هو "يد المجد" أو "يد القوة"، التي قد تكون يداً إنسانية فعلية قطعت وجففت متغضنة، أو يداً صغيرة من العاج أو العظم يكون الإبهام والإصبعان الوسطانيتان فيها مضمومة، بينما يتجه البنصر والخنصر إلى الأمام ليكونا قرنين.

وغالباً ما تكون قطعة معدن تعرف بالـ سكين"، ولكن مصطلح سكين هنا مضلل، بما أنها لا تستخدم أبداً للقطع أو باعتبارها سلاحاً.

كان "موريس لولبر" من (فيلادلفيا) - الذي اعترف بأنه مارس السحر وادعى، لكي يتهرب من الكرسي الكهربائي، أنه استخدمه علاجاً لا وسيلة تخريب - سكيناً من هذا النوع. لم يكن معدنها يختلف عن معدن أي سكين يشتريها المرء من أي مخزن يبيع الأشياء بعشرة سنتات للواحدة. كما أن الجص في صورة مقدسة أو المعدن في أيقونة لا يختلف عن جص الجدار أو معدن المسمار. لقد صيرت "مختلفة" في حقلها العاطفي، كقدس جصي وجعلت الأيقونة "مختلفة" في ميادينها العاطفية، بطريقة شبيهة بالتكريس، ولكنها معاكسة لها.

في البدء - كما أعلن "بولبر" - دفنت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في الأرض دفنت الشفرة المفتوحة باتجاه الأسفل لكي تخترق الأرواح رأسها وسطحها الفولاذيين ثم أخرجت من الأرض ووضعت تحت الوسادة وينم فوقها لمدة ثلاث ليالٍ. وفي اليوم

السابع وضعت في جيبي مشربة "بالروح التي ستسيطر على الشياطين، وكانت جاهزة لتكون مساعداً للطبيب الساحر.

لا نحتاج لنؤمن مع "بولبر"، كما زعم، بأنه كان بمقدوره، بالتلويح بها، أن يوقف محركاً أو يخرج عربة ترولي عن مسارها، أكثر مما نحتاج إلى أن نؤمن بأن صورة مقدسة ستوقف جريان الحمم البركانية من فيزوف، ولكن لو أنني كنت محقاً في مسألة ما، ولو كان الجزء المكون للسايكولوجياً الطبية محقاً في تأكده الراهن فيما يتعلق بالشرائط العصبية والذهنية، فبمقدور بولبر أن يشغل، بوقف، يخرج عن السكة، أي: أن يساعد، يؤذي، يمرض أي ساذج يؤمن بقوة بديل هذه الدمية.

أثناء السنوات العشر الفائتة، في العقد ما بين جريمة القتل في سحر يورك وجرائم القتل السحرية في فيلادلفيا، كان ثمة العديد من حالات السحر وقتل السحرة الاميركية. إن هذه الممارسات، الاعتقادات، وأخطارها الملازمة تدوم مثابرة اليوم.

ليس أقل المخاطر الملازمة (مع أن هذا الكتاب لن يعنى مباشرة بها) إن المخاوف والكراهيات التي أنتجها السحر تؤدي أحياناً إلى القتل الصريح اللفظ- الميكانيكي، بالفأس، الزرنخ، الخنق، والقتل بالمسدس، بوصفها نتائج شرطة- محاكم ثانوية للجرائم الأكثر مكرراً ومحاولات الجرائم التي نادراً ما تصل إلى الصحف، لأنها نادراً ما تؤدي إلى اعتقالات إنني أنوي الآن أن أخذكم إلى ما وراء الكواليس، في أفريقي وأميركا، في نيويورك، لندن، باريس، جنوبي فرنسا، وفي باحة منزلي الخلفية أيضاً، وأريكم، خطوة بخطوة، كيف تعمل هذه الدمى أو بدائلها، مع أنها غير مجهزة جوهرياً بأي ميزة فوق طبيعية أو قوة فوق اعتيادية، يمكن استعمالها للشر. لو أنني الآن، في الانكباب على المسامير الصغيرة التي غرزت في الدمى من أجل القتل، أبدو عارفاً أكثر عن هذه الأشياء مما يجوز لأي مغامر أو كاتب أبيض نزيه أن يعرف، وأبدو مالكاً معرفة داخلية لكثير من أسباب الرعب طيلة فترة عدة سنوات في أراض كثيرة بحيث تتجاوز حدود التصديق، فإنني أرجوكم أن تتذكروا أن السحر الأسود كان هاجس حياتي كلها ووهماها. لو كان ثمة شيء في الوراثة لكنت ملوثاً منذ الولادة لقد كان في دم ردي، من زاوية السحر، وقد جاء- كما اليبروح* من أفضل الجذور في شجرة

* نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانكية- المترجم .

عائلتي. إن سلفي الوحيد المميز كان جداً لأجدادي من جهة الأم، هو "الأسقف بيتر بوهلر"، من الكنيسة المورافية، الذي كان صديقاً لـ "ويزلي"*. كان قد ولد في فرانكفورت، ورسمه للكهنة "الكونت زنزدورف"، وأرسل إلى الولايات المتحدة مبشراً. عمل بين الهنود، والزنوج في (جورجيا)، وبين الألمان في (كارولينا الجنوبية)، الذين سافر بعضهم أخيراً إلى بيت لحم. هذا ما يتعلق بأهميته المميزة تقول الانسكلوبيديا العالمية الحديثة، إضافة إلى الحقائق أعلاه، إنه كان فاعلاً في مساعدة التطور الروحاني لآل "ويزلي". وما يضيفه إرث عائلتنا، وما لم يذكر في أي دائرة معارف، هو أن جد أجدادي كان غارقاً حتى أذنيه في السحر الأسود.

بعد تكريسه بقليل "أسقفاً" للكنائس المورافية في أميركا وإنكلترا وإيرلندا وويلز"، أو شك القادة في الأسقفية الويلزية أن ينجحوا في خلعه وقد دافع السيد العجوز باقتدار عن نفسه بالاعتراف بأنه منغمس في السحر، ولكنه زعم بأنه كان يفعل ذلك كله من أجل مجد الرب، ساعياً إلى "محاربة الشيطان بناره الخاصة".

وقد جرت رواية حكايات، تجعل الشعر يقف، عنه في طفولتي، في غيتسبورغ، ولا أستطيع أن أتذكر - سواء اخترت أن تعزو ذلك إلى الوراثة أو إلى ما يدعوه جون واتسون" بالتكييف الطفولي المبكر السلوكي، في أي وقت لم يكن لدي حب استطلاع متمكن مني عن هذه الأمور الممنوعة. وقد أرسلتني هذه الأمور أخيراً إلى مذابح السحرة في هايتي، حيث قبلني القسس باعتباري واحداً منهم وخطوا بصليبهم الدامي على جبیني.

وأرسلتني لاحقاً إلى أفريقيا، وركبني طيلة حياتي. سوف أعرض في فصول متتالية معرفة أساسية، خطرة أحياناً، عن دمي السحر في العمل الواقعي.

أما من أين أبدأ فقد كان مشكلة. وقد قررت أن أبدأ بقتل سحري شمل كل العناصر في اكتمالها المسيطر عليه.

* ثمة اثنان بهذا الاسم، وكان كلاهما قائداً للحركة الميثودية.

٣- دمية ضخمة بشعة هي أفريقيا

أثناء إحدى إقاماتي في أفريقيا، كنت أعيش بمفردي لبضعة أشهر مع عائلة محلية في مدينة كبيرة تعود لقبيلة في منطقة مالنكة، في ريف غابي- جبلي إلى الشمال الشرقي من (بسّام).
كنت أدرس الطقوس الفتيشية*، الاحتفالات والمعتقدات الدينية، ولم أرَ شيئاً، أو لم أرَ إلا القليل من البيض المبعثرين في الإقليم.
كان الموظفون** الفرنسيون، الأكثر قابلية على التحمل من كل الإداريين الاستعماريين، قد سمحوا لي بالاختلاط مع الأطباء السحرة، ومعاشرتهم. بقدر ما أحب. في إحدى الليالي، قال لي أحد أصدقائي السود: "لقد علمناك كل ما نستطيع. سنعيدك إلى الجبال العالية حيث يمكن أن تتعلم المزيد. ثمة "اوغون" عظيم... أحد أساميهِ "ناهاو- دن- با".... وهو يدعى في بعض الأحيان "وورون". إنه رجل قوة، شرب قهار للـ"بنغالي" مثلك، ولو تصادقتما فإن بمقدوره أن يكشف لك المزيد من الغوامض".
وأعطوني أسماء وخرائط وحمالين ورسائل أخرى.

* المنسوبة للفتيش . أو المتعلقة به .

** بالفرنسية في الأصل . للدلالة على أن المقصود هم موظفو الإدارة الاستعمارية للبلاد .

١ - لم تعد الرسائل نادرة بين أطباء السحر الأفارقة . إنهم يكتبون عادة بالمالكية أو البامبارية . مستخدمين خطأً عربي الصوت . وفي بعض الأحيان رسماً لأصوات حروف لغتهم برسم فرنسي .
عرفت طبيباً- ساحراً كان يضفر أسنان فهد في شعره . كان عنده قلم جبر ويستعمله . وكان لأخر موسى مأمونة . يرسل إلى مسافة ثلاثمائة ميل ليشتري شفرات جديدة لها . وعرفت آخر يصنع باروده الخاص . وأكثر من ذلك ، فإن واحداً آخر كان يتسلق بفونوغراف ألماني قديم بوقه من صفيح أخضر . وكان يحب بشكل خاص تسجيلاً قديماً لـ "جونني" ، تؤديها مارلين ديتريش .

قبل أن أفارق أصدقائي "المالكنين" صعدت إلى المجمع الإداري، فوجدت السيد "لوريك" في البيت. شكرت له لطفه، الذي لم يكن أقله تركه إياي اختلط من دون تجسس مع الفيتيشيين المحليين، وأخبرته أنني متجه، بإذنه لو سمح، إلى ارتفاع مئة ميل أخرى أو أكثر في الغابة. طلب مني البقاء على العشاء وأثناء الأمسية قال، فيما كنا نتحدث عن الإقليم الذي خططت لزيارته:

"كنا واجهنا بعض المشكلات الأخيرة من هناك، قام بها رجل أبيض كان في السجن قبل مدة طويلة، في موطنه.... ذلك الصياد التجاري اللعين، "البرشت تيلييه". إن عنده جواز سفر بلجيكيًا، ولقد وجدتي في ورطة أكثر من مرة عما أفعل بشأنه". قلت:

"أدري. لقد قابلته بضع مرات. ماذا جرى؟". فأجاب "لوريك":
"المسألة القديمة عينها. في الظاهر، إنه استخدم مثتي "يا فويا" - كل السكان الذكور في القرى الثلاث- كي يذهبوا معه سعيًا وراء العاج والجلود، وعجز في نهاية الصيد عن أن يدفع لهم. إن جميع اجازاته نظامية، وعنده بعض التجار جنوباً على الساحل يدعمونه، ولكن لو لم تكن محاكمة رجل أبيض علناً، مع حشد من المتوحشين النابحين بوصفهم الشهود الوحيدين على الوقائع، سياسة سيئة لكنت وضعته في السجن منذ زمن بعيد. لقد عاد إلى هنا، كما قيل لي، قائلاً أن الأمر جرى بطريقة معاكسة، وإن اليافويا خرقوا عقدهم.... وتخلوا عنه".
"من الذي يقول الحقيقة؟".

"إننا نعرف من يقول الحقيقة! لقد جرى ذلك أربع مرات أو خمساً. لقد عجز عن الدفع في أكثر من رحلة، كما أن بعض الرجال لم يعودوا إلى عوائلهم قط".
فقلت:

"إنني لمندesh لماذا لم يطلقوا عليه النار "خطأ" بإحدى بنادقه". فقال لوريك:
"سيفعلون ذلك مستقبلاً. على نحو غير رسمي، لن ألومهم، ولكنني - رسمياً- يجب أن أشنق بعض الرؤساء، ربما الخطأ، وهم يعرفون ذلك. إنه لصعب على المحليين عندما يستغلهم أبيض منحرف، لأن الإجراء القانوني والانتقام الشخصي صعبان جداً كلاهما".

ولقد مضيت، وسرعان ما نسيت أمر البرشت تبلييه، الذي لم أعرفه إلا قليلاً، والذي كان سوء معاملته للسكان المحليين قصة قديمة في المنطقة.

كان الـ "أوغون" "ناهاو- دن-با"، الذي كان اسمه الآخر "وورون"، قد هياً- وقد أخبر بمجيئي- جناحاً من بيت الضيوف في مجمعه الخاص. كان مغشى بالقش- طين، ترابي الأرضية، نظيفاً مريحاً، وله فيرنده فسيحة يمكنني أن استخدمها رواق نوم. وكان مخططاً أن تقوم خادمتان جميلتان وامرأة عجوز، وجميعهن ساحرات متدربات، بتدبير المنزل والطبخ لي. وربما أيضاً ليتجسسن عليّ إلى أن يقررون أنه ما من ريب في أمري. وكان الـ "أوغون"- اللابس عباءات من جلد براق الصبغ، بالأحمر، الأزرق الطاووسي والأصفر، سميناً، قوياً ومؤثراً. يعني اسمه الأول "الدارس المتعلم"، فيما يعني اسمه الآخر "الغوريلا الكبير". وكان هو شيئاً من الاثنين، كما كان رئيساً لما يمكن اعتباره معهداً عالياً لاهوتياً للأطباء- السحرة، حيث أرسلني أصدقائي من ساحل العاج إلى نوع من دورة لما بعد التخرج. بعد بضعة أسابيع من الدراسة الشاقة، أحسست بأنني قد جئت إلى المكان الصحيح.

كان العمل- وهو طقوس، تعليمات، مناسك وتعازيم- ينخزق مرة في الأسبوع بحفلات سكر تدوم الليل بأكمله، حيث كنا، أوغون وأنا، نروح هادرين بزعيق مثل أي كان، مضى وقت طويل.

وفي الليلة الأخيرة، قبل أن يتعين علي المغادرة، دعاني إلى منزله الخاص، من أجل جلسة خاصة. قال:

"إنك تعرف الآن معرفة نظرية بقدر ما يمكنك أن تستوعب، من دون أن تكون ولدت بها. إنك رجل أسود في إهاب أبيض. قبل أن ترحل، نود أن نريك بعض التطبيق.... عملاً أثناء حدوثه.... سحر كبير.... "أووانغا" عظمى".

يعني الـ "أووانغا" إرسال إلى الموت، وكان أوغون قد حصرني في موقع. كان رجلاً حاد الذهن، ذكياً، عملياً. قلت بعد تأمل لبعض الوقت:

"إننا على حافة المنطقة الفرنسية. لقد كانت الإدارة لطيفة تجاهي وهي تثق بي. لقد أعارتني شاحنات ذوات محركات أكثر من مرة، وسمحت لي بالتجوال بحرية، وهي

لا تتجسس علي. والسيد لوريك، هناك في البعيد من حيث جئت، يثق بي قدر ما تثق أنت. لو أن ثمة شيء يؤدي الفرنسيين، أو يؤدي أي شخص مرتبط بهم، فعلي ألا أراه. قال الاوغون:

"إنه ليس شيئاً من هذا النوع. إنه يخصنا نحن فقط. إنه مسألة عدالة خاصة". أخذوني في العصر التالي، في وضع النهار، بعملية طقوسية مع طبول، وقد ارتدى الأطباء السحرة ملابس الاحتفالات، ومع مغنيات، إلى رف صخري في مسيل مظلم حيث كانوا أقاموا "دمية" ضخمة بشعة كانت أكثر من مجرد تمثال.

كانت الجثة المحروسة لرجل أسود جرت مصادرتها عند وفاته الطبيعية في القرية المجاورة. وكما هو الأمر في حالة الدمى غير الحية، لم تكن ما كان قبلاً أمراً ذا شأن، لأنهم كانوا قد عمدوا الجثة بوقار بطقوسهم الغابية باسم جديد - اسم "البرشت تيلييه" - وكانوا يستخدمونه رمزاً طقسياً لإلههم المركز، المبار. جرى جلدها مستقيماً على طولها على شجرة بجبال من نباتات متعرشة، وطيلت بالقار كي تتحلل بطيناً في شمس الغابة ومطرها وضبابها وأبخرة مستنقعاتها الليلية. وكان معقوصاً داخل شعرها سَقَطُ المشط من شعر "تيلييه"، الذي سرقه الخدم من مشطه وفرشاته. وكانت قصصات أظفاره المسروقة ملصقة على رؤوس أصابعها. وقد ألبسوا جسد الجثة أحد قمصان صيد تيلييه، "منقوعاً - كما قالوا - بعصاراته الحية". إنكليزية بسيطة: قميص غير مغسول عرق فيه.

كان تكتيكهم كلاسيكياً وقديماً كما هي أفريقيا. في إنشاء "الدمية"، مزجوا الطريقتين اللتين يميزهما "فريزر" وأغلب الانتروبولوجيين تحت مصطلحي "سحر المحاكاة" و"سحر التعاطف". لو أنك اشترت دمية أو صنعتها، وألبستها، ببساطة، لكي تشبه الضحية المنوي و"عمدت" بها باسمه، فإن السحر هو مجرد "محاكاة". ويبقى محاكاة محضاً لو أنك استخدمت صورة كتلك الموصوفة تحت أفاريز (كابرو)، في (إيلينيوس)، أو حتى جثة كتلك التي في أفريقيا، واكتفيت بإعادة تعميدها باسم الضحية المنوي.

وسيكون "تعاطفاً خالصاً" لو أنك استخدمت بديلاً عن الدمية هو شيء ما كان جزءاً فعلياً من، أو أنه كان على اتصال جسدي، بالضحية المنوي. وبشبه ذلك في هذه المرتبة قلامات الأظفار، سقط الأشاط، قميصاً أو ثوباً سبق أن كان الضحية المنوي

يرتديه، المسروق حتى يتعفن تدريجياً. عندما تشتري دمية أو تصنعها، وألبستها- بدلاً من أن تلبسها شيئاً لا شيء إلا لكي تشبه الضحية- شيئاً سبق أن لبسه الضحية فعلاً، أو تلتصق عليها شعر الضحية ذاته، يكون ذلك عندئذ، كما في حالة هذا التمثال البشري الضخم البشع هنا في الغابة، ربطاً بين التكنيكي. عرضياً، إن كل نقاش متعلم لأهميتها الجوهرية النسبية وفاعليتها، هو هذر، هراء. والأهمية متساوية، بالضبط بين ما إذا كنت تصنع تمثالاً مقدساً من الجص أو تحفره من الخشب. إذا كنت تشعر أن أموراً كهذه يمكن أن تكون لها أهمية فعلية غامضة، فإن التشابه الجزئي سيكمن في السؤال ما إذا كانت عظام قديس ما- أثراً مقدساً لما كان في وقت ما جزءاً من جسده- يمكن أن يكون أكثر فاعلية من مجرد تمثال له. إذا كنت تظن أن عظام القديس أو منديل الملوث بالدم قد يشفي بثراتك أو يوقف الانبثاق من فيزوف، بينما لا يستطيع مجرد تمثال القديس أن يفعل ذلك، فإنك حر في أن تشك بأن يكون السحر التعاطفي أكثر إمامة من التقليدي.

بالنسبة لي، هما معاً صفرن جوهرياً، ليسا فعالين إلا باعتبارها رموزاً يركز عليها الحب أو البغض، الخوف أو الإيمان.

والآن هنا في الغابة، فيما بدأت الطبول تفرع، كان بغض حقود متركزاً- وفي الأسفل بعيداً جداً في بيت "البرشت تيلييه"، كما سأبين الآن، كان يتركز الخوف. مثيرين كل آلهتهم وعفاريتهم الغابية، ومستثيرينها بإيمان مسعور، زار الأطباء السحرة أولاً ونجحوا أناشيدهم غير المقدسة الخفيفة العميقة والزاعقة عالية الطبقة، حتى توصلوا إلى أن العفاريت- الآلهة قد سمعت. ثم على وقع قرع طبول مختلف وأبسط بدأوا ترنيماتهم وتعاويذهم السحرية. التكرار والبساطة.

مثل "جسر لندن يتهاوى" و"رينك أراوند أروزي". الوردية هي وردة. هذه هي الطريقة التي نغسل بها ملابسنا في وقت مبكر من الصباح. ثلاثة فئران عمياء على مدار الساعة، ماما وزه، اديث سيتويل، مصاداة* غيرتروdstاين السيدة بهيموث السوداء، في عشب فولاذي طويل، وحمامات على العشب ويا للأسف. قصت ذيولها بسكين حفر.

* الترديد المرضي لأقوال الآخرين .

شبيهة بالأخ "جاك"، و"وي ويلي وينكي". وكانت أيضاً رهيبة. كانوا يغنون بنوع من المالنكية و البامبرائية البسيطة، المنقّلة:

جنيني ديمي دوكماني

جنيني ديمي كونابا

جنيني ديمي يان داكورو

جنيني دي يورا ديان!

فاريكولو بالوله

أ - داما - دن سا!

الكلمات بسيطة بساطة أي "أنشودة دار حضانة، وعلى القدر نفسه من سهولة الترجمة. ما يصعب ترجمته - كما سيكون صعباً ترجمة التأثير العاطفي - الهرائي الساحر ولكن المعدي لـ "تَسْكُتْ تاسْكُتْ"، سلة خضراء وصفراء - هو التأثير العاطفي القبيح لهذه الأنشودة الساخرة الخارجة عن وزن الشعر، مصحوبة بالدمدمة الموقّعة للطبول. مهما اقتربت منها، من دون موهبة لأناشيد دار الحضانة، ومع التمسك بالمعنى الحرفي للكلمات، سيكون المعنى:

الم كبير، الم صغير

الم ضئيل، الم عظيم

ينمو هنا وينمو هناك

ينمو بطيئاً في كل مكان

فيما يحيا الإنسان الميت

ويموت إنسان حي!

عندما توقفت هذه الأنشودة المكررة إلى ما لا نهاية، رقصت امرأة ضئيلة الحجم، مخيفة مثل قرد، ذات ثديين ذاويين، إلى أمام وأدت أغنية مفردة مقوقّسة، بصوت رفيع، فيما كان الطبالون يقرعون قرعَ طبقة حادة عالية خفيفاً بأصابعهم، على حواف

* سلة بالإنكليزية هي "بايت". فيلاحظ القاري، هذا الجنانس .

الطبل. كانت هذه أنشودة حضانة مرة أخرى. كانت تعاويز لانسداد الحنجرة" فيما كان الجسد يتحلل هنا كما اخبروني وبدأت حنجرته تنشد وتنتفخ، سيبدأ الرجل البعيد يعاني صعوبة في التنفس والتكلم والابتلاع.

غنت المرأة-القردة، مبتسمة ومكشرة، كما لو كانت تهذر هذر نغم رتيب لطفل رضيع:
لافا لافا لافا!

بولي أن- أو كلي!

ميننا مينا مينا

سيغوين تجبي كاري كي

كيسي كاسي كيسي

بارينو سينتا

بانا باتو سا- آ- آ!

وتعني- وأنا لا أزال أترجم بحرفية قدر المستطاع:

اختنق، اختنق، اختنق!

الشياطين التي نستشيرها!

العطش، العطش، العطش

تألم حتى تنفجر

اصرخ، اصرخ، اصرخ،

حاول، حاول، حاول

مت، مت، مت!

سألت:

"ماذا سيحدث لو أنكم أوقفتم هذا كله؟" فقال الاوغون:

"انه مريض جداً، لكنه سيصير على ما يرام. يمكننا أن نوقفه بليّ السحر إلى الخلف، وعندئذ لن يموت. ولكننا لن نفعل ذلك، كما لن يفعلها أي أطباء سحرة آخرين، لأن هذا الرجل قد أدين، وعن حق، من قبل الغابة".

١ - سيفهم القراء ، الذين سبقوا أن عاشوا في غربي أفريقيا الفرنسية وربما تعلموا المالتكية والبابارية ، الصعوبة- الناشئة عن البساطة التي تكاد تكون طفولية للكلمات- في وضع إنكليزية مطابقة لها .

هل تعلمني كيف يلوى السحر إلى الخلف؟

فقال الاوغون:

"كنت أظنك تعرف ذلك أصلاً. ما دمت تعرف تقديم السحر، يمكنك أن تعلم

نفسك فقلت: ربما سأحتاجه ذات يوم. قال*:

"لو كان دمىة فإنك لا تعمدها، اخلع الأظفار والإبر، واحرقها في نار مطهرة. لو

كانت خصلة شعر انبشها واحرقها. لو أننا لم نعد هذه الجثة هنا، وأزلنا شعر الصياد

وقلامات أظفاره وأحرقناها، وخلعنا قميصه فيما غسلناه أو أحرقناه، ثم أعدنا الجثة

إلى اسمها الأصلي وإلى قبرها الأصلي.

فستنام هنا في سلام وستحسن حال الرجل هناك بعيداً". سألتك

ألا تدري أن الرجل ينبغي أن يعرف بهذا كله؟" فرد الاوغون بغموض:

"إنهم يعرفون بذلك دائماً". وأضاف الآن**:

سألت:

"شيء، آخر، ما دمت تخبرني أن هذا الرجل قد حكم عليه عن حق بأن يموت

بموجب قانونكم الغابي، فإنك قد لا تمنع في أن تعطيني جواباً حقيقياً. لو أن السحر لم

يعمل لأي سبب كان، افتسممه؟" قال الاوغون: "عندما يكون السحر حقيقياً، لا يكون

السم ضرورياً أبداً".

وأضاف عملياً:

"وإضافة إلى ذلك، فسيتم إلقاء القبض على خدمه أو على شخص ما ويُشنق. إن

للأطباء البيض والشرطة البيض أنواعاً مغايرة من السحر بالسوائل التي تبدل اللون".

لم يصف ضميري تماماً قط، كما أنه لم يتضح تماماً ما يمكن أن أكون سأُنجزه لو

أنني ذهبت وأخبرت الإدارة بالحكاية كلها. كانوا ربما سيقولون: "حسناً، نحن لسنا

* لا يوجد معجم إنكليزي-بامبارين بقدر ما أعرف. ولكن في سنة ١٩١٢ نشرت مكتبة بول وغيوتنر .

الكاننة في ١٣ شارع جاكوب-باريس ، معجماً فرنسياً بامبارياً جيداً نسبياً .

** كان ثمة سحر أقدم يلوى فيه الزمن إلى وراء . بحيث يصير السحر المتقدم وكأنه لم يكن . والرجل كما لو

أنه لم يمرض قط- كما لو أن الأمر كله كان حلماً . أو شيئاً فعلته الظلال . التي كأنها لم تكن قط . ولا يترك

أثراً عندما يظهر الضياء . ولكنه شيء ليس بمقدور أحد أن يعلمك إياه . لأنه فقد .

خصوصاً للأطباء السحرة. نحن الشرطة. لو أن رجلاً أطلقت عليه النار أو سُمِّمَ، أو سيتعرض لذلك، فإننا نعرف ما نفعل. ولكن أناشيد العفاريت، جوالب حسن الحظ وماما وزه ليست، دقيقاً، ضمن خطنا".

غسلت يدي من الأمر كله مثل بونتيوس بيلاطس* صغير، واستعرت سيارة رينو قديمة، وخرجت نظيفاً من الغابة، ماضياً نحو (بريو ديولاشو) وإذا عدت بعد أسبوعين، هابطاً نحو (بسام) ثانية، وصلت إلى حافة غابتي ذاتها، وانغمست حالياً مع أحد معارفي القدامى، وهو رجل شاحنة يسمى يو أورو، ويلقب بـ "جو" كان ينقل بالشاحنة جوز لكولا إلى الشمال، ليعود بالملح، والذي كان يمتلك آخر الشاحنات. على زجاجتي بيرة ولعبة، فقال جو:

ثمة خبر من مدينتك. ذلك اللعين البلجيكي ألبرشت على سرير الموت، وما من شخص آسف".

"م يحتضر؟" فقال جو بابتسامة خبيثة
"ضيق التنفس. لم يعد بمقدوره أن يسحب نفسه. ذلك ما غوت منع جميعاً، أليس كذلك؟".

ولكن ماذا به واقعياً؟" فقال جو:
"إنه يظن أنه قد سُمِّمَ، وعنده الأطباء وقيادة الجندرمة وكل ذلك، ولكنك واحد من البيض الذين بمقدوري إخبارهم الحقيقة. إنه يحتضر لأنهم وضعوا الأوانغا العظيم عليه - أوانغا الموت".
كيف؟ فقال جو:

لا ادري. إن عندي جدة مالنكية تعرف الكثير، ولكنني ذهبت إلى مدرسة تبشيرية وأعمل في مرآب. كل ما أعرفه هو أنه عندما يوضع عليك، سواء أكنت أبيض أو أسود، فإنك تمرض وتموت".

عندما وصلت إلى هناك أخيراً، بعد أسبوعين، كان ألبرشت تيلييه ميتاً منذ أسبوعين. ولما كان قد اتهم السود بتسميمه (مع أن "لوريك" أخبرني أنه لم تكن ثمة

* الحاكم الروماني لبيت المقدس، الذي سلم المسيح لليهود.

أعراض سمّ قط)، فقد جرى له تشريح كامل وكانت النتيجة صفراً. منذ تنظيف دأكار من الحمى الصفراء، كان لأفريقيا الغربية مختبرات طبية جيدة كما توجد في كل مكان، وليس صحيحاً وجود السموم الغامضة التي لا تترك أي أثر وهي غير معروفة للأفرياديين*.

قال لوريك:

"لو سألتني، فإنه تحطم تحت مخاوفه الخاصة وضميره المذنب، ولكنني أود أن أعرف المزيد عن ذلك. يقول المحليون إنه كان سحراً، وأظنه تصور ذلك في الآخر. ولكن بما أنه لم يُقتل، فإذا كان قتل- ونحن نعرف القتل في المحكمة- فإنني لن أتولى معاقبة أي شخص على ذلك. إنني أريد أن أعرف فقط. فقلت "وكذلك أنا"، ولم أقصد بذلك نفاقاً. لقد أحسست أن فرضي معرفتي الخاصة على ضمير لوريك الرسمي لن يخدم هدفاً طيباً. ولقد أردت أن أتعلم، إن استطعت، ما الذي جرى هنا، في منزل البرشت تيلييه ذاته.

ولقد كانت عشيقه- مديرة منزل لوريك الرائعة السوداء، التي لها أذن في الغابة وأخرى قريبة من أذن المدير، هي التي كشفت القصة الداخلية البيئية كاملة عن كيفية قيام خواص تيلييه السود، الجاهلين بمصطلحات فرويد- يونغ- أدلر- ومتعلمينا، السايكولوجية والخاصة بالتحليل النفسي كما لو أنها لغة يجري الحديث بها على كوكب آخر، والذين يؤمنون، فوق ذلك، بالقوة فوق الطبيعية لأطبائهم السحرة وعفاريتهم- دمروا البرشت تيلييه بإيحاء التلقين الذاتي، مطبقين إياه بخبرة من أجل مقاصدهم الشريرة كما يطبق من أجل الخير في أي من عياداتنا الطبية والعيادات الخاصة بطب الأطفال.

وكان ذلك قد بدأ عندما جاء احد صيادي تيلييه المحليين، المستخدم دائماً- متظاهراً بالعطف الشديد عليه- إليه، قائلاً:
"لقد تلقيت للتو أنباء رهيبه. لقد وُضع أووانغا عليك. ربما تكون أحسست به سلفاً. خلال شهر واحد ستموت".

* الفرع الطبي الذي يعنى ببحث مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها .

سخر تيلييه، تزايد غضبه، شعر، ضرب الرجل العجوز، وأخذ يدور قائلاً إنه ما من أحد يستطيع أن يلعب عليه بخرافات حمقاء. وقال إن الأمر كان مخططاً لإرعابه كي يغادر البلاد، أو تهديداً بتسميمه. وذهب إلى سكان محليين ممن يظن أنه يمكن الثقة بهم، فوعده بأن يكتشفوا ما يستطيعون. وسرعان ما عادوا قائلين إن الأوانغا العظيم كان، للأسف، عاملاً، ووصفوه له بكل تفاصيله القبيحة. تفحص قمصان صيده فوجد أحدها ناقصاً، حسب الوصف. قال النسوة إنه قد "سُرق". أين كان الاوانغا؟ كان مخبوءاً في مكان ما، وراء الجبال. من كان الأطباء السحرة؟ لا أحد يعلم. كانوا "بعيدين جداً"، من "قبيلة أخرى" وبدأ المحليون مواساة كاذبة له، قائلين إنه يبدو مريضاً، مؤكدين له أنه سيموت حتماً، مخبرين إياه أكثر فأكثر عن التمثال المتعفن.

وواصلت عجائز متظاهرات بالشفقة تزويده بتفاصيل أخرى، "حالات" أخرى. بدأ يحس المرض، وكان متأكداً من أنه قد سُم. كان الأطباء الذين يُعنون به متأكدين من أنه لم يكن مُسمماً، لم يستطيعوا أن يجدوا به شيئاً- وأخبروه بذلك. كان قد أرسل في طلب لوريك، وطلب الحماية، والقيام باعتقالات. كان لوريك قد سأل:

"مم أستطيع حمايتك؟ إذا ما كانوا قد نبشوا جثة في مكان ما ووضعوا قميصك عليها، وأنت تؤمن بذلك الأمر، فسأقوم باعتقالهم- على سرتهم قميصك. ولكن: من هم وأين القميص؟" فاحتج تيلييه:

"أنا لا أؤمن بذلك!"

لكنه كان مريضاً وازداد مرضاً، وما مقدار إيمانه في ذلك الوقت مسألة لا سيطرة عليها، ومسألة لا يمكنه حتى هو نفسه أن يكون متأكداً منها. بعد يوم من تمكن المرض منه تماماً، قالت الممرضة اليافوبا التي كانت قد جاءت إلى كوخه بكأس ماء:

"يا لمسيو تيلييه. هل تؤلك حنجرتك بعد؟".

وكان قد سأل

"كلا! لماذا؟ وماذا تعني بقولك بعد؟".

وكانت قد أجابت مشفقة:

"أوه، ستجعلك عن قريب، لأنهم يفعلون ذلك الآن في الجبل".
وبدأت ترنيمة "انسداد الحنجرة"، ناقرة الإيقاع بأصابعها على حافة كوخه. كانت
تلك مسخرة غير موزونة لحضانة أطفال بسيطة، مغناة على إيقاع طبل بسيط، تنقرها
يدا امرأة سوداء ذات أظفار مقرنة، سوداوان، مغضنتان في حضانة الموت:

تا- دا- دا- دا- دوم..... دوم

تا- دا- دا- دا- دوم..... دوم

تا- دا- دا- دا- دوم..... دوم

ها هو رجل مريض ومرعوب. لقد أصغى إلى الكلمات المربعة وفهمها، ثم أمسك
آلياً حنجرتة كما لو في ألم جديد، ثم صرخ:
"اخرجي! إنك إما مجنونة أو قد سممتني! أو، أنا مجنون؟".

وسرعان ما جن، مجنوناً بالخوف، ومجنوناً بالصعوبة التي أوحى بها الخوف الجديد
في عضلات حنجرتة، الصعوبة في التكلم وفي البلع. لأنه، منذ الصباح الذي جاءت
فيه العجوز، لم تكن أذناه حرتين قط، ليل نهار منذ ذلك الحين حتى النهاية، من ذلك
الإيقاع القرعي الصغير الذي كان هو يعرف كلماته لم يكن يبقيه أي "إرسال" سري.
وهمي. ولم يكن شبحاً مهلوساً هو الذي ينقر داخل ذهنه المرعوب. لقد كان يضغط
بقسوة على طبلتي أذنيه، فيما العجوز وشركاؤها بمن فيهم الأطفال، ينقرون بالعيدان
على السياج القصبي نحو الغابة، على درابزونات الفيرندة للبيت المتهاوي الذي ينام
فيه، خابياً بعيداً ثم قريباً جداً، متراجعاً فعائداً، ليل نهار. لقد مات من انهيار عصبي
وظيفي، ممسوك بمخالب الإيحاء الذاتي لخوفه المجن، والمسبب للشلل.

لقد رويت هذا بالدراماتيكية التي استطعتها، لا من أجل إضفاء الدراماتيكية
على الرعب، ولكن لأنه يحوي كل الأدوات، العناصر، ووسائل السيطرة الضرورية
لأطروحتي.

لو كنت على حق، فإن تمثال الجثة والقميص المسروق كانا رمزين فارغين. وأنا أرى
أنهما كانا فعلياً فارغين على الدوام. أنهما يخدمان مقصدين رمزيين:

١- نقطة تبؤر يتم تركيز الطقوس عليها.

٢- وسيلة موضوعية لإثارة الرعب لدى الضحية.

أكان الأطباء السحرة ليحصلوا على نتيجة مشابهة من دون إقامة التمثال على الإطلاق؟ أظن أنهم كانوا سيفعلون، لو أنهم آمنوا بأنهم يستطيعون. أيستطيع قسيس أن يصلي ويؤدي أعماله الخيرة بالكفاءة نفسها من دون مسبحة؟ من دون مائه المقدس؟ من دون مذبحة؟ من دون الصورة المقدسة في الضريح المكرس؟ إنه يستطيع بالطبع، ويفعل، عندما يؤمن بأنه يستطيع. إن السحر - بدلاً من كونه هراءً خرافياً - علاج ذهني معكوس، بالغموض المرعب، مضافاً إليهما الخرافة.

٤- حانوت دمی قيمة الواحدة منها عشرة سنتات في فرنسا

لدي صديق، صحفي ما مشهور في باريس، أجرى دراسة عميقة عن السحرة والشعوذة طيلة حياته. شأنه شأن جدي الأكبر لأمي، فهو "يحارب الشر بالنار" أحياناً، ولقد دعي للمشورة أكثر من مرة في جانب الشرطة الفرنسية ومن جانب طاردي الأرواح الشريرة الروم الكاثوليك للقديس سولبيس. إن محاربة الشر بسلاحه حرب خطيرة، ولقد تعرض صديقي لخطر فاحش أكثر من مرة جرت محاولة قبل بضع سنوات من قبل اتباع الشيطان من (ليون) لاغتيال ابنته الصغيرة، وهي قضية لم تبلغ الشرطة قط لأنه أخذ بالثأر بيديه بالذات.

وكان عن طريق صديقي "أرليه"، كما سنسميه، أن صرت مشاركاً في حادثة عازف البيانو والدمية، التي انتهت بكارثة أخف من الاغتيال، ولكنها كلفت الضحية الشاب مستقبله المهني إن ما لدي لأرويه في هذه القضية، هو جزئياً إعادة بناء، لأن الأذى كان قد وقع أصلاً في الليلة التي دعاني فيها "أرليه" كي أوصله بالسيارة إلى (لي توكونيه) - Paris Plage - المنتجع البحري على القنال، وأساعده في السطو - إن استطاع - على بنغل* شاطيء معين، بعيد عن المدينة، يحوي شيئاً لا بد من تدميره كان كوخاً مهجوراً، لا أحد فيه في الظاهر، وقد زحفنا نحوه من وراء، بعد حلول الظلام بقليل. فيما لزمنا المراقبة، حطم هو كلاب مصراع نافذة ثقيل وخلعها بمخلٍ فانفتحت. تسلقنا إلى الداخل، أغلقنا المصراع وبدأنا ننظر فيما حولنا بمساعدة مصابيحنا اليدوية كان الكوخ مجهزاً على نحو مختصر مثل مخيم، أو مخبأ... كوخان نيم فيهما حديثاً... وأبعد من ذلك، في زاوية، كرسي هزاز.

* بيت من طابق واحد . سقفه منحدر أو جمالوني .

في خزانة وراء باب مقفل لقي صعوبة في فتحه عنوة، وجدنا ملزمة نجار خشبية مثبتة بالبراغي إلى الجدار، ومن الملزمة تتدلى دمية صغيرة وقد أمسكت يداها بالملزمة وهُرسَتْ بها- وهي دمية من النوع الحديث، جديدة رخيصة، مانيكان مزوق بسوء ذوق في ملابس ليليوتية* مثل دمية متحركة في ملابس سهرة كاملة. قال "ارليه": "أريد أن أحشرها في حناجرهم القذرة. لو أنني أوّمن، كما يفعلون، بشيطان فعلي، فسنحرقه هنا والآن.

إن ما يستحسن أن تفعله هو أن نأخذها معنا باعتبارها دليلاً".
في طريق العودة إلى باريس توقفنا عند مطعم على الطريق، وأراني قصاصة صحيفة مطولة عمرها أسبوع أو أسبوعان- واحدة من قصص الأخبار والإشاعات المخلوطة تلك، التي توحى بين السطور أكثر مما تقوله فيها. وكان ما اختصر هو أن "جين دوبوا"، وهو عازف بيانو شاب لامع وواعد، في فرقة قد قام بعمل أخرج بشكل غير مسؤول لظهوره العلني الأول المهم، في قاعة موسيقا صغيرة لكن مزدحمة. كان قد بدأ على نحو حسن بما يكفي لأداء Appassionata لبتهوفن.... عندما تسببت فجأة نغمة خطأ، ثم سلسلة من الأوتار المقعقة، متلوة بأسوأ المحاولات في همسات وهسهسات من الجمهور الغاضب. ثم بعد باروديا** شبيهة للفواصل الموسيقية القليلة الباقية كان قد هرب من المسرح مجللاً بالخزي والارتباك.
ثم جاءت الشائعة والتعليق، كما رويت في القصاصة:
"التهاب الأعصاب... تشنج في الأصابع، كما قال أصدقاؤه ومديره وأكثر النقاد لطفاً في اليوم التالي.

وقال آخرون: "هين لقد كان سكراناً".
أو: "لقد كان عازف بيانو سيئاً على كل حال واستسلم للفرع من المسرح في الاختبار الحاسم".

قالت القصاصة: "تدمرت سمعته المزدهرة وحياته المهنية واقترحت، على نحو غير مباشر، أنه كان ثمة نوع من الغموض غير المحلول. وانتهت بالإشارة بحذق إلى أنه، كما في حالة أكثر من فنان فرنسي لامع شاب، تناثر إلى شظايا في حقول أخرى.

* نسبة إلى بلاد (ليليوت) ، وهي بلاد الأقزام . في رواية جوناثان سويتف الخالدة رحلات غاليفر" .

** اثر موسيقي يحاكي مؤلفه فيه أسلوب مؤلف سابق على نحو مثير للسخرية .

ربما يكون الغموض اعتياداً على الكوكائي، إن كان قد امتص القليل، أو أكثر من اللازم، قبل أن يجلس إلى البيانو.

أزالت القصاصة الغموض في ذاك الجانب، وكان أرليه هو من وفر بقية القصة. وكان التفسير الذي قدمه "دوبوا"، خصوصياً، عما حدث من الخيالية بحيث أنه يلقي شكوكاً على قدسيته، ولكن أمه الكاثوليكية الصادقة صدقتهن وكما كان الكاثوليك المخلصون يفعلون على مدى القرون، فقد روت القصة لقسيسها. وكان القسيس قد دعا اورليه، بإذنها، إلى اجتماع، وكان أرليه- بعد أن حصل على اعتراف كامل من عازف البيانو الشاب، الذي ذكر الآن أسماء ووقائع معينة كان قد كتمها قبلاً، انشغل يوماً وليلة، متلقياً مساعدة الشرطة غير الرسمية ومساعدة أصدقائه في عالم باريس السفلي حيث الإيمان بالقوى الخفية، التنبؤ بالخط، والصوفية الزائفة بكل أشكالها الابتزازية الهانجة.

كان عازف البيانو قد اعترف لأرليه بأنه كان يشتغل سراً على سبيل الهواية، بالأمور الخاصة، بما فيها السحر الأسود، وقد انضم قبل بضعة أشهر إلى طائفة مربية تسمى بالـ "رويكروشين"*. لم يكن لديها ارتباط شريف بالأتباع الحقيقيين برونزكروز الكاثوليكي.

وقد نجح أرليه بهذه الحقائق والأسماء الحقيقية لاتباعها، في التغطية على المؤامرة القذرة. كان عازف البيانو قد خلق أعداء كانوا يريدون تدميره، ولما كانوا يعرفون بمصالحه الخفية، فقد استأجروا عبّاد الشيطان بدلاً عن السفاكين العاديين. وفي الحقيقة الإجرامية الباردة، بصرف النظر عن القوة التي كان أتباع الشيطان يؤمنون بها بشرهم الخاص وعقولهم المريضة من أن الشيطان ساعدهم، فقد تلقوا أجراً لكي يحطموا الموسيقى. لقد "أدوا جزأهم"، واستحقوا مالهم.

كانت امرأة باسم "ميره ليفن" تقطن "فينسين" وتتردد على شارع (دي لايه) أحياناً، وقد اشترت الدمية وألبستها وأخذتها إلى الـ (توكويه)، الذي كان قد صار المركز في الشمال لمحتفلي القداس الأسود بعد أن كان الكاهن "ثيابه"، ثم رئيس

* جمعية سرية اشتهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وزعمت امتلاكها معرفة سرية للطبيعة والدين.

الشرطة، قد طرداهم من باريس". كانت هي وشركاؤها قد أدوا طقوسهم التعميدية غير المقدسة على الدمية لزموها في الملزمة حيث وجدناها لاحقاً، وإلى حيث كانت تعود بين وقت وآخر لتؤدي تعازيمها. ربما يشك المرء في أن تكون ساحرات من هذا النوع لهن أنفسهن أي إيمان حقيقي بما فوق الطبيعي، بالانبشاقات الشيطانية للشر من دمية فعلية ما داموا يبدون دائماً وكأنهم يهتمون بجعل الضحية يعرف ذلك ويخافه. ومع ذلك، فأنا مقتنع بأنهم- بوصفهم أطباء سحرة في الغابة بالضبط- غالباً ما يؤمنون بذلك على نحو غير منطقي^١.

لا أستطيع أن أقول ما إذا كانت "ميره لفين" وشركاؤها يؤمنون بذلك أو لا. ولكن مهما كان ما تؤمن به، فإن العمل التراكمي الذي فعلوه بالمقاربة المباشرة، وإن كان غير مباشر كان سيكون أكثر من كافٍ لغرضهن حتى لو كانوا هم والضحية أيضاً مجردين من الخرافة وما وضعه أربليه على المسير الصحيح كان اعتراف عازف البيانو بسلسلة من ال "مصادفات" التي سبق أن أقلقته. إن التقليل من شأن ثقته كان عملية بطيئة. لقد استغرقت وقتاً. لقد كلفت مالاً. ولقد برهنت في الآخر أن بعض أصدقائه المفترضين كانوا يهوداً "ت". وها هي بعض الخطوات التي كانوا استخدموها:

كان موسيقي تعود أن يزور مكتبه، بذريعة عرضية، قد سمعه يتمرن امتدح عزفه ولكنه أضاف بأن براعة أصابعه تبدو وكأنها تتراجع قليلاً، ونصحه بأن يستريح بضعة أيام. كان قد أجاب: "هراء". كان يعرف أن براعته لم تتراجع، ونسي الواقعة.

ولكن بعد ذلك بقليل كان ذات ليلة يعزف، فقالت فتاة "هل لويت مفصل يدك؟" وكان قد سأل بدهشة "لماذا؟ اتظنينني عزفت على نحو بالغ السوء؟" وكانت قد تهربت "أوه، لا. كنت مشغولة البال. لقد عزفت على نحو جميل. لم يكن ذلك شيئاً".

وبعد فترة قصيرة كان صديق مزعوم قد جاء إليه وقال:

"سواء أكنت تعترف بذلك لنفسك أو لا، فثمة شيء ما بتكنيكك الميكانيكي. لو كان بك مس من التهاب الأعصاب أو شيء ما من هذا النوع، فعليك أن تواجه الأمر، من أجل مصلحتك الشخصية وترى طبيباً".

١ - "إن ساحراتنا يشنقن بحق، لأنهن يتصورن أنفسهن ساحرات، ويعانين ما يستحقته عن إيمانهم بأنهن مارسن أذى الشيطان"- درايدن .

في هذا الوقت كان قد بدأ يقلق ويتساءل، مركزاً على أعصاب أصابعه وعضلاتها مائلاً ومحركاً ومختبراً إياها عندما لا يكون على لوحة المفاتيح، وإذا يعني أصابعه ذهنياً، ما يعني أنه صار واعياً ذاتياً بالمحركات التي ينبغي لها أن تكون انعكاسات آلية محضاً. وهكذا فقد بدأت أصابعه "تتشابك" عرضاً، أو تعجز عن الاستجابة آلياً في مقاطع صعبة ذهب إلى طبيب، ثم إلى اختصاصيين، أخبروه أنه لا عيب في يديه. وكانوا، من زاوية نظرهم، محقين. بدأ يكتب، وقد تأكد الآن من أن شيئاً غامضاً كان على ما لا يرام بيديه، لم يستطع الأطباء أن يشخصوه.

وكان ما صنع له بالاقتراح الصريح والمباشر حتى الآن هو مجرد العمل الأساسي. وعندما اعتبروه ناضجاً للمسألة، قبل الحفل الموسيقي بقليل، أرسلت له رسالة: "يمكنني أن أخبرك ما المشكلة في يديك، ولكنها مخيفة إلى درجة أنني أخاف أن أذكرها لك. ثم تلاعبت الرسالة على الـ "انبشاقات"، "الاهتزازات"، وما يدعى بالغوامض الروزيكروشيّة التي كانوا يعرفون أن الشاب قد قرأها ودرسها. وانتهت بإعلامه عن الدمية المهصورة يداها في الملمزة ولقد جرى توقيعها بقسوة ووقاحة، كما لو أنها قادمة من زميل في الحلقة الضيقة من الجماعة يخشى أن يفشي اسمه: "صديق متعاطف".

في ليلة الحفل، كان قد وجد ملاحظة أقصر مثبتة بدبوس في غرفة ملابسه، بخط يد مختلف تقول:

"إن مقبض الملمزة سيدار الليلة ببطء، حتى تنسحق يداك".

إذا كنت تظن أن ضحية مؤامرة كهذه لا بد أنه مزاجي، ساذج سريع التصديق، ومصاب بالنهك العصبي ابتداءً، أو أن تأثيرات قبيحة مثل التي وصفتها بعيدة جداً عن الحياة اليومية للناس الطبيعيين تثير اهتماماً غير اهتمام العيادات، فثمة طرق غير بهيجة يمكن عن طريقها البرهنة وقد جرت البرهنة، على أن مثل هذه التأثيرات، مع أنها غالباً ما تكونت غير منسقة وغالباً غير واعية ونادراً ما تكون - وهو أمر مفرح - منظمة أو موجهة، هي فاعلة وتؤثر في الناس في مناحي الحياة وكل منزلة في المجتمع. خذ أسلم راشد تعرفه، أكثر الأشخاص عملية، غير تصوري، دع بضعة أشخاص يخبرونه - كل على حدة وعلى فترات متفاوتة - بأنه يبدو عصبياً وينبغي له أن يستريح. دع شخصاً يقول له:

"أتحس أنك على غير ما يرام؟" ودع آخر يقول له عرضاً ذات يوم: "أكنت مريضاً؟". عندما يكون الأمر وصل إلى ذلك الحد سيبدأ بالشعور بأنه رهيب" وأن عنده أعراض عدم انتظامات وظيفية أو عصبية، وسيذهب لاستشارة اختصاصيين لا يمكنك أن "تتمنى" السرطان، أو ساقاً مكسورة أو الجمرة الحبيثة أو الأنفلونزا أو الملاريا له، ولكن يمكنك أن "تتمنى" أن يلازم فراشه، وفي بعض الأحيان أن يكون في قبره، إن كنت شريراً وصبوراً بما يكفي. من دون أن تكون قد درست قط ما يسمى بالـ "فن الأسود"، ستقوم بممارسته، بالصيحة التي يمارسه بها أي ساحر في هنغاريا، أو طبيب ساحر في بنسلفانيا أو طبيب ساحر في أفريقيا. هذه هي المبادئ الأولية الخام للسحر في أكثر حالاتها شراً.

وذلك النوع من "السحر غير الواعي، للأسف، بدل أن يكون نادراً، هو بشيوع الهواء الذي تنفسه. إنه نادراً ما ينتج مرضاً فتاكاً أو موتاً. لكنه يسبب في أحيان كثيرة جداً، في ألف بيت أو مجموعة، لا بد أنك تعرف بعضها الإحباط، عدم اللياقة، الاكتئاب والتعاسة. خذ على سبيل المثال طفلاً سليماً فاتناً جيد التنسيق، بنتاً طبيعية تماماً لامعة ولكن حساسة. ابدأ بإخبارها أنها حمقاء. واصل إخبارها في كل مناسبة ممكنة أنها حمقاء. واصل حقنها بذلك... وستستحق أن تتعفن في الجحيم على ذلك لو أنك فعلته، بقدر ما تستحق ذلك لو أنك وضعت جراثيم مرضٍ ما في وجبة إفطارها... ولو أنك واصلت ذلك بصبر وطول بال، فعند انتهاء ستة أشهر أو سنة سيكون لديك طفلة حمقاء غير سعيدة.

إن وضع "السم" في الذهن بقدر سوء وضعه في الحساء. إنه يعمل ببطء، أشد، ولكنه يعمل. "أطلق اسماً شيئاً على كلب"، ومهما تكن سلالته جيدة فسرعان ما سيشعر بذلك، وبالنتيجة يتصرف مثل كلب هجين متسلل. إنني على علاقة حميمة وودية مع عائلة من أهالي المدينة القدماء هم يطيفون دائماً مع الكلاب، مع الأطفال، ومع أصدقائهم. عندهم مزرعة هنا في الريف.

عاشوا سنوات طويلة متحيرين لأنه ليس بمقدورهم الحصول على عمال مزرعة مخلصين نزيهين موضع ثقة في بلد له تقاليد عريقة في النزاهة. والسبب بسيط منذ البدء، كائنات من يكون من استخدموه، كانوا يشكون على الدوام في أنه سوف يخيب

آمالهم. لقد كانوا يشكون دائماً في أنه سيخدعهم فيما يتعلق بقوائم التفاح، البيض أو السماد، أو في أنه سوف يضيع وقت العمل". والآن، مهما كانوا أرباب عمل مؤدبين وبشوشين، أو مهما تصوروا أنهم حذرون في إخفاء شكوكهم، فالمستخدم يعرفها على الدوام. ما من حاجة إلى وصفة حساسة أكثر من اللازم أو هراء التخاطر لتفسير هذه المعرفة. ربما سيقول هو أنه "يشعر" بها، أو أنه "يحسها" بدلاً من أن يقول إنه يعرفها. قد يقول إنها كانت "حداً". ولكن ذلك جميعاً جاء عبر حواسه الخمس، وهكذا فالقول بأنه "أحس" هو الحقيقة البسيطة. إنه يشعر" بما "يشعرون"، وما داموا يشعرون على ذلك النحو، وما دام هو ليس معجزة تكامل عصية على الفساد (من منا كذلك؟)، وإنما، ببساطة، شخص طيب شريف حسب المألوف، مبال لأن يكون طبيباً وشريفاً في الظروف الطبية، فهو سيقول لنفسه عاجلاً أو آجلاً: اللعنة! إذا كان هذا ما يشعرون به تجاهي في كل حال..." وبيدأ في خداعهم.

"ما داموا يشعرون على ذلك النحو، ما دام ذلك ما يفكرون به غني في كل حال، فلماذا أخيب ظنونهم؟".

لو أن سايكولوجيتهم كانت على نحو مختلف، لو أنهم وثقوا به (وما كان لهم أن يستخدموه قط ما لم يكونوا اعتمدوا أن يثقوا به)، فلربما ما كان سيخيب ظنونهم في تلك الحال أيضاً.

يتحدث كارل ساندبورك عن نابش أرض من الرواد استقر في (كنساس). اتكأ النابش على بوابته.

جاء قادم جديد في عربة مغطاة: "أي نوع من الناس يعيش في هذه الأنحاء؟". "حسناً، أيها الغريب، أي نوع من الناس كانوا في البلاد التي جئت منها؟" "حسناً، كانوا في الأغلب حشداً من الناس الوضيعين، الكذابين، السارقين، الثرثارين، الغمازين، اللمازين".

"حسناً أتصور أيها الغريب أن هذا هو نوع الناس الذين ستجدهم في هذه الأنحاء". وكان الغريب المغبر الرمادي على وشك أن يتوغل إلى غابات القطن المغبرة الرمادية في مشي متناقل على الأفق عندما تقدم قادم جديد آخر: "أي نوع من الناس يعيش هنا؟" "حسناً، أيها الغريب، ما نوع الناس الذين كانوا يعيشون في البلاد التي

جئت منها؟" "حسناً، كانوا في الأغلب حشداً من الناس الطبيعيين المجدين المطيعين للقانون الودودين".

"حسناً، أظن أيها الغريب أن هذا هو نوع الناس الذين ستجدهم في هذه الأنحاء. لو أن الغريب قوي بما يكفي على جانب الملاكمة فيمقدوره أن يفعل المعجزات من أجل الخير. وقد فعل أحدهم ذلك ذات مرة، مع أنه وُلد ابناً لنجار، فلاح محلي في القرية المحلية، واستحال "غريباً" داخل نفسه من دون الهالة الخارجية لأصل بعيد. ولكن أغلبنا أدوات أسهل انقياداً للشر المعدي منها للخير المعدي. إن السحر معدٍ، لا سيما عندما يكون غير واعٍ وغير مبرّر.

عندما ينتقل شخص مربوب واحد، أو عائلة مربية واحدة إلى مجتمع نزيه، متوقعاً أن يخدع، فإن المجتمع سيبقي - عموماً - نزيهاً، ويحصر خداعه بالغرباء الذين يطلبون الخداع. ولكن إذا ما انتقل عدد كافٍ من الناس من نوعه إلى هناك، فسيصبح المجتمع كله فاسداً، بمن فيه السكان القدامى وبيدأون خداع أحدهم الآخر.

إن الناس الأشرار نادرون ندر الكلاب السيئة تقريباً. ليس غالباً (لا تبلغ الولادات المهجنة واحداً في الألف أو في المليون) أن يحب الكلب أو الإنسان الشر. ولكن الكلاب والناس حساسون. أنهم يتذبذبون:

لو كنت تشعر بقوة أن الكلب سيعضك، أو أن الإنسان سيخدعك أو يفعل ما يشاء أمامك جهاراً نهاراً، فإن الكلب أو الإنسان يُحتمل كثيراً أن يتذبذباً انسجاماً مع توقعاتك العاطفية ويفعل ذلك لك - وهذا يخدمك على نحو جيد جداً.

إن "راينبك"، قريتين قريتك وعائلتك هم دائماً أسد اندروكلس*. إنه لن يهاجمك قط تقريباً بوحشية، ما لم يكن جائعاً إلى حد رهيب - وفي هذه الحال يمكن معذرتة.

إن أي قرية مدبنة، أو مجموعة عوائل مساوية سحرية للأسد. كن ودياً مع الكلب ومطمئناً له، (مع عائلتك، البقال، أختك الهزيلة، أمك الصعبة، زوجتك المشبعة جنسياً أو المحرومة من الجنس لمدة طويلة) وسيكونون وديين تجاهك. احذر، على كل حال،

* بطل مسرحية برنارد شو "اندروكلس والأسد"، التي تحكي سيرة أسد استعمله الرومان للتخلص من المسيحيين حتى ألقى من بينهم "اندروكلس" إليه. فبعد للأسد غير هارب ولا خائف. فعافه الأسد. واتضح لاحقاً أن اندروكلس سبق له أن خلص الأسد من شوكة انغرزت في رجله.

النفاق. وإذا ما كنت تتظاهر بأنك تفعل ذلك من دون أن تشعر به، فإن البقال أمك، أختك وزوجتك سيفوقونك بالنفاق الشيطاني ويسمّرون جلدك إلى اقرب باب حظيرة.

يظن أصدقائي أنني أميل كثيراً إلى جانب الملائكة

فالبستاني عندي لديه كل مفاتيحي، عدا مفتاح درج نقودي والسبب في عدم كونه عنده أن ذلك الدرج لم يُقفل قط. إنه يذهب إليه كثيراً ليأخذ النقود لشراء هذا الشيء وذاك. إنني لا أعدُّ المال، ولكنني واثق من أن بستاني "جون" لم يكن عنده حتى مفهوم خداعي. ومع ذلك فهو ربما ليس أساسياً، عصياً على الفساد أكثر من بقيتنا.

أتذكرون جوديث اندرسون في مسرحية بيراندلو "كما ترغب بي"؟ ربما كنت أطبق السحر الأبيض" على بستاني. على كلِّ إنه فعال.

إنني واثق من أن أصدقائي لم يحلموا قط بأن تنفيهم السايكولوجية ذاتها، ذات الشكل اللطيف أساساً، من "السحر الأسود"، تؤدي بهم إلى إفساد مزارعيهم المتتالين، فيجعلونهم غير مخلصين وغير نزيهين كما دمر "السحر الأسود" حقاً عازف البيانو الباريسي. ليس ثمة أمر شيطاني عن أيٍّ منه بمعنى فوق طبيعي، ولكن "الأسود" هي الصفة الصحيحة له.

٥ - دمية خشب في كهف

في قضايا ألبرشت تيلييه، الوغد البلجيكي، كثير التجواب، العيَاب جندي الحظ وصياد الفرائس الكبرى، وقضية جين دوبوا، الباريسي المهذب ولكن ذو الميول المنحصرة بفئات محدودة، ليس أكيداً على أي نحو من الأنحاء ما إذا كان تيلييه يؤمن قط، أو يؤمن دوبوا تماماً، بأي قوة شيطانية، فوق بشرية فوق طبيعية وراء الدمية.

في القضية التي انوي حكايتها، كان الضحية المنوي يؤمن، وبدون تشكيك، بالقوة فوق الطبيعية المميتة وراء الدمية بالقوة التي تؤمن بها أنت بالغاز السام أو جراثيم الكوليرا. عندما يؤمن الضحية المنوي أن القوة التي تهاجمه فوق طبيعية. تصير الدمية- بالنسبة له- صورة نهائية لدينونة معينة، ويتجه بسهولة أكبر إلى أن ينهار عاطفياً ووظيفياً. يؤمن كل المتوحشين والبدائيين بهذا العنصر فوق الطبيعي وكذلك يفعل ملايين البيض المتحضرين في أوروبا وهنا في أميركا. لقد قاتل "رهماير" حتى الموت، وقتله "جون بلاير" بعنف لأنهما كانا يؤمنان كلاهما بأن "ترقية" خصلة شعر قاتلة ومميتة حقاً. في أفريقيا، في حالة الدمية الخشب في الكهف، أزال أصدقائي المتوحشون بعنف جسدي مشابه وبضماثر نقية على وفق مقاييسهم ساحراً خصماً كان يقتل واحداً منهم ببطء بسلاح ليس غير تلك الدمية الخشب.

كنت أقيم في ساحل العاج، قريباً من (داناناي)، وجاءت الساحرة الفتية السوداء والكاھنة، "وامبا"، إلى بيتي ذات يوم تطلب معروفاً سبق أن فعلت لي الكثير، فكانت تعرف أنني لا أكاد أستطيع أن أرفض. يبدو أن "عماً" لها كان مريضاً في المستشفى بـ(هوان)، على بعد ثلاثمائة ميل، وكانت تريد أن تزوره. كان اسمه "بنكه كونو" (العم طير)، ولم تكن قد رآته منذ كانت طفلة صغيرة. كان قد أرسل خبراً بأنه يخشى أن يكون على شفا الموت، ويرجو أن يتمكن من رؤيتها.

إن "بنكه" البامبارية التي تعني العم، تستخدم على شكل فضفاض، كما هي مقابلتها في كل اللغات، تعبيراً عاطفياً لأي رجل عجوز يَكُنْ المرء له ودّاً. وعلى هذا، كانت "وامبا" تحس أن من الضروري أن تضيف بأن هذا السيد العجوز قريب بالنسب، وأنها تعتبر من واجبها أن تذهب.

كانت "وامبا" فتاة صعبة المراس، هي عادة أنانية، ولقد دُهِشْتُ لعرض التعاطف العائلي هذا تجاه نسيب بعيد لم تره منذ سنوات. كانت تكس هذا التعاطف بتأنٍ وإلحاح بحيث لم أكن أستطيع الرفض تقريباً.

جاءت مرتدية كل زينتها المبهجة: قبعة جلد حمراء تعلوها ريشات نعامة حمراء وبيضاء وصفراء وأسورة رفيعة وغليلة مبرومة، خلاخيل، وأجراس ترن.... وكنت- حقيقة- لا أنوي الرفض.... مع أنني لم استطع الامتناع عن التفكير بأنها ما لم تذهب إلى البيت وتغير لباسها قبل أن ننطلق، ستكون مظهراً غير متوقع ومذهل جالس إلى جانب رجل أبيض في المقعد الأمامي لشاحنة "رينو" مكشوفة تحمل رقماً حكومياً رسمياً؛ فهي قد جاءت من أجل الشاحنة. كانت الرحلة إلى هوان ستستغرق منها ثلاثة أسابيع بالعبّارات في المهد المحمول متأرجحاً على عمودي خشب، التي كانت تسافر فيها عادة، بينما يمكن القيام بها في ثلاثة أيام أو أقل بالسيارة. قالت إن العم طير العجوز المسكين، ربما سيكون ميتاً عندما تصل ما لم أساعدها. سألتها:

"لماذا تريدان حقاً الذهاب إلى هوان؟".

عمي مريض لقد أخبرتك الحقيقة" فقلت:

"أشك في ذلك، ولو أنك أخبرتني الحقيقة فإنني لا أصدق بأنك أخبرتني بها كاملة ولكنني سأرى إن كانت الطرق سالكة، فإن كانت كذلك فسننطلق الليلة". فقالت:

الطرق سالكة، إن شاحنات جوز الكولا قمر"، ثم أضافت:

"سيكون علينا أن نأخذ "ديزي". يمكنه الجلوس على الحقائق في المؤخرة". فسألتُ:

لماذا يتعين علينا أن نأخذ "ديزي"؟ ما الذي تنوين عمله في "هوان"؟" فأجابت:

بنفاذ صبر:

"أقول لك عمي مريض! هل علي أن أوصل القول لك بأن علي أن أريحه؟ أما كنت لتريد الشيء نفسه لو كان لك عم مريض؟".

"وأتصور أنك تحتاجين إلى "ديزي" ليساعدك في إراحته؟".
فقالت وامبا التي كانت كاهنة غابة حقيقية، على الرغم من صفاقتها الوسيمة:
"إن القدر يكون دائماً بشكل مروحة. ربما سأحتاج إلى ديزي".

كان هذا الديزي، الذي أعرفه منذ زمن طويل، "هيئة خبراء" وامبا. كانت نادراً ما تباعد عن المقول، أو تتولى شيئاً جدياً، من دونه. كان قارىء تعازيم عجوزاً، مهزولاً، لمعبد الفتيش الصغير، له عينان حادثان، وأسوأ ابتسامة، ولحية جعداء. كان جده طبيباً - ساحراً عظيم الشأن، وكان هو الوصي على الأثر المقدس - ذراع جده المحنطة مومبائياً، التي كانوا يستخدمونها كنوع من لوح أوويا الغابية. كانت ذراعاً بشرية ذابلة تتصل بها اليد المضمومة... جافة وصلبة مثل خشبة... مثل خشبة متعفنة تقريباً.

سبق أن رأيتهما "تستشار" أكثر من مرة: يتم تعليقها من الوسط، بخيط وجيد طويل، من سقف المعبد، أو - إذا جرت العملية في الهواء الطلق - من غصن شجرة، بحيث تنوس، وتتوازن أفقياً. ثم يقام مذبح دقيق من الحصى تحتها، ويقوم من علقها بوضع قرابينه من الطعام هناك... حبة منجا ناضجة بديعة، كبد فرخ... أي شيء صغير ولذيذ الطعم مما يتيسر. في بعض الأحيان يضعون باقة صغيرة من الأزهار على جانب المذبح وفي أحيان أخرى، إذ كانت الذراع بطيئة في الإجابة، يقيمون تحتها ناراً - كما يقيم الكاثوليكيون الطيبون بين فلاحي ال (كامبانيا) الرومية صورة القديس جوزيف الصغيرة على رأسه في حوض ماء، لـ "إقناعه" بأن يستجيب لأدعيتهم. ثم يهيجون روح الطبيب - الساحر المتوفى منذ زمن بعيد، فتبدأ الذراع الآن تدور ببطء. وهي تدور حقاً - دائماً تقريباً - من دون الحاجة إلى هزها أو الاحتياال عليها. سقف المعبد مضفورة من قصب مطلية بالطين - قش، ولكنها ليست صلبة جداً أو ثابتة، وأي اهتزاز خفيف قد ينهبها. في بعض الأحيان يكون نسيماً خفيفاً، ودائماً تقريباً دوي الطبول. أحياناً في صمت تام، وانعدام الطبول وعدم وجود حتى نسمة هواء، في الظاهر تدور يد القوة ببطء على محورها - ذراعها، وتنط إلى أعلى أو تهبط إلى أسفل، كما لو أنها تريد أن تقول شيئاً أو تشير إلى شيء - لا تتكلم أي روح من خلالها، وليس ثمة روح تكلمت قط أو ستتكلم أبداً عبر أي وسيط، حي أو غير حي،

في رأيي، ولكنها غريبة، هناك حيث هي منصوبة، ومن اليسير أن نفهم كيف يؤمنون بأن روحاً تحركها.

كنت أعرف أننا لو كنا سنأخذ ديزي معنا، فإننا سنقوم أيضاً بنقل رفات جد ديزي. وهكذا فعندما جاء تلك الليلة، وقد تجردت وامبا- شكراً لله- من ريش نعامها الأحمر والأساور، والتفت الآن برداء أزرق داكن مناسب لرحلة غير مربية. لم أتعجب لرؤية التابوت الصغير المصنوع من خشب الماهو غاني* الملفوف بجلد الفهد بين متاع ديزي، وقد كانت ترقد فيه يد الساحر الأسود الميت منذ زمن بعيد.

وصلنا إلى هناك في أقل من ثلاثة أيام، واتضح أن المستشفى هي بعثة طبية تعود لـ الآباء البلاتيكيين". بالنسبة للرهبان والطبيب الذين استقبلونا، كنت ببساطة استعمارياً أبيض جلب اثنين من المحليين ليزورا قريباً مريضاً.

وكان ديزي ووامبا أيضاً حذرين ومتواضعين. كان في المستشفى مرضى كثير، جميعهم سود، ولم يكونوا متأكدين ما إذا كان نبكه كونو بينهم أم لا. إذا لم تكن السجلات تبين شيئاً فإننا مرحب بنا لنلقي نظرة لمشاهدة كل المرضى الرجال، وعندئذ سميزه بلا ريب أن كان هناك.

كانت الأسماء المحلية يصعب تلقيها أحياناً كما أوضحوا لي. ولكنهم في هذه الأثناء وجدوا اسم "نبكه كونو"، ثم تذكره تماماً، بما أنه قد كان هناك منذ بضعة أسابيع وكان "حالة مثيرة للاهتمام". قالوا إنه قد انصرف إلى البيت، ربما ليموت، قبل بضعة أيام. وكرر الطبيب أنه قد كان حالة مثيرة للاهتمام".

"لماذا كان حالة مثيرة للاهتمام؟"، فقال الطبيب:

"طبيب لأكون صريحاً فإننا مجهزون بالمختبرات والفنيين، ولدي أنا خبرة حياة بالأمراض المحلية... ولكننا لم نستطع أن نعرف ما كانت مشكلة مالنكه العجوز. كان يبدو أنه يذوي من فقر دم مميت أو شيء من هذا القبيل.

وأضاف الدكتور إن فحوصات الدم وكل الاختبارات الأخرى ومحاولات التشخيص أخفقت في إظهار أي شيء مهما كان.

* خشب صلب بني مانل للحمرمة، تصنع منه الأثاث الفاخرة.

شكرتهم، واستأذنتهم أن اترك الشاحنة عندهم بضعة أيام. منذ ذلك الحين فلاحقاً كان الأمر بيد وامبا: ما دمت قد قطعت هذه المسافة كلها من أجل زيارة عمها المريض، فقد كنت مستعداً لصرف بعض الوقت وتركها تجده أن استطاعت.

واتضح أن ذلك أمر يسير للغاية: كانت قرية العم طير على مبعدة خمسة عشر كيلومتراً، ووصلنا إلى هناك، مع الحمالين في تلك الليلة. كان العم طير واحداً من رؤساء القرية، له مجمع كبير، بضعة بيوت، بضع زوجات سرب من الفراخ، وقطيع من الماعز. ساعدت القرية في وضعي في دار ضيافة قشي السقف (تكاد كل قرية في الغابة تمتلك واحداً من هذا النوع) فيما تولى العناية بوامبا وديزي زوجات العم طير. في الصباح التالي أرسلت إلي تدعوني للمجيء ومقابلة العم طير كان متوحشاً عجوزاً بهيجاً، حزناً، لا بد أنه كانت له ذات يوم بنية قوية وحضور آمر...

مسناً أكثر منه عجوزاً حقاً.... وليس متوحشاً على وجه الدقة أيضاً، بما أنني سرعان ما اكتشفت أن بمقدوره أن يتكلم، على نحو جيد، فرنسية مبسطة ورأيت- معلقني من وتدين في الجدار- بدلتين من الملابس المشتراة من الحوانيت مثل العديد من رؤساء القرى المحليين في ذلك الجزء من أفريقيا، كان قد اشتغل جزءاً طويلاً من حياته في الإدارة، كان نوعاً من مشرف على الضرائب لقد ذوى الآن، كان مهزولاً، حزناً ومحبطاً. كان ممدداً في سرير معبأ بالجدار، قصبي الجانب، على بساط من قش مع وسادة ولكنه جلس ليتكلم معنا. قال إن الإدارة هي التي أقنعتته بأن يذهب إلى المستشفى، وقد رضي أن يذهب لا بسبب أطباء الأدوية وإنما لأن الـ "آباء البلاتكين" "باسيتيفويني"- ما يعني: متعاملين بالأمر الروحانية وفوق الطبيعية وشبههم القسس الروم الكاثوليك. أو قسس أي ديانة أخرى.

كان العم طير قد ذهب إلى المستشفى، كما أخبرني- لأنه تصور أن ألفة الباستيفوين وصلواتهم وقداساتهم وحمايتهم قد تساعده. فسألت: "أكان يعرف، إذن.

١ - لم يكن المبشرون البروتستانت مع أنهم كانوا يحظون أحياناً بحبة الأهالي واحترامهم . يعتبرون قط باستيفوين .

ما كانت مشكلته؟" أوه، نعم، يعرفن ورمق وامبا. لذلك كان أرسل في طلب وامبا. رمقها مرة أخرى، فهزت رأسها موافقة: لا بأس في أن يخبرني. وهكذا فقد أخبرني.

كان يعرف وقد أخبرني كل ما يعرف عن سبب كونه يحتضر.

في مكان ما من الغابة، نُحِتَت دمية خشب على هيئته وعمدت باسمه. ثم لُفَّت تَكَرَّاراً بخيط صوف أحمر "جُعل ليكون" خيط حياته. في كل يوم كان يُفَك قليل من الخيط، فيما كانت تعويذتا الـ "باسيكو" والـ "دياما" تُرتلان. عندما يتم الوصول إلى نهاية الخيط الأحمر، سيموت، واقتنعت أنا- الذي لا أؤمن بالخرافات- بأنه سيموت. سيموت، ببساطة ولمجرد أنه كان يعرف أنه سيموت^١.

الأمر الوحيد الذي لم يكن يعرفه هو من يحتمل أن يكون الساحر أو أين أخفيت الدمية.

في هذه الأثناء كانت وامبا- هامسة أولاً لديزي- تتحرك بقلق في الغرفة، ثم تقف مرتجفة مثل قطرة وحشية كبيرة عندما تبدأ تهدد بذيلها. قالت:

ربما لن تموت يا عمي طير. ألم تُعلم أن القدر على شكل مروحة؟ ولكن كان عليك أن ترسل في طلبي أسرع من هذا.

في طريق عودتنا إلى (هوان) التي كانت تضم عدداً كبيراً من السكان المحليين واكبر سوق محلية في الإقليم، قالت وامبا لديزي ولي:

أحتاج إلى مزيد من الوقت، يمكنني أن أعالج هذا الأمر على الطريقة القديمة، كما ينبغي لأمثال هذه الأمور أن تعالج. ولكن الوقت ضيق، وسأعالجه معالجة أسرع.

كان البيض الوحيدون في (هوان) هم رهبان البعثة التبشيرية، ومدير مركز "المخزن المتسلسل" التجاري ورئيس موظفين فرنسي مسؤول عن قلة من الجنود السنغاليين.

ولأنني صرت محلياً إلى حد ما في هذه المهمة الصغيرة، فقد بقيت بعيداً عن البيض. ومنذئذ فلاحقاً، تركت وامبا تدبر العرض.

أخذت وامبا لنا بيتاً عند حاشية المدينة، في مجمع مسيحي من أمام، لكن خلفيته كانت الغابة كلها، له مبان طين- قشية بما في ذلك بيت صغير للفتيش، كما لهذه

١ - بالنسبة للذين يؤمنون بأن الكراهية المركزة والفكر الهدام يمكن أن يثبت انبثاقات شر فعلية، قابلة للإدراك عبر قنوات غير الحواس- لا أستطيع أن أقول إلا أنني- في حين أنهم قد يكونون على حق- لا أصدقهم.

المجمعات دوما وفي وجار كلب الشيطان الصغير هذا ، استعداد ديزي للذهاب كي يشتغل على يد جده .

ساعدت في جمع الحصى من أجل المذبح وقدمت سيجارتين أو ثلاثاً أوكأتها عليه . عندما عدت في تلك الليلة كانت مفقودة ولم أسأل ما إذا كان ديزي قد دخنها هو نفسه أم أنه أحرقها ليسترضي سلفه . كانت وامبا قد قامت برحلة إلى السوق ، وعاد الخدم محملين بالمؤونة . ثم هبطت إلى المدينة لمدة يومين وليلتين ثم عادت ، مرهقة ومتسخة من السفر ويظهر عليها أنها قد هلكت تماماً . لا أظنها نامت قط في الفرجة أعطيتها جرعة من الروم من زجاجة كنت أرسلت أحد الخدم فاشتراها من المخزن التسلسلي . انطرحت فنامت ساعتين ثم جاء الطبالون ثم ذهبنا إلى جلسة تنفيذية مع ذراع جد ديزي . قبل أن تنتهي ، أقمنا صلاة جماعة صغيرة محمومة ... الخدم ... ووجوه أخرى لم يسبق أن رأيتها قط . شاركوا في الصلوات وبدت وامبا مسرورة .

فعلت الذراع فعلها وعندما انتهى ذلك أخبرتني وامبا أنها عرفت كل شيء ، كانت تريد معرفته أين هي الدمية وهوية الساحر . وأني اشك في أن تكون قد عرفت ، أو اشتريت ، هذه المعلومات خلال اليومين والليلتين التي غابتها ، بالعمل ربما كان يعمل رجال التحري أو العصابات المتنازعة في غابات شيكاغو أو نيويورك . قالت وامبا : "إنني ذاهبة الآن ، لأنقذ حياة العم طير . يمكنك المجيء معي إذا كنت تريد . ولكنني أنصحك بعدم المجيء . إنك واحد منا ، رجل أسود بوجه أبيض . ولكنك ربما لن ترغب في أن ترى ما ستراه " .

لم يرافقنا ديزي . قمنا - وامبا وإياي - بسفرة ، مصحوبين برجلين مقطبي الوجوه قالت إنهما "أبناء عمومتهما" .

ربما كان اسمهما سيكون "طوريدان" في الغابة الاميركية .

كانا وحشين غابيين ولكنني شككت أنهما سنغاليين . كانا الآن حافيين ، ولكنني شككت في أن يكونا سبق أن لبسا أحذية وارتديا بدلات . كان ثمة بيت من حجر وطين مبني في مقدم جرف ، على مبعدة أكثر من ميل عن هوان . وكان البيت هو المدخل المقنع لكهف .

دخلنا البيت ودخلنا الكهف . وهناك فوق مذبح ، مضاء بنور الشموع ، ملوثة بدم

فراخ رأيت الدمية الخشب الصغيرة القبيحة التي فُكَّ عنها خيط الحياة حتى الطلق الأخير تقريباً. ولقد توقعت أن أرى عفرته، ولكن الساحرة، التي لن تفك المزيد لأنها كانت مطروحة ترتجف على الأرضية منخولة بكلمات أطلقها "أبناء عمومة" وامبا من مدى قصير، وكانت فتاة شابة بصقت في وجوهنا وهي تموت. لم تكن وامبا تحس ندماً. بل كانت مرحلة ومسرورة كفتاة كشافة قامت بعملها الجيد لذلك اليوم. أقمنا لاحقاً مهرجاناً، "بامبوش"، لنتفعل بنجاة العم طير وبداية تعافيه وبدأ يتحسن على الفور وصار على ما يرام، كما أعتقد، لأنه كان يعرف الآن بأنه سيشفى.

٦-دمية من نشارة الخشب في العليق

على النقيض من إيمان الخوف بالروح كله والذهن كله للعلم طير بالجهنمي، بالقوة فوق الطبيعية لتعاويد السحر والدمية، أقدم بعد ذلك حالة ضحية منوي كان جاحداً ولم يكن عنده خوف واعٍ على الإطلاق.

كان ميكانيكياً شاباً من (مرسيليا)، يفهم بالمكائن وبكل شيء يمكنه أن يمسكه بيديه أو بمفتاح ربط، ولكن تعقيدات علم النفس الحديث كانت بالنسبة له نكتة عملية- هراء*، فكيف بفكرة إيذاء "السحر" له بوساطة دمية أو بالإيحاء.

كان اسمه "لوي باوسيه"، وقد تعرفته أول مرة في مرآب، في (سان ريمي)، حيث كنت أقيم في طابق فوق مطعم رجل عامل. كانت عنده فتاة في قرية جبلية مجاورة، وعندني فتاة في المدينة. تعودنا نحن الأربعة أن نلتقي أحياناً في المطعم ونتقاسم المائدة نفسها، وقد أسرّ لوي وفتاته ذات ليلة أنهما يريدان أن يتزوجا وكانا يعانيان من جدة ماري العجوز الرثة، التي رفضت أن تدعهما يفعلان.

كانت ماري يتيمة قاصراً والجدة هي القيمة عليها، والقوانين الفرنسية صارمة في أمثال هذه الحالة. وقد تساءل لوي إن كنت سأصعد معه ذات يوم وأرى إن كان بمقدوري تقديم المساعدة^١.

ثمة استدارة في إحدى الطرق الرئيسة بعيداً خارج (سان ريمي) حيث يمكنك أن ترفع رأسك فترى القرية الجبلية جاثمة على جرف منحدر فوق ممر يمتد منه الطريق. يصعد طريق ماعز ملتف من تلك النقطة، ولكنه مرقى صعب ونادراً ما يستخدمه

* بالفرنسية في الأصل .

١ - قبل سنوات طوّعت بعض هذه الأحداث في قصة قصيرة . لم أتوقع قط أن أمسها ثانية . ولكنها تستحق في هذا السياق أن تروى كما وقعت .

الناس للصعود، مع أن فلاحي الجبل غالباً ما يهبطون على ذلك الطريق، بما أنه يختصر بضعة أميال. كان لوي يستخدمه أحياناً حتى للصعود، ولكن في صباح الأحد الذي أعد لزيارتنا لماري وجدتها، كنا قد استعرنا سيارة "ستروين" قديمة من مرآبه وقطعنا رحلة الطريق الطويلة بها. كانت ماري تنتظرنا في مقهى وراء الكنيسة.

أخذتنا إلى مستودع حجري قديم، وهو كوخ مزرعة مبني على نحو يائس ولكن بضخامة، يقوم هناك منذ قرون. لدى تقديمي، برسميات فلاحية، سمّت جدتها بـ"السيدة تاير لويه"، ولكن "ماما تايرلو" كان اسماً أكثر ألفة راح لوي وإياها يطلقانه عليها بعدئذ. كانت "ماما تايرلو" ذاوية، هزيلة عند الذراعين والساقين، ولكن بدينة على نحو غير صحي في الوجه والبدن، مثل تفاحة حامضة ذابلة نصف فاسدة. كانت مهذبة في البدء، في محضر غريب، وجلبت نبیذاً مع صحن كعك محلى، ولكن عندما أثير موضوع الزواج وبدأت أتكلم جيداً عن لوي، أمرتني - بصوت خفيض يفح - أن أبقى أنفي خارج أمور الناس الآخرين. حاولت أن أشير إلى أن الأمر يخص كثيراً ماري ولوي، وأنه أهم شيء على الأرض بالنسبة إليهما، وإلى أنني كنت صديق لوي القريب وإنني أعتقد مخلصاً أنه سيكون زوجاً جيداً لماري. حاولت أن أخبرها عن عمله وآفاقه، ففقدت تماسكها وراحت تصرخ علينا أبداً... ما دمت حية!".

ما من جدوى في مناقشة عجوز غريبة الأطوار متهيجة المزاج، وفيما ابتعدنا أطلقت طلقة فراق على لوي:

".... وربما سأعيش أطول منك، ما لم تترك ماري وشأنها!".

قلت لماري، فيما كنا نجلس في الشمس، على شرفة المقهى المطلة على الممر

والوادي:

"أشك في أن تتمكني من إعادتها إلى صوابها. كان المنظر رائعاً. لم يسبق لي أن صعدت إلى هناك من قبل، وكنت أفكر في أنه سيكون مكاناً بديعاً لقضاء أسبوع فيه. كنت أفكر في أنني حتى لو لم أكن ذا عون كبير بوصفي دلال زواج فإنني قد وجدت بقعة تستحق الزيارة لفترة ما عندما أغادر سان ريمي. قلت لماري:

"بعد كل شيء، لا تستطيع السيدة العجوز أن تحيا للأبد، كما أنك ستبلغين-

إضافة لهذا الأمر- السن القانونية خلال سنة أو اثنتين. لم لا تنتظري قليلاً؟". وقال لوي:

"لا نريد أن ننتظر. نريد أن نتزوج". فقلت:
"أريد أن أصعد إلى هنا واقضي بضعة أسابيع على كل حال، وإذا ما فعلت ذلك
فإنني سأكون مسروراً إذا ما تعرفتها على نحو أفضل، وأحاول...." قال لوي:
"لا أظن ذلك سيكون ذا فائدة، ولكن بمقدورك أن تحاول إن كنت صاعداً على أي
حال".

كان ذلك هو الموقف، وكانت تلك هي الحال نفسها عندما صعدت في آب وأخذت
غرفة في النزل. كان النزل يملك المقهى والشرفة على حافة المنحدر. وهو مبني إلى داخل
الحاجز المدلى فوق الممر وثمة ظليلة عربات، حجرية، حُوت إلى مرآب، وكانت غرفتي
فوقها. كان طريق السيارات يصعد عبر مؤخر القرية، والنسيم يصعد من الممر حول
جدران ساحة ظليلة العربات وينضم إلى الطريق تحت نافذتي تقريباً. كان لوي قد وصل
في عطلة لبضعة أيام، وأخذ غرفة أخرى في النزل وكان يرى ماري رغماً عن العجز.
في محادثات تدور أحياناً مع معارف الجدة في القرية علمت أن بعضهم يفترض
أن ماما تايرلو مجنونة نوعاً ما، ويقول آخرون عنها إنها "ساحرة". حددت أذني
قليلاً... ولكن بما أن لكل قرية في جنوبي فرنسا عجوزاً تباع أعشاباً عديمة الضرر
وتنبىء بالمستقبل من أوراق الشاي أو بورق الاستخارة، وتشفي الروماتيزم، أو تحاول-
بالأجنحة والرقي- فإن فضولي لم يرتفع إلا قليلاً. أما فيما يتعلق بأي شك في أن
النوع الذي تمارسه من السحر قد يكون شريراً، أو ربما كان له رابطة بعيدة برفضها ترك
حفيدتها تتزوج لوي، فإن ذلك لم يدخل دماغي قط.

ثم، ذات عصر حار فيما كنت اقرأ متمدداً في غرفتي جنب نافذة مفتوحة، بدأت
سلسلة الأحداث التي أدت أخيراً، بطرق السحر القديم إلى الدمية في العليق. كنت
سمعت غالباً "ماما تايرلو" تتشاجر مع لوين ولكن فجأة، إلى تحت عند زاوية في جدار
الساحة تحت نافذتي، سمعت صوتهما الآن، وكان ثمة نبرة جديدة في صوت العجز. لم
استطع تمييز الكلمات في البدء، ولكنها كانت تهذرم، وكان هو يحاول أن يهدئها،
نصف ودي ونصف صابر وساخر. في هذه الأثناء، كانت نبراتهما من الغرابة بحيث تولد
عندي انطباع غير بهيج بأنها قد تكون على وشك الإصابة بتشنجات، أو "تملك" كما
يدعوها الفرنسيون، فنهضت لأرى ما كان يجري.

كانا يقفان في الأسفل هناك تحت الشمس، هو: طويلٌ محمرُّ أشعث الشعر، حاسر الرأس، يرتدي بنطلوناً قصيراً فضفاضاً مزموماً عند الركبة وقميصاً رياضياً، وهي: رمادية، مقوسة وتشبه الخفاش في قبعتها وشالها، ممدودة الذراعين، جاثمة وسادةً عليه الطريق.

كانت الآن تترنم ساخرة بشعر رتيب غريب، وتحوك- في الوقت نفسه، في الهواء- بيديها الشبيهتين بالمخالب:

انزل، انزل، يا فتاي الجميل

ولكنك لن تصعد

العقل المشبوك سيلتوي ويستدير

وستتلوه القدم المشبوكة

ستهبط، يا جميلي

ولكنك لن تصعد ثانية

إذن، فالتو، التو، التو واستدر

لأن الشباك الصائدة محوكة.

وواصلت تغنيها، وهبطت إلى ركبتيها ممسكة بقدميه وكاحليه، مخرشة وساحبة شريطي حذائه. كان ينحني كما لو ليرفعها إلى أعلى، عندما قفزت جانباً ونهضت. لم تعد تسد طريق لوي، بل وقفت جانباً، داعية إياه أن يمر، بحيث كان ظهرها مُداراً جزئياً نحو، فيما كان لوي يقف بحيث أرى وجهه والتعابير التي تتغير فوقه- انتبهاً مهتماً، غير مصدق، مدهوش في البدء كما لو كان لا يستطيع أن يصدق أذنيه، ثم تكشيرة مرحة ولكن ساخرة متحدية، فيما استأنفت العجوز تهذرم ترنيمتها المضحكة.

قال:

"لا، لا، يا ماما تايرلو. لا يمكنك أن تخيفنني بأمور من هذا النوع. من الأفضل أن تتناولي عصا مكنسة صادقة مخلصة عندما تريد أن تبعدينني. وفري شراكك وتعاوذك للرعاة".

ثم انطلق لوي، بـ "وداعاً" متحدية مرحلة على ممر الماعز صافراً، في حين كانت العجوز تصرخ وراءه، "إلى أسفل، إلى أسفل تنزل، ولكنك لا تصعد يا فتاي البديع، لا ترتفع، لا ترتفع، لا ترتفع!".

كان ذلك قبل سنوات، ولكنني كنت أدري سلفاً، أو ظننت أنني أدري، مقداراً كبيراً من المعلومات عن السحر.

لقد كنت أدري أنه يؤدي إلى تحقيق نتائج، ولكن فقط في الحالات التي يكون الضحية فيها مؤمناً بالخرافات و، بالنتيجة، عرضة للخوف. لم أكن أعرف حينذاك شيئاً قط عن الدور الذي يمكن أن يلعبه العقل الباطن. أحسست ثقة في أن مثل هذا الجحود التام العنيد يكون "سحراً مضاداً" أقوى من أي مقدار من الرقى والماء المقدس، وأحسست ثقة في أن لوي لم يكن في أدنى خطر.

وقد علمت منذئذ أن الأمر بتلك البساطة. ولكنني - لأنني كنت أؤمن بتلك القناعات حينذاك - أنهيت قراءتي، تعشيت مبكراً، تمشيت إلى ذروة قمة كي أراقب مغيب الشمس وذهبت مبكراً إلى الفراش.

في العادة، كانت القرية كلها، بما فيها داخل المنزل، تكون غارقة في النوم والصمت بعد الساعة العاشرة. كان وقع الخطى المقعقع على طول الأرضية الحجر للممر هو ما أيقظني في وقت متأخر من الليل. سمعت أصواتاً مخفضة في الطريق ورأيت أضواءً تشع.

أشعلت ضياءً، ارتديت ملابسني ونزلت إلى أسفل.

كان مدبر المنزل "مارتين بلومب"، يتحدث إلى مجموعة من الجيران. كانت زوجته واقفة في المدخل، ملتفة في مبدل مضرب. قالت

"إننا قلقون على لوي باوسه. لقد هبط ممشي الماعز بعد ظهر اليوم، وقال إنه سيعود من الطريق نفسه. لا مشكلة في ذلك في ضوء النهار، حتى بالنسبة لغريب، ولكنه غير مأمون ليلاً ما لم تعرف كل بوصة منه. لم نفكر بسوء في أنه لم يعد إلى العشاء، ولكن الوقت الآن تجاوز منتصف الليل، ونحن نخشى أن يكون تعرض لحادث".

* بالفرنسية في الأصل .

كان الرجال يبدوون هبوط الممر مقدماً في جماعات من اثنين وثلاثة حاملين فوانيس مزارع، والبعض أضواء كهربائية يدوية. قالوا أن فيه الكثير من "الاستدارات الكاذبة"، صنعتها الماعز، وهي تبحث عن الطعام بين العليق... واستدارة تؤدي إلى ممر آخر.

كان "مارتن بلومب" يصدر توجيهاته إليهم بأن يذهبوا من هنا أو من هناك وأن يبقوا على اتصال أحدهم بالآخر عن طريق الصراخ. مضيت معه، وكان قبل الفجر، بعد ساعات من البحث الخائب، عندما سمعنا صراخاً مغايراً من اليمين. لم استطع تمييز الكلمات ولكن مارتن قال: "لقد وجدوه".

شققنا طريقنا عابرين وتسلقنا نحو الطريق الرئيسة التي كنا نستطيع الآن أن نرى في محاذاتها أنواراً تسطع.

كانوا يحملون لوي على حمالة فقيرة مصنوعة من جذعي شجرة وأغصان صنوبر محوكة. كان واعياً، عيناه مفتوحتان، ولكنه يبدو وكأنه في غيبوبة وقالوا إنه ليس قادراً على تفسير ما جرى له. لم تكن ثمة عظام مكسورة، كما يبدو أنه لم يعانِ أي أذى جسدي، ولكن وجهه كان مجروحاً ومخدشاً وملابسه ممزقة على نحو سيئ، ولا سيما ركبتَي بنطلونه ذاك، اللتين انشقتا وكانتا محوكتين كما لو كان جرجر نفسه على يديه وركبتيه. وكان جورياه وشريطا حذاءيه قد تمزقا إلى أسمال.

اتفقوا جميعاً على ما يمكن أن يكون وقع له. قالوا إنه كان يتسلق صاعداً بين الصخور في حرارة العصر المتأخر، وقد عانى من تعرض للشمس كثيراً، أو من نوع من ضربة الشمس. لقد عثروا عليه على بعد ميل من الممر، في تشابك من أجمة شائكة وعليق. وقال مارتن إنه سيتحسن خلال يوم أو يومين. وكانوا يرسلون أحداً إلى الأسفل، إلى سان ريمين طلباً للطبيب.

كان الوقت فجراً عندما أوتيا إلى الفراش وعندما استيقظت قريباً من الظهر كان الطبيب قد جاء وانصرف قبلاً.

اخبرني مارتن: "لقد أصيب بسكتة دماغية سيئة. رأسه صاف- ولكن ما تزال ثمة مشكلة لم يستطع الطبيب أن يفهمها: عندما حاول النهوض من السرير لم يستطع أن يسير."

ليست ساقاه مكسورتين أو بهما شيء. إن الأمر غريب. يبدو وكأنه يتلوى ويتعثر على قدميه".

فيما كان يتكلم جاءني التأكد بحدة، بأن هنا نهاية التصادف، إنني كنت على خطأ أن شيئاً شريراً يحدث تحت ناظري. قلت:

"يا مارتن، لقد حدث بالأمس شيء لا تعرفه. أريد أن أرى لوي وأتحدث إليه. تقول إن ذهنه صاف؟" فقال مارتن محتاراً

"ولكن بالتأكيد سيريد أن يراك".

كان لوي في السرير، وقد ارتسمت على وجهه ويديه خطوط متكسرة من الجروح.

قلت

"يا لوي، قال لي مارتن أن هناك مشكلة في ساقيك.

اظنني ربما أستطيع أن أخبرك ما...." فقاطعني بلهفة

"لماذا؟ أدرست الطب؟ لو كنا نعرف ذلك! لا يبدو أن هذا الذي جلبناه من سان

ريمي جيد جداً".

"كلا، لست طبيباً. ولكنني لست واثقاً من أن هذا عمل طبيب. لو أنك تدري أين

هي غرفتي كنت عند النافذة أمس وسمعت ورأيت كل شيء مما جرى بينك وبين ماما

تايرلوز أفلم تفكر في أن ثمة ارتباطاً؟".

حدّق إلي في دهشة، وكذلك في نوع من الخيبة الغاضبة. قال:

"هي! أنت، المتعلم الأميركي، أنت تصدق هذه السخافة المجنونة! عجيب، أنا جئت

من هذه الجبال، ولدت هنا، وأعرف أن ذلك الكلام هراء سخيف. لقد فكرت في

الحادث، بالطبع، بأمر انعقاد الرجل ذاك، ولكنه غير معقول. كيف يُعقل؟". قلت:

"ربما لا يعقل. ولكن مع ذلك، أتكلم وتخبرني بما جرى لك عصر أمس وفي الليلة

الفاتنة؟" قال:

هبطت ثم مشيت إلى المفترق وتنقلت مستجدياً وسيلة نقل إلى سان ريمي على

شاحنة، أعادتني وأنزلتني في المفترق ذاته بعد ساعة. عدت لتسلق الممر، وعلقت

قدمي بكرمة أو بشيء ما فسقطت على الأرض. وعندما نهضت وجدت أنني لا بد قد

تجولت بعيداً عن الممر من دون أن أعلم لأنه لم يكن ثمة أي ممر في مدى النظر، وكم

كان المكان كثيفاً بالأجسام الشائكة! تعثرت مرتين... لا يمكن لأحد، غير الماعز، ألا يتعثر في ذلك التشابك....

وأخيراً سقطت مرتين آخرين... وها أنذا، ضائع على ذلك الجانب اللعين من الجبل. وقد وقعت لي السكتة"، أو مهما كانت، فيما بعد. بدأت أدوخ، لم استطع الوقوف، بدا كل شيء غريباً لي. أظنني فزعت، وواصلت محاولة المشي، وبقيت أسقط، حلّ الظلام... وذلك كل ما أتذكر. لو أن الأمر يتركني في هذه الحال فإنني أفضل له أنه كان قتلي إنني أفضل أن أموت على أن أكون كسيحاً".

انحدر لوي إلى صمت كثيب. كنت قد سمعت ما يكفي رقد ناس في الفراش سنوات لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم لا يستطيعون النهوض والمشي. تبين السجلات الطبية الكثير من الحالات التي "عولج فيها أمثال هؤلاء المرضى، ببساطة بأن "طردوا خارج العصابية، ولقد كانت وظيفتي الآن أن أنزع لوي لو استطعت، ليخرج.

لم تقترب لا العجوز ولا حفيدتها من النزول صباح ذلك اليوم. صعدت في الشارع المرصوف على نحو أחרق بالنوافذ ونقرت على بابهما. عندئذ فتحت ماري بتحفظ. قلت: "جئت لأرى ماما تايرلو". فقالت ماري "ليست هنا".

كانت الفتاة في محنة وأحسست أنها كانت تدري أو تشك في سبب مجيئي. قلت "في هذه الحال ينبغي لنا أن نتكلم. أسيكون ذلك على هذا النحو أم أنك تفضلين أن أدخل؟"، فأشارت لي أن أدخل. قلت

يا ماري، أتوسل إليك أن تكوني صادقة إنك تعرفين ما يقوله الناس عن جدتك- وإن بعضاً يقولون الشيء عينه عنك. أرجو ألا يكون هذا القسم غير صحيح.

ولكن جدتك قد فعلت شيئاً أنا مصمم على أن يزول. إنني واثق إلى حد أنني، لو تطلب الأمر، سأذهب لرؤية القسيس، وأجعله يأتي بالشرطة من سان ريمي.

أظنك تعرفين بالضبط عمّ أتحدث. إنه لوي- ولا يمكنني أن أفهم كيف أنك، من تدعين حبه وتريدين الزواج منه...." فقاطعت البنت باكية بشكل يحمل على الشفقة:

كلا، كلا، كلا! لقد حاولت وقف الأمر! لقد حذرته! توسلت إليه البارحة ألا يعود لرؤيتي أبداً أخبرته أن شيئاً مروعاً سيقع، ولكنه ضحك مني. إنه لا يؤمن بأشياء من

هذا النوع. لقد ساعدتُ جدتي في أمور أخرى- لقد أجبرتني على مساعدتها- ولكن ليس قط في أمر بشرائية هذا- وضد لوي؟"، فقلت
"حسناً استحلفك بالله أن تساعدني مهما تكن جدتك قد فعلت. سيكون لوي وأنا من تساعدكما الآن". قالت:

"إنني أخاف، أخشى جدتي أوه، لو كنت تدري! ألا أجزؤ أن اذهب إلى هناك- وإضافة إلى ذلك، فالباب مقفل- وقد لا يكون هناك".

أصررت. كسرنا القفل دخلت البنت أولاً وتبعتهما عن كثب، مضيئاً طريقنا بالمصباح الذي أمسكته عند كتفها. كان السلم الحجري يلتوي بحدة إلى أسفل، كما في جميع بيوت المزارع هذه، ثم يظهر في ما لا بد أنه كان ذات يوم قبو النبيذ. كان الآن يضم أشياء مختلفة لا تبعث على السرور يتأرجح عليها الظل فيما وضعتُ المصباح على برميل وبدأت أتطلع فيما حولي.

كنت قد سمعت أن السحرة، الذين يمارسون كما في ممارسات العصور الوسطى، ما زالوا موجودين في أجزاء معينة من أوروبا ومع ذلك فقد دهشنت لرؤية الدليل المحدد باقياً بهذه الحرفية.

على الجدار المقابل كان ثمة مذبح يعلوه زوج قرون. تحتها كان "INRI" * وقد شوّهت الحروف إلى رموز داعرة- وهناك على الأرض، مرسوماً على نحو ماكر بآلام غير محدودة، مغطياً مساحة واسعة، كان الشيء الذي جئنا للعثور عليه والذي بعث في- على الرغم من كل جهودي لعقلنته- القشعريرة.

كانت تنتشر على الأرضية الترابية، مثل لوحة وحشية في منمنمة، متاهة من الأشواك والعليق. عالقة في مركزها- مثل فراشة اصطادها ورق الذباب- كانت دمية، دمية عادية ذات رأس خزفي على جسد محشو بنشارة الخشب، دمية من النوع الذي يمكن شراؤه بثلاثة فرنكات من أي حانوت لعب- ولكن كائناً ما كان لباس الأطفال الذي يحتمل أنها كانت تلبسه قبلاً، فإنه قد خلع عنها واستبدل ببذلة توجي بالبنطلون القصير الفضفاض المزموم عند الركبة وقميص رياضي رجاليين.

* يسوع الناصري ملك اليهود .

كانت عينا هذا المانيكان مربوطتين بشريط ضيق من قماش أسود، وكانت قدماه وساقاه متشابكة، مثبتة مخزوقة واقعة في متاهة الأشواك والعليق المتصالبة. كان قد سقط فجأة هناك في زاوية قبيحة، لا مستقيماً ولا واقعاً شريراً على نحو متنافر، مثل جثة جندي اصطادته أسلاك شائكة. قد يبدو هذا كله سخيلاً طفولياً، عندما ينقل إلى كلمات ولكنه لم يكن طفولياً، كان شريراً، لعيناً.

خلصت المانيكان برقة تفحصته لأرى ما إذا كان بدنه النشاري مخزوقاً بالدبابيس أو الإبر. ولكن لم يكن ثمة وخزات. من الواضح أن العجوز توقفت عند شفا نية القتل. كانت ماري قد غطت وجهها وأخذت تنتحب بحرقة.

رفعت المصباح، وبدأت ثانية أتطلع فيما حولي، ودخلت ممراً مقنطراً يؤدي إلى جزء آخر من القبو كان ثمة وسيلة من الخشب بالحجم الطبيعي، مدلاة بسلسلة ثقيلة من السقف، مع سيور جلدية مسودة- وتلك وسيلة أكثر انحرافاً مما اخترعت البراعة البشرية إطلاقاً.

كنت أعرف اسمها واستعمالها من صور المنحوتات القديمة في الكتب التي تعالج العنصر السادي- المازوخي القاتم في شعوذة العصور الوسطى. كانت "مهد الساحرة". وكان ثمة شيء يخص السيور الجلدية جعلني أتعجب...

رأيتني ماري أحرق إلى "المهد"، فارتجفت. قلت: "يا ماري أيمكن أن.....". فأجابت، مدلية رأسها:

"نعم. ما دمت قد نزلت إلى هنا فليس ثمة المزيد للإخفاء. ولكنني كنت أكره ذلك، ولقد كانت موضع عدم موافقتي على الدوام".

"لم لم تبغني عنها السلطات؟ إن تهمة القسوة البسيطة كانت ستكفي. لم لم تغادري هذا البيت؟".

فقالت

يا سيد، كنت مرتعبة مما كنت أعرف. وإضافة إلى ذلك فهي جدتي".

كنت بمفردي مع لوي في غرفة نومه. كنت قد جلبت المانيكان معي، ملفوفاً في قطعة جريدة. أريته إياه، وأخبرته بما اكتشفت. كان متشككاً في البدء غير مصدق، ولكن عندما جعلته يرى أن المانيكان قد ألبس بفجاجة ليمثله واتضح له أن ماما تايرلو

قد سعت عامدة لإصابته بأذى شرير، ركبه الغضب ارتفع عن وسائده، وصاح:
 "آه يا للعجوز! لقد قصدت حقاً إيدائي!".

انتهزت فرصة. وقفت وضربت الدمية بالجدار بأقوى ما أمكنتني فتحطم رأسها
 الخرف إلى شظايا. وسألته: "هل آذاك ذلك؟".

"آذاني؟ عم تتحدث؟ أنت مجنون كما العجوز؟"، فقلت:
 "إن الدمية هراء لعين. وطبيعي أن تحطيمها لم يؤذك! والآن، انس كل شيء
 عنها.... وانهض بحق اللعنة عن ذلك السرير! أؤمن أن بمقدورك السير، وسوف تسير".

حدّق إلي بيأس، وغاص ثانية، وقال:
 "إنني لا أؤمن بذلك لقد أصبت بـ "السكتة". إنني لا أؤمن بأي من ذلك.
 لقد أخفقت. بقي ممدداً هناك، ضحية لقصوره غير الواعي.
 ومع ذلك فقد كان عقله الواعي يفتقر، في مفارقة، إلى التصور المطلوب لإخراجه
 منه. قلت:

"يا لوي إنك لا تزال تحب ماري، أليس كذلك؟ حسناً، لقد كانت ماما تايرلو تفعل
 أشياء أسوأ لماري مما حاولت أن تفعل لك". وأخبرته بقسوة، بلوّم تقريباً، عن المهد الذي
 كان يتدلى هناك في القبو، وعن استخدامه.

كان التأثير من العنف بحيث يشبه ما لو أنني لطمته على وجهه. لقد صاح قافزاً
 من سريره كالمجنون:

"آه، آه! يا رعد الله! الشريرة اللعينة!"

وصرخ وهو يندفع في الغرفة: "أين ملابسي؟".

نسي كل ما يتعلق بـ "سكتة" - وانتهى الأمر عند هذا الحد.

عاد لوي باوسه، ميكانيكي المرآب ابن الست والعشرين سنة، في الواقع لا في
 التصور، راشداً كما كنت أعرفه من قبل. لم يكن من النمط المصاب بالنورستانيا*. كان
 خلواً من السذاجة والإيمان بالخرافات. لكنني اكتشفت، فيما تحدثنا وتساءلنا، بعد أن
 انتهى كل شيء، أن لوي باوسه كان يؤمن، في سن الخامسة، بكل الأشياء، البعبعات،

* النهك العصبي .

والساحرات الخبيثات اللائي يملأن الحكايات الخرافية في الإقليم وفولكلوره كما تملأ الغابة السوداء في ألمانيا. لقد أنكرها منذ زمن بعيد عقلياً، ولكن من الواضح أنها تركت شيئاً عميقاً جداً، عاطفياً، نائماً في الواقع في عقله الباطن. إن لعلم النفس اسماً بسيطاً للشيء الشائع الذي وقع له. لقد كانت "سكتة" وعجزه التالي عن الشيء نتيجة لعصاب وخز الضمير.

٧- دمية ممتازة في لندن

اشتبكت في هذه الورطة على نحو غير مباشر لأول مرة حين دعيت ذات ليلة إلى عشاء في فيلا "أليس كريستال بونز" التي تشبه القصور، الواقعة قريباً من (بوان ليس بن)، أثناء واحدة من فترات ثرائي الموقت في (باندول)، حيث كان أقرب جيراني: الدكتور توماس مان، والدكتور الصغير ليون فويشتوانكر، وغيرهما من المنفيين الألمان المشهورين، والدوس هاكسلي، وحيث أصيب د. هـ. لورنس بمرضه الأخير.

كانت الأميرة "فيوليت مورا" قد أوصلتنا أنا و"مارجوري" بالسيارة، ثم في (المولون) كان بين ضيوف العشاء "جان كوكتو"، الكونتيسة "دي نوايه"، و"بيراندلو"- الذي كانت مسرحيته (كما ترغب في) قد ترجمت حديثاً إلى الفرنسية. لم نكن لا "مارجوري" ولا أنا ننتمي على نحو صحيح إلى المجموعة، ولكن بعضاً من كتبي كان قد ترجم أيضاً حديثاً. كنت قد اشترت "قصر زيفون" العتيق الحرب، الذي أمتع هؤلاء الجيران اللامعين الأثرياء... وكانوا يعاملوننا بلطف. وقد استُضفنا تلك الليلة على نحو فاخر بسلسلة من الأطباق الساحرة مع أنبذة تعز على الشراء- فيما جلست "أليس جونز" على رأس المائدة تأكل عصيدة بسيطة من خارج الموسم، في وعاء من خشب، بملعقة من خشب.

كانت جميلة.... هي على الدوام جميلة... ولكنها بدت نحيفة بشكل يبعث على الأسى، كما رأيت، وشاحبة تحت زواقتها.

كانت قد قالت بعدم وضوح كما لو لتتجنب التعليق أو الاضطراب إلى تفسير أكثر تفصيلاً: "أنا على حمية". لم أكن أدري أن العصيدة لا تحوي ملحاً حتى أسرت فيما بعد لي بمتابعها، على انفراد. لم يكن سراً أنني درست السحر الأسود وكان يُفترض

أنني أمارسه. كنت و"أليس" يعرف أحداً الآخر منذ بضع سنوات كانت كريمة نحوي في لندن وقد دعتنا الآن على العشاء طلباً لمساعدتي. وفي وقت متأخر من السهرة، عند زاوية من الشرفة المطلة على البحر المتوسط، بدأت بحذر:

"أعتقد حقاً أنه يمكن صب اللعنات على الناس؟ إنني أتساءل أحياناً، لأن أحداً من الأطباء لا يمكنه أن يعرف مشكلتي". فقلت:

"إنك تنفعين أكثر من التساؤل، إنك تخشين شيئاً محدداً.

وإلا ما كنت لتأكلي من وعاء خشب بملعقة خشب. سأسألك شيئاً: أكان ثمة ملح في تلك العصيدة التي كنت تأكلين؟" فقالت:

"إنك تؤمنين بالخرافات كالمثوحشين، ولقد جمعت كمية بديعة من الخرافات! إن الملح يستحيل سماً عندما يجري سحرك! إنك تتكلمين مثل زوجي*. الأكل من ملعقة فضية قد يقتلك! إنك مرتعبة حتى فقدان العقل من شيء ما فقالت:

"أنا لا أؤمن بالخرافات حقاً. أظن الوعاء والمعلقة لا بد نوعاً من لعبة طفولية العبها". فسألت:

"تلعبين ضد ماذا؟" وأجابت:

"ثمة شيء، ولكنه بليد وضخم إلى حد لا يصدق... طفولي جداً وفي الوقت نفسه أحمق جداً... بحيث أنني أتردد بإخبارك.

أتعرف فتاة في لندن اسمها "انابيل سواين"؟ فقلت:

نعم، لم أرها قط على المسرح ولكنني قابلتها في فندق برج ايفل، وقد رأيته هنا وهناك في أماكن أخرى، في حانة، فتزورني في بعض الأحيان". وواصلت أليس:

حسناً، ثمة حكاية تروج في لندن تقول إنها قد حصلت على دمية غالية... أنت تعرف كيف يصنعون الدمي الآن. مثل دمي الواجهات لتمثل ناساً حقيقيين... وتلك أنا... وتلك ألبستها نسخة منمنمة مطابقة لأحد أروابي من شغل شانيل... الأخضر الموشى بالذهب... وتلك تدعوها أليس... وتسلي نفسها ليلاً بغرز دبابيس وإبر في بطنها!" قلت:

"إن أشياء من هذا النوع لا تنتشر عادة. هل رآها أحد قط؟ كيف تبدأ القصة؟" فقالت أليس:

* حسب الديانة الودونية . ميت أعيد إلى الحياة بدخول قوة فوق طبيعية إلى جسده .

في ذلك الزحام يعرف الجميع الجميع. يعرفون أن فلاناً الفلاتي يدخن الأفيون، وأن الجنرال "تل" يلبس أحذية عالية الأعقاب ومشدات، والآنسة "بفز" عابدة دمي، وأن "آرثر" عنده عشيق زنجي هو ملاكم حاصل على جائزة... إن كل شخص يعرف دائماً كل شيء. وتحظى "انابيل" بإثارتها الصغيرة المقرفة من غرز الدبابيس في دمية... حسناً، إن ذلك سخيف وكريه... ولكنها ليست بالضبط شيئاً يمكن إلقاء القبض عليه بسببه". قلت:

"لا، ولكن كيف تعلمين أن القصة صحيحة؟".

"كانت مملوءة بالشامبانيا ذات ليلة، تتمايل سُكراً، وعندما أوصلها أصدقائها المترنحون إلى بيتها، أصرت على صعودهم إلى الشقة ورؤيتهم إياها تفعلها يقولون إنها حصلت على إثارتها المقرفة تماماً من غرز الدبابيس، وسألوا "أليس" إن كانت توجع".

كانوا يظنون أنها تصير قصة بذيئة بديعة، وتهامسوا بها، بالطبع في كل أنحاء لندن" فسألت:

"إنها تكرهك كثيراً أليس كذلك؟".

"نعم، لقد كرهتني عدة سنوات. إنها فتاة غريبة، شريرة بقدر ما يمكن لنساء من نوعها أن يكن، ولكنني افترض أنه يستحسن أن اعترف بأن لها أسبابها الخاصة لكرهيتي".

فكرت أن ذلك الجزء لم يكن من شأني قط. لقد جعلت كلمة شريرة" ذاكرتي "تتك" عائدة إلى قصة أخرى عن أنابيل سواين سبق أن سمعتها، ونسيتها. لقد كانت واحدة من تلك الأشياء كالثرثرة بأن اللورد فلان بن فلان كان يحمل الفتيات الصغيرات على تعذيب الأرانب. أسوأ فقط. ذلك غير قابل لتكراره مطبوعاً. قلت:

"أيتها اللايدي أليس، لقد كنت تتكلمين على نحو معقول، ساخرة تقريباً، عن تلك الدمية البائسة السخيفة. لماذا تدعينها تخيفك بأي وجه؟" فصاحت:

لكنني لم أفعل! لقد اعتبرتها شيئاً شريراً، أحق، سخيفاً وأوشكت أن أحس بالأسف عليها. كنت أدري أنك ترى أن من السخف أن أخبرك عن ذلك. إنني أدري أن الدمية ليست شيئاً وإنما مصادفة. إن ما أزعجني هو معدتي أنا. إنني واثقة من أنك لا

تريدني أن أبعث فيك السأم بكل الأعراض، ولكن مهما كانت فهي بسيطة. إنني اذهب إلى خيرة الأطباء والاختصاصيين ولكن يبدو أنهم لا يفعلون أي شيء، وذلك يجبرني إلى أسفل. يقول أصدقائي بلا مراعاة "لا تبدين على ما يرام، يا عزيزتي" أو "ينبغي لك أن تأخذي رحلة بحرية" أو "... استراحة طويلة" أو يذكرون عرضاً أنهم يعرفون طبيباً رائعاً، وأنا لست سعيدة جداً بشأن ذلك". فقلت:

"يا سيدتي العزيزة، إنك تكذبين علي وعلى نفسك تقولين إنك لا تؤمنين بالخرافات... ومع ذلك، فمسألة الملح، الرعاء والملعقة الخشب، وحقيقة أنك اخترتني للوثوق بي، كل ذلك يبرهن على أن إدراكك الزائف هو على سطح فقط. لقد صدقت كل أنواع الأمور في حكايات غريم الخرافية عندما كنت بنتاً صغيرة في مرحلة الحضانة، أليس كذلك؟" فقلت:

نعم، وآه: إنني لحنجلى من ذلك، ولكنني أخشى أن تكون على حق، إنني ما زلت بنت الحضانة الصغيرة المرعوبة تلك، في الظلام. لقد طلبت منك المجيء لأن... لأنني خائفة بشكل رهيب".

فقلت من دون اهتمام:

"تكونين جميلة عندما تخافين. لم لا تذهبين إلى لندن، وتدعينني أرافقك؟ سنعرف كل شيء عن الدمية. سنهشمها، ونهشم أنابيل سواين "تك" الغالية أيضاً، إن اضطررت إلى ذلك.

كانت أليس جونز شيئاً من قوة في دنياها العالمية. كانت تعرف عدداً كبيراً من أكبر الناس في لندن بألقابهم الحميمة الودية، وذلك شيء مختلف كلياً عن معرفتهم بألقابهم الرسمية. ومع ذلك، فلم يخطر على بالها قط، كما هو واضح، أن تذهب من أجل هذا الشأن بالطريقة المباشرة التي اقترحتها. افترض أن ذلك كان لا بد بسبب أن مخاوفها، عواطفها، وإيمانها بالخرافات كانت في حجرة مستقلة من ذهنها، بينما كان الجزء العقلاني من ذهنها لا يزال يفكر إمكان أخذ الدمية جدياً. ولكن الآن إذ واجهت مخاوفها ما من شيء يمكنه وقفها. طرنا إلى لندن، وكنت أنا الخائف قليلاً من الطريقة التحكمية التي انغمست بها في العمل.

كان أول ما فعلته أن تelfنت لوزير في الحكومة... في منزله، ثم طلبت مني أن أرافقها وأساعدها في إخباره بالأمر. كانت مدللة كما هن كل النساء الجميلات. من الواضح أن فكرتها الآن كانت تحريك دائرة التحقيقات الجنائية وكل شرطة الإمبراطورية ضد المرأة التي كانت تحاول أن تقتلها". حسناً ربما كانت المرأة تحاول قتلها، ولكن لم يكن ثمة قانون ضد غرز الدبابيس في الدمى.

قلت:

"سيظنك صديقك مجنونة. يمكنك أيضاً أن تستدعي قائد الأميرالية وتطلبي منه أن يستدعي الأسطول! سنستأجر بعض المحققين الخصوصيين بهدوء لنكتشف ما نستطيع اكتشافه عن تلك الدمية، وسأقوم أنا ببعض التحريات من جانبي، من زاوية مختلفة".

أقنعته واستخدمنا شركة يرأسها مفتش قديم في سكوتلانديارد. أخبرت الشركة بما نريد كشفه، ومن وكيف، ولن، كانت دمية تمثل اللايدي جونز قد صنعت خلال الأشهر القليلة الفائتة في لندن دمية ممتازة غالية، بلامح اللايدي جونز وملبسة بالتقليد المنمنم لروب من شغل شانيل أرتهم اللايدي إياه لم تخبرهم لماذا كنا نريد هذه المعلومات كما أنهم لم يسألوا.

كان الافتراض بأن براءة اختراع أو ملكية فكرية قد انتهكا. ثمة "مهن" مرتبطة بصناعة الملابس، كما مع كل تجارة عالمية كبيرة.

ألقوا قليلاً من الأسئلة سألوا إن كانت اللايدي أليس سبق لها قط أن صنعت قالب صورة جصية لرأسها كان ثمة هوس قبل بضع سنوات، ربما تتذكرونه، عراق* ريشة طائر في المنخرين للتنفس، شعر مغطى بقبعة من الحرير المزين، وجه مكسو بالزيت، وقالب جصي مرزوم فوقه لم يسبق لها أن فعلت- ولكن كان ثمة بضعة رؤوس صنعها نحاتون، كما قالت، بمن فيهم أصدقاء هواة، وكان بضعة منها في أطراف لندن، أحدها في استديوهات (رنفرد)، فيما تظن، والأخرى مملوكة فردياً.

أيمكنهم الحصول على قائمة؟ وعناوين؟

* الجزء، المجوف من الماداقلمتقرنة في وسط الريشة .

نعم، إن هي استطاعت أن تجدهم.

في الصباح التالي جلب مراسل تقريراً من وكالة التحقيقات، يقول إنهم يحرزون تقدماً. كانت إحدى عاملاتهم النساء قد زارت أربعة استوديوهات، وفي الرابع- الذي صبح صاحبه تمثالاً نصفياً من الطين النضيج قبل بضعة سنوات، وقد اقتفت المحققة الأثر.

كان حرفي قد جاء إلى الحانوتي، في وقت ما من شباط عندما كان الفنان مسافراً في القارة الأوروبية، وقدم رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة على الورق الخاص للأيدي جونز، موقعة فيما يبدو من قبلها، تأمر فيها بصنع قالب. وقد أذن الحانوتي بالطبع بذلك.... وليس عنده سجل أو ذاكرة باسم الرجل.

لم تكن أليس قد كتبت مثل هذه الرسالة، وكان واضحاً أننا نصل إلى مكان ما. كانت لا تزال امرأة مريضة، تلزم نظاماً غذائياً ذا حمية، تعاني من غشيان متكرر، و"آلام حادة" عرضية. وما كانت تعتقده أو ما لا تعتقده عن هذه الآلام الطاعنة" كما كانت تسميها، معادلة إدراكها البدهي ضد خوفها الخرافي الذي تعترف به، هو مسألة أنا واثق من أنها لم تكن تستطيع الإجابة عنها.

خلال الأسبوع التالي أو نحوه، كان محققونا الخصوصيون يقتفون أثر صانع الدمى الإيطالي في (سوهو)، ويجدون أخيراً، وقد كان صغر نسخة الصورة إلى حجم الدمى وصنع الدمية الفعلية.

كنت اشتغل على الزاوية الأخرى من الحالة. كنت عازماً على أن أكشف، إن استطعت، ما إذا كانت الدمية الممتازة هذه، التي هي وسادة دبابيس، مجرد نزوة منحرفة، شريرة من نزوات أنابيل سواين. أو ما إذا كان شيء أكثر كرهاً وراءها، كان لدي معارف كثر في عالم لندن وضواحيها تحت الأراضي، الذي يسمى بالـ "خفي"، الذي يضم عبادات أكثر من غريبة، جمعيات سرية، مذابح للشيطان، و"سحرة" ومحتالين محترفين أكثر من أي منطقة عاصمية على الأرض. وقد أملت أن أقلب الجانب الآخر في ذلك الوسط. تشمل عبادات لندن عبادة الماعز، عبادات القسوة، عبادات الأشجار، عبادات الأشياء المرعبة الروزيكروشيبة السفاحين دوائر الأشباح الأخوان السود والأخوات الرماديات، جمعيات الانتحار وعباد المومياءات. كان المرحوم

ج. ك. جسترتون يعرف، ويعرف آرثر ماخن اليوم أكثر عن هذه الدوائر الخيالية، المجنونة، والتي هي شريرة في بعض الأحيان أكثر مما اهتمت في أي وقت أن يكتبها. وتشمل هذه العبادات أيضاً الشيطانيين، الذين يدعون التحرر المباشر التقليدي من ممارسي السحر الأسود كما تشمل السحرة وعهود الساحرات التي ازدهرت في العصور الوسطى. إنهم ما زالوا يمارسون السحر، ويحتفلون بالقداس الأسود. كما أنهم يقدمون للجمهور محاكاة مسرحية مضحكة عنها أحياناً، تغطي معناها الباطني وتستثمر الداعر فقط مناجل المال. إن القداس الأسود وحده، عندما يتم الاحتفال به بمفرده بوصفه طقساً، ليس مثيراً إثارة قريبة من إثارة التقارير الشيعة المعينة التي قادت تنويعاتها المستثمرة قراءة كتب السحر إلى الإيمان.

سبق أن رأيتها يُحتفل بها بضع مرات، مرتين في لندن في باريس، في ليون، ومرة ضمن أقل من ميل واحد من قوس واشنطن، في نيويورك. لقد تغيرت قليلاً خلال قرون وهي باعثة على الضجر نوعاً ما، ما لم يحصل المرء على مفاجأة ليخرج من التجديف وانتهاك الأشياء المقدسة. ولقد جذبتن وجرى استثمارها تجارياً في السر- بإضافة قدر كبير من الهراء الداعر- على أيدي محتال لا يزيد شيطانية عن "بولبر" أو القتل بالسم السحرة في فيلادلفيا. لم أكن مهتماً بهؤلاء المزيفين، وإنما بأفراد حقيقيين أعرفهم، وربما كانوا في لندن. إن هؤلاء بطريقتهم المخبولة الملتوية، يؤمنون بعلم الشياطين وبلاهوتهم الجهنمي، وقانونه السماوي. إن شيطانهم هو كبير الملائكة لوسيفر* الساقط، الذي امتلك دائماً قوة على الأرض أكثر من الله، وهدفهم النهائي هو استعادته"- وهم يتجهجونها بحرف كبير- إلى عرش العالم.

إن بعضهم أثرياء، وكثيرون منهم "محترمون"- بدلاً من ذلك- وعاملون تماماً. كان أحدهم، ممن أعرف، حاصلاً على شهادة من (اوكسفورد) وجميعهم طلبة متعمقون في الإنجيل تاريخ الكنيسة التلمود والكابالا**. كما أن السحر هو الشر الصورة المعكوسة للعلاج الذهني، وهكذا فالشيطانية هي معكوس صورة الدين. كم هي حرفية "العكس"

* المقابل الغربي للابليس .

** القبلانية : فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض النصارى المستخدمة رمزاً سحرية .

في وصف الصورة أمر ينبغي لنا ذكره باختصار، حتى بقيمة المجازفة بمقاطعة لاحقة لخيط روايتي، لحظة واحدة.

إن أربع ضرورات كانت دائماً ولا تزال ضرورية للطقس: قسّ مرتد، مضيف مرسوم كاهناً، عاهرة وعذراء. إن القس الزائف في هذه الأيام هو، على العموم، قس تم تجريده من لباس الكهنوت، وطرد من الكنيسة. ويتم الحصول على رقائق خبز الفطير المكرس من قبل متناول زائف يذهب إلى قداس حقيقي بعد طلاء لسانه والأغشية المخاطية لفمه بالشبّ.

أمام مذبح يعلوه صليب مقلوب عاليه سافله، وتتمدد فوقه الفتاة التي هي عذراء، عارية يرتل القس المرتدي سواداً جزءاً من القداس الحقيقي بالمقلوب في لاتينية مهافتة، مستبدلاً كلمة "خير" بـ "شر" وكلمة "الله" بكلمة "الشيطان".

وتؤدي العاهرة، المرتدية لباساً أحمر، واجبات القندلفت ويوضع طاس النبيذ بين نهدي العذراء المتمددة ويراق قسم من النبيذ على جسدها، في دقيقة الذروة، يتم رفع القربان المقدس ورقاقة الفطير المكرس، الذي يعتقدون أنه صار - بتكريسه الحقيقي السابق - جسد المسيح، بدلاً من أن يصعدوه. وبالنسبة يُنتهك. بذلت جهود لتحويللي عن ديانتني ذات مرة، الأمر الذي يفسر سبب معرفتي الزائدة عن الموضوع. ولقد صرفت ليالي كاملة متحدثاً وشارباً الويسكي مع قادة الشيطانيين، واستقبلتهم في استوديوهاتي وحللت في استوديوهاتهم، وجرّت مساعدتي في رسم النجوم الخماسية* بالطباشير على الأرض عندما كانوا يحاولون - كما يحاول الروحانيون مع أشباح الراحلين - إثارة الحضور المتحقق لـ "بَعْلَزَبول"*** أو عشتروت***. كان التحقق الوحيد الذي حظينا به - والذي أخافنا جميعاً، حتى قائد الشيطانيين، حتى فقدنا رشدنا - هو قطعة ضالة جاءتنا من سلم حريق في (تشيلسي) ذات ليلة في الصيف. إن هذا القائد الشيطاني هو من كنت أفكر به الآن. إذا كان لا يزال في لندن، فلربما كانت عنده المعلومات التي أبحث عنها. لم ألق صعوبة كبيرة في العثور عليه، ووافق على

* المستخدمة كرموز سحرية .

** رئيس الشياطين .

*** إلهة الخصب عند الفينيقيين .

مقابلتي في تلك الليلة في خمار (فتزوري). على طاولة في الفجوة الطويلة في الجدار أمام المقصف، أخبرته بالأمر مباشرة وبصراحة. قلت: "إنك تعرف من تجربتك لأكثر من عشر سنوات أنني لست جاسوساً، مخبراً، أو إصلاحياً، وأن لا علاقة لي مع الشرطة. كما أنني غير مرتبط في تحقيق يخص الفعاليات الراهنة. إنني أريد بعض المعلومات الخاصة عن فرد خاص منفرد أريد أن أعرف ما إذا كانت أنا بيل سواين الآن، أو أنها كانت في أي وقت من الأوقات، شيطانية وإن كانت كذلك، فإلى أي مدى تغلغلت في العبادة".

فسأل:

"أثمة جانب شرطة- محكمة في الأمر؟ ابتزاز أو شيء من هذا القبيل؟" فقلت: "كلا، ولن يكون".

كنت قد قدمت له بعض الأفضال في الأيام السالفة عندما كنت دارساً للشيطانية، فقال:

"حسناً، لقد جاء دوري لتقديم معروف لك، وعليك أن تبقي اسمي خارج الأمر. لقد رأيتها في إجراءات التناول، سواء هنا أو في باريس على السواء".
"أكانت في أي وقت من الأوقات دراسة للموضوع الآخر؟".
فقال ناخراً

"أوه! إذن فهذا ما كانت تمارسه! لو كانت خبيرة حقيقية ستصيبني الدهشة لمعرفة ذلك. لكنني أستطيع أن اكتشف الأمر من أجلك... أو ربما صرت تعرف ما يكفي الآن؟". فقلت:

"نعم، أظنني أعرف ما يكفي".

وعند ذلك الوقت كنا نعرف أن عبادة الشيطان وغرز الدبابيس في دمية ليست حقاً جرائم ينص عليها القانون، ولكننا نعرف الآن موضع أقدامنا. كان لأليس جونز النفوذ اللازم، والقسوة الضرورية لتفوق خصمها حصافة. كانت ذات ذهن موضوعي. قالت:
"انك تخبرني أنني لو لم أكن أؤمن بالخرافات، فلربما ما كنت مرضت قط، ولكن سواء أكنت أؤمن بالخرافات أم لا أؤمن، فإنني سأحصل على تلك الدمية وأسلخ جلد أنا بيل سواين!".

كانت تعرف جانباً ممتازاً يمكن منه مهاجمة اناييل سواين، ومع أن ذلك يقترب من معادل "توريطها"، لم يكن لدينا أدنى وخز ضمير عند فعلنا ذلك. كانت الممثلة معروفة بأنها ما يعرف في ذلك الوسط المنحل، كما يدعى الآن في هوليفود، بالـ "متعاملة بالأدوية". لم تكن مدمنة على المخدرات أو مجنونة مخدرات، وربما لم يسبق قط إن كانت كذلك، ولكنها كانت تستعمل الكوكائين والهيريونين بين وقت وآخر، وبالتالي كان عليها أن تشتريها من الباعة المتجولين الذين يمكن العثور عليهم إن لزم الأمر وحملهم بالرشوة على الكلام.

لا بد أنه كان يأتيها، من وقت لآخر، كميات صغيرة في شقتها، وإذا لم يكن أي منهما موجوداً الآن فيمكن "زرعهما" هناك.

ليس هذا عملاً مقبولاً جداً، ولكن الأمر كله كان غير مقبول. وعندما تكون امرأتان جميلتان في تلك المجموعة متحجرة القلب عدوتين لدودتين، تسعى كل منهما إلى سلب رأس الأخرى، فقد كانت ملاحظتي من حياتي الطويلة أنهما تستخدمان، برغبة تامة، أسلحة تجعل القاتل الحقيقي يحمر خجلاً.

بعد ثلاثة أيام، في حوالي الساعة الواحدة صباحاً، عاد محقق مجاز يدعى ياربورو، مصحوباً بسيدتين يحملان شارتين تقولان أنهما عضوان في فرقة مكافحة المخدرات، عادوا من شقة أناييل سواين مع الدمية، ومع ملحوظة قصيرة مخريشة على ورق بنفسي، جاء فيها:

حبيبتى، كانت مجرد مزحة، سيئة بالطبع، وأنني لأسفة إلى حد كبير على كونك عاملتها جدياً. ولكنك تفتقرين إلى حس الدعابة! سأبحر إلى نيويورك غداً، وإذا ما رأيتك ثانية فإنني لأرجو أن تختنقي.

مع كل حبي

قلت: "كانت مزحة سيئة، حقاً، جداً كانت لا تريد إلا قتلك، ولما كنت تؤمنين بالخرافات قدر إيمانها هي فيما يبدو، فإنها لربما كانت ستنتج".

كانت الدمية شيئاً لطيفاً لا يجوز استخدامه على ذلك النحو الشنيع. كانت رائعة صغيرة كاملة من روائع فن المخادع، وجعلني شبهها المحير، الكامل، ارتعش قليلاً. كانت منمنمة لأليس جونز. ولقد تأثرت هي أيضاً عاطفياً.

كانت مصيبة في البدء بشأن لمسها ، ثم انفجرت في ضمك هستيري ، وصفعتها
بصدرها ، وبدأت تعانقها وتقبلها وتطمئنها .

سألتها :

"هل ستحرقينها ؟ ذلك عادة هو الإجراء الكلاسيكي . يمكننا أن نقيم احتفالاً
صغيراً ، وإذا ما كان يسليك ، فبإمكانني أن أقرأ صيغة الخلاص القديمة" فردت بضحكة
ما زالت هستيرية ، ولكن كان فيها - في الوقت ذاته - راحة وشرارة من المرح تقريباً :

"لن أفعل ! سأحتفظ بها وأطعمها عصيدة بلا ملح من ملعقة خشبٍ محبوبة !".

جعلتها ذكرى التباريح التي عانت منها تصحو ، فقالت في الوقت الراهن :

"لو كانت تكرهني إلى ذلك الحد وكانت تريد حقاً أن تراني ميتة ، فلم لم تسممني

وتتخلص مني ؟". فقلت :

"كانت تكرهك وقد فعلت . ألم تدركي أنك كنت مسممة ؟

إنهم يعدمون الناس لتسميم جسدك ، ولكن لا يمكن لأي قانون أن يمسهم عندما

يزرقون السم في دماغك".

٨- دمية مرصعة بالدبابيس في طولون

إن تسميم عقل امرئ ضد امرئ آخر عمل سهل، شائع جداً- من الشيوخ بحيث أن العبارة التي تصفه مألوفة في كل اللغات: "سُمَّ عقله ضد....". هكذا تتحطم الصداقات والمودات والروابط العائلية. هكذا يقتل عطيل، وقد سمم إياكو عقله، دزد مونة.

وتسميم عقول جماعة ضد جماعة أخرى ظاهرة على الدرجة نفسها من المألوفية. إن اصطلاح "الساحر بالكلام"، الذي أطلق أصلاً على الساحرة والمشعوذ الفعلي، صار التسمية العامة للخطيب المثير للغوغاء. إن حديث الربّاح، المباشر في مخاطبته العواطف، وقصر دائرة العقل واستبدال "التفكير" بـ "الإحساس" * يضع الأمم إحداها مقابل الأخرى. إن أدولف هتلر ** ساحر ونسّاج للتعاويز الشريرة أكثر دموية من أقذر ساحر في أي حكاية جنياث ألمانية. إن تسميم العقول ضد شخص أو شيء آخر من الشيوخ بحيث لا حاجة لقول المزيد عنه.

ولكن فن تسميم عقل فرد بطريقة تجعل السم يتأكل داخلياً ظاهرة أكثر غموضاً. لقد كان للساحر أو الساحرة الاحتمار على تكتيكه أو تكتيكها منذ وقت يتعذر تذكره.

بمعاشرة السحرة في الغابات البدائية، وفي "الغابات" الأكثر شراً الموجودة متخفية في أكثر المدن والأرياف قدماً تعلمت أغلب أسرارهم. ولقد كنت أخشى دائماً استخدام ما أعرف- سواء لمساعدة صديق أم لإيذاء عدو.

* وهو سعدان ضخم قصير الغويل قبيح الشكل .

** الكتاب موضوع سنة ١٩٣٩ ومطبوع سنة ١٩٤٠- أثناء الحرب العالمية الثانية . ولهذا تجري الإشارة إلى هتلر بشكل خالص .

مرة واحدة فقط استخدمته سلاحاً مهلكاً ولحسن الحظ اعتباراً لمثل هذا الضمير الذي عندي، توقف الأمر قبل القتل، مع أنه اقترب منه جداً.

ذات يوم بعد أن عدت للمرة الثالثة من أفريقيا وعندما كنت ومارجوري نعيش في فيلا (دي روزيو)، قرب (طولون)، جلب كاهن بارز- كان من دواعي فخرا أن ندعوه صديقنا- أحد المعارف الجدد لزيارتنا كانت صداقتي مع "المونسنيور دي لاتور"، التي امتدت عبر السنوات في باريس على (الريفيرا) في (الجزائر العاصمة) وفي (روما)، صارت من الحميمية بحيث كنا ندعوه، بحبة، باسمه الأول، "رافائيل" وفي إحدى المرات عقد قداس منتصف الليل ليلة عيد الميلاد لبعض ضيوف البيت الذين جاؤا من أجل عيد الميلاد، في المصلى الصغير بالفلا العائدة لنا. وفيما بعد، أطرح- حسب التقليد القديم- ثيابه الكهنوتية جانباً ليذهب إلى المطابخ ويشرف على تطرية لحم الخنزير البري الذي أولمنا عليه.

بسبب هذه الصداقة، كنا الآن ودين تجاه القادم الجديد، وهو أب بنهويل" ما الذي كان قد جلبه ذات يوم على الغذاء في نيسان. أوضح لنا المونسنيور أن الأب، وهو من (بريتاني)، قد انغمس لبضع سنوات في تجارب متصلة بمفهوم حساس للغاية، هو التخاطر الذهني، والاستبصار- وهو نوع العمل المختبري نفسه، فيما أتصور، الذي تقوم به الجامعات البريطانية والأميركية لكنني، مع ذلك، بدأت بالتدريج أشك، أثناء حديثنا الغذائي الأول، في أن زائرنا كان منغمساً في فروع أخرى وأكثر ريبة من الأعمال المحصورة. وهكذا فلم أتعجب عندما أسر لي "رافائيل" في الحديقة فيما بعد أن الأب يمتلك. أو يعتبر نفسه يمتلك- إلى درجة ما- نوعاً من القوة فوق الاعتيادية أبعد بكثير من أي شيء كانت الجامعات تبحثه. وكان رافائيل قد أضاف:

"أظن أنه يمتلك فعلاً شيئاً جالباً جداً للاهتمام لكنني لا أحب ذلك أبداً. ترددت فترة طويلة قبل أن أجلبه إلى هنا اليوم، لكنني أدري أنك مهتم بذلك النوع من الأمر حيثما يكون حقيقياً، أو يبدو حقيقياً ولقد أراد أن يقابلك".

ثار اهتمامي وكنت أحب الأب بنهويل كثيراً بحيث أنه كان عندما يقضي عطلته في طولون، غالباً ما يعود إلى (ليس روزيو).

كان يحب السباحة، تجذيف الكنوّ، والمشي كنت أنهى كتاباً.

فكان حضوره بين أوان وآخر تنوعاً مرغوباً فيه بالنسبة لمارجوري التي كانت تجده مثيراً للاهتمام والتي كانت تحبه كثيراً، أيضاً.

كان وإياها غالباً ما يجلسان على الساحل أمام شرفتنا، بعد السباحة، ويتكلمان في الصوفية ساعات، منشغلين في بعض الأحيان في "قراءة كف" غير مؤذية - ثم، لأسباب معينة لم يخطر لي حينذاك أنها ذات علاقة بي، بدأ يبدو عليها أنها تكن عدم محبة له. واصل المجيء إلى البيت، وقد كان بعد ذلك بوقت طويل أن عرفت أنه كان أدلى بـ "إعلان" عنيف لمارجوري لقد حاول أن يفرض عليها الطافه، وكان رفضها - على الأرجح - محرك ما تلا

لم أكن أعرف شيئاً عن هذا في حينه وهكذا بقينا جميعاً يرى بعضنا بعضاً. ذات عصر - وكان هذا في أواخر نيسان - كان الأب بنهويل، ومونسنيورنا واثنان من الكتاب الفرنسيين وأحد الناشرين، يتناولون المشهيات والشاي. أنجز الحديث إلى العمل. سأل الناشر أو شخص آخر مارجوري ما الذي كانت تعمل عليه في ذلك الوقت، فأخبرت - بحماسة متلهفة، عن الرواية التي كانت تخطط لها، عن كيف أنها تتطلع بمتعة حقيقية لكتابتها، عن كيف أنها كانت تنوي أن تبدأ بهذا في ذلك الأسبوع ذاته، وأنها تنوي أن تكون قد أكملتها في آخر يوم من تشرين الأول.

كانوا قد انصرفوا جميعاً وكان الوقت يقترب من موعد العشاء، وكنت نازلاً عند الساحل أراقب مغيب الشمس عندما جاءت خادمتنا آنا وقالت "يا سيدي يستحسن أن تأتي إلى المنزل، إن السيدة مارجوري تبكي.

وجدتها على كنية الردهة الفرنسية الصغيرة القريبة، بعيداً عن غرفة المعيشة الكبيرة، التي نادراً ما كانت تضاء ولا تكاد تستعمل قط. كانت ترتجف بالعرول، ووجهها مدفون بين الوسائد

رفعت وجهها المخضل ونحبت: يا ويلي أنا تعيسة بشكل رهيب". استللت الأمر منها ببطء شديد، جزئياً لأنني أظن أنها كانت تخشى أن يجعلني ذلك تعيساً أنا أيضاً. قالت:

"أتؤمن أنت ورافائيل بتلك الأشياء أتصدق بأن الأب يمكنه أن يتنبأ بأشياء؟".

فقلت:

"لا أصدق ذلك. ولكن لا أحد يعرف على نحو أكيد ذلك ما يتنازل علماء النفس والعديد من الجامعات الكبرى عن كل ما يملكون ليعرفوه. لا أقصد بشأن الأب بنهويل على وجه التحديد، اعني بشأن الموضوع كله عموماً". فقالت:

"إنني تعيسة جداً، إنني خائفة جداً. فقلت:

لنطرح ذلك للنقاش بالتفصيل. ما الذي أخبرك به؟".

ثم انكشف الأمر كله لم يكن يقرأ كفها فقط قبل قليل، ولكنه أجرى قراءة لخريطة بروجها، فعل الكثير من العمل المربب بالتنجيم وقراءة الكف وما لا يعرف إلا الشيطان ماذا أيضاً. كان قد أخبرها الآن توأ أنه آسف جداً، كسير الفؤاد بشأن الأمر، لكنه قرر أخيراً أن من الأفضل أن يخبرها أنها ستموت في تشرين الأول، قبل أن يكتمل كتابها. فسألتهما:

"أقال إنه واثق؟".

"نعم" قال انه واثق. وأنا تعيسة للغاية. إنني خائفة كثيراً.

وجدت صعوبة في العثور على رافائيل، ولكنني حصلت عليه أخيراً على التلفون في نادٍ كان يتعشى فيه في مارسيليا. قلت:

"يجب أن أراك على الفور. يجب أن تعود إلى هنا أو أنني سأتي إلى مارسيليا إن كنت تفضل ذلك. ولكنني يجب أن أراك الليلة. فقال:

علي أن أذهب إلى باريس في قطار منتصف الليل، فمن الأفضل أن تأتي أنت إلى هنا.

التقينا في ال (سينترا)، وقلت:

"أخبرني الآن بكل ما تعرف أخبرني بكل ما تعرف، أو سمعت به، عن هذا الأب بنهويل". فقال:

"إنني مسرور لأنك تسألني، لأنني إن كنت عرفت كل شيء، أعرفه الآن فإنني ما كنت لأجلبه إلى بيتك. لقد كان يتعاطى، باعتباره هاوياً، السحر الأسود، ولو أنه لم يكن قسيساً- إنني لا أعرف أي شيء فعلي أو رسمي عما هو، وليس سهلاً دائماً اكتشاف ذلك، فإنني أدعوه سحراً أسود. ما الذي جرى؟". فقلت:

"كنت أظن ذلك- ولقد جرى الكثير".

أخبرته بما جرى، فصلب على نفسه قلت:
"لا يمكنك الذهاب إلى باريس الليلة. يجب أن تعثر على الأب بنهويل الليلة، أو صباح الغد. يجب أن تعثر عليه فوراً، وتجلبه لي". فقال:
"كما تعرف، فإن لأبرشية القديس سولبيس مطهرها، وهو واحد من رجال الله الأقوياء، رجل طيب، يكاد يكون قديساً. أعرفه، يمكنني أن أجلبه إلى هنا". فقلت
"لا سأعالج هذا بنفسى".

كان هذا بعد منتصف الليل، وكانت الساعة في حدود السادسة من الصباح نفسه عندما وصل المونسنيور دي لاتور إلى (ليس روزيو) مع الأب بنهويل. كان قد أيقظه من السرير في الـ (غراندي هوتيل) في (طولون)، وقد تناولا القهوة في الطريق. أيقظنا أنا وتناولنا المزيد من القهوة بقيت مارجوري في الطابق الأعلى، في غرفة نومها.
قلت للأب بنهويل:

"حتى لو كان ذلك صحيحاً، يبدو لي أنه أمر مروع لتخبرها به. إن الالتزام الأخلاقي مشكلة عويصة في حالة كهذه، ولكن حتى لو كان الأمر صحيحاً، يبدو لي أنك ما كان لك أن تخبرها. ما لم تكن متأكداً بشكل مطلق فقد كان أمراً شريراً أن تخبرها. فقال:

"إنني آسف بشكل رهيب آسف على نحو مأساوي ولكنني واثق من أن الأمر صحيح". فقلت:

"أأنت واثق بالتأكيد؟". قال:

للأسف، نعم". قلت:

"أرجوك أن تراجع الأمر في ذهنك هنا والآن. خذ كل الوقت الذي تشاء سنذهب رافائيل وأنا إلى الحديقة إن أردت، أو يمكنك أن تأخذ مكتبي إن أردت، من أجل الهدوء. ولكنني أتوسل إليك أن تتأمل ما إذا كان ثمة شيء أهملته مما يجعله غير أكيد، مما يجعله إساءة قراءة محتملة لعلاماتك وفألك أو كائناً ما كان ما تدعوها به!". فقال:

"كلا، لقد كافحت مع الأمر وعانيت منه طول الليل بعد أن تركتكم.
إنني آسف بشكل رهيب". بقيت أكرر، قلت:

"أأنت متأكد بشكل مطلق أن الأمر أكيد؟ قال:
نعم، أنا متأكد.
عندئذ عرفت ما كان يتوجب عليّ أن افعله. قلت:
"يا مونسنيور الأب، أسمعت- في تنقيبك عن هذا المفهوم الخاص- قط بالمصير
الذي على شكل مروحة؟" فقال:
كلا، وما هو؟". قلت:
حسناً، إنه في كل كتاب. لقد علمتُ بشأنه من الساحرة السوداء وامبا، التي كنت
أعيش معها، في ساحل العاج".
نظر إلي ثابت العين، وكرر:
لم أسمع به قط.
نهضت وصفرت لحناً سخيلاً، "رفاق الأسطول"*، الذي يغنيه البحارة عندما
يكونون سكارى ومرحين. أرثت سيجارة وقدمت له واحدة. كان قلقاً نوعاً ما، ولكن
ليس كثيراً. قلت بخفة:
"الوداع، أيها المونسنيور الأب. كان لطفاً منك أن تتجشم عناء المجيء إلى هنا
هذا الصباح".
نهض لينصرف، وهو لا يزال مهذباً، رصيناً، مؤدباً، لا يمكن مؤاخذته على شيء،
ولكنني كنت أعرف أنه سيسألني عن أشكال المروحة قبل أن ينصرف. وقد فعل. فقلت،
من دون اهتمام:
"ألم تسمع بها حقاً؟". فقال:
"لا". قلت:
"حسناً، إن ذلك سيئ جداً بالنسبة لك فقط، أيها المونسنيور الأب". وقال:
لماذا؟". فقلت:
"لأن مارجوري ستكون على ما يرام ومشركة ومتألقة في تشرين الأول- ولكن ما
إذا كنت أنت ستكون حياً حينذاك مسألة ستكون مشكوكاً فيها للغاية".

* بالفرنسية في الأصل .

قال رافائيل:

ما الذي ستفعله، يا بني؟". فقلت:

"أريدك أن تبقي يديك النظيفتين بعيدتين. إنه شغل قذر.

قال:

ما زلت أظن أن عليك أن تدعني أجلب المطهرين، وأنت تدري أنه سيكون أمامي
الواجب غير المبهج في أن يكشف لاحقاً ما إذا كان هذا المدعو الأب قد رسم كاهناً حقاً،
الأمر الذي بدأت أشك فيه، ولكن- في الوقت الراهن- سيكون الأمر كما ترغب".
فقلت:

"أشكرك. وجواباً على سؤالك، لا أدري بعد ما الذي سأفعله، لأنني لست واثقاً
بعد ما الذي أحاربه. إنه أمر خطر بالنسبة للمستبصر، حتى إذا كان رجلاً ذا نية طيبة
ومسيحياً، أن يلعب أيضاً بالسكر الأسود.

إنه أمر شرير أساساً لأن المستبصر، مع أنه يكون رجلاً ذا نية طيبة، يكون تحت
الإغراء، الواعي أو غير الواعي، لاستخدام سحره ليسبب تحقيق نبوءته. ربما، ببساطة،
حماية لأناه، لغروره البشري، لمقامه. قد يكون ذلك هو الحال مع ذلك النوع. ولكن ربما
يكون أمر أكثر شرعية. قد يكون أبونا عازماً على تحقيق موت مارجوري لأنه يتمنى
لها أن تموت. فـ "تنبأ" بموتها مقدماً. لو كان الأمر هو هذا الأخير فهو يستحق، بالطبع،
أن أقتله، يستحقه كما لو أنني رأيته يغرز فيها سكيناً. ولو كان الأمر الأول، فإنني لا
أريد أن يكون موته على يدي. لا أدري بعد ما الذي أواجهه أو ما ينبغي لي أن أفعل،
ولكنني خائف كثيراً جداً من هذا الأب بنهويل. ولما كنت أخافه، فإنني سأهاجمه. فقال
رافائيل:

"الأمر كله خطر جداً". قلت

أدري أنه خطر، وأنا لآسف كثيراً، ولكنك ينبغي لك أن تبقي يديك بعيدتين عن
الأمر".

قبل ذهاب المونسنيور دي لاتور إلى باريس طلب مني أن أخبره عن مصير وامبا
الذي على شكل مروحة، ففعلت ذلك على أفضل ما وسعني. كانت وامبا تؤمن، وقد
علمتني، أن كل الأحداث المحتملة مستقبلاً توجد أصلاً في الزمان والمكان. يبدو ذلك

مثل الجبرية المطلقة، ولكنه ليس كذلك. لأنها كانت تؤمن أيضاً أن المستقبل، لو جرى التنبؤ به، قد يمكن السيطرة عليه إلى درجة ما. والغرض الحقيقي من استشارة الفتيش وممارسة الكهانة هو حل رمز المستقبل والسيطرة عليه. إن أولئك الجبريين منا، نحن البيض، يؤمنون عادة بمصير محدد سلفاً، بعناية إلهية، أو قسمة لا يمكن تغييرها، ولا مفر منها. ما سيقع سيقع. ولكن وامبا كانت تؤمن على نحو آخر.

كانت تؤمن أن المصير، مع أنه مكتوب سلفاً. يخط نفسه إلى المستقبل لا كخط مستقيم، وإنما على شكل مروحة، في ممرات متناوبة لا تعد ولا تحصى، متضاعفاً إلى ما لا نهاية له. لقد نقلت لي هذا المفهوم الصعب عن المصير مروحي الشكل عبر تشابه جزئي بارع: إنني أسير في غابة مجهولة. ثمة اتجاهات كثيرة للمسير، كثرة النقاط على البوصلة.

إنني لا أعرف شيئاً عما ينتظرني في أي اتجاه، ولكن في كل الاتجاهات ينتظرني الـ قَدَرُ، الأشياء المكتوبة سلفاً. بمعنى أنها، جنينياً، موجودة سلفاً، وهل ثمة حتمي ولكن متغير اعتماداً على الطريق الذي انتهجه. في ممر ما ثمة شجرة سأقطف منها فاكهة منعشة. وفي آخر، ينتظر فهد أن يثب عليّ، سأقتله إذا أخذت ممرّاً جانبياً، سأقتل بدلاً من أن أصير ضحيته المقسومة سلفاً. وإلى جانب ممر آخر ثمة نبع ماء جيد. في اتجاه آخر، ثمة شرك فيل سأقع فيها وأموت على الخوازيق. وفي واحد آخر، ثمة مخيم ودي سأعامل فيه على نحو جيد. وكل هذه الأشياء مكتوبة على هيئة مروحة في المستقبل، علمتني وامبا- كما هي الحال غالباً في "الغابة الاعمق" للحياة البشرية كلها- أنه ما من عملية منطق أو عقل يمكن أن تكشف ما إذا كان الأفضل الاستدارة ميئاً أو شمالاً.

وبما أننا نتحرك على الدوام في هذا الممر أو ذاك من الرحم إلى اللحد، وبما أنه حتى التوقف للسكون هو أيضاً نوع من التحرك فما من أتفه اختيار في أصغر الأمور. لا حادث- مهما ضؤل شأنه- هو خلو من قدرته على تغيير حياة المرء. ولهذا يستشير البدائي الزنجي فيتشبه، لهذا يبتكر تعاويذ وقائم لحمايته في الورطة. لو أننا لا نؤمن بطرائقه، يمكننا في الأقل أن نبدأ بفهم سبب اعتباره تجربة شيء ما ضرورية. نحن البيض غالباً ما ندرک، وبصدمة أحياناً، أنه على رغم كل عملياتنا للتنبؤ

المنطقي، فإننا نسير نحن أيضاً في هذه المتاهة. من دون أن نعرف إلى أين سيؤدي كل
مر. تنصفق البوابة متغلقة ويفوت المرء قطاره في جزء من ثانية لأنه بحث، مرتبكاً، عن
فكة عندما اشترى جريدة الصباح، وفي اليوم التالي يقرأ، في جريدة أخرى:
الحطام، مع قائمة بأسماء الموتى... قائمة كانت ستضم اسمه. تكون المأساة عادة
أقل مفاجأة، أقل إذهالاً، أقل حسماً ولكن الظاهر أن مخاطر أو قرارات غير ذات
معنى تغير كل حيواتنا. "ستأتي لتصير الرابع في لعبة البريدج هذا المساء؟" "آسف،
عندي شغل لا بد أن أنجزه". إنك تتردد، وقد أوشك صديقك أن يغلق التلفون قبل أن
تسمع صوت الغلق بالضبط، تقول: "أوه، حسناً، سأجيء على كل حال". خلال السهرة
تدخل فتاة ربما لم يسبق أن رأيتها، ولا سمعت بها، وبعد ستة أشهر تتزوجها غداً،
حسبما أعرف، قد أذهب إلى المنعطف لشراء علبة سجائر، فتدهسنني شاحنة- أو أبدأ
سياقاً آخر سيجعلني مليونيراً بعد خمس سنوات من الآن، أو يضعني في الدرك
الأسفل. والآن، فإن الفرق الأساسي بين عقل وامبا وعقلي، أو عقلك، هو أنها- فيما
نعتبر نحن كل هذه السياقات العمياء غير قابلة للتنبؤ، وعلى ذلك، عصية على
السيطرة- تعتقد هي أنها تشكل طرازاً غامضاً يمكن تفسيره إلى درجة ما وبالتالي
السيطرة عليه.

وهذا، كما أظن، هو واحد العناصر الأساسية للسايكولوجيا والشعوذة البدائين
لدى السود. في متاهة الحياة مروحية الشكل، حيث لا يبدو، لا المنطق ولا الإرادة
الموجهة عن وعي مناسيين، يبحث المتوحش عن التوجيه فوق الطبيعي في فتيشاته، كما
يبحث عنها المسيحي على ركبتيه في الصلاة.

كان رافائيل، فعلياً، على ركبتيه قبل أن يودعنا، وما لم يختار المرء أن يسمى
صلاته تدخلاً، فإنه أبقى يديه بعيدتين عن كل شيء حتى النهاية، فيما عدا أنني
جعلت مارجوري، بناء على نصيحته، يعاد فحصها من جانب بضعة من خيرة الأطباء
في مرسليليا. لم يكن يريد لي أن تُثقل جريمة قتل محتملة عل ضميري لو انكشف أن
الأب كان مستبصراً حقاً، إنه أحس، بالحدس، أن ملاك الموت كان- لا عن طريق رغبة
بشرية أو إرادة مجرمة من جانبه- فعلاً على مدخل باب مارجوري، يدقه أصلاً بالهدوء
الممكن. ولكن الأطباء قالوا:

عضويا ووظيفياً، هي سليمة تماماً، عيشها المتوقع خمسون سنة. نصف قرن... أي شيء يحلو لك أن تخمنه. أهي مريضة؟ إنها تبدو عصبية، وعلى كل حال، ما الأمر كله؟. فقلت:

"أوه لا شيء مجرد أنها صارت عصبية بسبب شيء ما".

وكانت، في الواقع، مرتعبة على نحو رهيب. أصيبت بالكآبة مقدماً، واعية بحدة بكل معالجاتها الفيزيولوجية، ومتصورة كل أنواع الأمور. تلك هي الطريقة التي يبدأ بها الأمر دائماً. لو أنك صرت واعياً بأعضائك الداخلية العميقة ووظائفها: القلب، الكليتين، التعرق، بصرف النظر عن مدى سلامتها، فإنها سرعان ما تبدأ بمضايقتك. أضف الخوف الاعتيادي، وستكون مريضاً أضف الإيمان بالخرافات وستنهار تماماً.

في ممارسة السحر والسحر الأسود، يمكن أن تكون للمرء "انقطاعات سيئة" و"انقطاعات حسنة"، كما في كل شيء آخر، بالضبط.

لم أكن قد قررت بعد خطة عملي الكاملة، ولكن على الفور تقريباً، قبل انقضاء ثلاثة أيام، جاء بازل أورليه من باريس، في سيارته الـ "بوغاتي الصغيرة، لرؤيتي. كان قد وقع أمر هو حظ طيب لي، وعكس ذلك للأب بنهويل.

كان الأب قد أسرّ بما كان على حق في تسميته لصديقي أورليه بـ "تهديدي لحياته" كان طبيعياً أنه قد فعل ذلك ما دام لا يعرف شيئاً عن صداقتنا الوثيقة. كان أورليه معروفاً بأنه يعرف عن السحر الأسود والسحر الأبيض، تاريخهما، فنهما، آلياتهما وحدودهما، أكثر من أي رجل آخر في أوروبا. كانت هذه، بالنسبة للصحافي العملي، اللامع والناجح، هواية عمره، كما يتجه بعض الناس نحو السنسكريتية أو الفخار... فيما عدا أنه كان أكثر من عمل هواية. سابقاً، في سنة ١٩٢٧، اختلط مع واحدة من جماعات الشيطانيين في (ليون)، التي أرادت فيما بعد أن تستخدمه لبعض المقاصد التي تخصها، وهي إجرامية بالتحديد، وكان سبق له أن اشتغل في جانبها الأسود. رفضوا إطلاقه، وعندما تمدهاهم، هددوا بأن يحطموا ابنته الصغيرة. استخدم أورليه، المجرد من الوهم والعارف بأن السحر ليس فيه شيء فوق طبيعي، بقسوة، على رغم من ذلك، تكتيكهم ضدهم... بالمعكوس... وتغلب عليهم به!

في شقة اورليه بالشانزليزه، كان الوضع جميلاً كما احتفال عيد الميلاد، وتصورت البنت الصغيرة أن ذلك كان لعبة جديدة لطيفة ابتكرها أبوها لتسليتها. على باب غرفة حضانتها كان سيف صليبي كبير يتدلى، مقلوباً بحيث يشكل الصليب المقدس. وحول ثقب المفتاح والمفاصل كانت حلى من الغار محوكة على شكل حبل. على النوافذ وفي المدخنة كانت ثمة أعشاب ورموز أخرى، بعضها سحر أبيض مسيحي، وبعضها وثني، من التراكيب السحيقة في القدم. وحول منطقة غرفة الحضانة كلها، كان يتمدد - ماراً خلال، وفي، وإلى خارج الشقق الأخرى، في دهان أبيض بدلاً من الطباشير - النجمة الخماسية المقدسة. وإضافة إلى هذا، كانت الطفلة والحاضنة البريتانية تلبسان عقدين تحت ثيابهما عليهما ميداليات مقدسة صغيرة، وتنام، قديمة منذ ما قبل أن يطرد المسيح الشياطين عند شواطئ الجليل - بحيث كانتا تخرجان بانتظام لتتمشيا في المتنزه كالمعتاد. وفوق ذلك فقد أرسل مراسلين إلى ليون ليخبروهم بذلك كله، مضيفاً أنهم لو لم يكفوا على الفور، فإنه سيكف عن الدفاع المجرد - وسيدمرهم تماماً؛ كان أورليه قد قال، بسخرية وحسية:

كان ذلك هراء، لكنه كان الهراء الصحيح. إن انغمست في ذلك النوع من "الهراء" فعليك أن تمضي الشوط كله، ولا تترك أي ثغرات إنهم لا يجروون على أن يردوا الضربة... عندئذ أو في أي وقت.

كان عباد الشيطان يخشونه ويخشون "سها"، لأن أياً منها لم يكن هراء بالنسبة لهم، هم المهووسون المؤمنون حقاً كما كل طائفة أخرى تؤمن بالخرافات، أو أي من متوحشي الغابات. لم يجروا على مس الطفلة أكثر من جرأتك على لمس أفعى كوبرا مختبئة.

كانت الفرجة المحظوظة التي اتبحت لي الآن هي أن اورليه كان يعرف ما تعلمته وفعلته هناك في ساحل العاج، ولأنه كان صديقي المخلص لا صديقاً للأب، وإذا أحس أن ثمة حرباً بيننا، فلم تكن لديه رحمة ولا روادع. كان قد قال للأب:

"يا إلهي العظيم، يا رجل، لا أدري ما الذي فعلته، ما إذ كنت مخلصاً أو على حق، أم لا، أو أين تستقر العدالة، ولكنني آسف لك، ولا أدري بم أنصحك. إنني أفضل ألا تخبرني بالمزيد عن الأمر".

وكان الأب قد سألك
لماذا؟".

وكان اورليه قد قال:

"لأنني أظنك ستموت في شهر تشرين الأول. ربما تكون قد أثرت كل أطباء السحر الأسود في الساحل الغربي، وإذا حصل وأنت حتى كنت هناك، فأنت تعرف ما يعني ذلك! إن ذلك الاميركي، على الرغم من الفجاجة التي يبدو عليها، قد تعلم أكثر مما ينبغي لأي ابيض أن يتعلمه. إنني أخشى أن يقتلك- ولا تسيء فهمي- لن يفعل ذلك بأي طريقة يمكن للشرطة أن توقفها!".

وكان الأب قد سأل:

"أتؤمن بتلك الأشياء، يا سيد اورليه؟"، وكان اورليه قد أجاب:
لا أؤمن بها. بل أعرفها. ومع ذلك، فما لم أكن أسأت قراءة طبيعتك ونفسيك، ثمة نصيحة واحدة يمكنني أن أقدمها لك. ما لم تكن تعرف عنها أكثر مما أظنك تعرف، فإن حمايتك الوحيدة الممكنة معلقة هناك بالضبط حول رقبتك- صليك".
وعندئذ- كما أخبرني أورليه- كان الأب بنهويل قد اعترف، في لحظة رعب:
"يا للأسف، يا سيد، لا أستطيع استخدام ذلك".

وكان ذلك حقاً ما جاء اورليه كي يخبرني به. وكذلك، فقد جاء ليساعدني. كنا نعرف ما ينبغي لنا أن نفعله- وشرعنا بقسوة نفعله. كنت اعرف، بالطبع كما كان اورليه قد عرف بأمر السيوف والغار، وإن بعض هذه الأشياء التي فعلناها كانت، في حالة من قول الـهراء"، ولكننا كنا نعرف أيضاً أنه لن يكون هراءً بالنسبة للأب بنهويل. كان اورليه- الذي هو أقوى مني وأكثر ثقة بالنفس ورجلاً أفضل مني- قانعاً بالدفاع- كنت أنا خائفاً، فكنت أهاجم.

اشترت دمية صغيرة قبيحة، وألبستها ملابس صغيرة لقسيس زائف برداء أسود، وحملتها صليباً صغيراً مقلوباً مدلى من عنقها، مع رمز دقيق لوزغ. غرزت بعض المسامير الصغيرة ذات الرؤوس البرونز في منطقة كليتها، واثنين آخرين في بطنها الصغير، ثم التقطت لها صورة، طبعت منها نسخة واحدة، وأتلقت السالب، ودبرت إرسال المطبوعة إلى الأب بنهويل- من بيت دعاة في مارسيلييا. وما فعلته بالدمية

فيما بعد، ولعدد من الأسابيع المتتالية، يشمل تناقضاً ظاهرياً لأطروحتي واعتقادي الرئيسين بأن الدمية الصغيرة القبيحة عديمة الضرر أساسياً. إنها لا تستطيع إيذاء الأب بنهويل إلا عن طريق معرفته المباشرة وخوفه اليأس منها، وإن القوة الوحيدة للسحر تكمن في الحقل المكشوف للإيحاء، وإن الإيحاء لا يمكن زرعه وتوسيعه إلا عبر قنوات الحواس الطبيعية، الاعتيادية المباشرة. وجدت نفسي الآن متنافراً... مثل أي ساحر من سحرة القرن الثالث عشر... مثل وامبا في الغابة... أحوك "تعاويد" الكراهية ذات قوافي الحضانة القديمة حول الدمية الصغيرة غير الحية السخيفة القبيحة. وصرفت الكثير من الوقت والجهد المركزين- اللذين يأخذان مصدر الطاقة من الإنسان الذي يفعل ذلك- متمنياً وراغباً في أن يعاني الأب بنهويل ويموت.

كيف أستطيع أن أسوِّغ عدم التناغم ذاك؟ كيف أواصل لاحقاً تأكيد إيماني المعلن بأنه لا يوجد إطلاقاً أي شيء حتى فوق اعتيادي، فكيف بفوق الطبيعي- تحت سلطة السحر؟

لا يمكنني أن أجيب إلا كما فعل جستر-ton، عندما سئل إن كان يؤمن بالأشباح، فقال بإخلاص "لا، إطلاقاً"، ثم أضاف بإخلاص نادر لكنني أخافها!". حسناً، كنت خائفاً- خائفاً من أن أكون مخطئاً.

كنت واثقاً من عدم وجود ما هو فوق طبيعي في الهراء الخداع- ولكن خائفاً من أنني قد أكون مخطئاً في نكران أي قوة لما فوق الاعتيادي. لو أن البروفسور راين وزملاؤه هم على الطريق الصحيح- لو أن النتائج فوق الحساسة، التخاطر، الاستبصار والخ... ظواهر صحيحة، لو أن لعب الورق أو الورق المعلم بدوائر بنجوم، وبخطوط الموج، يمكن أن ترسل "أي فيوض مهما كانت مما يمكن التقاطها" في أية حالة مهما كانت، عن غير طريق الأثر المباشر على واحدة من الحواس الاعتيادية الخمس- فإن دمية ساحرٍ يمكنها أن ترسل فيوضاً فائقة الحساسية أيضاً! إذا كان بمقدور ابتون سنكلير أن يركز على الرسم بقلم الرصاص لقطعة أو شوكة مطبخ، ويصل زوجته بالتخاطر عبر غرفة اعتيادية، فمن الممكن أن يتمكن الساحر من التركيز على الدمية ويصل إلى عدوه بأفكار وصور مركزة، مسممة، بصور شريرة وهدامة، عبر أفريقيا، أو فرنسا. إنني أنوي أن أقدم أسبابي الكاملة، فيما بعد، للشك في أن أي شيء من هذا

القبيل قد تمت البرهنة عليه بشكل حاسم ولكن يبقى السؤال المفتوح النهائي... آخر قناع للغموض بعد أن يكون قناع الخرافة قد تمزق. وفي هذا النزاع القبيح، ومارجوري تحت الخطر، لم أكن لأجازف قط.

أنفقت كل قوة عاطفية عندي، جاعلاً الدمية رمزي غير المقدس... بالضبط كما ينفق المؤمنون الساعات في سحر الدين الأبيض النقي أمام صورهم التي تكون في بعض الأحيان "دمى" أيضاً، ولكنها نظيفة ومقدسة، سابحة في ضوء الإيمان والحب النقي. كنت أشبع ديمتي بالظلام والشر، إن كنت أستطيع.

لا أستطيع أن أعرف، وفي الحقيقة ينبغي لي أن أشك، بأنني نجحت في إظهار خصائص أي "سم" خارق للطبيعة، أي هالة فوق حسية للشر والهدم يمكن أن يجعل، أو تجعل، عدوي يشعر بها عبر أي قنوات غامضة لما فوق الاعتيادي. حقاً لقد اهتممت- بوسائل ملتوية ولكن اعتيادية، ضمن المعونة غير المباشرة لبازل اورليه- بأن يبقى الأب، الذي كان يؤمن على نحو ضمني بها جميعاً، يؤمن بطريقة لا نستطيعها لا أنا ولا اغلب قرائي، على اطلاع ويتابع الاطلاع على أي شيء، كنت أفعله له في تمثال الدمية ذاك.

في آب جاءت رسالة بالبريد المسجل من الأب بنهويل، يقول فيها إنه آسف بشدة، يريد أن يطلب بتواضع، السماح على الغلطة الفظيعة التي ارتكبها وتطمين مارجوري، إنه كان ثمة أمر أساء قراءته، قرأه خطأ، عن دورة حياة مارجوري المقدرة سلفاً، إنه عرف الآن أنه كان على خطأ وأنه لن يسامح نفسه- مع أنه صلى لكي يسامحها- على أنه أخافنا من دون حاجة كان يتوسل إلي أن أكف. ولكن هذا كان في آب فقط. كان تشرين الأول لا يزال على مبعده شهرين. ونهاية تشرين الأول على بعد ثلاثة أشهر. وكنت أخشى أن أرد عليه.

في أيلول دخل مستشفى في باريس، وكان الأطباء يتصورون أنهم يعرفون ما كانت مشكلته. كان يعاني من ألم في منطقة الكليتين، وكانوا يفكرون في إجراء عملية جراحية. أكرر بأنني خلو من الخرافة وأظنني كنت خلواً من الشفقة أيضاً. كنت مزهواً بنفسي، ويدا لي أن مارجوري- التي كانت فقدت وزناً- فقدت حمرة لونها الصحية، وصارت نوعاً من مريضة وهم* طيلة الصيف. كانت تستعيد سلامتها وتبدأ

* بالفرنسية في الأصل .

بالعودة إلى حالها الطبيعية. لم أكن أريد أي جريمة قتل على ضميري، ولكنني لم أكن أعرف ما أفعل. لم تعد مارجوري تعيسة أو مرتعبة بعمق، ولكن كانت لا تزال خائفة، عن غير وعي إن لم تعلن ذلك، من شهر تشرين الأول.

كان الأب قد أرسل، في عمل يائس منه، كما عرفت أخيراً، في طلب المونسنيور دي لاتور ليعترف بأنه كان مذنّباً للتعاطي بأمور محرّمة كنسياً، وليتوسل في طلب تدخل رافائيل لإنقاذ حياته وروحه، اللتين كان واثقاً الآن من أنهما في خطر مهلك. جاء رافائيل جنوباً ليتحدث إليّ. وكان الحديث كثيباً جداً. قال:

"إن الرجل الحقير نادم ومريض لحد الموت. ثمة جانبان لهذا الأمر كلاهما يهمانني عميقاً، ويجب أن أحاول تفسيرهما لك. ليس سحراً غالساً ولا قتلاً كاملاً.... لو أنه كان تسبب في وفاة مارجوري.... ستكون الخطيئة مقابل الروح القدس.

"إن اللاعب سيئ السمعة في السحر"، كيل دي ريتز"، الذي كان ذات يوم فيلد مارشال "جان دارك"، الذي كان مذنّباً بسلسلة من جرائم القتل الأثيمة، أدلى باعتراف رسمي كامل، مُنح طقوس الكنيسة الأخيرة عشية إعدامه، وتليت عليه القداسات بعد وفاته. قد لا تؤمن بالروح الأبدية، ولكنني أؤمن بها، وأريد أن أخبرك، بحزن، بأنك قد لا تحمل مجرد موته المادي على ضميرك كما لو كنت أطلقت عليه النار حقاً، وإنما قد تكون أداة لإدانة روحه. لقد أخذ انسحابه سلفاً، بالطبع، لم يعد قسيساً، على فرض أنه كان قسيساً حقيقياً، يعبر عن توبة مذلة، وربما يمكن- أن توفر له الوقت على الأرض ليبرهن على إخلاصه- أن يُنقذ من الجحيم الأبدي". فقلت:

"سواء أكنت أؤمن بهذه الأشياء حرفياً أم لا هو أمر خارج نطاق السؤال، أليس كذلك؟ أنت تؤمن بها، وأظن الأب- لما كان يعترف بالقوى الشيطانية فوق الطبيعية التي تتجاوز العقل- يؤمن بالوجه الآخر من تلك العملة أيضاً. إذا كان الأمر كذلك، فإن انسحابه واعترافه لا بد قد أراحاه قليلاً؟". فرد رافائيل:

"هذا صحيح، لقد علمنا نحن رجال الرب، قبل أن يعرف الأطباء بوقت طويل، أن ضميراً ملتهباً غالباً ما تكون له نتائج مميتة كما زائدة دودية ملتهبة. ولكن انتبه: إنه يعانني أيضاً من خوف- من رعب مميت منك ومن مكائديك..." فقلت:

حسناً. يمكنك أن تعود وتخبر بنهويل أنني قد تركت الأمر يمكنك أن تطمننني بأنني

قد "طهرتها" ... سيعرف ما يعنيه ذلك.... وإنني عازم على غسلها إلى الأبد. ولكنك يجب أن تضيف وأنا أعني هذا، إنه ما لم تتحسن مارجوري وتكون في صحة تامة عند منتصف الليلة الأخيرة من تشرين الأول، فسأحرص على أن يموت متلوياً من آلام مبرحة!".

جاء تشرين الأول وانقضى، وكانت مارجوري مشعة، وكان الأب السابق لا يزال حياً، يتعافى. كنت أنا المريض. هكذا هي الأمور على الدوام. إن ما كنت أفعله يؤدي دائماً أحداً ما، يُضعف أحداً، يستنزف أحداً ما وينهكه، حتماً. انبذ وانس، أرجوك، الشياطين، الدمى والبعبعات. إن ما تفعله فعلاً هو تمزيق دوافعك العاطفية ذاتها في الوقت نفسه الذي تحاول فيه تمزيق دوافع أحد آخر العاطفية إلى نطف. لقد دفعت ثمناً باهظاً لقاء تعلم هذه الأمور. ولن أمارس ذلك النوع من السحر ثانية، سواء من أجل الخير أم الشر.

على الرغم من هذه النعمات التوافقية، اعتقد أن طريقاً حقيقية لإعادة رواية هذه القصة كاملة هي القول بأن الأب بنهيل سعى لتحقيق وفاة مارجوري بإثارة مخاوفها عبر قوى الإيحاء المكدسة، وإنني أنقذتها فقط وبساطة بقذف الكرة معيداً إياها إليه.

القسم الثاني

مصائب الدماء والمستذنب

١ - عن مصاصي الدماء والمستنذبين عموماً

جمعهم أصعب من جمع الدمى. يظهرون، كالوزغ، على نحو متقطع. ومثل القنفذ، لا يشجعون على الألفة. إن المرء لا يواجه، ودياً، مصاصي الدماء والمستنذبين عند مفارق الطرق التي تعج بالسحرة، أو يجد واحداً منهم مختبئاً في كل قبو يعود لساحر. مع أن جزءاً ملحوظاً من حياتي أنفق في اقتفاء طرق ملتوية والهبوط إلى أقبية مظلمة، لم أقابل إلا مصاص دماء واحداً، رجلاً فهداً واحداً، ومستنذبين اثنين فقط.

وعلى كل حال، فهذه المقابلات كانت أكثر من كافية لتؤكد أسوأ قناعاتي بشأنهم هنا أيضاً ثمة ظواهر - ليست فوق طبيعية إطلاقاً، ولكنها - على درجة الخطر والإماتة نفسها التي للدمية.

في القصص يكون مصاص الدماء دائماً رجلاً شبحاً، شريراً، هزيراً، ابن عم دراكيولا لـ "برام ستوكر"، أو امرأة شاحبة بشكل فوق طبيعي ولكن محبوبة لها عينان خضراوان وشعر أصهب، ابنة عم لألرون، بطلة "هانز هاينشز ايورز" وبطلة "بلزاك". سكوبوس، تثقب ثقوباً مرتبة دقيقة في حنجرة الضحية وتشرب الدم.

في الخرافات الكلاسيكية والوثنية، وتراث الكنيسة الشعبي من القرون الوسطى، في لعنات "كرايمر" و"سيرنكر" المدوية لمحاكم التفتيش المقدسة، في مالبوس ما يليفكا روم ("المطرقة ضد السحرة")، في بيان البابا بيوس الثامن، يكون مصاص الدماء رجلاً ميتاً أو امرأة ميتة، ينطلق من التابوت كاسراً إياه، كما فعل الراهب الجزائري من زنزانته في الليمركي* الفضائية وينطلق ثاقباً على نحو مرتب حناجر ضحايا بدينين، ويعود إلى اللحد وهو يشعر أفضل - ممتلئاً بدم طازج جديد مثل بعوضة.

* قصيدة فكاهية خماسية الأبيات .

ولكن مصاص الدماء، بما أنه ميت أصلاً، ليس قريباً من سهولة القتل كما هي حال البعوضة عليك أن تنبشه، تطهره، ترش عليه الماء المقدس، وتعيد دفنه - وخازوق خشب مغروز في قلبه - عند مفترق طرق.

في الحقيقة - أي في الحقيقة المعاكسة للقصص والهراء الخداع والحماقة الكنسية البالغة والخرافة - إن مصاص الدماء كائن بشري مريض، وفي بعض الأحيان مصاب بالهلوسة، مريض نفسياً أكثر منه مجرمًا، مع تذوق مَرَضِي للدم البشري - ولكن ليس ضرورياً تذوق للقتل.

إن مصاصي الدماء لا يلتهمون، أو يشقون، عموماً، ولكنهم يفضلون أن يقتاتوا، بتلذذ، على الدم، كما يفعل الطائر الطنان على رحيق زهرة. ولو مات الضحايا، كما فعل الضحايا لدى "الكونتيسة اليزابث باثوري" المحبوبة فذلك أمر سيئ، ولكن القتل ليس أبداً قصد الطائر الطنان أن يقتل زهرة الخطمي.

والآن، فالمستذنب حيوان مختلف نوعاً ما. في القصص والخرافات، نجده يركض بسرعة ركض مصاص الدماء، عدا أنه - بدلاً من مجرد مصّ الدم مثل عصير التفاح بوساطة قصب - يبحث عن فريسة يقتل ويلتهم لحم ضحاياه بالنسبة لـ "كرايمر وريجنالد سكوت"، اللذين كتبوا المؤلف الكلاسيكي "اكتشاف للسحر" للملك "جيمس الأول"، حاكم التفتيش الأول الملكي لسكوتلندا ولـ "بارينك كولد" العجوز العزيز الذي كتب مؤخراً "إلى الأمام، أيها الجنود المسيحيون"، كما بالنسبة إلى الراهب "مونت" د سومرز" في سنة الله ١٩٤٠ هذه - فالمستذنب كائن بشري تحوّل على نحو فوق طبيعي إلى وحش، وقادر على التغير عائداً إلى الآدمية ثم إلى الوحشية مرة أخرى، من ثنائي الأرجل إلى رباعيها، حسب إرادته، بمساعدة الشيطان بالطبع.

والآن، فإن المستذنب في الحقيقة الواقعة، المجردة - وهنا نجد أننا نصل إلى مكان ما - يتكشف دائماً عن كونه ثنائي الأرجل، غير مكسو بالفراء وغير ذي خطم، بصرف النظر عن مدى دموية فكيه البشريين. إن المستذنب حالة مرضية، كائن بشري مهلوس، مثل مصاص الدماء، ولكنه أكثر توحشاً من أن يحبس في قفص بـ (بلومغدايل) أو أي مصحة أخرى. يستحسن أن يرمى بالنار مثل فلويد البديع وديلتكر. وغالباً ما يجري ذلك، ولكن إن قبض عليه حياً فإن المكان المأمون الوحيد هو أقوى زنزانة في

سجن معزول أو في الكرسي الكهربائي، لو كانت هيئة المحلفين غير متعاطفة تجاه "الجنون المجرم".

إن نفس الخرافتين القائلتين أن مصاص الدماء جثة غير موضوعة والمستذئب رجل تحول على نحو فوق طبيعي إلى وحش ذي خطم لم يُعد قط أي ضحايا مشوهين أو يخفف حزن عائلاتهم ومع ذلك، فقد كان لنا - مراراً وتكراراً في عشرات الكتب التي كتبها معلقون ومؤرخون عقلاء - الاستنباط الخلفي* السخيف نفسه، الذي جعل من أحدث الكتب التي تشجب الخرافات القديمة عن السحر قمامة بكل معنى الكلمة. لأن مصاص الدماء والمستذئب ليسا مخلوقين فوق طبيعيين، إن شئت، فإنهما بالتالي غير موجودين على الإطلاق!

إن صفحات التاريخ العام والطبي على السواء، المعززة بالأدلة، والموسوعات التي يعتمد عليها بما فيها البريطانية، والتقارير المؤكدة لوكالات أنباء ذات سمعة جيدة بما فيها الأسوشيتيد برس، تحوي مئات الحالات التي تعزز أطروحتي العقلية من أن مصاصي الدماء والمستذئبين، أعني أنهم بشر مهلوسون، مرضى عندهم شهوة للدم أو اللحم يوجدون وقد وجدوا على الدوام، ويؤمنون هم أنفسهم في أوقات كثيرة بأن السحر والشيطان متورطان بهما.

لست أنوي أن أحشو هذا الكتاب بحالات بالية لا تنتهي. وعوضاً عن ذلك، فإنني أنوي أن اتفق معها معطياً إياكم أولاً، كمقدمة لمواجهاتي مع هاتين الظاهرتين، صورة بالحجم الطبيعي من الماضي. إن السيدة تستحق أن تُضمّن بصرف النظر عن حقيقة كونها توفيت منذ زمن طويل.

إنها السيدة مصاصة الدماء، بطلة العالم غير المنازعة للدهر كله. كان رقمها القياسي ٨٠- وهي تناسب أطروحتي نظراً للسبب الإضافي بكونها مارست السحر والسحر الأسود طيلة عمرها.

* استتاج الذي لا يتفق مع المقدمات .

٢- بطلة العالم لمصاصات الدماء في الدهر كله

كانت "كليوباترا" ملكة مصر اليونانية، تستحم بحليب الحمر الوحشية. وكان "البابا سكستوس الخامس" يستحم بناء على مشورة أطبائه، بدم الثيران. وكانت "آناهيلد"، الزوجة الفرنسية لـ "فلو نسيغفيلد" بحليب من الدرجة الأولى لأبقار مرتاحة. وكانت ابنة "الاييرل كارول" تستحم في مغطس شامبانيا- وقد أغارت الشرطة على الحفلة فوراً.

وكانت الكونتيسة البزابيث يا ثوري "الحسنة والمدلة تستحم عادة بدماء الوصيفات الفتيات.

وقد لفتت انتباه الشرطة- التي كانت كثيرة التحمل حتى ذلك الحين- إلى حد الإغارة على حفلتها، أيضاً، ولكنها لم تفعل إلا بعد أن كانت الكونتيسة قد "حلبت" من دماء حيوات ما بين ٨٠ و ٣٠٠ آنسة من الخادومات.

من الواضح أنها كانت قد بدأت بمجرد شرب الدم البشري كما هي عادة مصاصي الدماء الأكثر إرضاءً- وكما كانت ابنة "الاييرل كارول" تفعل بلا شك بالشامبانيا- ولكنها صارت الآن تستخدمها من أجل حمامات التجميل أيضاً، فصارت بالنتيجة مصاصة الدماء الأقدر على طول التاريخ.

ولقد مارست السحر أيضاً وكانت ساحرة. ومع أنها كانت مالكة لعقارات كبيرة، سيدة راعية لـ (سيثجه)، قريبة للملك ومطارنة، ابنة عم للكونت "غريغوري تورزو"- رئيس وزراء هنكاريا آنذاك- ومقدراً لها أن تصير سَمِيَّة على نحو معكوس لعبارة المحيطات الفاخرة "باتوري"، التي تمخر العباب، أو بالأحرى كانت تمخره، بين (هويوكن) و(دانتسيخ)، فقد كانت تثق بسحرها أكثر من كل شيء... وكانت تعتمد على سحرها وصحبها، أكثر مما تفعل على سلطة عائلتها وثروتها، لحمايتها من الاعتقال.

كانت تعتمد، أكثر من أي شيء آخر، على قيمة بالذات مكتوبة على برشمان، تحتفظ بها على الدوام ملصقة بجسدها.

وفي واحدة من هذه المصادفات الغريبة التي تغذي بقاء الخرافة، فقد هذا البرشمان أو سُرِق في اليوم السابق لاعتقالها. لم يُعثر عليه قط، ولكن من السهل تخمين ما كان في داخله، لأنها- عند اكتشاف فقده- أسرعَت إلى الغابة، جمعت سحرة طريقتها، انتظرت حتى حلول المساء حين امتلأت السماء غيوماً ونجوماً، ثم عادت إلى القصر بتميمة جديدة، منقوشة مثل تلك على برشمان. وهي موضوع سجلات المحكمة:

يا "استن" ساعدني! يا "استن"، ساعدني! أنت أيتها الغيمة الصغيرة ساعدني أيضاً! امنحي "اليزابيث" الصحة والحماية والعمر المديد. أنت أيتها الغيمة الصغيرة، عندما أكون في خطر، أرسلني تسعاً وتسعين قطرة.

أمرَك بأن تفعلِي هذا لأنك القائدة العليا للقطط. مُري القطط بأن تتجمع من حيث تكون، على الجبال، على المياه، الأنهار والبحار. مُري تسعاً وتسعين قطرة أن يجئن بسرعة ويعضضن قلب "الملك ماتياس". مريهن أن يعضضن قلب "موسى سرياركي"، وأن يعضضن أيضاً قلب ابن عمي رئيس الوزراء.

مريهن أن يخمشن ويعضضن قلب "ميليري الأحمر"، وأبقي "اليزابيث" في منجى من الأذى.

إنها جيدة جداً باعتبارها تميمة، ولو أن موظفي الحكومة كانوا يؤمنون بالخرافات كفايةً، فلربما ما كانوا ليجرؤوا على مسها، يذهب أحد التخمينات إلى أن الشرطة قد تكون سرقت التيممة الأصلية وأحرقتها، ولم تعرف بأن هذه النسخة قد لُفقت على أي حال، فالتيممة الجديدة لم تعمل. ففي عشية السنة الجديدة، ١٦١٠، تمت الإغارة على قلعة (سيجته)، وقطعت حفلة رأس السنة، واعتُقلت الكونتيسة.

أخفق جيش القطط في الوصول بالقوة، ولكن قسيس القرية الذي كان قد أدانها والذي جاء مع الشرطة هاجمه وعضه- بمصادفة أخرى غريبة- حرسُ عريفٍ من القطط، فيما كان يصعد سلماً داخلياً. وقد طوردت ست "قطط مسحورة"، مصحوبات بفورة

١ - كانت هذه أسماء موظفي الحكومة والشرطة الذين تخافهم .

من "الفئران المسحورة" التي حاولت أن تعضه أيضاً، في جميع أنحاء القلعة حتى اختفت أخيراً في "اللامكان".

إن قططي الأربع الخاصة هنا، في مقاطعة الدوقة، في سنة ١٩٤٠، لها طريقة في الاختفاء سحرية بمجرد أن تخمش الكلب، تسرق اللحم، توقع الزهرة، بحيث أن قسيس القرية بمقاطعة (نياترا)، في ١٦١٠، الذي كان مشهوراً بكونه سيداً جديراً بالثقة، يمكن أن يُغفر له بسهولة لاعتقاده أن قطط الكونتيسة كانت أشباحاً، وعلى إضافة الفئران المسحورة!

إن هذه القطط والفئران، على فكرة، بقيت مختبئة ثلاثة قرون في منجم الذهب الذي اكتشفت عرقه في مكتبة نيويورك العامة، بمعونة مترجمين هنغاريين^١. لم تمنح لا الإنكليزية ولا الفرنسية ولا الألمانية ولا الإيطالية ولا أي شيء من اللغات المعروفة عموماً أكثر والتي يمكن ترجمتها أسهل، قط، مكاناً أفسح للكونتيسة "باتوري".

ذبحت "اليزابث باتوري" زوجة الكونت "ناداسدي باتوري" ثمانين مزارعة في قصرها بـ (سيثجه)، في منطقة (نايترا) بهنغاريا، لتستحم بدمائهن. وإذ قبض عليها أثناء العمل (١٦١٠)، فقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة.

إن المادة غير المترجمة، بما فيها سيرة حياة دزسو، هي مرجعية، أكاديمية، وثيرة. ولدت الكونتيسة باتوري^٢ سنة ١٥٦٠ في واحدة من مزارع عائلة باتوري الواسعة، على حافة جبال (الكروات) كانت العائلة، منذ قرون، واحدة من أثري العائلات وأبرزها

١ - "دزسو ريكا"، "باتوري ارزبث" "ناد سدي ليرينسه". مقامة على أساس سجلات المحكمة، مطبوعة في بودابست من قبل مكتبة "عايولا بنكو رويال"، سنة ١٩٠٨. باللغة الهنغارية. ولم تترجم قط إلى أي لغة أخرى. أجرى قس جزويتي هنغاري من القرن السابع عشر، هو الأب "توروكزي"، دراسة تأملية عن الطبيعة الذهانية- والتي ربما كانت بالنسبة له شيطانية- لمصها الدماء والاستحمام في الدماء. نشر طبيب أطفال ألماني، هور. أ. فون السبرل، مع س. شوتلندر، في برسلاو سنة ١٩٠٤. مجلداً مرسوماً "اليزابث باتوري- مصاصة الدماء". ويبدو أنه لم يستطع الوصول. كما فعل دزسو. إلى الوثائق الأصلية فكل ما يفعله هو إفراغ الحقائق التي سجلها "دزسو" والجزويتي في قالب جديد. ثم أقام أفكاره المتعلقة بطب الأطفال عليها بصرف النظر عن بعض الروايات ومسرحيتين. مواد الخرافات ومواد الرعب. وجميعها بالهنغارية المترجمة. لا يوجد المزيد. إن المادة المصدرية ذات العلاقة، الأساسية الوحيدة موجودة في وثائق المحكمة القديمة. ومؤلف "دزسو" ودراسة الأب "توروكزي".

٢ - من آلهة الغابات في الأساطير الإغريقية، يوصف بالشبق الشديد والابتلاء، بالنعاط.

في أوروبا الوسطى. كان أحد أقاربها مطراناً، وآخر أميراً لـ (ترانسلفانيا)، وصار آخر ملكاً لبولندا كما أنها ضمت مطارنة ورؤساء شرطة ولايات وحكام أقاليم وقضاة. وكانت دائماً عائلة شديدة قاسية، مقتدرة، وعندما ولدت اليزابيث كانت العائلة متفسخة ومنحطة، مع أنها ما زالت قوية، باعتبارها فرعاً جانبياً من فروع عائلة مالكة. كان أحد الأعمام من عبدة الشيطان وكان يمارس السحر. وكان أخوها الغلم، ساطيراً^١.

كانت اليزابيث مخطوبة، وهي طفلة، إلى الكونت "فيرينتس ناداسدي"، وهو محارب عظيم، صار فيما بعد ال بطل الأسود" لهنگاريا تزوجا في الثامن عشر من مايس سنة ١٥٧٥. كانت في الخامسة عشرة وهو في الحادية والعشرين.

وحضر "الإمبراطور ماكسيمليان" من عائلة هابسبورغ الزفاف. وأرسل ملك هنگاريا "ماتياس" وآرشيديوق النمسا" هدايا زواج. ذهباً ليعيشا في قلعة (سيشجه)، في منطقة التلال بشمال غربي هنگاريا، التي لا تزال شهيرة اليوم بكرومها وبنبيذها الأحمر وأشباحها ومستنثبيها. ولا تزال خرائب القلعة الفخمة قائمة، وثمة محفورات على الفولاذ تبين أيام عزها.

كانت تشبه إحدى قلاع الحلم التي رسمها "هاوارد" بايل" أو "ماكسفيلد باريش". كانت تشبه داخل (مونت سان ميشيل): جدران واسعة على سفح تل، فوق قرية، زرنانات، كهوف، أقبية، تعلوها أبراج وذرى مدببة.

سرعان ما رحل الكونت نادا سدي إلى الحروب، فهربت الكونتيسة الآن مع نبيل شاب شاحب قيل إنه مصاص دماء. ولكن يبدو أنه كان مصاص دماء عض، في هذه الحالة، أكثر مما استطاع إن يمضغ، لأن الكونتيسة- التي تكاد تكون بنتاً- عادت الآن، لاعقة شفتيها، فيما لم يُسمع شيء قط عن النبيل الشاب بعدئذ. وقد سامحها زوجها البطل، الذي كان يعود بين أوان وآخر لينام معها، ولكنهما بقيا خلال السنوات العشر من زواجهما بلا أطفال.

كانت لمسة الطبيعية الوحيدة في هذه السيدة الفتية الخطيرة كراحتها لحماستها

١ - اكتسبت لقب كونيسة مرتين، فقد ولدت به ثم تزوجت الكونت "فيرينتس ناداسدي". ومن الواضح أنها كانت "لوسي ستولز"، لأنها تبقى في التاريخ لا باعتبارها ناداسدي، وإنما تحت اسم عائلتها هي.

التي كانت قد جاءت لتعيش في القلعة. كانت تفضل الاختلاط بوصيفات الخدمة لديها وتسلية نفسها أحياناً بتعذيبهن، تساعدن في ذلك مربية مسنة تسمى "ايلوناجو" كانت، مثلها، منغمسة في السحر. وكان الكونت ناداسدي شيئاً من وحش هو نفسه، فقد كان قائداً لقوات مرتزقة، ولم يكن يبدو أن لديه اعتراضات على تعذيب زوجته صويحيات لعبها، لقتل الوقت في ليالي الشتاء الطويلة في القلعة المنعزلة. كان ولا شك يفكر أن ذلك سيبقيها على مبعدة من عمل مزعج آخر... كالفرار مع مصاصي الدماء الزائرين.

يبدو أن الكونت ناداسدي كان يدرك أيضاً بأن زوجته الفتية كانت ساحرة. لم تحمل له أطفالاً في السنوات الأولى، وشجعها في مزج أشربة السحر التي تسبب الحبل.

وكانت هذه ناجحة، فقد صار لها لاحقاً أربعة أطفال. وكونه يعرف أنها تشتغل بالسحر الأكثر سواداً تبرهن عليه إحدى رسائلها له.
كتبت فيها:

علمني "ثوركو" واحدة جديدة رائعة. امسك دجاجة سوداء واضربها حتى الموت بعضاً بيضاء.

احتفظ بالدم وافرك بعضه على عدوك. إن لم يُتَح لك أن تُلطخ به جسده، فاحصل على احد أثوابه ولطخه".

لكن الدجاجات السوداء كانت مجرد شيء أدق من أن يقدره الناس العاديون للكونتيسة الشرهة. فلبضع سنوات قبل وفاة زوجها، كانت مصاصة دماء تتسبب في جعل الزراعات ينزفن وفي قتلهن. بقي الكونت والكونتيسة في حال زيجية مثل أي غولي غطاية متحابين وربما كان يفهم أحدهما الآخر. وقبل موته بستين، كتبت له هذه الرسالة الخاضعة، المنزلية، المؤثرة
"زوجي العزيز،

اكتب لك، كما طلبت مني أن أفعل، عن أطفالنا. إن "آنا" الصغيرة بصحة جيدة، بحمد الله، و"اورسك" الصغير بخير فيما عدا تقرح عينيه، و"كاتو" تشق أسنانها الجديدة. بحمد الله أنا في صحة جيدة، قتيماً عدا صداعات بين آن وآخر، وإنني لأدعو أن تكون في صحة جيدة أيضاً، يا زوجي المحبوب.
زوجتك المخلصة اليزابث"

في سنة ١٦٠٠ توفي زوجها ، في سن السابعة والأربعين. كان في ذروة الحياة. والوقت الآن متأخر جداً للتساؤل عما إذا كانت قد لطخت أحد قمصانه بدم دجاجة سوداء. لم يجر استجواب أرسلت الحماية لتحزم متاعها، بالطبع، في اليوم الذي تلا التشييع، ومنذ ذلك الحين فلاحاً، كانت الكونتيسة اليزابث حرة، طيلة عشر سنوات كاملة، للانغماس في أهوائها. كانت في ذلك الوقت تقترب من الأربعين، وكانت لا تزال قسيمة للغاية. ثمة لوحة زيتية رائعة، بطول الثلاثة أرباع، تعرضها - حسب أسلوب "هولباين" - في طوق رقبة مكشكش منشى هائل الحجم، ومعدية* مزينة بالمجوهرات، وتنورات منفوخة من مخمل (بورغندي) مع منزر وأكمام منفوخة من شاش أبيض خالص. شعرها، المصفف بإتقان، المشدود إلى وراء عن جبينها العريض، مشبوك بشبكات مزينة بالمجوهرات فوق عينين كبيرتين، غامقتين، منفرجتين على سعة، هما ثقلتا الجفنين، صلبتان وقاسيتان. والأنف يوناني كلاسيكي، والذقن ثقيل نوعاً ما، والفم مقوس، ذو غمازات وشهواني، مثل فم "الموناليزا".

كان من بين أتباعها وأصحابها التاليين في الجريمة، بالإضافة إلى مريبتها العجوز: "الساحرة ايلوناجو"، ونوع من قهرمان اسمه "يوهانس اوجفاري"، وخادم آخر يدعى "ثوركو" كان يمارس السحر، وساحرة ثانية اسمها "دوروتيا سرنتنس"، وساحرة غابة اسمها "دارفولا". وكانت الأداتان بين الوصيفات الدائمات الآنستان "بارسوفي" و"أوتفورس".

كان ذلك جهاز منزل شيطانياً فيه حواريون خبراء للشيطان بوصفهم أدوات البيت المسخرة. لم تفتقر الكونتيسة قط، إذ كانوا يحفون بهما، إلى المشورة والمقترحات الشيطانية عندما كان خيالها يفتر، ولكن بداية حمامات الدم تمضي متوازية مع حال البنت الصغيرة التي ذكرت قبل بضع سنوات في الـ "نيويورك".

كان للطفلة نويات تصرخ فيها وتزعق، تبكي، تمزق دفتها إلى مزق، تدق رجلها بالأرض، تتوقف كي تتنفس، ثم تبصق مثل قطرة أو بحار. كانت أمها الرقيقة، المسيحية، تقول

يدخل الشيطان إلى البنات الصغيرات أحياناً. إن الشيطان يحملك على ذلك. في

* قطعة ثوب تغطي الصدر والمعدة .

المرّة القادمة عندما تحسني نوبة سوء مزاج قادمة، كوني بنتاً صغيرة شجاعة وقولي: (صر خلفي أيها الشيطان).

كانت البنت الصغيرة تتأمل، وتحجب: "قد يكون الشيطان جعلني أمزق الدفتر، وأضرب الأرض بقدمي وأصرخ- ولكن البصاق كان فكرتي أنا". كانت حمامات الدم فكرة الكونتيسة بالذات. أشك في أنها سمعت بالبابا "سيكتوس الخامس" أو "سيزار بورجيا"- كليهما.

لقد جاءتها الفكرة نتيجة لحادث، وقع ذات يوم بينما كانت تحصل على تصنيف شعر مفضل. كانت عاقراً، شهوانية، نرجسية، وربما سحاقية، وتلتذ أيضاً من عناقات الزوج ذي اللحية السوداء عندما يعود فيما بين المعارك- وتنق بالتالي وقتاً كبيراً في تجميل نفسها. لما كانت "هيلينا روينشتين" وصالونات التجميل لم تبتكر بعد، فقد كانت وصيفاتها أنفسهن يشتغلن ساعات إضافية في المخدع. في هذا الصباح بالذات، سحبت لها وصيفة شعرها بالمشط، فصفعتها الكونتيسة على وجهها بشدة بحيث رعب أنف الوصيفة. تناثر الدم على يدي الكونتيسة، وبدا لها أنه حيث سقط الدم صار الجلد أنعم، أفنى، وأجمل. وهكذا بدأت تستحم بالدم البشري كي تحافظ على جمالها وشبابها^١.

طيلة السنوات العشر التالية صارت قلعة (سيثجه) مسلخاً و"محبلاً" بشرياً كانت تحتفظ فيه بعشرات من البنات المزارعات مقيدات بأطواق في زنانات، كالماشية، ليتم "حلب" دماهن حتى يمتن. كانت الهمسات وحتى الاتهامات المباشرة وافرة في الريف، ولكن جميع الضحايا كنّ مزارعات من الاقنان وكان أقل غرابة مما قد يبدو اليوم أن تستغرق السلطات وقتاً بذلك الطول في القيام بعمل.

في عشية السنة الجديدة، ليلة الثلاثين من كانون الأول سنة ١٦١٠، أغار "الكونت غيورغي ثورزو"، ابن عمها بالذات، حاكم الإقليم، مصحوباً بالجنود والجنדרمة وقسيس القرية، على القلعة وألقى القبض على كل من كان فيها. كانوا قد

١ - في تلك الأيام ، كان لحمامات الدم- مع أنها لم يسبق أن شملت دماً بشرياً جزءاً زائف مزدوج : هذر سحري زائداً هراء طبي . كان "سيزار بورجيا" يستحم بدم الثيران ، بناءً على نصيحة أطبائه ، وكعلاج للبثور وتلقى البابا سيكتوس الخامس "علاجات مشابهة كمقويات .

قاطعوا طقوس الدم العربية. في قاعة القلعة الرئيسة وجدوا فتاة منزوحة الدم وميتة، وفتاة أخرى حية وقد ثقب جسدها ثقوباً مرتبة، وأخرى جرى تعذيبها للتو. ووجدوا في الزنانات والأطواق "عبداء" من الفتيات الأخريات وأطلقوهن. كانت أجساد البعض منهن مثقبة وجرى حلبهن"، وأخريات سليمات، بدينات، جيدات التغذية، مثل بقرات أحسن حفظها في مرابطها. وقد جرى نبش جثث ميتة لخمسين فتاة أخرى فيما بعد.

لما كانت الكونتيسة نبيلة قريبة من العائلة المالكة، فقد سجنّت في قصرها، فيما أخذ بقية أعضاء جهاز المنزل إلى السجن في (بيتسكه). وكان أولئك يشملون القهرمان، "يوهانس أوجفاري" والساحر "ثوركو"، والمربية- الساحرة العجوز، "ايلوناجو" والساحرة "دوروتيا سرنطيس"، وساحرة الغابة "دارفولا"، وبضع وصيفات أخريات كنّ شريكات، واثنتين من الخدم الرجال.

جرت المحاكمة في (بيتسكه)، في كانون الثاني وشباط من سنة ١٦١١، رأس "ثيودوسيوس سير مينسيس دي سزولو"، قاضي المحكمة الملكية العليا المحكمة، بمساعدة عشرين قاضياً. شملت الكونتيسة باثوري بالاتهام وأخذت شهادات ضدها، ولكنها لم تحضر قاعة المحكمة قط. لقد قبض عليها بالجرم المشهود، ورفضت أن تبرر نفسها بأعذار، وسمح لها بأن تبقى الوقت كله سجينة في قصرها الخاص.

كانت التهمة ضدهم جميعاً القتل المتسلسل، وكانت المحكمة جنائية، لا محاكمة كنسية، ولهذا لم تكن معقدة أو مثقلة بقضايا مص الدماء أو السحر. جرى استجواب "يوهانس اوجفاري" أولاً.

وها هنا جزء من إفادته:

سؤال: كم سنة اشتغلت للكونتيسة باثوري؟

جواب: مضى عليّ ست عشرة سنة في جهاز منزلها.

س: كم امرأة قُتلت، على وفق معلوماتك الشخصية، من قبل الكونتيسة وشركائها؟

ج: ولا امرأة. أعني، ولا امرأة متزوجة. تم قتل سبع وثلاثين فتاة على وفق معلوماتي المباشرة.

س: من كان يحصل على الضحايا؟

ج: حصلتُ على ست منهن أنا نفسي. كنا نخبر البنات بأننا نريدهن باعتبارهن خادِمات. وقد أُمّنت الآنسة "بارسوفني" والآنسة "أوتفورس" أخريات بالطريقة عينها.

س: كيف قُتلن؟

ج: حسناً، جرى تقييد أيديهن من وراء، ثم جرى ليّها بحبال محكمة، على طراز المرقأة*، وقطعت الأوعية الدموية بالمقص.

س: هل جرى تعذيبهن على نحو آخر؟

ج: في بعض الأحيان كانت المرأتان المستتان "إليونا" و"دوروتيا"، تعذبانهن، وعندما تقومان بذلك جيداً كانت الكونتيسة تقدم لهن الهدايا. وفي بعض الأحيان كانت الكونتيسة نفسها تعذبهن.

س: ما كانت وسائل التعذيب؟

ج: كان يجري ضربهن بالسياط ويجرّحن بالسكاكين. في بعض الأحيان كنا نجمّدهن في الماء البارد فيما بعد.

س: متى بدأت الكونتيسة باثوري تقوم بهذه الممارسات؟

ج: بدأت قبل وفاة زوجها بوقت طويل.

وجاءت إفادة "إليونا جو" فيما بعد:

س: كم مضى عليك في العمل للكونتيسة؟

ج: أكثر من عشر سنوات. لقد كنت مربية العائلة.

س: كم بنتاً ساعدت الكونتيسة على قتلهن؟

ج: كثيراً، كثيرات.

س: كم؟

ج: بقدر أربعين.

س: أكثر من ذلك؟ بقدر خمسين؟

كلا، نحو أربعين.

* ضاغط لوقف النزف من وعا، دموي .

س: هل جرى تعذيب أي منهن؟

ج: في بعض الأحيان كنا نضع مفاتيح ومسكوكات ساخنة في أيديهن. لطخنا جسد فتاة بالعتل. وعندما يغمى عليهن، كنا نضع عادة أوراقاً بين أصابع أرجلهن ونحرقها. كنا نفتح عروقهن، في الأغلب، بالمقاص. في بعض الأحيان، عندما كان اللحم يسحب بشدة، كان الدم يلوث الجدران.

أدلى الخدم الآخرون بإفادات مشابهة، وأضافوا تفاصيل، وساعدوا على رفع العدد إلى مئة ضحية أو أكثر، ولكن لم يتم تقصي أو اكتشاف أكثر من ثمانين جثة قط. لم تدخل في أي نقطة هستيريا الساحرات، هستيريا مصاصي الدماء، الخرافات أو الاعترافات بالإكراه في مداولات المحكمة النهائية أو استنتاجاتها. وقد جرى تجسيد التعاويذ والخ... في السجل، ولكنها تركت باعتبارها مسألة تخص التفتيش المقدس. ولم يطلب هذا التفتيش قط. ما كانت ثمة حاجة. لقد شهد الخدم بالحقيقة لأنه لم يكن ثمة مجال للتهرب منها، وعلى أمل أن يخفف الاعتراف الكامل قسوة المحكمة.

وفي الحقيقة، فإن المتهمين الذين كانوا أدوات، أو جالبين للضحايا، لقوا أحكاماً خفيفة" قياساً إلى أحكام المحاكم في تلك الأيام، فقد اكتفي بقطع رؤوسهم ثم جرى إحراق أجسادهم الميتة لاحقاً.

وحُكمت العجوزان، ايلوناجو ودوروتيا سزيتس، بوصفهما مجرمتين رئيسيتين، وقد تلقتا أسوأ عقاب: لقد قطعت أصابع أيديهما، واحداً بعد الآخر، ثم أحرقتا حيتين. ربما يوفر التصرف مع الكونتيسة باثوري أغرب اللمسات في هذا التاريخ لرعب ما بعد العصور الوسطى المهلوس، الذي ربما كان الضحايا والقضاة وحدهم العاقلين تماماً فيه. ومع ذلك، فإن استعراض الكونتيسة باثوري في ضوء الطب النفسي الحديث لـ "ليوبولد لوب"، يبين أن قضيتها ما كان يمكن أن تعالج على نحو أكثر عدلاً لو كانت محاميتها هي المرحومة "كلارنس دارو"، مع حشد من الأطباء العقلين وأكثر محلبي اليوم تنوراً. كان ما حكموا عليها به هو المعادل القروسطي لزناة مبطنة في (ماتيوان) مدى الحياة. وقد أنجزوا ذلك بمجرد أنهم لم يحكموا عليها قط.

كان الحكم الوحيد الذي يمكنهم أن يوقعوه بوصفهم هيئة محكمة عليها هو الموت. لكن ابن عمها، رئيس الوزراء، تدّخل فأثار الروتين الحكومي. وقفت مدانة، لكنهم- ببساطة- آخروا إصدار الحكم، ولم يصدر عليها حكم قط. بقيت مسجونة في قصرها، ولكي يضمنوا بقاءها مسجونة أرسلوا بنائي حجر إلى (سيشجه).

جعلوا النوافذ، وباب غرفة نوم الكونتيسة، والكونتيسة في داخلها، جدراناً، غير تاركين إلا شقوقاً من أجل الهواء حيث كانت النوافذ، وتاركين مجرد فتحة صغيرة في الجدار حيث كان الباب يمكن تمرير الطعام والشراب من خلالها. كان ملك هنغاريا، "ماثياس الثاني"، قد شعر في البدء أنها يجب أن تعمد، ولكنه وافق أخيراً على الحكم المؤجل إلى أمد غير محدد، الذي كان يعادل سجنًا انفرادياً مدى الحياة. توفيت بعد أربع سنوات من بناء الجدران حولها، يوم الحادي والعشرين من آب ١٦١٤ .

يخمن دزسو والأب توروكزي أن أحد أسباب تسويرها بالجدران، بدلاً من مجرد إبقائها مَقفلاً عليها، هو أنهم كانوا يخشون سحرها. ولكن سواء أكان ذلك أم مجرد تحفظ من قضاة نزيهين من الحكم على امرأة مجنونة بالإعدام، فإنهم قد جعلوا من ذلك عملاً حساساً للغاية، حسب مجرى الأمور في تلك الأيام. إن العنصر الخرافي لمص الدماء كان الحماقة البالغة المهلوسة في سنة ١٦١٤ كما هو في سنة ١٩٤٠، ولكنها كانت القاتلة بالجملة الأكثر دموية فيمن عشن إطلاقاً.

ولقد وضعوها حيث لا تستطيع ارتكاب جرائم قتل أخرى. لو أنهم كانوا يؤمنون بالخرافات قليلاً بشأنها، فقد كان لهم من الإدراك ما يكفي لكي يعرفوا- إن لم يفعل بعض زملائي المعاصرين البارزين والمراجع المفترضة- أن أحد الأمور التي لا يستطيع أي ساحر أو مصاص دماء على الأرض أن يفعلها هو المشي عبر جدار صلد أو هدمه.

٣- مصاص دماء ١٩٣٢ من بروكلين- نيويورك

كنت أتمشى في التلال وراء (لي ترايا)، على (الريفيرا) مع "يوجين باغر"، الصحفي النمساوي الصغير السمين الذي كان يعمل في "نيويورك تايمس" قبل بضع سنوات، وكتب فيما بعد "أوريون بارزون". كنا قد عدنا إلى المدينة، حيث كان عنده بيت وحيث كنت أقيم في فندق، كان يضم في ذلك الصيف عدداً من الكتاب والرسمين والموسيقين، بمن فيهم بعض الأميركيين.

كان الوقت أواخر العصر. كنت ساخناً، وقد نزلت إلى الشاطئ من أجل السباحة. كان ثمة كهف صخري مفروش بالحصى، نوع من جون بحري بين أشجار الصنوبر، أقرب من البلاج الرملي. كانت جالسة على الحصى، وحيدة، وقد شبكت يديها حول ركبتها، كانت الفتاة، التي عرفتني على أنها ماري لينسفيلد)، ترسم قليلاً وتترجم كتب الأطفال. كانت تجلس وحيدة تماماً هناك، محدقة نحو (بوركيرو)، حيث كانت تعبر السفن البخارية.

كانت من نمط غريب، أخاظة من دون أن تكون حسناء. كانت نحيلة وشاحبة للغاية، لها شعر ملتهب ونوع من العيون المائلة للخضرة غالباً ما تنسجم مع البشرة الشاحبة والشعر الأحمر بطبيعته. كنت أعرفها منذ مدة طويلة، ولكن معرفة لم تكن وثيقة قط.

ولست واثقاً من أن أحداً كان يعرفها على نحو وثيق جداً. كانت ودودة للغاية، ولكنها لم تكن مرحلة قط، ومن الواضح أنها لم تكن قوية جداً. كانت تحيي في نوع من الشرود. غصت من أعلى الصخرة عند الالتفاف حول الكهف، سبحت قريباً جداً نوعاً ما من صخرة أخرى تكاد تكون تحت الماء، وسحجت كتفي على بعض الحيوانات

البحرية القشرية. لم تُسحج بشكل سيئ، ولكن عندما خرجتُ كان ثمة خيط من الدم المشع البراق يلمع على كتفي الندية. قالت الفتاة:
لقد جرحت نفسك".

جلست إلى جانبها، مديراً رأسي كي أنظر إلى الخدش، وقلت:
"ليس بالأمر الكبير. أشك في كونه يحتاج لوضع صبغة اليود عليه".
سألته كيف يسير عملها كانت تترجم بعضاً من كتب الأحداث التي كتبتها
"الكونتيسة دي سيجور".

عندما لم تجب، رمقتها ببصري. كانت قد انحنت قريباً وكانت تحدد بعينين
واسعتين تملان إلى مسحة من حمرة. ثم انقذت متشنجة نحوي، وكانت أسنانها في
كتفي، وكانت تمص هناك كالعلق- وليس حتى كالعلق، وإنما أشبه بقطيطة جشعة نصف
نامية لها أسنان حادة الرؤوس. كان ذلك يوجع بحدة، ولكن الدهشة أبقتني عديم
الحراك لمدة ثانية، ثم جعلني مزيج من الدهشة والفضول والتعجب المحض أصرّ أسناني
وأدع الأمر يمضي. كانت قد عمقت السحجة، وكانت- حرفياً- تشرب الدم!
إنني خجل من ذلك كما يليق بالأمر، ولكنني كنت أجلس هناك متوتراً، مذهولاً
بشكل منحرف، وتاركاً إياها تطفئ ظمأها.

هدرت شاحنة كبيرة وهي تمر على الكورنيش فوقنا، خلف الأشجار، وكانت هذه
الضجة، فيما أظن، هي ما أخرجها من انغماسها. سقطت فجأة إلى وراء، وقد اندفن
وجهها في يديها. لم أقل شيئاً. لقد ركبني الخوف أنا أيضاً بلمحة من فمها الملوث
الأحمر. ولكنني لم أقل شيئاً. وعندما هدأت قليلاً وأدركت أنني كنت صامتاً، قالت:
"يا "سيبروك"، ماذا يجب أن أفعل؟ أحبس نفسي؟ أقتل نفسي؟ أم ماذا؟".

كان كل ما عرفته عن الفتاة تسابق في ذلك الصمت عبر ذهني، وبدت بعض
الأشياء- التي سبق أن بدت عديمة المعنى حين وقعت- الآن وكأنه يمكن أن يكون لها
مغزى جديد. كنت قد التقيتها أولاً قبل سنتين في حفلة بمنزل "بوب تشانلر الغريب،
خارج (متنزه غرامرسي)، في (نيويورك). كانت تعيش في مرتفعات (بروكلن)،
ونادراً ما تأتي إلى (مانهاتن)، ولكن "بوب" كان يريد أن يرسم لوحاتها، وهكذا فقد
عادت بضع مرات تالبة إلى بيته، الذي كنت أزوره حينذاك، وبقيت مرة أو مرتين الليل

هناك. في إحدى هذه الليالي، كانت حادثة غريبة قد وقعت. لم يكن بوب* يرغب عميقاً في ما هو معدّ لفهم القلة، كان في الحقيقة يحس بعض الكراهية لها، ولكن صديقه "ستانيسلاوس إيفورسكي" كان طالباً للمسائل الخفية، وقد جلب إلى هناك واحدة باسم مدام لودوفسكو"، ادعت أنها تمتلك قوى فوق اعتيادية، مادية أكثر منها نفسية، بما فيها قدرة شفاء الجروح والحروق، ورقاً جريان الدم.

كانت امرأة زرية الملبس، تلبس بتظاهر مخملاً، قبعة كبيرة عريضة الحافة، قفازين أسودين من جلد العجل وخلاخيل. كان "ستانيسلاوس" قد جلب صديقاً طبياً إلى الحفل. وكان الدكتور قد رضي بأن يكون موضوع تجربة رقاً الدم، ولكن بوب، الذي كانت شكوكيته مختلطة مع حب استطلاع هائل غرور طفولي، زار "أريد أن أكون أنا المعزة في هذه المعجزة!".

وهكذا تم الاتفاق. جلب الدكتور طبياً، رفع إلى الأعلى الكم عن رسغ بوب الأيسر، أمسكه فوق الطبق، غمر السكين بالكحول وشق الوريد السطحي المستعرض بمشرط صغير. ولم يكن ذلك ثقب دبوس قط.

جرى الدم في خيط رفيع ولكن مستمر فيما تجمعنا جميعاً حول المنضدة أحنّت مدام لودوفسكو رأسها، كما لو كانت تفحص الثقيب بقصر نظر، ماسحة شفيتها غير المصبوغتين في هذه الأثناء بمندبل، أبقتة ممسوكاً إلى فمها لمدة دقيقة بطولها. أظنها كانت تتصور أن انتباهنا مركّز على رسغ بوب. ثم ضغطت شفيتها بإحكام على الجرح، وبدت وكأنها تتنفس عليه كما سبق لي أن رأيت الفقراء* الهنود يفعلون. سمعنا همهمة خابية كما لو كانت صادرة عن صلاة أو ترنيمه، وكانت عضلات فمها تتحرك.

أخذ الأمر دقيقة كاملة أو أكثر، وبدأ أطول. ثم رفعت رأسها قائلة:
"لقد توقف. يمكنكم أن تروا".

وكان عندئذ أن وقع الانقطاع الغريب الذي أعاد الآن الأمر إلى ذاكرتي.
كان فم المرأة وخداها قد احمرت، وخيط دقيق من الحمرة يجري من زاوية فمها، وفيما رفعت وجهها قائلة "لقد توقف"، وناحت ماري لينسفيلد"، التي كانت تراقب

* هم النساءك ، الدراويش .

معنا، ووقعت مغشياً عليها ميتة. وقال الدكتور خلال لحظة، رافعاً إياها إلى الكنبه "ليس هذا بالخطر. ستفيق خلال دقيقة أو اثنتين. إن رؤية الدم يؤثر في الناس أحياناً بتلك الطريقة". وقد أفاقت، ولم نواصل التفكير في الأمر. كان الجريان من رسغ تشانلر قد توقف كلياً، وقد صرخ الآخرون في فزع ودهشة، عندما صاح بوب:

أفلم تروا؟ صلوات يا عيني! لقد لعقته كما كلب صغير! لقد لعقته أنا نفسي الآن توأ، وذلك ما برّدها! كما لو أنني كنت ألعق ثمار البرسيمون الخضراء! اجعلوها تعطيكُم ذلك المنديل، لو كانت تجرؤ. ستجدون أنه يفوح برائحة حمض التنيك، وربما الادرنالين.

هيا، يا بول. أعط هذه القحبة عشرة دولارات وكأساً من الجن، وارمها خارجاً!". كنت قد نسيت كل شيء عن المرأة الرومانية وحيلها الرخيصة. كانت الذكرى الآن لكيفية نواح وارتحاف ماري لينسفيلد وسقوطها إلى الأرض فقط هي ما أعادت الحادثة وامضة وجعلتني أتذكر حادثة أخرى وقعت أحدث من ذلك في (الانيب). وكان لها جانب حاد أيضاً، بدا في حينه مجرد مصادفة عرضية. كانت البنت لينسفيلد تتشاطر غرفة هناك مع صديقة، هي أيضاً بنت أميركية، وبدت الاثنتان وكأنهما عصيتان على الانفصال. انقضت الصداقة فجأة لأسباب لم يعرفها أحد.

كانت الفتاة قد انتقلت إلى بنسيون آخر. وأنا أتذكر الآن بوضوح أنه في وقت النزاع، أو كائناً ما كان الذي حدث، جرحت هذه الفتاة الثانية نفسها بخطاف ثلج، أو قلت إن ذلك ما جرى في حفلة تشانلر. كانت ماري لينسفيلد قد تحطمت إلى شظايا وأغمي عليها لرؤية الدم على شفتي امرأة أخرى.

في هذه الواقعة الثانية، بدأت أتساءل إن كانت حادثة بخطاف ثلج، ولو كانت كذلك، فشافاه من يمكن أن تكون قد تلوثت فيما بعد. لأنه ها هي ذي ماري لينسفيلد الآن، فمها الشاحب ملوث بالدم- تخشى أن تصاب بالجنون.

قلت:

"أوقع ذلك لك من قبل إطلاقاً؟".

فقال:

كنت أزور صديقة في (فاسار)، جرحت نفسها بزعاج مكسور. ساعدتُ في تضميد الجرح. وقد نامت عميقاً تلك الليلة. كنت أقنعها بأن تتناول ثلاث جرعات من البروميد. ولقد أردت أن أقتل نفسي في الصباح التالي". فقلت:

"أكان شيئاً يشبه ما جرى عندما تنازعتما، إن كان ذلك نزاعاً، أنت وتلك الفتاة- لا أذكر اسمها- في الـ (أنتيب) قبل سنتين؟". قالت: نعم. إنه شيء على القدر نفسه من سوء. أنا ما تفكر به أنت. لقد وقع ذلك أكثر من مرة". فقلت:

ماذا قصدت بقولك (ما أفكر به)؟ إنني لا أفكر بشيء غير أنك فتاة مريضة يجب أن تري طبيباً".

وعندئذ، كانت هي، وانتبهوا لذلك، من همس بالكلمة القبيحة القديمة مصاصة دماء". فيما واصلت الكلام الآن، كما لو أن بوابة فيضان قد فتحت، كاشفة روحها المريضة والمعذبة، أظنني أدركت للمرة الأولى حقيقة لم يسبق أن جرى التصريح بها بوضوح، بقدر ما اعلم من جانب أي كان: إن الإلحاح على الخرافة ودعمها لا يشجع الخوف (والقسوة) فقط في ذهن جمهور العامة، وإنما يساعد أيضاً في تفرغ وتنشئة المخاوف الكبرى ذاتها التي يهاجمها.

ولأشرح بالضبط ما أعنيه، بالإشارة إلى مصاص الدماء. إن الشخص غير المؤمن بالخرافات، الذي يتأثر بهذا التوق للدم، إما أن يراجع طبيباً وإما أن يخرج ويرتكب جرائم تعالجها الشرطة ببسر. وأي من هذين الأمرين البسيطين يعتمد، ببساطة، على توازنه الأخلاقي. ولكن المؤمن، أو المؤمنة بالخرافات، لأنه تحت التأثير الشديد للخرافات وسلطانها، يتصرف على نحو مختلف تماماً. لو أنه، أو لو أنها، من النمط السيئ أخلاقياً، فستكون الخطوة التالية: "أوووه! إنني مصاصة دماء!" أو "واو! إنني مستذئب! إنني سويرمان الآن، ولا شيء يستطيع إيقافني إلا إذا كان طلقة فضية أو خازوقا يخرق قلبي! إذن فسأذهب إلى المدينة!". يقول، أو تقول، لأنه تحت سلطان الخرافة ولكن بضمير أخلاقي، كما هي حال السيدة الشابة البائسة التي أكلمها الآن.

"الويل لي! لقد صرت شيئاً قبيحاً ورهيئاً".

ولا أستطيع أن أفعل شيئاً لمقاومة ذلك. من الأفضل لو أنني مت! كان من الأفضل لو أنني لم أولد!".

لقد أصابني بالغثيان أن أعرف، فيما كنا جالسين نتحدث، كيف أن هذه الفتاة الطبيعية عقلياً في الأمور الأخرى- المبتلاة بالتوق للدم والميالة نحو إيمان بالجنة والنار موروثة عن والدين متدينين بإفراط- قد انغمست في القراءة المسكونة بالهواجس لكل شيء، أمكنها العثور عليه حول موضوع مصاصي الدماء. ثمة كتب كثيرة، تحوي كميات كبيرة من المادة التزيهة بالطبع، ولكنها مركومة بلا انتظام بخيال متعلم، أحق، ورع وشع، وعقيدة فوق طبيعية، كتبها أساتذة، متخصصون بأمور لا يفهمها إلا القلة، عباد، وعاظ وقسس مخبولون، بمن فيهم أيضاً بعض دكاترة اللاهوت المحدثين المحتفى بهم. لقد قرأتها جميعاً بانغماس، وفي ثلاثة أرباع كتابات القرون الوسطى وجدت أن من بين علامات مصاصات الدماء الإناث الشحوب غير الطبيعي، النحافة إلى حد الهزال، الشعر الأحمر والعيون الخضراء! تصادف محض أحق. ومع ذلك، فلك أن تتصور كيف أنها لا بد حدثت إلى مرآتها الخاصة، بما أن المصادفة لم تدفعها إلى الجنون المطبق، مع أنها كان يمكن أن تفعل ذلك بيسر في تقارن مع معرفتها السرية بشهوتها إلى الدم- فقد كانت تعرف أنها لم تمت قط وتدفن، وأنها لم تزحف عائدة في الليل لتنام في سرداب أو لحد مثل "اللايدي فير"، أو "دراكيبولا". ولكن ذلك لم يساعدها قط، لأن بعضاً من الكلام التافه، المؤمن بالخرافات، عن طبيعة مصاصي الدماء "يوضح أنك لو عضك أحدهم (ويمكن أن يقع هذا بالطبع أثناء نومك من دون أن تدري به)، فإنك تكون في خطر أن تصير مصاص دماء أنت نفسك، قبل أن تموت، أثناء مدة عيشك الطبيعية- كما يكون الشخص الذي يعضه كلب في معرض خطر الإصابة بداء الكلب.

سألتني فيما إذا كنت أؤمن بما آمن به كل أولئك الكتاب، أو ما إذا كنت أظنها مجنونة.

أدركت بالتدريج أنها لم تكن تصب مخاوفها خارجاً عليّ فقط، وإنما كانت قريبة من حافة الاعتراف بإيمانها الكامل بكل ذلك الهراء المروع، "معترفة بأنها من تلك العشيرة غير المقدسة.

وأدركت أيضاً فيما كنا جالسين هناك في الغسق أن هذه البلية الخفيفة ذاتها قد وقعت في كهف البحر المتوسط هذا نفسه قبل مئتي سنة بدلاً من وقوعها في القرن

العشرين، فإن الرجل ما كان ليهرب مرعوباً فقط ويخبر عنها السلطات الكنسية، وإنما كانت الفتاة ستقدم باعتراف كامل، طوعاً من دون الحاجة إلى أي تعذيب، بأنها كانت مصاصة دماء حقيقية.

كانت ستموت معتقدة بعدالة إدانتها وكانت ستدفن في مفرق طرق وخازوق ينفذ عبر قلبها. خرجت من هذه التأملات غاضباً، ولكن ليس عليها. قلت:

حباً بالمسيح/ انسي كل هذا الهذر الأحمق. أنت لست مجنونة، ولكن كل أولئك الفوق طبيعيين الملعونين مجانين كالجحيم. وافقنا على أنك مصاصة دماء إن كنت تصرين على تسمية الأمر بهذا الاسم- إنك نوع من مصاصة دماء طفلة يمكنها أن تنمو لتصير غولاً، ولكنك لست مخلوقاً محكوماً بشكل فوق طبيعي، ولا أنت مجرمة، أيضاً، بعد. وأنت لست حتى شريرة، بعد. إنك مجرد فتاة مريضة، مهلوسة، وعليك أن تراجع طبيباً. راجعي طبيباً أولاً، واجعليه يجد لك طبيباً نفسياً جيداً، واحداً يحمل شهادة طبية أيضاً... هنا أو إذ تعودين إلى موطنك في أميركا....".

كانت توصيتي قوية بما يكفي، ولكنها جاءت متأخرة جداً. وقد اتبعتها الأنسة لينسفيلد حرفياً، فعادت إلى أميركا. ووضعت نفسها بين أيدي أطباء اختصاصيين. لم تستسلم ثانية قط إلى توقها المأساوي، ولكن في خلال سنة ماتت- من فقر الدم الحبيث. كانت خلايا الدم الحمراء في جسدها، الكريات الحمراء، تتحطم.

لقد اشتبكت كل منظومتها الكيماوية في نزاع رهيب من أجل موازنة نفسها والبقاء، ولقد اكتشفت في وقت متأخر جداً على نقل الدم أو أي عمل لإنقاذها. كان سوء التوافق الفيزيولوجي هذا في قعر سوء توافقها العقلي، في توقها الرهيب، ولم تكن باقية مسؤولة أخلاقياً عن توقها بقدر مسؤولية الأقرام والعمالقة (الضحايا الأبرياء لغددهم الصنوبرية والدرقية) الأخلاقية عن أشكالهم الغولية. إنهم جميعاً يشكلون جزءاً من الصورة مربوطاً بالتأكد الشائع الآن في اندماج الطب السريري والطب النفسي في القرن العشرين، الذي يتكشف في حقل علم النفس والسلوك غالباً ما يمكن تقصي أثرهما إلى أسباب كيماوية- عضوية.

٤- الرجل الفهد من ساحل العاج؛

إن المقابلات السحرية وتبادل السجائر والثقة المتبادلة مع المستذنبين نادرة جداً. فالمستذنبون وأشباههم لا يعتقلون غالباً أحياناً. إن المستذنب، وشبيهة الإفريقي: الرجل النمر، الرجل الفهد، المرأة الضبع، يقتلون عادة في الموقع أو يهربون ليرتكبوا مفاسد لاحقة، ويموتون عموماً في أسرتهم، كما يفعل الجنرالات. وكان صديقي الصغير "تاي"، الرئيس الصغير لليافوبا، والذي عمل وقتاً موظفاً كتابياً في المكاتب الإدارية في (داكوي)، استثناءً.

كان قد ألقى عليه القبض دامي المخالب، واعترف، وحكم بالإعدام، وهو يجلس الآن في ظل جدار باحة السجن، يمضغ جوز الكولا، يدخن السجائر وينتظر مجيء الأوراق الرسمية من (بتلر فيل) لتأكيد الحكم. وعندما لم يكن "تاي" هذا مشغولاً بالاستذئاب، كان وغداً تافهاً يزجي الوقت بالتحايل. وقد صار، في الواقع، نوعاً من المستذنب الأليف الآن إذ ألقى عليه القبض. وكان "كلوزيه"، الحاكم المحلي، على وشك أن يبدأ الإحساس بالأسف لأنه سيعترّب عليهم أن يطلقوا عليه النار. قضيتُ ساعات مع "تاي"، مدخناً سجائر لا تنتهي، ماضعاً الكولا، ومصغياً إليه يتحدث. كان قزماً ضئيلاً مهزولاً، له وجه مغضن وعينان براقتان وابتسامة متحمسة، مع خصلة من لحية عنز تنط صاعدة هابطة وهو يمضغ. كان عارياً، إلا من منزر للعورة، قنم وأحجية، خرز، أسنان تمساح وأكياس جلد منظومة في سلسلة حول رقبته. عندما يكون مشغولاً في المكتب، كان يرتدي ملابس وأحذية جاهزة، ويمتلك قلم حبر، ساعة وسلسلة. لم يعد الوقت ذا أهمية بالنسبة لتاي، بينما يهزأ أصابع قدميه ويواصل الإصرار:

"... ولكنتني أخبرك أنني انقلب حقاً إلى فهد. لا- لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن من أجلك! لا أستطيع أن أفعلها على هذا النحو- متى ما شئت. لا أستطيع أن أفعل

ذلك إطلاقاً، ليس ذلك شيئاً أفعله. إنه شيء يحدث لي. ولكن عندما يحدث، أكون فهداً.

"أتحب ذلك؟" وكان يجيب دائماً:

"أوه، نعم، إنه خير من أن تكون آدمياً".

بقيت أضيائه للمرة الأربعمئة:

"ولكن إن كنت تتحول حقاً إلى فهد، فلماذا يترتب عليك أن ترتدي جلد الفهد

ذاك وتضع هذه القفازات مع المخالب الحديد؟". وكان يكرر:

"إنها جزء من الفتيش، هي جزء من السحر. إنها مثل مسح سمن الفهد، وأكل

الجزء من كبد الفهد، ورقص رقصة الفهد، القرفصة والوثوب.

عندما تقوم بالوثب تصير فهداً...".

وأضاف في إحدى المرات راجياً، عندما كنت جلبت له زجاجة من الفيرموت الحلو،

الذي كان يحبه بتطرف: "لا أدري ما إذا كان الرجل الأبيض قادراً على فعل ذلك أم

لا، ولكنني سيسرني أن أعلمك الوثب... ويمكنك دائماً أن تحاول".

وكنْتُ أقول، وأنا أعود إلى النقطة التي تجذب انتباهي أكثر من غيرها:

"حسناً، ولكن بعد أن تكون وثبت وصرت فهداً- إن كنت تصير فهداً حقاً- فلماذا

لا تشب خارجاً من التنكر؟

إنك لا تحتاج إلى جلدي فهد اثنين، ولا تحتاج إلى المخالب الحديد، إن صارت لك

الحقيقية منها!".

على هذا السؤال، كان لدى تاي أجوبة مختلفة، وكان أفضلها هو أن المرء لا يعرف

أبداً متى ربما سيتحول ثانية عائداً إلى شكله الآدمي- ويمكن التعرف عليه.

في النهاية، اقتنعت بأن هلوساته عن تحوله فعلاً إلى فهد صحيحة تماماً-

باعتبارها هلوسات.

انتقلت إلى التفكير في كل الأمر الغريب المتعلق بالواقع الذاتي والموضوعي،

وخطر لي أنه في مأساة- قتل الرجل الفهد النمطية كما تقع عادة في الغابة، وكما

وقعت في موت "بليستو" الذي اعترف به تاي، ثمة وهم ثلاثي الطرق، واقع ذاتي ثلاثي

الطرق يمتد إلى ما وراء الوهم المجرد في الذهن الفردي للرجل الفهد. إنني لا أتحوّل إلى

الغموض أنا الآخر. أقصد بـ "واقع ذاتي ثلاثي الطرق"، ببساطة، أن ثلاثة أفراد منفصلين، أو ثلاث مجموعات منفصلة، تشارك في الآن ذاته في الهلوسة:

١- الرجل الفهد.

٢- الضحية

٣- الشاهد، وإن كان ثمة شاهد.

كانت الحال كذلك حقاً في مقتل "بليتو"، الذي وقع فيما كانت تتمشى عند الغسق على ممر غابي يقود من قريتها إلى نبع، والذي تتوافر لدينا عنه معلومات ظرفية وافية.

كان تاي قد وثب، بملابسه الفهدية ومخالبه الحديد- معتقداً أنه فهد- ضحية بالكامل لواقع ذاتي يتعلق بوهمه المسعور، ربما عاوياً، هابطاً من غصنٍ إلى كتفها، ومزق حنجرتها بمخالبه.

ما الذي كانت "بليتو" رآته وأحست به في تلك اللحظة الخاطفة وهي تموت؟ لو أنها كانت رأت شيئاً، فقد كان هيئة الفهد الخاطفة، وهو يثب كالفهد. وما أحسته أكيد. لقد أحست بجسد منطلق سريعاً، فروي، يحط على كتفها، ومخالب تمزق حنجرتها.

لقد ماتت في التأكد الذاتي تماماً من كونها يقتلها فهد. عندما يكون ثمة شهود لوقائع القتل هذه، كما كانوا موجودين في هذه الحالة، ماذا يرى الشهود؟ إنهم يرون فهداً واثباً، منغمساً في القتل، ويهربون صارخين لإثارة القرية. لن تعرف بليتو الميتة قط أن الفهد كان آدمياً- مستفهداً. ولن يعلم الشهود أنه كان مستفهداً إلا عندما يعود الصيادون عندما يكون فهداً حقيقياً، يمكنهم ببساطة أن يقتفوا ويجدوا الجثة المشوهة الملتهمة جزئياً، وآثار الفهد الحقيقي. وفي غياب علامات الوحش الاعتيادية، يشكون في أنه كان رجلاً- فهداً، وكان رجلاً، في هذه الدائرة المكملّة من الواقع الذاتي، ليس في هيئة إنسان، وإنما في هيئة فهد. وهم هؤلاء القرويون أنفسهم، الذين غالباً ما يأتون إلى باحة السجن ليروا تاي في هيئته الآدمية الاعتيادية.

في بعض الأحيان كانوا يجلبون له فاكهة المنجا. لم يكونوا يكونون له أي حقد. كانوا يعتقدون، كما يعتقد هو، انه لا يستطيع أن يمتنع أحياناً عن الاستحالة إلى فهد. كانوا واثقين من أن هذا سيقع، لمرة أخيرة ونهاية، عندما يقف تاي أمام جدار السجن وتطلق عليه النار. عندما تطلق عليه النار، لن يكون موجوداً بعد، بوصفه تاي. سيكون ثمة فهد ميت ممد هناك، وجسده مثقّب بالطلقات. كانوا جميعاً يأتون من مسافة أميال في الأطراف، ليروا ذلك، لأن حالة تاي- خليط غريب من الكوميديا والمزاح الخبيث والرعب- قد جعلت الجزء الذي يعود لنا من الغابة، بمن فينا البيض والسود، في اضطراب لأسابيع من غير انقطاع.

كانت بليتو إن كنتم لاحظتم، عشق تاي الغابي ذاته- وكذلك عشق "كلوزيه"- في منطقة يشتري فيها السود- والبيض أيضاً- ويبيعون ويقايضون بنات البافوبا الفتيات وزوجاتهم ومحظياتهم وعبيدهم، كما نفعل نحن بكلاب التدليل والققط وكلاب الصيد. اشترت مرة واحدة بثلاثة دولارات ومراة سيللويدية زهرية اللون. عندما صار تاي مستخدماً حكومياً، كانت بليتو- التي كانت فتية قسيمة تخشخش بالعقود والاسورة قد لفتت عيني الإداري كلوزيه المستطلعتين. ابتهج زعيم القرية الصغير ذو الوجه الثعلبي، الذي كان يمتلك من الفتيات في حريمه بقدر ما يملك من دجاج في قن دجاجة. لا يكون المحليون غيورين قط في أمثال هذه الحالات.

إن أفضل شيء يمكن أن يقع لهم وهم يعرفون ذلك، هو عندما تتمكن فتاة أو أي عضوة أنثى من أجهزة بيوتهم من الوصول إلى داخل منزل احد البيض، وفراشه. طالما ارتفعت المنح إلى أكثر من الـ "هبة" الأصلية أو سعر الشراء.

في بعض الأحيان عندما كانت بليتو ترقص على مرج مجمع الحاكم كلوزيه بمصاحبة الطبول القبلية، من أجل التسلية، كان تاي يجلس على مقعد قريب من كرسي كلوزيه، ويستمتع بذلك بقدر استمتاع أي شخص. في تلك الأيام، كان تاي متوحشاً صغيراً محبوباً ذكياً نشيطاً مزهواً بنفسه قد ريش نفسه مع الفرنسيين، مع أنه كان لا يزال يلبس التمام تحت ثيابه الجاهزة، وأسنان الحيوانات البرية مضفورة بشعره، ويعتمر- مرتاحاً قبعة غولف، وحذاءين أصفرين يمكن أن يكونا جاءا من هارلم، وكان "السيد تاي من الإدارة" بالنسبة للحفاة هناك في قريته. عندما كان الخدم يجلبون الفيرموث والبيرنو، كان كلوزيه يسلم تاي أحيانا كأساً أيضاً، مع تكشيرة.

كانت تلك هي حال الأوضاع في (دانكوي) عندما ذهبت شمالاً للانضمام إلى الحاكم العام "بيركول" في رحلة صيد. عندما كنا عائدتين إلى مقره، سمعنا أن مشكلات وقعت في منطقة كلوزيه. سمعنا أولاً أنه كانت ثمة غارة من الرجال- الفهود الليبريين من عبر النهر. إن جمعيات الفهود الليبرية هذه هي النسخ المعدلة من جمعية الرجل- الفهد" في ساحل العاج"، و"المستذنب" الأوروبية، وهم يصطادون عموماً في أسراب. إنها جمعيات سرية إجرامية تقارس نوعاً من محاكاة الذئاب، متنقلة إلى حال من الهلوسة المسعورة في جماعات.

سمعنا أولاً أن بليتيو كانت من بين الضحايا- ثم سمعنا التقرير الأوثق: إن بليتيو كانت الضحية الوحيدة، بينما كانت عائدة في سفرة لرؤية قريتها الأصلية، التي كانت، في الواقع، قرب النهر- نقطة الحدود الليبرية. وسمعنا أن كلوزيه قد استدعى فصيلة من الرماة، وأن تاي- الذي كانت منطقة قريته معينة- جعل مسؤولاً عن التحقيق. قال بيركول:

"إنها لقصة غريبة. طبعي أن كلوزيه كان على الدوام أحمق، ولكنها قصة غريبة. بليتيو وحدها قتلت.

من يقول إنه كان ثمة غارة؟ من يقول إن أحداً جاء عبر النهر؟ سيهمني أن أسمع بما يجري".

بعد أسبوع أو اثنين، وصلتنا كلمة من كلوزيه أن الجريمة قد ألصقت بثلاثة ليبريين يتنقلون للسلب. تم إلقاء القبض عليهم وكانت هناك أدلة أكثر من كافية لجعلهم يُحكمون ويعدمون بالرصاص. كان بيركول- المسؤول عن الإقليم كله- لا يزال يشعر بأن ثمة شيئاً غريباً في الأمر، وفي اليوم التالي هبطنا إلى داكوي. أخفى بيركول شكوكه.

كان لطيفاً مثل حَمَل، هنا كلوزيه، ألقى نظرة عرضية على السجناء، وبدأ الآن- فيما تعشينا مع كلوزيه- يلقي أسئلة بريئة. كيف ألقوا عليهم القبض؟ كيف تحققوا من هوياتهم؟ هل اعترفوا؟ فقال كلوزيه

كلا، إنهم لم يعترفوا. بل حتى أنهم ادعوا بوجودهم في غير موقع الجريمة دون أن يدعوا شيئاً آخر، ولكنك تعرف ما قيمة ادعاء الأهالي المحليين بعذر الوجود في غير موقع الجريمة، وقد كانت ثمة دلائل ظرفية كافية لإقناع أية محكمة في أي مكان. وكرر بيركول تهانيه، فقال كلوزيه:

"حسناً، إن الفضل يعود حقاً إلى تاي. لقد ساعد القناصة والشرطة، ولكن تاي هو من أنجز ذلك حقاً".

فقال بيركول باعتدال، ولاحظت أنه كان يحك رأسه
"إذن، على فكرة، من الذي طرح فكرة الليبريين ابتداءً؟ من الذي أحس تخميناً بجمعية الفهود الأصلية؟".
فرد كلوزيه:

"لقد كان تاي، إنه شيخ صغير حاذق". فوافق بيركول:
"نعم، إنه أحد الأذكي. لكنني كنت أود مع ذلك لو أنه حصل على اعتراف من هؤلاء الليبريين. سأرى ما يمكنني فعله بهذا الصدد إن لم تكن قانع".
رأى بيركول السجناء، على انفراد، ومعاً بضع مرات، ثم رحل عن داكوي لمدة يومين، عاد بعدها، وقال:

"إنهم لم يفعلوا ذلك. ما كان بمقدورهم أن يفعلوا". فقال كلوزيه المندهش: "أأنت متأكد؟".

"نعم أنا متأكد - وأنت تعرف ما الذي سينتهي إليه الأمر الآن، أليس كذلك؟".
فقال كلوزيه المذهول:

يا الهي. لا يمكن أن يكون ذلك. مضت عليه سنوات مستخدماً حكومياً جيداً..."
فقال بيركول متعباً:

"آه لي. إنني أحبك يا كلوزيه. ولكنك طفل. لقد زكمت الأنوف رائحة القضية قبل مدة طويلة من اكتشافي عدم امكان هؤلاء القردة المساكين الذين اعتقلتهم فعلها، وما زالت رائحتها تزكم الأنوف. إن رائحتها لتفوح بشكل صارخ بحيث نالتني منها شمة عندما سمعت بالأمر على بعد مئة ميل. والآن، أنا متأكد".

وهكذا فإن بيركول ذا اليد العليا عمل بناء على "حده"، اعتُقل تاي، مُزق بيت

فتيش تاي إلى نثار، واكتشفت وسائل تنكر الفهد: الجلد وقفازات دامية المخالب
مخبوءة في السقف القشي - وكذلك خلاخيل بليتو واسورتها، ملطخة هي الأخرى
بالدم. بين وقت وآخر، طيلة سنوات.

إن ابتسامة المستخدم الحكومي الصغير المخلص والدؤوب على عمله، الذي كان
فهداً بنصف وقت في ليالي عطلته، قد لطف، بشكل غير منطقي، فظاعة الجريمة
المهلوسة، ولكنه أخفق، عن حق، في تخفيف كفارتها.

لم يكن الفرنسيون يؤيدون الشنق قط. إنهم يفعلون ذلك بوساطة فريق إطلاق نار
في أفريقيا. كان الأهالي المحليون قد جاءوا من بعد أميال ليروا التنفيذ، مقتنعين أن
الجسد سيعود بشكل إعجازي إلى شكله الفهدي عند الوفاة. ولكن الجثة التي كانت
تتمدد مدعوكة متعفنة هناك عند أسفل الجدار الأصفر خارج باحة السجن كانت مجرد
جثة تاي الصغير.

أحسست بأسى قليل عليه، لأنني واثق من أنه كان سيدهش لعدم وقوع أية
معجزة.

٤- اللاليدي ضبع ذات الأقراط المزينة بالجواهر

لو كنت مقتنعاً، وأرجو أن أقنعكم، أن العديد من الساحرات، مصاصي الدماء، المستذئبات، الرجال- الفهود، وعشيرتهم جميعاً بشر مهلوسون يؤمنون بهذرهم السحري ويكونون عادة مذنبين بلا مرء بالقتل وما هو أسوأ، فإنني لا أعني أن ألح إلى أن كل المخلوقات التعسة المتهمه بهذا هي، إذن، مخدوعة أو مجرمة، أو الاثنان معاً.

إن إحدى النتائج الجانبية للخرافة، سواء أكانت بدائية ووحشية أم من بقايا العصور الوسطى، يفترض بيننا أن تكون قد نورّت البيض بأنها، بالإضافة إلى توفير وسيط ثقافي معدٍ للسحر الوبائي. الاستذئاب، كونها تخلق الخوف من السحر، هستيريا السحر، وهما وبائيان أيضاً، وتكون النتيجة هي أن أفراداً أبرياء كثيراً ما يُتهمون، عن غير وجه حق، ويدانون ويدمرّون. كما أنها توفر أيضاً مجالاً فاسداً للتآمر الخاص.

فعلى سبيل المثال، كانت الابنة الأجلل والافتى لأحد رؤساء الـ "موسي" في (فولتا العليا) قد ورّطت من قبل الكهنة المحليين وقتلت بالتالي على أيديهم، على الرغم من براءتها كأبي من بطلات "هاوثورن" أو فتاة (سالم) التي سخّنتها الشاشات أكثر من اللازم. كان الكهنة قد اقنعوا أهل الريف بأن الفتاة البائسة ضبع شيطانية، وأوشكوا أن ينفذوا بجلودهم من الجريمة.

كنت مسافراً إلى أعلى شمالاً باتجاه (واهيفويا)، باحثاً عن أفراس النهر، مع بيركول، الذي كان عالم طبيعة وصياداً في الآن ذاته، والذي سرعان ما سيرمي سمكته الذهبية البيتية بالنار بوصفها واحدة من حيوانات الماء الأنيسة ومعلقة الحركة. كنا قد

نزلنا كي نرى زميله، "المسيو ميلار"، الحاكم في إحدى مناطق (واهيفويا)، كي نخبره عن أفراس النهر. كان فيما بعد، عندما كنا نلعب البريدج القاتل ثلاثي الأيدي، في مقر الحاكمية، عندما سمعنا عن "اللايدي ضبع"، وإنني أتذكر أن أصدقائي كانوا نافذي الصبر بشكل يفوق الحد بشأن الأمر- في البدء.

كان رئيس الخدم المسلم الأسود قد جاء ليقول بفرنسية كاملة حذرة بأن سيداً بريطانياً قد جاء، يبدو أنه منزعج بشأن شيء ما، وأنه "تمنى بإلحاح" أن يرى الحاكم الليلة. فقال "ميلار":
"اللعة!".

قل للسيد البريطاني أن يذهب ويقفز إلى (نهر النيجر). أفلا ترى أننا نلعب الورق؟".

إن الموظفين الحكوميين في هذه الأقاليم المنعزلة، حيث ليس ثمة فنادق ولا مطاعم عامة، خُدعوا بشكل رهيب من قبل الصيادين، الـ "مستكشفين" والسياح حتى تعلموا أن يصيروا غير مضيافين من أجل حماية أنفسهم. في العادة، كان رئيس الخدم يتولى بنفسه أن يخبر الغريب بأن يعود في اليوم التالي، والآن- لما كان رئيس الخدم لا يزال واقفاً هناك غير متأكد، متردداً في الانسحاب، أحسست بشيء غير مألوف. هدر "ميلار" بـلماذا أنت واقف هناك؟ يمكن لشغله، مهما كان، أن ينتظر. هيا اخرج الآن!".

ولكن رئيس الخدم تشبث بموقعه بشكل غريب. شرح رئيس الخدم على استيحاء:
ليس الأمر... حسناً ليس الأمر شغلاً بالضبط. لقد كان السيد البريطاني مشوشاً تماماً. لو تفضلتم بالملاحظة لقد أطلق لنا على ضبع...

كان بيركول هو من شتم هذه المرة، دافعاً كرسيه إلى وراء:

"اللعة على ابن الـ.....!"

اخبر الأحق أن يخرج ويرمي ألف ضبع!

أيتصور أن ثمة موسم تحريم على إطلاق النار على الضباع في أفريقيا؟ لو كان أطلق النار على أحد أفراسي النهرية.... ولكن من يبالي برمي الضباع؟".

"أيها السيد القائد، لقد كانت ضبعاً أنثى شابة، وقد كانت ثمة أقران ذات مجوهرات في أذنيها المثقوبتين".

فسأل ميلار، بلطف:

"هل الإنكليزي سكران؟".

"كلا يا سيدي القائد، ليس سكراناً، وقد جلب الضبع إلى هنا لقد رأيته أنا".

فقال ميلار بتهكم ثقيل:

لقد قيل لي على الدوام إن أي شيء يمكن أن يحدث في أفريقيا، ولكن قد مضى عليّ وقت طويل هنا بحيث لا أصدق ذلك تماماً. يمكنك أن تدخل الآن الإنكليزي الـ "مولاي" ومولاته الضبع".

كان الإنكليزي جليلاً، متوسط السن، متجهماً وكذلك- كما اكتشفنا على الفور- منزعجاً تماماً. لم تكن تبدو عليه الرغبة في الاعتذار لإزعاجنا. كان موقفه يلوح بشكل حاسم إلى أن الضباع لا تلبس الأقراط قط في المحميات البريطانية جيدة الإدارة. وأوضح أنه كان يصطاد ليلاً، بحثاً عن أسد، على الجروف في اتجاه (بادياكرا)، وأنه كان يحس أن من اللازم الإخبار عن حادث بهذه "اللامعقولية" إلى السلطات. في الصيد الليلي، يلبس الصياد مصباحاً كهربائياً متوهجاً، مع عاكس، مثبتاً حول قبعته أو جبينه، وتمتد الأسلاك إلى بطارية في جيبه.

عندما يلتقط الضوء زوجاً من العيون البراقة، يرمي الصياد النار، وفي بعض الأحيان يكون الصيد أسداً. ولو أنه يسيء تقدير المسافة، وبالتالي الفاصلة بين عينيه، فهو قد يكون قطعاً وحشياً أو ربما حتى أرنباً. يمكن أن يحدث هذا لكل امرئ في الليلة الظلماء. في هذه الحالة كانت ضبعاً، هي التي ادخلها حمالو الإنكليزي الآن وأودعوها، عند إشارة من ميلار، على مائدة مقامة هناك بحيث يمكننا أن نفحصها.

كانت بالضبط ضبعاً أنثى شابة نمت إلى حجم الثلثين، ولكن شحمتي أذنيها قد ثقتا كما تثقب شحمت آذان النساء، وكان موضوعاً في الأذنين زوج من الأقراط المحلية الذهبية الجميلة المطعمة بأحجار شبه كريمة، من النوع الذي يوجد في جوار (غاو).

جلب رئيس الخدم بيرنوسكي. صار الإنكليزي أقل تجهماً بقليل. ارتخينا نحن جميعاً واتفقنا على أنه كان هنا عرض بديع.

وُضع الإنكليزي في دار الضيوف، وأُقفل على الضبع الميتة في المكتب، وفي الصباح التالي أرسل ميلار في طلب الرئيس الموسي المحلي وكهنته الفتيشين،

والأطباء السحرة المحليين، وعريف الجندرمة المحلي، والمترجمين، الذين جاؤوا جميعاً في هذه الأثناء، فركوا أعينهم- وصاروا أغبى مما ينبغي لهم أن يكونوا. كلا، لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها. كلا، لم يسبق أن سمعوا بوقوع شيء كهذا من قبل. كلا، لا يمكنهم تخمين شيء بهذا الخصوص.

كلا... كلا إطلاقاً... لم يسبق لأحد منهم أن رأى ذنك القرطين بالذات. وانصرفوا الآن، ولكن بيركول- الذي كان قد ساعد في إجراء التحريات- كان واثقاً من أنهم يكذبون. قال إنهم كانوا أغبى مما كان ضرورياً. ما كان يمكن اتهامهم قضائياً، أو اتهام أي كان. ليست جريمة وضع حلقات في أذن ضبع وإطلاقها على سفح جبل. وعندما لا تكون ثمة جريمة في الأمر، فقد كانت سياسة الفرنسيين على الدوام عدم التدخل مع الفتيشيين ومعابدهم المحلية وخداعهم المحلي وخرافاتهم.

لم تجر تحريات رسمية أخرى في ذلك الوقت، وكان الفضول المجرد، فيما أظن، أكثر من الشك في أي شيء، هو ما دفع بيركول قبل مغادرة الإقليم إلى القيام بزيارة غير رسمية إلى قرينه المحلي العالي- ذلك الشيخ والشرير البارز، صاحب القداسة الزنجية، الياتانابا، البابا الأسود لجميع الموسيين. إن هذين المستبدتين المتميزين بغرابة: الحاكم العام الفرنسي الضئيل، المغرور، الذي كان ينال فخراً زائفاً من لا رسمية الجائزة، اللفظ، والياتانا السامي الذي يبلغ وزنه ثلاثمائة رطلاً المرتدي أردية بهية من حرير وذهب ويدعي التحدر من كاهن رفيع أسود للفراغة المصريين- كانا حميمين وحليفين مدة عقد من الزمان. كانا كلاهما ساخرين عيايين تماماً، فرديين بالقدر نفسه للروتين الفرنسي والهراء الغابي، ومحبين كلاهما لغربي أفريقيا وعاملين كلاهما بطرقهما الخاصة المراوغة نحو رقي مصائرهما الواقعة في شرك.

كان قصر الياتانكا في واهيكوبا. إلى هناك ذهب بيركول والقرطان المطعمان بالمجوهرات في جيبه، فوجد الياتانا نابا المخدوع بعد رؤيتها وسماع قصة بيركول، بالغوص إلى قعر المسألة.

لم يكن الياتانغا- الذي كان يعرف أن عديداً من كهنة الغابة كانوا أنذالاً- يكره قط القبض عليهم ومثلهم بالخوف من الشيطان. ولقد كان هو الذي كشف لنا الجريمة، حقاً.

اتضح أنها كانت قصة مزدوجة، دوافع ظرفية مقبولة على السطح، و جريمة صريحة تحته.

كان القرطان المطعمان بالمجوهرات، كما ثبت فيما بعد، قد زينا أصلاً أذني "سارابانا" ما، الابنة الأصغر للملك المحلي المسمى "سانو".

إن كل رئيس قبلي هناك هو، بموافقة الفرنسيين، ملك"، في حين أن الحاكم الديني الوطني لكل الموسيين، ال "مورونانا" المتخث هو إمبراطور. وهذه الألقاب أقل إضحاكاً مما تبدو، لأن للموسيين مدناً ذات جدران، وقصوراً من لبن، وخيولاً بديعة، وملابس ساحرة التأثير من جلد ملون بشكل براق. وهكذا فقد كانت سارابانا، في اللغة الوطنية، "موسوماساكه"، أي "أميرة صغيرة"، مع أن ذلك لم ينفعها بشيء عندما جاءها قدرها المروع.

كانت القصة على السطح تروي بأنها عندما بلغت سن الثالثة عشرة، اكتشف الأطباء- السحرة الكهان، ونساء الفتيش الملحقات بجهاز بيتها، في البشائر والنذر التي نشأت من احتفالات التمام والتعاويد المحيطة بولوجها عالم الأنوثة- بأنها لم تكن امرأة قط، وإنما ضبع- عفريتة، الأمر الذي يعني، وفقاً لأساطيرهم، أن ضبعاً اتخذت لها، سحرياً، سكناً في جسدها البشري. ووفقاً لعقيدة الموسي، فلو كان هذا صحيحاً، فإنه يشكل خطراً مميتاً على عائلتها بالذات، لأنه عندما تحل بها سطوة الضبع، وهي ستحل ذات يوم، ستقتل أولاً والديها- أباهما الآدمي وأُمها الآدمية. لم يكن قتل البنت ذا جدوى، وفقاً لاعتقادهم لأن ذلك يطلق- ببساطة- روح ضبع غير مجسدة، شيطانية، لا يمكن وجود حماية منها على الإطلاق. وبالنتيجة، فقد سلمت للكهنه، الذين تولوا جعل الضبع تخرج منها في شكلها المادي.

والإجراء هو الإجراء نفسه الذي كان مستخدماً بين الإغريق، والرومان، واليهود، والمسيحيين، لطرد الشياطين. تختلف التعاويد والتعازيم، ولكن جوهرها هو جعل جسد الشخص المسكون موطناً من عدم الراحة بحيث يرغب حتى الشيطان أو الحيوان الوحشي أن يبقى فيه^١.

١ - انظر الملحق ص ٢٨٦ .

ليست الخرافة منطقية تماماً قط، حتى داخل مقدماتها المنطقية الكاذبة ذاتها، وفي حالة الضبع- العفريتة، يعتقدون أنها إما ستترك الجسد وتحاول الهرب، عندما يمكن ضربها بالهراوات أو تُرمى بالنار في شكلها الحيواني- أو يصير الجسد البشري نفسه متحولاً على نحو سحري إلى الوحش الضاري، ويجب عندئذ قتله. كانت الملحوظة التي أثارت شكوك بيركول فيما يتعلق بهذا التفسير للسطح القائم على الخرافة هو أن أخوات الفتاة بالذات ساعدن في الإجراء.

أما فيما يتعلق بما فعلته فعلاً للفتاة التعيسة فقد كانت لدى بيركول بعض التفاصيل من اللياتانغا هي أكثر ترويعاً من أن تُكتب أو تُطبع: أبقوها في سرداب، واشتغلت الأخوات عليها في نوبات بينما كان الكهنة ينبحون بتعاويذهم ورقّاهم. ويبدو أن هذا كله تواصل للجزء الأكبر من شهر في القبة تحت الأرضية لأحد معابدهم الطينية، وصارت سارابانا مخلوقاً معتموهاً يكاد لا يكون آدمياً حقاً بعد إلا في الشكل، زاحفة على أربع، مرولة، منكششة خوفاً أو برداً، مزمجرة على معذبيها- ولكن الضبع رفضت أن تُطرد ولم يتغير شكل الفتاة قط.

وما أخرجها إلى العلن من الحقل السيئ كغاية أصلاً كمضايقة خرافية لتصير من صنف الجريمة- من أجل الريح ذاته كما كانت جرائم قتلنا السحرية- الزرنيخية الراهنة كان حقيقة أن أخوات البنت الغيورات- كما كشف بيركول والياتانغا وبرهنا، وقد أغري من قبل أقارب آخرين لهم عين على خلافة العائلة، والأراضي والماشية، فرشوا الكهنة لتزييف البشائر- قد طبخن مؤامرة لإزاحة سارابانا من الطريق. كانت مفضلة أبيها المعلنة وكان قد خطط زواجاً مبكراً لها، على "أمير" من "السونغاي"، قدم نصف ممتلكاته صداقاً. ولأنها كانت مفضلته، فإنهن لم يجرؤن على قتل عادي وإنما طورن المؤامرة الرهيبة التي سترعه من سارابانا وتجعله يصدق أنها تهديد لوجوده ذاته.

عندما فقدت البنت التعسة عقلها تماماً، ذهبن إلى سانو، ودعونه كي يرى بنفسه، وكان ما رآه مخلوقة مسوطة، مجوعة ومعذبة تمشي على أربع، مجنونة تماماً وضارية، تلتهم قطعاً من اللحم النيئ عندما يُرمى لها.

وأقنعه هذا كثيراً بحيث صرن قدرات بسهولة على الحصول على موافقته على خططهن اللاحقة. أقنعه بمنطق طفولي أن سبب عدم تمكنهن من طرد الضبع، من جعلها

تخرج بشكلها الصحيح، كونها أدركت، وهي محبوسة كما كن في السرداب، إنها ستُحصر وتُقتل بمجرد أن تظهر. وهكذا، فبعد نقاش مطول وافق سانو على تركهن يأخذنها إلى ما بين الجروف ويحاولن الأمر في الهواء الطلق.

وكان ما فعلنه، بالطبع، ببساطة، هو قتلها هناك، وإلقاء جثتها في النهر، الذي كان يعج بالتماسيح. ولو أنهم تركوا الأمر ينتهي عند ذلك، لكان مجرد واحد من تلك الأمور التي تجري في أفريقيا ولا يسمع بها أي رجل أبيض. ولكن الكهنة المراوغين، الذين خططوا لأن يعودوا ويقولوا أن البنت نفسها قد صارت ضبعاً وهربت إلى الأحرار، لعبوا حيلتهم الذكية جداً مع القرطين لقد اصطادوا ضبعاً صغيرة حية، "زرعوا" القرطين، وأطلقوها، على أمل بعيد أن يلمح شخص ما، عاجلاً أو آجلاً، الفتنة الخاطفة في ضوء القمر، وربما حتى يقتلها، كما تصادف فعلاً وجرى، مما برهن على أن البنت البائسة قد كانت ضبعاً - عفريتة حقاً، الأمر الذي زاد مكانة مهنهم الكهنوتية وسحرهم. كان هذا بالضبط ما سيحدث لو أن الضبع شوهدت وأطلقت عليها النار من قبل أي مواطن محلي مؤمن بالخرافات. وكانت الفرصة الطويلة، المستحيلة تقريباً، التي أهملوها، أنها يمكن أن يجري اصطيادها من قبل رجل أبيض وتؤخذ إلى الحاكمية. إن الصيادين البيض لا يصطادون الضباع إطلاقاً تقريباً. إن الضبع جيفة، وجلدها غير ذي قيمة. ولن يستطيع البيض بمفردهم أبداً أن يصلوا إلى قعر المسألة فيجلبوا الكهنة ومعاونيهم إلى العدالة. أجرى بيركول حديثاً مطولاً مع مايلار عن الموضوع. وقد تم الاتفاق على أنه سيكون من الخطأ محاولة رفع الأمر إلى منبر القضاء تركت العدالة إلى البياتانغا نابا، الذي استمتع متعة وحشية برؤية العدالة تفرض - على وفق التقليد الوحشي الذي تستحقه الجريمة الوحشية.

٦- مستذئبة سارابان البيضاء المحبوسة في قفص

قال مصدرُ خشب الماهوغتني، متحدثاً عن زوجته "مارث" التي كان قد تزوجها في (مرسيليا) قبل أن يأتي إلى ساحل العاج: في آخر مرتين أعادوها إلى البيت كان فمها (أو: خطم الحيوان الوحشي* خاصتها) ملطخاً بالدم".

كان يتوسل إلى بيركول . إليّ أن نفهم بأنه كان قد فعل الشيء الوحيد الذي يستطيعه، وكنا نتساءل ما الحل الآخر الذي يمكن أن يكون أفضل.

ما كانت أي طرق أو آثار سافاري** اعتيادية تمتد إلى (سارابان)، ولم يصل أي فرنسي، حتى ولا بيركول، الذي كانت تعود إلى منطقته، رسمياً إلى هناك حتى الآن.

كانت إشاعات محلية عدة قد بقيت تتسرب نازلة إلى الساحل وكان بيركول- وقد اضطر أخيراً للتحقيق- قد دعاني للذهاب معه. كان في مزاج سيئ، غير ضربة الشمس- التي تعطي الاستعماري الأفريقي المتمرس ألماً في العنق أكثر حدة من أي شيء آخر- فهي بالضبط أي حكاية عن نساء بيضاوات أصبن بجنون الغاب، أو أبقيين سجينات وأجبرن على أداء وظيفة كاهنات للآلهة الزائفين.

وغالباً ما كان يتكشف أنهن يذهبن إلى هناك بناءً على إرادتهن الحرة، من أحد المواخير الواقعة وراء الميناء القديم في (طولون)، قرب الشكنات السنغالية، أو من (القصبه) في الجزائر العاصمة، حيث لا توضع خطوط للون- ونادراً ما يشكرن على انضمامك إلى حرفهن الجديدة. ولو كانت ثمة امرأة بيضاء "مأسورة" في (سارابان)، فقد كان بيركول واثقاً من أن الأمر سيكون من ذلك القبيل ومع ذلك، فقد ألحت الشائعات، وكان ثمة أهالٍ محليون يقسمون على أنهم كانوا هناك... أنهم رأوا

* بالفرنسية في الأصل .

** رحلة الصيد الأفريقية .

بأمهات أعينهم. قالوا إنه كان ثمة رجل هناك، على ضفاف الـ (كافالي)، على الجانب الآخر من الجبل، يحتفظ بامرأة، لها شعر طويل مسرّح، في قفص حديد، "كاني كايو"، يعني: "مثل فمّة" - مثل حيوان وحشي في أي قفص حديد. وأقسم تجار (جولا) الدوآرون، الذين زعموا أنهم رأوا المرأة فعلاً، على أنها كانت أوروبية بيضاء.

كان بيركول مقيماً لسنوات طويلة في أفريقيا، وكان قد قال لي: "قد يكون الأمر رسماً صورة أو نحتاً، قد تشبّث بخيال قبيلة منعزلة هناك. إن عقيدتهم في الأرواحية*، كما ترى، تعني أنه ما من شيء هو كما يبدو. يمكن أن يكون، بسهولة، صورة خشبية أو صنماً، ويمكن أن يكون حتى حيواناً ما، أو حتى صخرة أو شجرة. عندما تعيش هنا في القابة عشرين عاماً، فإنك تبدأ في فهم أن ما اعتبرته خطأ خيلاً، أو اعتبرته امتداداً لإرباكنا نحن البيض، هو غالباً شيء مختلف ومخلص تماماً.

إن سائقي السنغالي، الذي خدم أربع سنوات في فرنسا عريقاً، الذي كان يمكنه أن يفكك محركي إلى قطع وإعادة تجميعه سالماً ثانية، والذي عنده فونوغراف ويمكنه أن يقرأ شفرة موسي، أخذني مرة لرؤية جده في (كوناكري).

كنت قد قلت: " كنت أظنه ميتاً". فقال السائق: "كلا، لقد عاد".

وهكذا، فقد ذهبنا لرؤية جده في (كوناكري)، وكان جده تيساً! ومديرة منزلي الـ "باولية" "أويا"، التي عندها إدراك متين، كما تعلم، أكثر مما لتسعة أعشار الموظفين البيض هناك في قصر الحاكم، تحتفظ بمحارة بحر هي أختها الميتة. بالنسبة لهم، ليست الشجرة شجرة لنصف القوت، والمفتاح الإنكليزي المكسور الذي رميته بعيداً أفعى، أو ابن عم شخص ما.

والأمر متداخل حتى أكثر من ذلك. في هذه الانعطافات غير المتوقعة يمكن أن تكون طريقة لبس الرجل قبعة "جده، أو قطيع فيلة. وهكذا، فلا يعلم إلا الله، ما الذي سنجده - إن وجدنا شيئاً - عندما نصعد النهر".

* الاعتقاد بأن الروح . أو النفس . هي المبدأ الحيوي المنظم للكون .

في اليوم التالي، فيما أخذتنا شاحنة بيركول نحو الجبل، قال:
"لن نرى امرأة فهد "كاي" كايبو، حرفياً، في قفص... ثق من ذلك... ولكنني
سأريك من نسانيس البابون أكثر مما حلمت بوجودها في العالم. لقد وضعنا تلسكوباً
مسدداً على الجبل قبل سنتين عندما صعد رئيس المسّاحين في (بنغرفيل)، وكانت
الصخور تعج بها كما تعج اليرقات في قطعة جبن".

خيماً ونمنا عند قاعدة الجبل وتركنا الشاحنة هناك في الصباح التالي. ذهبنا على
الأقدام، مع طبّاخة، صبية، وستة حمالين، وفي آخر العصر صرنا في الأعالي بين
القرود. إن السلسلة الصخرية تمتد مثل الجثة الرمادية لحوت طوله ميل، يخرج من بحر
الغابة الأخضر، وتعج جروفه، حرفياً، بقرود البابون. كان عاصمة البابون. على بعض
المنحدرات، كانت بكثافة الذباب. وعاملها بيركول وزنوجه كما يعاملون الناس. لم
تكن تخشانا... عديمة الأذى تماماً، ما دمنا نبقى نحن مؤدبين معها - وما دمنا لا
نخشاها.

لقد تحدثت باهتمام، ولكن من دون غضب.
قال بيركول إننا لو قتلنا واحداً أو أصبناه، أو حتى رمينا عليها أحجاراً
فستحتشد وتهاجمنا، تتجمع علينا، وتمزقنا إلى نتف صغيرة.

خيماً في الليلة التالية على المنحدر التالي، فوق ال (كافالي)، وفي الصباح ظهر
رئيس صغير، وقد سحبه دخاننا، مع دزينة رجال مسلحين بالرماح، ليرى من نحن
وماذا كنا نريد. كانوا "وابه"، مثل حمّالي بيركول. هبطنا معهم، أعطيناهم ثلاثة
قضبان ملح وبعض التبغ. وجدوا لنا زورقاً شجرياً* فوق منحدرات النهر وشغلوه بالباعة
الجوالين. صعدنا في النهر ثلاثة أيام، و(السارابان) عن يميننا والأراضي الليبرية عن
يسارنا. في اليوم الرابع بلغنا أرضاً قطع منها خشب الماهوغي ثم بلغنا سريعاً
مزرعة، في هور، على الجانب الفرنسي. فيما عدا عزلتها، كانت تبدو طبيعية، عادية.
إنها تكاد لا تكون ما كنا نبحث عنه، ومع ذلك فقد قال الجوالون إنها كذلك. تعوّقنا،
وفيما كنا نفرغ أحمالنا، هبط المالك إلى الماء. كان مكفهراً، ليس رجلاً غبي المنظر، له

* مصنوعاً بحفر جذع شجرة .

لحية بنية، في منتصف العمر- من أهالي اللوكسمبورغ، كما اتضح. كان بيركول يلبس دائماً برثائه. وقد أظهر الرجل بوضوح- لما كان لا يدري مع من يتعامل- إنه لم يكن مسروراً لرؤية الزوار. لم يقدم لنا أي ترحيب، وكان فظاً. لقد كان من الخطأ دائماً أن يكون المرء فظاً مع بيركول الصغير.

قال بيركول بخُنة حادة في صوته، غاطة، رسمية، انفية:

"إذن فهذا أنتذا هنا، كائناً من كنت، تلعب تلك اللعبة القديمة في منطقتي!

قدم في ليبريا، والأخرى في أراض فرنسية، قاطعاً الماهوغانى على ضفتي النهر، متهرباً من الضرائب، وربما غير دافع أي رسوم امتياز. أنا بيركول، إن كنت تفهم الحاكم العام لهذه المنطقة..."

فقال المالك:

"إنني آسف. لم أتمكن من معرفة من أنت. أنا "جوزف هخت"، من لوكسمبورك ومرسيليا سابقاً. إن أوراقك كلها في إضباراتكم، أيها السيد الحاكم، في بنغريفيل. إنني آسف..."

فقال بيركول:

"ها إذن!!* فهذا هو أنت..."

وبدأ الرجل من جديد:

"إنني آسف...."، عندما قاطعه بيركول، باستنكار هذه المرة، ودياً تقريباً:

"لم يكن الأمر هو ذلك على أية حال. لم يكن سبب مجيئي إلى هنا لرؤيتك بشأنه. لقد جئت صاعداً إلى هنا لوضع حد لقصة حمقاء بلهاء تنشرها القبائل. إنني أتردد في ذكرها". فسأل "جوزف هخت":

"وكيف تهمني هذه المسألة؟"، ثم أضاف:

"إن القبائل لا تسبب لي مشكلات"، فقال بيركول من دون تفكير:

"يقولون إنك تحتفظ بنسوة في أقفاص!"

لدى هذا، طرأ تغير استثنائي على الرجل الملتحي. سقطت عنه عدوانيته السابقة

* بالفرنسية في الأصل .

لم يكن ذلك إلى حد أنه انهار. بل إن وجهه، ومع اللين، انطوى على نوع من التسليم المر الغريب. قال:

آه، يا مسيو، من الجيد أنك جئت. كنت سأوفر عليك الدعوة، إلا أنني ينبغي لي أن أرجوك الآن بأن تأتي إلى بيتي. لأن ذلك، كما ترى صحيح. إنني احتفظ بزوجتي... نعم... اعتقد أن "قفص" سيكون الاسم المناسب. في هذا الطقس ستموت لو أنها أبقيت مقفلاً عليها في غرفة مغلقة. وإن لم أبقها محتجزة، في مكان لا تستطيع كسره للخروج أو يستطيع الآخرون كسره للدخول... نعم، يا مسيو، ذلك صحيح. إنني احتفظ بزوجتي - في قفص".

إن بيركول رجل تصعب مفاجأته، ولكن فمه سقط، وكان يحدق إلى "هخت" كما لو كان يتصور الرجل مخبواً. صرخ المزارع بلهفة:

"كلا، لست مجنوناً، وليست زوجتي مجنونة بالمفهوم الاعتيادي. لا أدري ماذا تعتقد بشأن أمور من هذا القبيل، ولكن زوجتي تصير، بين آن وآخر، متلبسة بالشيطان، مسكونة. تصير حيواناً وحشياً. لقد حل بها جنون الغابة، والأطباء - السحرة أنفسهم يخافونها! لو أنها كانت واحدة منهم، لكانوا قتلوها. هم أخبروني بذلك. في المرتين اللتين أعادوها فيهما إلى المزرعة، كان فكأها ملوثين بالدم". فقال بيركول:

"يا إلهي، يا إلهي يا إلهي!"

كنا قد بلغنا الفيرندة. جلب صبيان البيت زجاجات ومرطبات. قال بيركول: "لقد عشت عشرين سنة في الغابة.... ولقد سمعت بذلك يقع لنسوة الغابة... ولكن أوروبية بيضاء!... لا أدري ما الذي يجب أن أفكر فيه". فقال هخت: "ثمة أشياء في أوروبا أسوأ مما يوجد في الغابة. قبل أن ألقى زوجتي أصلاً، قبل أن تحلم بأن تعيش في أفريقيا إطلافاً، كانت قد وقعت في شرك أصلاً". فسأل بيركول، متمتماً لنفسه أكثر منه طارحاً السؤال مباشرة على هخت: "واقعة في شرك ماذا بحق الله؟".

* بالفرنسية في الأصل .

فقال الرجل:

"سأحاول أن أخبرك. أريد أن أخبرك. لقد اعترفت لي بالأمر كله في مرسيليا، وأرادت أن تتخلص منه، وكان ذلك أحد أسباب مجيئنا إلى المستعمرات".
هنا، بالضبط، ما قاله لنا، مع جذور الشر الأولى في مركز فرنسا المتحضرة.
كان قد لاقى الفتاة للمرة الأولى في (فالنس)، قرب (ليون)، حيث كانت تدرّس في المدرسة الاعتيادية*.

وقع في حبها - لا يزال واقعاً في حبها على الرغم من كل شيء - ولقد تزوجا. وفيما كانا يقضيان شهر العسل في مرسيليا، ارتعبت من شخص رآته في الشارع، اعتقدت أنه تبعها إلى هناك من ليون. كانت قد اعترفت بما تخشاه، وتوسلت إلى هخت أن يأخذها إلى خارج البلاد.

لقد كان "المركز"، (وادي الروان)، على الدوام، معقلاً لباطنية دينية قروسطية، لها إيمانها بالشياطين، خرافاتها السوداء، والعبادات الغربية المنبثقة عنها - كما كان لكل أمثال هذه القروسطية. ولقد جذبت واحدة من هذه العبادات الفتاة إليها، وجعلتها - مستغلة مزاجها العصابي المنحرف - خبيرة، "مكشوف عنها الحجاب". كانت قد شاركت في التضحية بحيوانات، وقد شربت الدماء الطقوسية، مُدّدت عارية على المذبح، وصارت مرة أو مرتين مسكونة. في حالها الاعتيادية طبيعياً، كانت تخاف ذلك وتكرهه، ولكنهم كانوا قد أبقوها مربوطة بكُلاب، ولم يكونوا ليريدوها أن تذهب. وكان من أجل التخلص من ذلك إن تزوجت هخت، ثم أقنعت به بأن يأخذها آلاف الأميال بعيداً، إلى حياة جديدة. ومثل كل فرنسيي الأقاليم، الذين يريدون أن يصنعوا بداية جديدة، فقد ذهب، بالطبع، "إلى المستعمرات".

وسار كل شيء على ما يرام زمناً، ثم اختفت ذات ليلة. كان سريرها خالياً.

كانت الطبول تقرع الليل كله في الغابة.

قبل أن يتمكن هخت من تنظيم حملة تفتيش، أعادها السود أنفسهم وهم يخشونها قليلاً، ولكن منحنين أمامها باحترام، وجاعلين هخت يفهم أنهم يظنونها نوعاً

* بالفرنسية في الأصل .

من آلهة. ولم يعرف ما الذي جرى في تلك الليلة الأولى، إلا فيما بعد. لقد كانوا يقيمون، مع الطبول والأقنعة والتعاويذ والرقصات، عندما ظهرت فجأة في ضوء المشاعل، تمايلت، وبدأت تصرخ، ممزقة كل ملابسها، واندفعت إلى وسطهم، مطلية مضاعة وزاعقة.

كان الأهالي المحليون قد تحركوا دائرياً فيما حولها، رامين أنفسهم عند قدميها كي يتسنى لها أن تدوسهم، وهم يعودون:

"غناونا! غناونا! غناونا!"، التي هي التجسيد الأنثوي لـ "علا"، شيطان الغابة الأعظم. إن هذين الشيطانين الأعلى في هيكل ألهم يُعبدان بقدر ما يُخشيان، إذ يعتبران إلهين أكثر من شيطانين، ونادراً ما يصيران مجسدين، كما يؤمنون.

ولكنها غادرت ثانية ذات ليلة فراشها، وفي هذه المرة عندما وجدها كان فمها كله ملوثاً بالدم. كان الأهالي المحليون مرتعبين تماماً. أخبروه أن ذلك كان دم خروف ولكنهم ركبهم الذعر بحيث أنه لم يصدقهم. لم يعودوا يعبدونها. كانت مسكونة، كما قالوا، بروح شريرة. ووقع أمر ثالث، مرعب قطعاً، بعد ذلك بوقت قريب، ثم جاء الأطباء- السحرة، وقورين، ليخبروه بأن زوجته كانت "كاي غايو": سكنتها روح فهد.

وهكذا صمم الزوج- الذي سبق أن قام بمجهودات غير موفقة لمنعها من التسلل بعيداً عندما يركبها جنون الغابة- القفص، ليحجزها فيه، ليجعل الجري بعيداً- ليلاً أو نهاراً- مستحيلًا، ليحميها من نفسها، كما قال- من جنونها ذاته. قال إنها كانت عاقلة كأي شخص، بين هذه الانقطاعات المرعبة.

قال نعم، إن القفص هنا في المجمع. كان جزءاً من البيت، حقاً، مبنياً كنوع من جناح. سذهب إلى هناك الآن، وللمسيو الحاكم أن يفعل ما يراه الأعقل.

وهكذا ذهبنا، غير عدائيين بعد تجاه الرجل، يملؤنا الارتباك والشفقة أكثر من أي فضول مَرَضِي. وها هي ذي هناك، كما قال البائع الجوال من (ديولا) بالضبط- المرأة الفرنسية البيضاء المحبوسة في قفص حديد، كاي غايو، مثل فهد، مثل حيوان وحشي في حديقة الحيوان. أما فيما يتعلق بالقفص نفسه، فقد كان ذا سقف، مريحاً، نظيفاً، وواسعاً مثل غرفة، وقد أقيم محمياً مقابل البنغل، مفروشاً بالبسط على الأرضية الطين، وفي زاوية منه أريكة تتكوم عليها الوسائد، وفي زاوية أخرى دش مع تأسيسات مرحاض- من النوع الذي أنشأه هخت لنفسه في البيت الرئيس.

أما فيما يتعلق بالمرأة، التي تقدمت إلى القضاة، غاضبة ولكن أقل ارتباكاً منا، مدثرة في قماش حرير ملفوف على جسدها على الطريقة العربية، مستنشقة، بعرق، دخان سيجارة. كانت مخلوقاً وسيماً بفظاظه، داكنة البشرة، ثقيلة، شهوانية أكثر منها جميلة، بركانية قطعاً، عصبية. ولقد تساءلتُ ما إذا كان سبق لها حقاً وكانت معلمة مدرسة- ما إذا لم تكن تعمل في مهنة أقدم وأكثر شيوعاً.

قال المزارع وهو يجري التعريفات الغريبة:

"زوجتي، مارث".

حدقت إلينا، بغطرسة تقريباً، ورفض الحديث- كما يقول الفرنسيون- أن يبدأ. كان ذلك محرّجاً بشكل لعين. وبحث بيركول عن ملجأ في الشكليات الرسمية الأضيّق:

سيدتي، أنا الحاكم العام، بكامل الصلاحية البوليسية، في هذه المنطقة.

عندي معي رجال. لقد سمعت ما رواه هذا الرجل هنا. وإنني أدون ملاحظات بما أرى في محضر هذا السيد بوصفه شاهداً.

لقد لاحظت، وأنا حاضر للتصرف. ألدبك شكوى ضد هذا الرجل، الذي يقول إنه جوزف هخت، ويقول إنه زوجك؟

أأنت محفوظة هنا ضد إرادتك؟

أتريدين أن تُطلقي أولاً ثم توجهين له الاتهام؟".

سحبت المرأة نفساً عميقاً وحدقت إلى بيركول. قالت: "إنه زوجي" وتوقفت، ثم

واصلت

"ليس لديّ ما أقوله، ولا شكوى ولا تهمة لأقدمها من الأفضل أن تتحدث معه في الأمر".

فقال بيركول، مجيباً بحرص على الشكليات: "كما تريدين، يا سيدة".

كنا في منتصف الطريق هابطين إلى المنحدرات في اليوم التالي، منزلقين مع

التيار، في الزورق الشجري، عندما قال بيركول:

"بدا الأمر أحق، ولكن الفكرة ليست خرقاء، أتعلمون؟ إنها في حال أفضل مما لو

كانت في دار للمجانين. ولا أظنها سيحكم عليها بالجنون على أية حال.

فظاهرياً، هي ليست مجنونة، فيما عدا شهوة الدم تلك التي تبارحها في فترات.
ربما تكون مسحورة، "معمول لها عمل".
لست أدري ما الذي اعتقده بالسحر، ولكن ثمة شيئاً لا أعرفه عنه. ما من سحر،
يا صديقي، يمكنه أن يلوي أو يحطم قضيباً حديداً. ربما ليس هخت بالأحمق. ولكن، لو
أنها كانت امرأتي، على افتراض أن كل ما قاله صحيح، فإنني أقطع لك كلمة شرف:
بأنني سأطلق عليها النار في رأسها واعتبر نفسي فعلت الشيء الصحيح والأخلاقي
بهذا الشأن".

٧- مستذنب في ساحة واشنطن

في التراث الغيبي الخاص واللاهوت القديم يقوم الاختلاف بين السحر الأسود والسحر الأبيض في أن إبليس وشياطينه يساعدونك في الأول، بينما يساعدك الرب يسوع، القديسون، وأرواح خالصة براءة، بما فيها روح عمته الميتة في (هاوكينسفيل) في (جورجيا)، في الثاني.

في السحر التطبيقي والإيمان التطبيقي بالقوى الخفية وإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية اليوم، يكون الاختلاف بين الأسود والأبيض في النية.

إذا كنت تفعله من أجل الشر فهو أسود، وإن كنت تفعله من أجل الخير فهو أبيض. إن السحر كله، سواء أكان أبيض أم أسود، خطر - وثمة في بعض الأحيان ردود فعل عنيفة مؤسفة.

ومعالجة المرض بالأشعة فوق البنفسجية أو الراديو خطر أيضاً. وكذلك هي أقراص السترايكنين. ما لم يعرف الأطباء مادتهم، فإن شخصاً، وفي بعض الأحيان كلاً من الطبيب والمريض، يصاب بحروق أو يتسمم. وكذلك الحال في الإيمان بالقوة الخفية والسحر الأبيض.

حتى عندما يكون "مجرد لعب"، يمكن أن يتخذ منحى خطراً، وعندما تتوغل فيه أعمق... إلى الـ "بي كينغ"، على سبيل المثال... فهو يمكن أن يُفطسك.

إن البي كينغ، أقدم الكتب عن التنجيم والسحر جميعاً، كُتب في الصين قبل "كونفوشيوس" بزمان بعيد، وقبل أن يتم اختراع اللاهوت الديالكتي، وهو لا أسود ولا أبيض: إنه سحر، فقط..

ولقد كنت استخدمته، مع أصدقاء من (كولومبيا) و(كورنيل)، لا من أجل الخير

ولا من أجل الشر، وإنما انطلاقاً من حب استطلاع محض لنرى إلى أي مدى يمكننا جعل القطة تثب- إن كان بمقدورنا أن نجعلها تثب على الإطلاق. بقيت القطة مستقرة لا مبالية، ولكن كان للتجارب تأثيرات عنيفة مختلفة على الأساتذة ذوي الساقين، وعلى كائنات بشرية أخرى أقنعناها بخلط أنصاب درع السلحفاة.

في الآخر أدركتُ ثانية، متأخراً، أن السحر شيء يستحسن أن تتركه وشأنه ما لم تكن تحظى بدعم قلب خالص وساذج مثل "برسيغال". وقد كان قلبي أبعد من أن يكون خالصاً، ولقد كنت سأجسد "إبليس" نفسه، لو استطعت، بالسهولة نفسها التي يتمتع بها أي من رؤساء الملائكة غير الهابطين.

ولكن تجاربي في الشيطانية المرمزة على شكل نجمة خماسية، الاورثوذكسية المضادة، لم تحقق أي شيء إطلاقاً.

ولقد ذهبت إلى البي كينغ لأرى أي أسقاط عليا تخص الشبح الضاح*، يمكن أن ينزع سدادتها، إن كان ثمة مثل هذه الإسقاط. وقعت المغامرة التي أنوي أن أروها في ستوديو جون بانيستر"، المظل على (قوس واشنطن)، في صيف سنة ١٩٢٣. لقد أبقى نفسه خارج الصحف، ولكن كانت له شهرة شفاهية غريبة، كانت عالمية. كان بعض الناس يعتبرونه أعظم سيد للأسرار الصوفية المنحصرة بفئة خاصة، والسحر، بينما يصر آخرون على أنه ليس أكثر من محتال معتوه. على أية حال، كانت عنده ثروة خاصة صغيرة، ولم يؤسس قط عبادات أو يستثمر هوايته تجارياً.

إنني أعرفه على نحو وثيق وكنت أتا رجح بين الرأيين.

كان عبثنا النشيط مع البي كينغ، (يلفظ، بالمناسبة: بي تشينك)، يعود إلى ١٩٢٢ عندما اتبحت لنا فرصة أن نجد ونشتري المجموعة الفعلية الأولى من الأنصاب التي سبق لي أن رأيتها. كنا نلعب الشطرنج في أحد الأعصار في (ماوكين)، وفي وقت متأخر من العصر كنا نتمشى صاعدين في الجادة الخامسة عندما لفت نظري شيء في واجهة حانوت تحف صينية.

* روح شريرة تنسب إليها الأصوات العصية على التفسير .

كان الحانوت، الواقع على الجهة الشرقية من الجادة، فوق محل "برينتانو" القديم، عند استدارة الشارع التاسع والعشرين. دخلنا، وأخذ كاتب المحل من الواجهة رزمة صغيرة من أنصاب مصنوعة من درع سلحفاة غامق اللون، مثبتة معاً بقطعة سلك. كان ثمة ست منها، وكانت جميعها متشابهة. كان كل منها في نحو حجم وشكل - مقياس قدم اعتيادي، أصغر قليلاً. كان وجه واحد لكل منها خالياً، والوجه المعاكس لكل واحدة مقطوعاً على شكل صليب إلى اثنين بشرط عرضه بوصة واحدة من العاج الأبيض المطعم. ولقد عرفنا على الفور ما هي، ولكن "بانيستر" قال عرضاً للكاتب الصيني: "هل يصادف أنك تعرف ما هي؟".

هز الكاتب رأسه نفيّاً: ربما لعبة. ربما بعض القطع مفقودة إذا لا يعرف لا يشتري".

اشتريناها بسعر معقول، نزلنا بها إلى استوديو "بانيستر"، وأخرجنا الكتب. كانت عندنا ترجمة البروفسور "جيمس لغ" من (اوكسفورد)، إصدار مطبعة "كلاريندون"، بين كتب الشرق المقدسة، التي حررها "ماكس مولر". وكذلك مجلد بالفرنسية، تأليف "هارلز" من الأكاديمية الملكية البلجيكية، ورسالة علمية ألمانية لم استطع قراءتها.

كان يفترض في الأنصاب نفسها أن تكون مفتاحاً للكتاب العظيم. عندما تُخلط وترمى في الهواء لكي تقع، كل منها على الوجه أو الظهر"، كانت توضع عندئذ متوازية وستشكل (مثل منتجات هالينز) واحداً من السبعة والخمسين تنويعاً للنجمة السداسية الصوفية.

ها هوذا: عصا النصب ذات الحلقة، رقم ٤٩، الشكل الشبيه كوكب، هي العصا التي أوقعتنا في ورطة كان ينبغي لنا أن نتعظ من "كونفوشيوس" الذي قال: لو أضيفت سنوات إلى حياتي، فسأخصص خمسين منها لدراسة اليي، وقد أقع عندئذ في أخطاء خطيرة". بالإضافة إلى كون الأنصاب المفتاح للكتاب، يفترض فيها أيضاً أن تفتح أبواباً سحرية أخرى يمكن للروح أن تتجول خلالها إلى الماضي أو المستقبل، تمشي عبر

الجدران، عبر المحيط، فوق الجبال، إلى الجنة، المجيم أو (هونولولو) - حسب الشكل الشبيه بالنجمة الذي ترميه. لكي "ترسل روحك إلى غير المحدود" عليك أن تخض وترمي دروع سلحفاتك كما زهر البوكر"، ثم ترتب الأنصاب متوازية وتثبت شبيه النجمة الناتج عن ذلك بإحكام في ذاكرتك البصرية. ثم عليك أن تتصور باباً مغلقاً خيالياً مرسوماً عليه هذا الرمز.

كل ما تعرفه عن الباب الخيالي أنه إن دار مفتوحاً أصلاً، فهو سينفتح بعيداً عنك، كما لو كان قد دُفع. ثم تركع، أو تجلس متصالب الساقين مثل "بوذا"، أو تجثم على وركيك، إن شئت، مثل قاطع طريق صيني ينتظر أن يُقطع رأسه. تحاول أن تجعل ذهنك خالياً - ببساطة - بالتحديق تصوراً إلى الباب وإلى الرمز إنك تفعلها أفضل في الظلمة أو عندما تكون معصوب العينين أو، ببساطة، بأن تغمض عينيك، إن كانت عندك قوة الإرادة لابقائهما مغمضتين لمدة يحتمل أن تكون طويلة.

بعد قليل من الوقت، ربما خلال نصف ساعة، وربما خلال سبع ساعات أو ثمانٍ، وربما ليس إطلاقاً في أي محاولة معينة مفردة، سيبدو الباب وكأنه يتمايل منفثاً. إذن، ففي تصورك مضيتَ خلاله. إنك تكتفي بالنظر عبره. إنك تمضي عبره في تصورك. إنك "تنهض خارجاً من جسدك"، كما تقول الكتب، و"تمشي خلال الباب". يعتقد أتباع العقائد الانحصارية أن ما تراه، تواجهه، وتجربه على الطرف الآخر سبق أن رآته العين وجربه الجسد الخيالي.

اعتقد أن عيون الروح وأجساد الخيال هي هراء، وثمة هنا، مرة أخرى، مجرد طريقة أخرى - ولتكن واحدة من الأقدم والأكثر تعقيداً - من طرف قرع - باب - عقلك الباطن.

ولكنها ضربات عنيفة عليه بالتأكيد، مثل مطرقة على الجرس القرصي النحاسي. أياً كان الجرس الذي تقرعه، تقرعه. كان بعض أساتذة الجامعة مهتمين ودياً بتجاربك، ولن أنسى الليلة التي مضى فيها "موريس بيشوب" من (كورنل) عبر الباب ليصبح راهباً في كنيسة (سوليمسس) القديمة، ورتل جورجياً خالصة باللاتينية القديمة.

لم يكن ذلك دليلاً على الحماقة البالغة السخف للتناسخ القديم، لأنه كان دارساً
للاتينية (الأمر الذي كان المشكلة المعقدة المتبقية عموماً من مثل هذه الحوادث المروية)،
وكان قد غنى ترتيلة جورجية عادية قبل وقت طويل من شروعه بكتابة الليمريكيات*
بعد لير. إن مغامراتي البائسة وراء الباب كانت تتركز دائماً في البحث عن شيء لم
أكن أستطيع العثور عليه قط، وهي بالنتيجة لا تستحق الذكر.
كان ما يحدث للآخرين المختلفين وراء الباب غالباً أمراً غريباً، ولكنه مدهش أحياناً
وليس محترماً تماماً دائماً.

كانت ثمة ليلة باقية في الذاكرة هي حين صار أستاذ (الحيم) للإغريقية من
(كولومبيا) - كان في حالة وعيه الطبيعي لا يؤمن بنوع واحد من الجنيات ويكره من
صميم قلبه النوع الآخر - أنثى فتية لعوب.

في المغامرة التي تجعل الشعر يقف، التي أجريناها أخيراً مع "ناستاتيا
فيليبوفنا"، كان ثمة عنصر باعث على القلق للمصادفة - غير الموجودة في حالة أستاذ
الإغريقية - بين التحول الذي خاضته والمعنى الانحصاري للشكل الشبيه بالنجمة
السداسية المعين الذي كانت ترتكز عليه. على أي حال، إنني لا أحاول أن أتلاعب بهذه
الرواية.

صحيح أنها رمت الشكل الشبيه بالنجمة السداسية الـ "كو" بمصادفة محض، ولم
تكن تعرف شيئاً عن مغزاه الخاص - ولكن على الرغم من تلك الحقيقة، التي هي من
النوع الذي يجب أتباع الانحصارية أن يعزفوا على وترها حتى يسود الهدوء، فإنني
أقف بثبات إلى جانب أولئك الذين يؤمنون بأن مصادفات من هذا النوع، بصرف النظر
عن مدى إثارتها، ليست قط شيئاً غير مصادفات محض غير مسوّغة. إن الايديوغراف**
الصيني للـ "كو" هو 卐 وترجمه كل من "هيليز" والأستاذ "لغه" على أنه يعني:
"جلد خام صغير، جلد خام كبير، فراء، جلد مدبوغ، وكذلك: يسليخ ينزع. وكذلك،

* قصائد فكاهية خماسية الأبيات، مرت سابقاً.

** صورة مستعملة في نظام كتابي ما لتمثيل شيء أو فكرة. لا كلمة خاصة بالشيء أو الفكرة.

مجازاً يمر بتغيير، يُجعل مخالفاً من بين الخصائص السحرية المعزوة لـ "كو" في الـ "بي كينغ"، وأنا اقتبس من ترجمة "لغه"، التالي:

قد يغير الإنسان العادي وجهه، وقد يغير الحكيم وجوده كله كما يفعل الفهد.
قد تعيش أختان معاً داخل الجلد نفسه، مختلفتين ومتعارضتين، ومع ذلك هما،
هما.

قد يغير الحكيم العظيم نفسه كما يغير النمر شكله وخطوطه.
لقد تعرفت ناستاتيا فيليبوفنا في الأيام التي تلت الحرب العالمية* مباشرة. كانت
لاجئة روسية تخلت عن لقبها، جاءت إلى نيويورك، مرت عبر التقلبات، ثم تزوجت
صناعياً من (كليفلاند)، واختفت عن الأنظار.

لم أكن قد سمعت شيئاً منها لعدد من السنوات عندما جاءت ذات يوم في بريدي
المحلي، مخربشة بخط يدٍ ملوكي ولكن مع ذلك طفولي، ملحوظة من الـ (سانت
رجيس)، نصت على "خذني لأكل الروبيان**". واجلب لي "بانيستر" سك ذاك إن
استطعت العثور عليه.

تلفت لـ "بانيستر"، وأخذناها إلى الغذاء. كان قد التقاها في الأيام الخوالي،
عندما كانت تغني مع "باليف"، ولم تكن من النوع الذي ينسأه المرء بسهولة.
أتصور أن "عنيفة" ستكون صفة مفردة جيدة في التعبير كغيرها، وإنني أميل إلى
الاعتقاد بأن وحشيتها السايكولوجية، ربما بقدر نفسيتها ومزاجها، كان له تأثير في
المجرى الذي اتخذته الأمور عندما أطلق لعواطفها المهدئة للأعصاب، العنان. كانت
أنستاتيا أرستقراطية- ووحشية.

كانت أكثر قسامة بكثير بنوع حيواني من الأمور لتكون في ذوق حسن في
المجتمع الانغلو ساكسوني البورجوازي المتحضر.

كانت كل ميزاتها البدنية مبالغاً فيها على الرغم من روعتها. كانت طويلة، نحيلة
الخصر، ممتلئة الصدر، ولها شعر خشن ولكنه بني جميل. كانت عيناها المصفرتان
المرقطتان بالبني هائلتين وتفتحان باتساع تحت جبين قوي ولكن خفيض. كان أنفها

*الأولى .

** أو : جراد البحر .

واسعاً وكبيراً، وفمها كامل الاستدارة بأسنان تشع ببهاء عندما تبتسم ولكنها تصير قبيحة عندما تفقد مزاجها. أما فيما يتعلق بسلوكها، فقد كان سلوك غراندوقة معتزة بنفسها، أو وحش، اعتماداً على الطريقة التي تريد أنت التمييز بها. على الغذاء، أخبرتنا ببعض التجارب التي كانت تمارسها. وكان ذلك هو السبب في رغبتها برؤية "بانيستر".

كانت قد تعرفت "راسبوتين"، واشتغلت هاوية إخضاع أرواح، وقد وجدت قارئة طالع في (كينلاندا) عرفت على التحديق إلى البلور. كانت بدأت في أن تصير قادرة على النشوات المستحثة ذاتياً. ابتداءً، لم تكن تحب (كينلاندا)، لا تحب زوجها، ولا تحب أميركا. إن شغل النشوة وإخضاع الأرواح هما آليتا هروب، كما هي المخدرات والكحول. إنها لا تحب الواقع. ولكنها لم تحب ما واجهته في عالم الكرة البلورية الوهمي من اللاواقع أيضاً! بقيت تنزلق عابرة"، كما قالت، إلى معسكر مغول، انشغلت فيه هي نفسها مع امرأة أخرى، في تقطيع جثة دب بسكين حجرية.

في تجارب النشوة هذه عانت من البرد وانعدام الراحة والمعاملة الوحشية. كانت تكره "العمل الشاق"، و"الجلود القذرة" التي كانت تلبسها، والروائح، و"الطعام المحروق". وكان الأسوأ من ذلك أنها الآن، كلما أرسلت نفسها "إلى الجانب الآخر"، كانت تبقى "تنزلق عائدة" إلى تلك الحياة الوحشية. كانت تتكلم بتعابير شائعة، فظة، كما لو كانت تشكو اضطرابها للعيش في نوع من بيت تريد هي أن تعيش في غيره. "لا أريد أن أعيش في كينلاندا، ولكنني لا أريد النوم في كهوف أيضاً، وأضرب بالهراوات من قبل رجال الكهوف!"، كانت تحتج، كما لو كنا مذبذبين في ذلك. قال بانيستر:

"إنه جيد جداً إلى حد بعيد لك، لو تعلمين. إن الضرب بالهراوة هو ما تحتاجينه، وأتمنى أن يضربوك، كلما عدت إلى هناك، حتى يسودوك ويزرقوك. ولكن إذ أتكلم جدياً، يا عزيزتي، فإنني أعطي نابي عيني* من أجل تأسل** حقيقي من ذلك النوع، لو كان حقيقياً. إنها نادرة للغاية. لا أتصور أنك فكرت في أن تدوني ملاحظتك أو

* هما ناب في كل فك .

** أو : الرُجعى = العودة إلى صفات الأسلاف .

تدققي تجاربك ضد ما يعرف عملياً بحياة الكهف؟ إنك لا تعرفين ما الذي سيتكشف عنه أمرك هذا!".

كان بانيستر منطلقاً في هوايته:

"إنه عجيب لو كان حقيقياً! لو لم تكوني أنانية إلى هذا الحد فستدركين ذلك. ولكن لا، إنك تريدين قلعتك في (القفقاس). أو أنك تريدين أن تكوني "كاترين العظيمة". وتتصورين أنني سأساعدك في القيام بذلك، يا عزيزتي؟ حسناً، لن أفعل. ولكنني سأحب أن أساعدك في الاتجاه الآخر - رجوعاً أبعد فأبعد إلى وراء".

طارت ناستاتيا إلى السُّعر، ردت بغضب:

"طبعاً! لقد كنت دائماً خنزيراً قذراً. جئت إليك غير مسرورة، وكل ما تفكر فيه هو تجاربك العفنة. عليك أن تعرف أنني لن أكون أداة أي شخص. فلتذهب إلى الجحيم! لست معنية بأن أضيف إلى معرفة الآخرين. إنني معنية بنفسي".

فاحتج بانيستر:

"تعالِي يا ناستاتيا، لا تفقدي أعصابك. إنني اعتذر. لن تصيري قط آلة أي أحد. ولكن لو أردت تجربة باب مختلف عن الذي كنت تستعملينه...."

أخبرناها بكل ما نعرفه عن الـ "بي كينغ"، فأرادت - بالطبع - أن تجربته. وهكذا، فقد دعوناها في تلك الليلة إلى ستوديو - شقة بانيستر الفسيحة، المغطاة بالسائر القرمزية ومدليات الجوخ السوداء، الفائحة بالبخور، والتي تتبعثر فيها الأصنام التيبتية، والتماثيل الهندية، وعجلات الصلاة، والأجراس القرصية، وأقنعة الشياطين، والبهارج السحرية من كل زاوية من الكرة الأرضية. وكان ما نفعله بمعنى من المعاني على درجة الاحترام نفسها التي يتمتع بها قلب الطاولات ليالي الأحد الذي كانت عمتي تشارك فيه مع أعداد أخرى لا تصدق من سيدات جمعية السيدات الميثوديات للعون.

ليس هناك مزيد من الشر الحقيقي في الـ بي كينغ" أكثر مما هو في لوح لعب. ولقد كان عندنا في الحفل نائب القنصل البريطاني الشاب النزيه تماماً، "ادمارد غاي"، الذي كان قضى وقتاً طويلاً في الشرق والذي كان اهتمامه بهذه الأمور مخلصاً قدر إخلاص أصدقائي في جامعة (كولومبيا). ومع ذلك فقد كان ما نفعله الآن خطيراً كما

اتضح لاحقاً. كانت ناستاتيا عُصابية، من النمط المغالي في تصوراته، مدمنة سلفاً على آليات الهروب الخفية.

في الليلة التي وقع فيها الأمر، كانت راكعة لمدة ساعتين، على أرضية المركز المزينة بالأحمر، وعيناها مغمضتان، في شبه العتمة. كنا نحن الثلاثة جالسين ننتظر لنرى ما إذا كان الباب سيفتح لها أم لا. قالت بفضافة:

"ركبتاي توجعاني. إنني أصاب بالتنمل". وفي هذه الأثناء هدرت، تاركة ساقها يرتخيان فجأة، وصارت على وركيها، جالسة على عقبها، ولكن مع الحفاظ على جسدها منتصباً. ارتخى رأسها، وبعد أن مرت ساعة كاملة أخرى في صمت، تساءلنا ما إذا كانت قد استغرقت في النوم. ثم قالت:

"إن الباب يتحرك. الباب يفتح. ولكنه يفتح إلى الخارج. كنت أتصوره سينفتح على غرفة أخرى. إن المنظر جميل هناك في الخارج... ونعم... إنني ذاهبة". وبقيت تتمتم:

"الثلج... كل شيء أبيض... ثلج في كل مكان، والقمر... القمر على الثلج الأبيض... والأشجار السود هناك تمتد نحو السماء.

نعم، أنا في الخارج الآن... إنني أتمدّد في الثلج... ألبس معطف فراء. إنني أتمدّد عارية في معطف فراء... وأنا دافئة في الثلج... مسطحة ويطني وذقني على الثلج الذي أتمدّد عليه. إنه أمر جيد أن يتمدد الإنسان في الثلج..."

همستُ لبانيستر:

"أتفهم عم يدور الأمر؟" فأجاب: "ما عندي أبهت فكرة. أعندك أنت؟".

كانت ناستاتيا تتكلم ثانية، وكان صوتها - بمعزل تماماً عن حُلُمَيْته الشبيهة بالنشوة - بدا محتاراً أيضاً:

"إنني أتحرك الآن... ولكنني لا أمشي. إنني أزحف على يدي وركبتي.. لماذا أزحف؟... ولكنني لا أزحف الآن، إنني أركض، على يديّ وقدمي بخفة... الآن! الآن! الآن!... إنني أركض بخفة كما الريح... كم هي طيبة رائحة الثلج! لم يسبق أن شممت الثلج من قبل. وثمة رائحة أخرى طيبة أيضاً. آه ها! أسرع... أسرع... أسرع..."

كانت تتنفس لاهثة بثقل كان فمها الجميل الكبير مفتوحاً، مُرولاً. وعندما حطمت

الصمت ثانية، كان ذلك بأصوات غير إنسانية. كان ثمة عواء، سيلان ريق، لهاث، ثم نباح عميق مثل ما لا يحدثه إلا نوعان من الحيوانات على الأرض عندما يركضان- الكلاب والذئاب. همس بانيستر:

"يا إلهي! إنها تستميل إلى واحد منهما، هناك على الأرضية! إن وجهها يتحول! انظر!" فقال نائب القنصل بحدة:

"أيها الحمار الأحمق. لقد كان لها ذلك الوجه دائماً... أسنان كبيرة... أنف مدبب". ولوحت على المصباح الأقرب له. لم تكن معجزة مادية مروعة تحدث، ولكن الأمر كان سيئاً بما يكفي وقبيحاً بما يكفي، من دون ذلك. كان لناستاتيا على الدوام وجه ثعلبي نهّاب. ذهب غاي إلى حيث كانت تُقعي، أمسكها من يدها، صفعها بقسوة على الخدين، وصرخ:

"أخرجي منها يا ناستانسيا! استيقظي! الأمر على ما يرام استيقظي! كنت تحلمين".

زمرجت الفتاة بشناعة، وقد انفتحت عيناها متسعيتين الآن، وثبت إلى حنجرتة، كانت ستمزق حنجرتة بأسنانها لو لم يكن وضع الجثوم الطويل قد ثملها بحيث تمايلت وسقطت ثقيلة. والآن، على الأربع حرفياً وزاحفة سعت كالحية، وهي لا تزال تزمجر، إلى الظلال المعتمة للزاوية أشعلنا الأضواء، لففناها ببطانيات كبيرة، لففناها بإحكام فيما قاومت كالمجانين، ووضعنا الامونيا تحت أنفها، فأفاقت من ذلك الوضع.

ساعدناها للوصول إلى كنبه. جلبنا منشفة وطستاً. لم نتكلم كثيراً. جلبنا لها براندي. وخلال بضعة دقائق جعلتنا نجد حقيبة يدها التي فيها المساحيق والزواق. دخلت الحمام.

خرجت وغاصت في كرسي ذي مسندين وأشعلت سيجارة، وقالت: "ما الوقت؟". وفي هذه الأثناء تشاءت وقالت:

"أنا جائعة".

الساعة حوالي الثانية. أشعلت سيجارة أخرى: وجدنا سيارة أجرة وانتقلنا إلى ساحة (سيغل) تحت الجادة "ل" السادسة من أجل الشطائر والقهوة. مر أسبوع، ثم تلفنت لتقول أنها تريد تجربة الأمر ثانية.

تذكرت ما حدث- وأجبتة!.

أخبرتني أنها ، عندما كانت طفلة صغيرة، رأت ذئباً تجري على الثلج الذي ينيه القمر في روسيا، وكانت تعتبره جميلاً، وكانت تتمنى بكل روحها الطفلي العاطفي أن تركض مع الذئب.

كان ذلك عقلنة لطيفة، ولكن لو كان الشيء قد وقع قبل بضعة قرون، عند الازدهار الكامل للإيمان بخرافات محاكم التفتيش.... وعُرف... فلربما كنا سنُرمى نحن الثلاثة في المشعّلة* من أجله.

* النار الموقدة في الهواء الطلق .

القسم الثالث

**السحر الأبيض ، الأستاذ راين ،
ما فوق الاعتيادي ، وجوستين**

١- طرح سؤال مفتوح، قد لا يكون الجواب السالب الكلمة النهائية بشأنه

إن قناع ما فوق الطبيعي، الذي مزق مرة عملية السحر والسحر الأسود، قد خُرق
وخرّم شديداً من زوايا عدة.
لكن قناع ما يفترض أنه فوق اعتيادي ما زال يحجب أكثر من غموض عميق
واحد.

إن أولئك الذين يعتقدون أننا خرّقناه قليلاً، وهم مقتنعون بما رأيناه من أنه ليس
ثمة ما هو فوق اعتيادي وراءه، ربما كانوا لم يخرقوا الثقوب بعمق كافٍ، أو أنهم لم
يخرقوها في الأماكن الصحيحة.

إن أولئك الذين يعتقدون أنهم خرّقوها أعماق ولمحوا ظواهر حقيقية لا يمكن
تفسيرها إلا بلغة ما فوق الطبيعي، رأوا صوراً مشوهة أو ربما يكونون قد فسرنا على
نحو خاطئ. إنني أعني بفوق الطبيعي، في هذا السياق، كل شيء يقع على الضد من
القوانين المعروفة الثابتة للزمان- المكان، القواعد المعروفة الثابتة للمنطق، أو يهب
مالكها المفترض حواس وقوى خارج هذه القوانين والقواعد، المعروفة حتى الآن. وهي
"فوق طبيعية"، بالطبع، في سياق مختلف، بالنسبة لإنسان يلعب الشطرنج وهو
معصوب العينين تماماً، أو يجمع مبالغ سداسية الأعمدة بإجراء عملية العد بلمحة بصر،
ولكنني لا أتعامل إلا مع الدلالة الأولى في هذا الكتاب.

إن قناع ما فوق الطبيعي لا يغطي السحر، التخاطر، الاستبصار، الإيمان بالقوة
الخفية وأماكن إخضاعها للبشر، الرحلات الغامضة إلى الماضي والمستقبل، إلا
بالمصادفة.

إنه حقاً القناع الذي يغطي الحياة كلها إلى حد الغموض. لقد سعى الدين إلى إنارة الظلال بنور الإيمان، وسعت الفلسفة إلى فعل الشيء نفسه في ضوء العقل. لقد حيد النوران أحدهما الآخر إلى حد ما. صادف أنني أقف إلى جانب الذين يعتقدون بأن الحياة- بما فيها السحر، عرضاً، وبما فيها أيضاً كل ظواهر ما يسمى بما فوق الاعتيادي- يمكن مقاطعتها بلغة العقل.

إنني اعتقد بأن الناظرين للغيب، الصوفيين، المستبصرين، التخاطريين، الروحانيين، كاشفي المستقبل، الدراويش الهنود، ممارسي اليوغا، والدراويش، سواء أكانوا في زرنانات، في جلسات استحضار أرواح أو في مختبرات، لا يمكن أن يكشفوا شيئاً وراء ما دخل ضمائرهم أولاً عن طريق قنوات الحواس الخمس الاعتيادية، وجرى بالتالي مخضه، غربلته، أعيدت غربلته، غشي بمسحة عاطفية وجرى تشويشه أحياناً من جانب عقولهم الواعية والباطنة^١.

يعلم الله أنهم ينتجون الكثير من الظواهر "النفسانية"، وفي بعض الأحيان الظواهر المادية- الإغماءات والنوبات، التشنجات، الإغماء التخشبي، التصلب، العيون المزحجة، وغشيات التنويم المغناطيسي. ولقد رأيتهم حتى يزدون في الفم. وإن عدداً كبيراً منهم صادق. إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا- حتى إذا كان العقلانيون

١ - إن الجزء الأكبر لتطورنا من القرد إلى الكهف إلى الإنسان قد بني على أسس حسية. في عالم الغيبيات وجدت استثناءات كعيسى المسيح، غاوتاما بوذا، لاوتسه، وربما المهاتما غاندي في عصرنا. ولكن السوامي (المعلم الديني الهندي- المترجم) المتوسط الشرقي أدنى من عضو نادي الروتاري المتوسط، في القوة، العقل، الذكاء، ممارس اليوغا، الذي يقربص ساكناً لمدة سنة. أو لألف سنة، في تموضعه اللوتسية، حيث ينفرس عقبه بين فخذه، هو أدنى من رجل الأعمال الأميركي المتوسط في طريقه على بارجة القيادة- الطائرة- التجارية إلى مؤتمر في شيكاغو كما هو الضفدع الأميركي على اضمامة ورق نيلوفر أدنى من نيكولاس موراي بتلر. فأنت صوفي. ولا أدري ما إذا كنت صوفياً واقعاً أم لا.

٢ - إن مصطلح "الباطن" أو "دون الواعي" يفسر على نحو مختلف من جانب مدارس علم النفس المختلفة. تعترف جميعاً أن العقل البشري، والحيواني كذلك، يتكون من شيء أكثر من التجربة الواعية للحظة الراهنة. وتعترف جميعاً أيضاً أن هذا الـ "شيء أكثر" يحوي، في الأقل، هيكل الغرائز أو الدوافع الفطرية ومنظومة الذكريات أو رواسب التجربة السابقة. إن كل إحساس أنني ناشئ، عن حافظ خارجي يستمد "إضافته" من المعنى الأول والثاني وقابليته على رد الفعل البارز والذكي من الجزء الموجود مسبقاً، أو الباطن، للدماغ =.

محقين في ذلك- إن ما يزيد لا بد أنه منبثق من لا وعيهم- بصرف النظر عن مدى جماله كما في حالات قديسين صرعيين معينين، أو مدى شرانيتها ومقتته، كما في حالات مرتكبي خطايا محدودين معينين، وقد شعر عقلانيون على تلك الصورة تجاه الأمر- وشعروا أن لهم الحق في أن يشعروا بتلك الطريق تجاهه- إلى، وخلال، بداية هذا القرن العشرين، في حين أن الظواهر ما زالت محدودة بخلايا ديرية*، بلقاءات أدعية روحانية، حجيرات قارئ الطالع وجلسات الوسطاء الروحانيين ولما كانت أمثال تلك التحريات "العلمية" فيما هي تتواصل محدودة في الأغلب بنزوات الجانب الذي أراد السوامي والوسطاء الروحانيون إقناعه من الجانب الآخر بفاضحي الزيف مثل المرحوم هوديني. إن أمثال هؤلاء الأفراد والمنظمات غير المتحيزين فيما تحمروا الأمر حقاً- بمن فيهم الاميركية العلمية وهو ديني- حصلوا على نتائج سلبية وعرضوا علناً الكثير من التزوير والتحايل.

لقد تغيرت الصورة إلى حد ما، على كل حال، أثناء السنوات الأخيرة. وقد تم إنقاذ أحد وجوه هذا الموضوع، مع ظواهره المفترضة، من جانب الأستاذ "جي. بي. راين" من جامعة (ديوك)، و"غاردنر مورفي" من (كولومبيا)، والمارحوم "وليام ماك دوغال" من (اوكسفورد) و(هارفارد) و(ديوك)، ومن جماعة الادلاء الهنود، قالبي الطاولات،

= ومن المتفق عليه أنه مسؤول على نحو رئيس عن الأحلام الاعتيادية وعن التصور الخلاق . ولكن عندما تدير ظهره عن وظائف الباطن وتأثيراته إلى اعتبار طبيعته الجوهرية ، فإنك تدخل حلبة صراع عنيف مفتوح للجميع- صراع مندفع ومزحوم لأفكار متباعدة على نحو غير دائم الودية . على طرف يوجد السلوكيون الذين يصرون على أن الباطن أو دون الوعي هو مجرد اسم مضلل نوعاً ما لذلك الجزء من تركيب الدماغ المتكون من مرات مترافقة أو موصلات أنتجت التجربة السابقة . وإنه- بهذا- سايكولوجي محض . من دون أن يكون فيه شيء عقلي أو مادي . ومن الطرف الآخر ، يوجد الصوفيون السايكولوجيون . الذين يتبعون "وليام جيمس" ، والذين يعتبرون العقل الباطن نوعاً من الكيان الذي يشبه العقل الواعي . ولكنه أوسع في الامتداد . بحرراً عظيماً من المخاوف والأمال والرغبات والأفكار المعزولة كثيراً أو قليلاً عن العقل الواعي ولكن المتحدة ، كثيراً أو قليلاً ، مع "العقل الكوني" والموهوب بقوى ميتافيزيقية ، يمكن أن ينبثق منها التخطاير ، الاستبصار ، التنبؤ ، والخ . . . وبين وجهة النظر المادية للسلوكيين ووجهة النظر الـ "مثالية" للصوفيين ، ثمة عدد من المواقع الوسطية ، سواء أكانت متوسطة أم متطرفة . إنني استخدم مصطلح الباطن "أو "دون الوعي" لمجرد أن أصنف تجريبياً وبالمعنى الوصفي الخالص- أي قدرة أو قوة أو تجلٍ قد يبدو بخمنائه نتاجاً لعقل الفرد ولكن ليس عقله الواعي ، بالمعنى الذي يقبل به مصطلح الواعي "عموماً .

* نسبة إلى الدير .

الدفوف والأبواق، وجرى رفعه لغرض الدراسة المطولة والصادقة إلى العالم المحترم تماماً للمختبرات العلمية والبحث العلمي، وفي العديد من الجامعات الكبرى.

ولا أعتقد أنها برهنت حتى الآن على أي شيء قاطع، أو أنها ستفعل، بطرقها الحالية. ولكن يمكن أن أكون على خطأ بهذا الشأن- وسواء أكنت على صواب أم خطأ، فقد صار الأمر كله، للمرة الأولى في تاريخ العالم، مشكلة علمية، مبينة على نحو علمي مع حل نزيه يجري البحث عنه بنزاهة.

في الطرق الأقل تشدداً، ومن دون إمكان السيطرة المختبرية، كان بحث هذه الظواهر ذاتها جزءاً من وسواس انشغالي طيلة حياتي بالسحر وممارسة السحر.

لو كان سادة البحث المختبري المتشددون لديهم احتقار مسوّغ لنوع الحرث الحار والمعرّق، الشاق، الخطر أحياناً، الذي كنت أجريه في المجال المفترض لما فوق الاعتيادي، فعلياً أن اعترف بإحساسٍ باحتقارٍ تعاكسي قليلاً لحكمهم السطحي غير الساخن، الذي لم يقلب تربة عميقة حتى الآن- لمساعيهم من أجل إثبات شيء، أو نقضه، لحقل مستنقع ٨ على عمق بالغ وتومض عليه نار الاسكيمو بمجموعات ورق صغيرة باردة، مخمّنين ألعاباً ومضيفين مكائن.

لا أظنهم قد خلعوا حتى الآن قفازاتهم وامسكوا التنين بإحكام من ذيله- إن كان ثمة تنين أصلاً.

مهما كان في الأمر، حتى لو كان مجرد أوهام، توهّمات للمصادفة، تذكرت فيها أنت وبعض الملايين من الآخرين المرة الواحدة التي كان لك فيها هاجس بأن العمة سالي ستدهسها شاحنة أو أن العم تشارلي غرق في البحر (وقد دُهِست هي أو غرق هو) ولكنك نسيت الهواجس ذوات القوة المساوية التي أحسست بها عندما لم يحدث شيء لاحقاً- هذه الومضات بالغة الحساسية التي يفترض أنها تخاطرية، التي تنجح حقاً، تقع دائماً تقريباً عندما تكون خاضعاً، عن وعي أو عن غير وعي، لقلقٍ، توترٍ، أو شدٍّ، عقلي أحياناً، بدني أحياناً، ومن النوعين في بعض الأحيان. وسواءً أكانت حقيقية ويمكن البرهنة عليها أم لا- فهي تكاد لا تقع "باردة" قط.

وهي لا تكاد تقع للناس الذين هم غير مبالين، الذين تكون أوضاعهم العاطفية قبل وقوعها أوضاع الهدوء والطبيعية كطبيعية حال البقر.

اعتقد أن راين وزملاءه أنفسهم أعاقوا، بالهدوء المطبق الذي يسود في الرحلات البعيدة بالغة الحساسية التي يقوم بها متنزهون هادئون، غير قلقين، بمئات الآلاف في تلك هادىء وتام لحواسهم الخمس الاعتيادية الطبيعية.

لو كان ثمة شيء يشبه التصور بالغ الحساسية، فإنني لا أظن أنهم سيوقظونه إطلاقاً إلى أداء ايجابي مجفل بتلك الطريقة.

لو كانت ثمة قوة نادرة كهذه، فإنني أظنها أكثر عرضة لأن تثار بتجارب من النوع الذي ينشغل فيه المعلمون الهندوس الصوفيون، وممارسو اليوغا- صحو مطوّل، صيام، تنمّل، خدر- أي شيء ليس خطيراً جداً قد يقصر الدارة أو يسكنّون الحواس الخمس الطبيعية حتى تعطيلها مؤقتاً، ويترك الباب مفتوحاً على نحو أوسع للظواهر فائقة الحساسية (إن وجدت) كي تشق طريقها.

على هذا النحو يقرع الحاذق الراكع طويلاً للـ "بي كينغ" الباب. يتمدد الفقراء الهندوس على أسرة من مسامير أو يحدقون إلى الشمس حتى يصابون بالعمى.

ويلحق الرفاعيون- وهم طائفة من الصوفيين المسلمين متحدة مع المولوية- أنفسهم من معصم واحد ويتدكون كالحفافيش في الظلام لساعات حتى يدخلوا نوبة غشبية أو يغمى عليهم.

إن الأطباء- السحرة الاسكيمو، الذين وصفهم "بيتر فرويشن" يجعلون أنفسهم يُشدّون بإحكام بالحشود ولا يمشون إلى نوبات غشيتهم إلا بعد أن تكون التوضعات الطويلة المزدحمة قد هرات حواسهم الطبيعية وأخمدتها. ويدور المولويون- الطائفة الصوفية الأكثر ثقافة بين المسلمين- حتى يدوخوا. ويجلس الصوفي، الكامل التمدن، متصالب الساقين، يحني رأسه على بطنه الامسح، ويحدق إلى سرته.

تلك جميعاً هي الأم عينه، حقاً. لو كانت عندك قوة العزيمة على الجلوس من دون حراك لمدة ثماني عشرة ساعة أو نحوها، في كرسي اعتيادي، مبقياً ذهنك مفتوحاً وفارغاً على أشد ما يمكن، وتحقق على نحو ثابت إلى راس قلم رصاص، فسينتهي بك الأمر إلى امتلاك جميع أنواع "التجليات" المثيرة، الجميلة أحياناً والمرعبة أحياناً- حتى إذا لم تكن شيئاً غير مجرد أوهام.

لو أن هذه التجليات، والرسائل والتجارب في التخاطر، الاستبصار، الرؤية الروحية، كما أحسب، ليست فائقة الحساسية أو ما فوق اعتيادية إطلاقاً، وإنما مجرد منبعثة من لب أعماق لا وعي المجرب المطلق لها، يمكن مع ذلك أن تصير مثيرة على نحو عنيف وقد عرف عنها أنها تنتج (باعتبارها نوعاً من النتاج الثانوي) روائع راقية في الشعر والدين والنثر الصوفي والخ....

لو أن شيئاً أكثر أهمية "انطلق"، فهو يأتي على أكبر احتمال من الطرق بمطرفة على الباب، بتعطيم الباب حتى ينفتح، لو كان ثمة باب كهذا، أكثر مما بالقرع الحكيم، البارد، متبوعاً بإدخال، عبر فلع متصور، بطاقة شخصية شبحية مطبوع عليها نجوم ودوائر. إذا ما فتح الباب، وعندما يفتح فمن المؤكد أن يرى الفرد بوضوح أكبر برؤيته الفاقدة الحساسية، عندما يكون قد تفحص بعناية بالغة حواسه الخمس الطبيعية في غرفة الانتظار خارجاً.

إن تكنيك الدكتور راين في السعي لـ "التفحص بعناية بالغة" للحواس الاعتيادية لرعاياه هو أن يكونوا هادئين، مرتاحين، مرتخين، مطمئنين، جسدياً وذهنياً على حد سواء- الجسد هادئ، تماماً والعقل على أقصى قدر ممكن من الهدوء والفراغ.

يمكن للقطط والكلاب والقدسين والأبقار والمتوحشين والبدائيين والعجائز الجالسات على كرسي هزازة في الريف، أن يفعلوا ذلك، ولكنه شبه مستحيل بالنسبة لأكثرنا، إنه- بطريقة ما- أسهل من الانحناء والتحديق إلى شريك حتى يتنمل عنقك ويصير دماغك خالياً أو حالمًا- ولكنه، من وجه آخر، أصعب. إن "تبييض" الذهن حتى يمكن لـ "كل شيء" أن يدخله هو الشيء الوحيد الذي نخافه جميعاً تقريباً بشكل يأس وناضل ضده من دون توقف. ومن هنا أحاجي الكلمات المتقاطعة، الجناسات التصحيفية، بريدج العقود*، الحياكة، والمطالعة.

علينا أن نشغل بشيء في كل لحظة صحو، حتى لو كان ذلك القراءة الآلية للصيغة على أنبوية معجون أسنان.... من الخوف....

تبدو نتائج الدكتور راين وكأنها تبين أن رعاياه يبدون وكأنهم يتدبرون أمورهم

* من أنواع لعبة البريدج .

بشكل أسوأ عندما يكونون متعبين. إن تخميناً بهذا الصدد، وأظنه تخميناً فظاً، هو أنهم، ببساطة، لا يتعبون بما يكفي.

إن حواسهم الخمس الاعتيادية لا تزال تقوم بعملها على نحو اعتيادي. لا يمكن أن تكون عقولهم خالية تماماً من الأشياء الحساسة. ومع ذلك، فقد بدا لي دوماً أن أيسر جزء من الإدراك العام الذي تتألف منه الخطوة الحيوية نحو التصور البالغ الحساسية هو في فصم الارتباط- أو في الأقل تهرثته- مع الحواس الاعتيادية الخمس التي نحن، في العادة، عبيد تماماً لها.

يبدو لي أن راين وباحتبه يتولون أن يفعلوا، بالتخاطر، الاستبصار وما كان ذات يوم مادة "شبحية"، الفعل نفسه الذي فعلته الكيمياء والفيزياء بالخمياء- ولكن مع اغفال ربما كان مهماً. فكما رفع الكيميائيون والفيزيائيون البحث عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة، وتحويل الرصاص إلى ذهب، من خَلْقَيْن الجحيم المعتم للخميين الذي كان ساحراً ومشعوذاً، إلى أنابيب ودارق الاختبار النظيفة للمختبر العلمي- هكذا رفع راين وصحبه البحث عن الرؤية ما فوق الطبيعية، فائقة الحساسية، من المناخ المظلم المنقّب لكهوف الساحرات الحديثات الوسيطات، بأبواقهم، دفوفهم، "ادلائهم الهنود" والجللات الخارجية الزائفة، إلى الضوء الساطع للتجربة المختبرية السايكولوجية المسيطر عليها.

ولكنهم قد يتعلمون شيئاً إذ يتذكرون أن النيران الحامية التي تشتعل تحت دورق العلم هي ذاتها التي اشتعلت تحت خَلْقَيْن الخمياوي. إن الخَلْقَيْن لا يزال يغلي ويزيد في الكيمياء. وسماوات الليل فوق (بيت لحم) و(بتسبورغ) تسطع بضوء هو من الحمرة بقدر حمرة ضوء سماوات الليل فوق الكهوف والغابة عندما رمى الخيميائيون القدماء في سمن الوزغة، في دم الخفاش، وفي دم طفل مغتالٍ أحياناً ليجعلوا الرصاص يستحيل ذهباً. لقد تخلت العلوم الفيزيائية عن الخرافات الحمقاء، ولكنها لا تزال تشعل الحرارة.

ولكن راين وصحبه لا يشعلون أية نيران.

إنهم لا يرفعون الحرارة قط. إن أنابيب فحصهم العقلية باردة على الدوام. صحيح أن الكيمياء لم تكن قادرة حقاً، بدوارق أسخن حتى مما كان للسحرة،

على تحويل الرصاص إلى ذهب، أو إيجاد إكسير الحياة- لكنها حوت البتسبلند* إلى راديوم، ووجدت الفيتامينات.

والآن راين- حتى لو أنه مارس تشديداً، جهداً، دفناً أكثر، وإثارة ذهنية وعاطفية أكثر، وسخونة سايكولوجية وعقلية أعلى مما فعل الإغريق ذات مرة في مجونهم الوحشي حول كهنة (دلفي)**، أو في غوامص (إيليسيس)*** أو حزقيال النبي عندما تنبأ فرأى العجلة، أو القديسة تيريزا العظيمة في نشواتها الطويلة- ربما لن يحولوا، في رأيي، حيث المعادن المراد به إرضاء الجمهور وانتزاع التصفيق، الوسيط بين العالمين الأرضي والروحي، إلى تخاطر خالص أو استبصار خالص، ولكنه إن دقاً الأشياء وأبقى النيران مسيطراً عليها، فقد يكتشف ويتعلم أشياء عن أي قوى نفسانية أو عقلية كامنة يمكن أن تكون مستقرة هاجعة وغير مستعملة في العالم الغربي الحديث.

إن المرحوم "وليام جيمس"، عند سبره المشكلات نفسها التي يسيرها راين، ولكن من زاوية مختلفة، مجرباً بال رؤية الصوفية" و"التجلي المخدر" أشعل النار في "هارفارد"، جرب بفقدان النوم، بالأثير، بغاز الضحك، بالإرهاق، بالشد، بالحشيش وبالناناليوم.

لقد رفع سدادات تجارب أكثر إرباكاً وإثارة مما تفعل المختبرات فائقة الحساسية السائدة، ولكنه لم يتمكن قط من إقناع نفسه بأنها قادمة من أي منبع عدا العقل الباطن، أو أنها كانت تحتوي أي عناصر على الإطلاق ادعت لنفسها التصور فائق الحساسية أو قوة الاستبصار.

إن هذه الأمور فوق الطبيعية هي جميعاً في الحقيقة ذاتها، كما تعلمون، سواء لو أنك شطرتها إلى تخاطر، استبصار، رؤية باطنية، رحلات إلى البعد الرابع، أو النتائج الميتافيزيقية- الطبيعية لنظرية آينشتاين التي ينحني فيها الفضاء، إن لم يكن الزمان، فيما حوله، ويعود لينحني حول نفسه مثل أفعى تبتلع ذيلها. إن الدكتور راين

* أو كيد اليورانيوم الذي ينتج الراديوم .

** Delphi : مدينة يونانية قديمة .

*** Eleusis : مدينة يونانية قديمة أخرى اشتهرت بطقوسها السرية لألهة الزراعة والحصب والزواج . ولابتها .

لا يجرب فقط، كما تعلمون، بالتخاطر والاستبصار، محدوداً باللحظة الآتية، إلى "لحظة" الوقت.

إنه يجرب أيضاً كذلك مع بعد النظر والاستبصار الباطني المسبق، ناظراً إلى المستقبل.

وكذلك مع قرابة تعاكسية، يعني النظر إلى وراء، إلى ما بعد الاستبصارية. عندما ينتج أناس المختبر شيئاً يستحق التسجيل، بوصفه دائماً وموجوداً كما فعل عظماء السحرة والأنبياء والحكماء وأصحاب النظر والصوفيون البيض في العالم، أو مثلما روت مارغريت برسكوت مونتاغيو"، قبل سنوات، في "اتلانتيك مونثلي"، عندئذ فقط سأصدق أن أنابيب اختبارهم الباردة تكون طريقة جيدة جودة الدورق المضاء بالنار والمسخن حتى الاحمرار.

لو أن راين أو "اللاما الأكبر" لـ "التيبت"، وهما يعملان باردين أو ساخنين، ينتجان فرداً واحداً يمتلك بحق قوة تخاطرية أو استبصارية، ويكون قادراً على استخدامها حقاً، فسأصدق حينئذ أنها توجد، باعتبارها قوة فائقة الحساسية، خارج الوعي الطبيعي، خارج الحواس الطبيعية- وكذلك خارج حدود اللاوعي كما نعرفه حتى الآن.

لو أن ذلك حدث أصلاً، فإنه لن يصنع أدنى فرق سواء إذا صدقته أم لا، أو إذا ما فعلت الأمرين معاً، مما يصنع فرقاً سواء أصدقت الديناميت أم لا- لأن فرداً واحداً يمتلك حقاً قوة تخاطرية أو استبصارية ويقدر على استخدامها براغماتياً، يمكنه أن يجعل العالم لعبة له من أجل الخير أو الشر، يحطم كل أسواق الأسهم في أقل من أسبوع، يحطم الحكومات مع دبلوماسيتها السرية، يسيطر على حصيلة كل المعارك، سواء أكانت في (بحر البلطيق) أو في "الشركات الكبرى". يمكنه أن يبدأ بتحطيم المصرف في (مونت كارلو)، كل بنوك * الباكارا** ولعبة الثلاث ورقات والمصارف "الروسية" في العالم، يلتقط الـ "يونيون باسيفيك" عرضاً، ومن ثم يذهب فيحطم "بنك إنكلترا".

يؤمن كثيرون بأن الاستبصار لا يتضمن قوة إبداء رؤية فائقة الحساسية عبر الفضاء فقط، وعبر الأشياء الكامدة، عبر الورق المقوى من أوراق راين، عبر الجدران

* البنك هو الصندوق الذي يدفع منه مدير لعبة القمار خسائره .

** ألعاب قمار مختلفة .

الصلدة، عبر مئات الأميال المتدخلة، ليدرك أشياء تحدث في مكان آخر في اللحظة الراهنة من الزمان، ولكن أيضاً قدرة عرضها إلى وراء وإلى أمام، على حد سواء، في المكان- الزمان.

لو أن الزمكان انحنى ولو كان الزمان والمكان متوافقين، كما يطرح أينشتاين في النظرية، فربما ستكون اللحظة الماضية، الحاضرة والمستقبلية، في إحدى النتائج الطبيعية الميتافيزيقية للنظرية إذن، أوهاماً زمكانية- المستقبل موجود سلفاً في المكان وخلاصة الماضي لا تزال موجودة مكانياً في اللحظة الراهنة.

ينتقل الضوء بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية والكثير من النجوم الثابتة الكبرى تبعد مئات السنين الضوئية عن الأرض.

إن "منكب الجوزاء" تقع على بعد أكثر من ١٥٠ سنة ضوئية. ورشاش الأندروميدات* المدوم، تلك المجرة الملتفة، التي هي كون آخر وراء (درب التبانة)، تبعد أكثر من ٨٠٠٠٠٠ سنة ضوئية عن الأرض. لو أنك كنت في مكان ما هناك، وأمكنك أن ترى الضوء محمولاً إلى هناك من هنا، جالباً لك صوراً رؤية، فما ستراه في أمواج الضوء سيكون عصرنا الحجري القديم بأناس كهوفه، والفرعون يبني الهرم الأول، وكتائب قيصر تتقدم- وذلك على وفق وقوفك على بعد كم سنة ضوئية- وكل ذلك يقع كصور في اللحظة الراهنة من الزمان.

لو أنك كنت تجلس اليوم على كوكب قصي يدور حول منكب الجوزاء ولديك تلسكوب قوي بما يكفي لترى ما يقع هنا على هذه الأرض فسترى جورج واشنطن* يعبر ال (ديلاوير). ولو أنك ذهبت إلى بعد ٤٥٠ سنة ضوئية ونظرت إلى وراء فسترى "كولومبوس" يعبر (الأطلسي).

إن الضوء والصور الرؤية التي تصل عينك ولا يمكنها أن تجلب لك شيئاً أكثر تأخراً من طول الوقت الذي استغرقه الضوء للانتقال، وهكذا ستري هذه الأشياء تحدث ثانية في زمان بعيد، في ما سيكون، بالنسبة لك، اللحظة الراهنة من الزمان. في التعابير البصرية وتعابير الضوء، لهذا الزمان الافتراضي البارز مكانياً إلى

* نسبة إلى أندروميد . وهي أميرة حبشية شُدت بالسلاسل إلى حرف عالٍ لكي يلتهمها غول .

الكواكب القصية، إذا ما ذهب إلى كوكب على مبعدة ٧٥ سنة ضوئية ستكون حربنا الأهلية قد انتهت يوم أمس.

ولم تكن الطلقة التي قتلت "أبراهام لينكولن" قد ومضت بعد. أما فيما يتعلق بلحظتنا الراهنة من الوقت، بناطحات سحابها في مانهاتن والقطارات المنسابة والطائرات، وجنون "هتلر"، الجارية في الحاضر هنا، ستكون لا تزال محجوبة في مستقبل يبعد ٧٥ سنة، بالنسبة للملاحظ بصري على مبعدة ٧٥ سنة ضوئية.

إن لازمة آينشتاينية محضاً، غريبة قطعاً للعلاقة الزمكانية الغريبة بلغة الضوء، هو أنك إن استطعت أن تسافر عبر المكان بسرعة أكبر من الضوء، فبإمكانك أن تقف على مبعدة مثل المسافرين في نزهة، أو الله، تعيش في أي فترة تختارها من الماضي، وهكذا - فيما يبدو - سيكون بمقدورك أن تمضي منطلقاً على الطريقة ذاتها إلى المستقبل. إلى "ماي سينكلير"، الفيلسوف والميتافيزيقي والروائي أيضاً، تُنسب الليمركية التي تكمل هذه الخيالات العلمية:

كان ثمة سيدة شابة تدعى "براقة"، كانت سرعتها أكثر بكثير من النور، انطلقت ذات يوم

(بطريقة نسبية)

وعادت في الليلة السابقة.

لو أن نظرية آينشتاين قديمة، ولو كانت مثل هذه السرعة ممكنة التحقيق، فقد كان بمقدور السيدة الشابة أن تفعل ذلك حرفياً، في حين سيصير التخاطر والاستبصار، بما في ذلك قراءة المستقبل، ستصير ببساطة التلفزيون والراديو.

لو أن الفئات المحدودة الموصلة إلى النشوة، الدراويش المصابين بالإغماء، التخشبي، أو عمك سالي خطوا بلمحات من الماضي أو المستقبل المخيفين، فلربما كان بإمكانهم أن يحصلوا عليها في حالة بُعد - رابعةٍ ما كهذه، خارقة عبر، ووراء، ما يسميه "يونغ" و"فولتون أورسلر" "شقاً" في الزمن.

لو حدث أي أمر لـ "صبي بروشوود" لـ "كيبيلنغ"، أو أحدث من ذلك لـ "كرستوفر اشروود" في (كونيكتوت)، حيث رأى بنت أخيه تلعب التنس في الصيف التالي وتقرأ

بياناً مصوراً عن قفص طيور مطبوعاً سنة ١٩٤٩، فلا بد أنه كان شيئاً مثل ما حدث للسيدة الشابة في إنشاء الليمركية.

لقد حصلتُ على بعض النتائج الاستثنائية في هذه الخانة سأصفها في فصل تال... مع سيدة شابة تسمى "جستيس". لو أنها كانت تألفت من أي شيء وراء الحفر والتنقيب، وراء الحلم والتطواف في الكهوف الكبيرة لعقلها الباطن العميقة، الغنية، فلا بد أنها كانت في تلك الخانة الغامضة.

إن شيئاً واحداً فقط أكيد، ذلك هو أن وهمه الذي يكون في بعض الأحيان أكثر إثارة للحيرة وأكثر حيوية من أي واقع مادي حالي، هو شيء قد اختبره كل الناس تقريباً مرة أو مرتين في العمر، عادة تحت الشد العصبي، الإرهاق، أو التوتر. إنه وضع يمكن إنتاجه، بتأن، بالتكنيك والممارسة المتروية.

اعتقد أن امكان أن تكون تجربة هذه الأوهام، أو كائنة ما كانت المتأصلة لدى كل الكائنات البشرية، تجعل بإمكان أي شخص يمكنه المرور عبر "الباب" بالتدريب والصبر. لقد مررتُ عبره مثل كل الذين أجروا تجارب بالسحر سواء أكان أبيض أم أسود. أظن أن أي شخص، كما سبق أن قلت قادر بالامكان أن يفعلها. ولكن ذلك ليس يسيراً. لو كنت تظن أن التركيز يسير، فإن "تخلية" الفعاليات الطبيعية للعقل الواعي سطحاً، تحديق بعيون مغمضة إلى لا شيء، أو تحديق بعيون مفتوحة إلى كرة أو رأس قلم رصاص، تجلس منكشمة لساعات طوال - جرب ذلك فقط لمدة ساعة واحدة! في الشرق حيث كانوا يقومون بذلك لمدة خمسة آلاف سنة، فإن أعلى الخبراء وحدهم يمكنهم أن يفعلوها من دون معونات آلية.

إن المتأملين الصوفيين الأعظم والقديسين وحدهم يمكنهم أن يفعلوا ذلك بمجرد قوة الإرادة المجردة وحدها.

وحتى عندئذ، فإن التجارب الباقية في الذاكرة تبدو وكأنها تحصل بالمصادفة تقريباً، كما فعلت أغلب تجاربي الممكنة التذكر، التي يجري تذكرها ذات ليلة على يول* هاريسون سميث"، القوزاق، في عاصفة أطلسية خارج ساحل (نيو انكلند)- بعيداً عن ضوء منارة "مونهيفان".

* البول هو المركب الشراعي منه وذو المجاذيف .

٢- "جسد وهمي" على مركب

"القوزاق" مركب طوله اثنان وأربعون قدماً، مغلف بخشب الساج، مبني في ألمانيا على أيام القيصر ويلهلم القديمة- وقد امتلكه بعض الوقت في أميركا الناشر النيويوركي وهاوي اليخوت "هاريسون سميث". وقد باعه قبل وقت غير بعيد، ولديه الآن مركب آخر، هو "القوزاق ٢".

في الأصيف، عندما كنت أبحر على القوزاق القديم، في أواخر العشرينيات، كان يوضع على اليخت "كلوب" في (ميناء واشنطن). كان الكلوب زورقاً عظيماً، وقد عبر- قبل وقتي- الأطلسي أكثر من مرة. لقد جاب جزر (اليونان)، صمد أمام عواصف شمالي الأطلسي، واجتاز المغامرات الكبرى في خليج (لبسكاي). أبحرنا به بين آن وآخر صعوداً عبر راس (كودكانال)، وعرضاً إلى (كرمة مارثا)، و(ناتوكت) و(ميناء بار).

كان "هال" نفسه بحاراً، وكنا نبحر عموماً مع طاقم هاوي من ثلاثة أو أربعة. خرجنا به ذات شهر آب أنا وهو بمفردنا من (ميناء واشنطن)، مخططين أن نأخذ أفراد الطاقم الآخرين عند (نيولندن). لدى الوصول إلى (نيولندن)، وجدنا برقية تقول أنهم لم يتمكنوا من اللحاق بقطارهم في اليوم الذي خططوا له، ولكنهم سيلحقون بنا فيما بعد، إلى أعلى في (ماين).

وهكذا، فقد قررنا المواصلة. في العادة، لم تكن معالجته لتصعب علينا نحن الاثنين، عادة.

كان هال بحاراً عريقاً. ولافتقارنا إلى العدد الضروري من المساعدين، فقد كان يمكننا أن ندخل في أي مكان نحب أن نرمي فيه مراساتنا وننام ليلاً. ولكن أوقفنا عاصفة لا تُنسى خارج المنار.

وقد قرر، بحكمة، أن آمن شيء هو أن نفر ناجين بأنفسنا، بعيداً عن الساحل ونخرج منها سالمين.

كان بمقدور "القوزاق" تحملها. بمقدور "القوزاق" أن تتلقى أي شيء في المياه المفتوحة. وما كان سيكون ثمة معنى للمجازفة في حشره قريباً من الساحل، محاولين الرسو.

لم يكن ذلك خطراً قط. كانت مجرد مغامرة صغيرة مشيرة، لم نجازف بأن نخسر فيها أي شيء عدا النجوم. ولكن العاصفة استمرت، وكانت الرياح تهب في الأغلب من الشمال الغربي.

جرت مضايقتنا من جانب البحر، وبقينا خارجاً هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال. لم يقلق أحد منا. لم يكن ثمة ما يثير القلق- فيما عدا التجهيزات.

كنا سنشتريها عندما يكتمل الطاقم، وكان الاحتياطي الوحيد الذي عندنا على ظهر المركب هو بعض العلب القديمة من لحم البقر المملح.

لا بد أن هذا الشيء اللعين له سنتان وهو في المركب. ولكننا لم نكن جوعاً جداً. كنا، كلاتا، جاحظي العيون من فقدان النوم، لمدة قريبة من تسعين ساعة.

لم يكن بمقدور المركب أن يعين بنفسه في ذلك الطقس حتى بالإبحار أمام الرياح. كان لا بد أن يكون أحدنا عند دولاب القيادة دائماً، فيما يكون الآخر دائماً جاهزاً للاستدعاء.

كنا في أغلب الوقت على السطح كلاتا. ثم، عندما سكنت العاصفة قليلاً، نظمنا نوبات من أربع ساعات للواحدة، يكون فيها أحدنا عند الدولاب فيما يحاول الآخر أن يخطف أربع ساعات نوم في الأسفل. بسبب الإثارة جزئياً، ومودة أحدنا تجاه الآخر جزئياً، وحديثنا عن "موبي ديك" كذلك، ومساعدتنا أيضاً لتسخين اللحم المملح بتكرار والحفاظ على وعاء القهوة من الانقلاب، لا أظن أياً منا قد فكر إطلاقاً بكونه متعباً جسدياً، ولا أتذكر أننا كنا متعبين إطلاقاً، من حيث عضلات الجسم، قط. ولكننا كنا جاحظي العيون، مخدرين، وفي الوقت نفسه مشدودين إلى نوع من الحساسية الفائقة، من انعدام النوم المطول. لقد كنا نحس أشياء، ونفكر فيها ونراها، بنوع من بُعد النظر الفائق الحاد الذي جعلها تبدو كما لو أن قناعاً من ضباب قد رفع عن عقولنا وعن الخط الخارجي الاعتيادي للقلوع مقابل السماء السمكية. تحدثنا عن ذلك. سيعرف كل من

مضى، في الحرب أو في مكان آخر، زمناً طويلاً فوق العادة من دون نوم، في ظل ظروف مثيرة تجعل النوم مستحيلاً، سيعرف ما الذي أحدث عنه.

إنه يمنح النوع نفسه من الوضوح الظاهر الصوفية للرؤية الباطنية التي يحدثها غاز طبيب الأسنان أو مواد التخدير في الدقائق الانتقالية، داخلاً وخارجاً.

في الساعة الثامنة مساءً في الليلة ما قبل ما يُفترض بأنه يوم العاصفة الأخير، حل "هال" محلي على الدولاب، ونزلت إلى أسفل كي أتمدّد وأحاول أن أنام.

وجدت أنني لا أستطيع النوم. كان ذهني يتسابق. في التفكير بالحال غير الطبيعية التي كان فيها عقلاتنا، بدأت أتذكر فترة سبق أن قضيتها مع مجموعة من الصوفيين الشرقيين مشهورة بكونها اختصاصية لألف سنة في حالات الذهن غير الطبيعية.

سبق أن عملت متدرباً في التكية المولوية الجلييلة في الجبال وراء (حلب) السورية. إن المولويين، الذين لا يُعرفون إلا بال دراويش الدوكرين" في عالمنا الغربي، هم أرقى أخوية صوفية، ويعتبرون الفرقة الإسلامية الأكثر تعلماً من بين الجماعات الدينية في الإسلام.

كان دورانهم، الذي لفت أنظار العالم الخارجي، قد جرى استعراضه، جال واستُغل - كما فعل كورس كنيسة "سيستين"، وللسبب البسيط نفسه فإن موسيقاها، ورقصها أيضاً، جميلة. ولكن الدوران بالنسبة للمولويين طريقة لاستدراج حالات النشوة الصوفية التي يعتبرون أنفسهم يُمنحونها بها حواس ورؤية وقوة فوق طبيعية. ولكن ما هو في التكية المولوية ليس رقصاً وموسيقاً إطلاقاً بأي حال.

إن كثيراً منه دراسة واضحة صعبة. ولقد كنت أفكر الآن بالجهود التي سبق أن بذلوها لتعليمي المبادئ الأساسية التي تقيمون على أساسها اعتقادهم بأن العقل (أو الروح) والجسد يمكن فصلهما، أن العقل (أو الروح) يمكن أن يخرج إلى وراء الجسد، يمكنهما أن "يتخلصا من هذه اللغة المميتة" عن طريق تركها والعودة إليها، كما يفعل المرء مع منزل أو رداء.

ولا أقصد بالدراسة أن يحفظ المرء تعويذة أو أسماء الله التسعة والتسعين بالقلوب. إنهم لا يعيرون التفاتاً للهذر الترمويهي في أحد الدروس الأولى، أمسك المولوي المكلف تعليمي شمعة موقدة مقابل يدي، بحيث لامست اللهب، وقال:

"قل لي ما الذي أفعله.

فصرخت مثل طفل ممتعض:

"إنك تحرقني!"، فقال: "كلا، لا يمكن للهب أن يمسك. كان الأخرى أن تجيب بأنني كنت أحرق يدك. وكان ذلك سيكون، بمعنى من المعاني، تحركاً باتجاه الحقيقة، ولكن ليس إلى درجة كافية. إن يدك ليست أنت. ولا الأعصاب الممتدة ما بين يدك ودماعك. وليس جسدك أنت، لا أي جزء منه، ولا مجموعه الكلي. إذا ما كرست حياتك لهذا، وأتصور أنك لن تفعل، يمكنك بلوغ النقطة التي ستكون فيها يدُ ما. لا يدك، هي ما يتم حرقها".

في هذه الأثناء كان قد مد يده قريباً جداً ومزق ردن رداًني. مرة أخرى قال: "خبرني ماذا فعلت".

كنت سأقول: "لقد مزقت ردن رداًني"، ولكنني تذكرت أنهم هم الذين أعطوني إياه عندما بدأت التدريب ولم يدعوني أدفع ثمنه، بما أن كل شيء في التكية كان ملكية مشتركة. وهكذا، فقد أجبت:

"لقد مزقت ردن رداً"، قال: "هذا أفضل. وليس جسدك أنت بعد، وكذلك ليس ما تملكه أيضاً أكثر من هذا الرداء. إن جسدك، ببساطة، شيء مادي تسكنه مؤقتاً كما تسكن هذا الرداء. إنه يشبه ثروتك الدنيوية، إن كنت تمتلك أياً منها. إنك تستعمله. وهو، بالطبع، ليس أنت.

ولكنه لا يعود لك أيضاً. ما من شيء هو أنت أو يخصك، فيما عدا نفسك، اناك". وكنت قد قلت:

"افترض أنك أوقدت، بدلاً عن الشمعة، ناراً خارجية وأحرقت جسدي إلى رماد..." فقال:

"افترض أنني رميت دراءك هذا في النار الخارجية بدلاً عن ذلك. عندئذ ستصير عارياً- من رداًئك. ولو احترق جسدك، فستعري- من جسدك" فقلت:

"سيوجع ذلك بضراوة" وأجاب: "نعم، حقاً، ما لم تكن قد صرت ماهراً. انفسيت أن قديسيكم المسيحيين كانوا يبتسمون ولا يحسون غير النشوة الهادئة للتنقية والخلاص فيما كان اللهب يلتهم أجسادهم؟ كذلك هو الأمر مع أعلى خبرائنا". فقلت:

"إنني لأكره أن اضطر إلى تجربتها"، وكان المولوي معلّمي قد أجاب، مبتسماً،
بصراحة:

ما كنت لأفعلها أنا نفسي. أشك في أنني مقدس بما يكفي. ولكن في ظروف أبسط، تعلمت أن أفصل النفس عن الجسد المادي. ولو أنك تبقى معنا مدة كافية فسنتمكن من تعليمك فعل ذلك، أنت أيضاً".

طبيعي أنني لم ابق في التكية مدة كافية- ما دامت "مدة كافية" قد تعني عشرين سنة، عمراً- ولكنهم علّموني الكثير حقاً، وذات مرة، كما أتذكر الآن بوضوح، إنني إذ كنت أتمدد هناك مفتوح العينين، أرقاً، وضعت جزءاً من ذلك التعليم في التطبيق، في أميركا.

كنت قد بدأت أقلق بشأن سنّ عقل مغروس بين عظم الفك وسن آخر. واتضح أنه كان صلباً جداً بحيث أن طبيب أسناني أرسلني إلى إمبراطور قلع الأسنان ذاك، "هاسبروك"، الذي أعطاني غازاً وحطمه ثم قلعه كسراً، مع بعض الشظايا من عظام الفك. وقد غرز نوفوكاين* أو شيئاً ما فيه أيضاً، وهكذا فعندما صحوت من النوم، لم أشعر بأكثر من فك موجوع قليلاً، كما لو أنني ضُربت بهراوة. كان قد قال:
"خلال ساعتين أو ثلاث عندما تتلاشى الصدمة، سيؤلمك، ربما على نحو سيئ. سأعطيك أقراص المورفين الثلاثة هذه....".

أخبرني ما أفعل، وكيف أتناول واحدة منها أو أكثر إن اقتضت الحاجة.
ذهبت إلى البيت، شاعراً وكأنني كنت في عراق بمقصف، ولكن حاساً على نحو جيد جداً، وأقراص المورفين في جيبي.

كنت أسكن في شقة في (مبنى فلوريد كيلر)، في الرقم ٥٢ غربي الشارع الثاني عشر، وكانت "كاتي" في الجنوب آنذاك، لو كنت أتذكر جيداً. على أي حال، كنت وحيداً هناك، في منتصف العصر، وأنا ما أزال أحس إحساساً جيداً جداً.
تددتُ، كما أمرت، وضعت كمادة على الفك، ووضعت إلى جانبي علبة الأقراص مع كأس ماء. تأملت في وجودها الحامي برضاً، وأوشكت أن أغفو.

* مخدر موضعي .

بدأت حوالي الساعة الخامسة عصراً.

لم تكن شيئاً كبيراً في البدء - مجرد وجع مبهم، متزايد، ولكن كان كافياً ليجعلني أفكر بأن من الأفضل أن أتناول قرصاً سريعاً جداً. ثم، فجأة، من دون أي إخطار آخر، بدأت تفعل فعلها حقاً - ولم تكن تشبه شيئاً سبق أن أحسسته أو حلمت به. سبق أن انحسر إبهامي مرة في باب سيارة، ولكن ذلك لا يقرب مما كان يحدث الآن.

أصابني فجعلني انهض، كما لو أن رأسي انفجر، وأطلقتُ صرخة. قبل أن أتمكن من تناول الأقراص والكأس، زال، ثم بدأ يعود، في موجاتٍ هذه المرة بدلاً من الانفجارات. كان الألم مخيفاً ولكنني أحسست بالعجب، المفاجأة، وتقريباً بانفصال بسيط، بشأن الموجات.

لقد غمر عالمي الداخلي. بدأت حمراء براقه، ثم أخذت تتوهج، صارت شعلة بيضاء، ثم تراجعت فيما تفهقرت الموجة.

تساءلت إن كان شيء من هذا النوع قد وقع لنسوة يضعن أطفالاً. أكانت الحال كذلك عندما يصرخن؟ لم يكن ثمة أحد ليسمعني، وهكذا فقد أطلقت صرختين اثنتين. فكرت: "لو بقي السواد سواداً، لو اضمحلت حافات الضوء حول السواد... أتصور أن ذلك سيكون إغماء". جاءت الموجات الحمراء... متحولة إلى لهب مرة أخرى. فكرت: يا ربي العظيم، لو أنني تمكنت من الخروج من هذا، سيكون الأمر مثيراً للاهتمام حقاً". تذكرت ما كان المولوي قد حاول أن يعلمني، ومفكراً أن الآن هو الوقت الذي ينبغي لي أن أجرب ذلك فيه. لقد نسيت تواء أقراص المورفين. إنني أكره الألم، وأنا جبان كجبن أي امرئ آخر، ولكن ما كان يحدث لي كان واحداً من الأشياء الأكثر عنفاً وإثارة للاهتمام التي سبق أن وقعت لي في حياتي إطلاقاً. وهكذا، فقد حاولت أن أفعل ما علموني. ليس في ذلك أية تركيبة لتعويذة. ثمة شيء من التكنيك الذي يدعونه "التركيز المتنقل"، ولكن ما اختُصر إليه كان، ببساطة، هو الاستخدام المباشر للإرادة، نحو الانفصال. بدأت أحاول - وانتهيت بعدم مسّ أقراص المورفين بتاتاً، لأنني كنت قد فعلت - خلال دقائق قليلة جداً - ما علموني، على نحو كامل. ها هي ذي كانت هناك - الموجات والألم، الحمرة، البريق، اللهب الأبيض، الألم الطاعن ثم الوجع الذي يجعل كل شيء يتحول إلى أسود - بقيت التتابعات تقع بالضبط كالسابق - ولكن بدلاً من معاناتها بمعنى الإحساس بأنها تمزقني، كان الأمر وكأنني أتذكرها بهدوء.

ربما كان هذا الجزء يصعب وصفه قليلاً. ولكنه سبق أن بدا لي أن الأمر كان يشبه بالضبط اجتياز تجارب عنيفة سبق المرور بها، أو أثناء قراءة رواية، أو أن التذكر الهادئ لانحشار إبهامك في باب سيارة، أو التهاب زائدتك الدودية، أو إذا ما كنت أماً ووضعت كل ذلك لا يسبب لك ألماً جسدياً، أو أي ألم نفسياني، ولكن بمقدورك أن تتذكر جميع التفاصيل:

كم كانت توجع، كيف كانت تتحرك وكيف كانت تختلف. يمكن أن تعي مجدداً الألم على نحو كامل، ولكن تجدد الوعي لا يؤلمك. حسناً، لقد كان الأمر على ذلك النحو بالضبط، عدا أن الوعي والخطور كانا يقفان متزامنين. بقيا متزامنين بضع ساعات، عشت خلالها في ذلك العالم السحري "حقاً للانفصال المولوي.

عندما انتهى الألم تماماً، كنت مجرد تعب، فذهبت للنوم. لو كان لي عقل علمي، وهو ما افتقده، لكنت أظنني سأضحى بأظفر إبهام بضربه مرة بمطرقة، وأنا في تلك الحال، لأرى ما إذا كان الانفصال يتماسك- سواء أكان ذلك إبهامي أنا، أو مجرد إبهام ما ضربته بشدة. ولكنني أغفلت الفرصة.

وها أنا ذا أرقد الآن، مستوفزاً بعصبية للتوتر غير الطبيعي، وذهني يسرع عائداً إلى تلك التجارب، فيما كانت الريح والأمواج يدقان القوزاق، الذي كان هالاً "يحفظ مجراه من عند الدولاب على السطح، نظرت إلى قرص ساعتني المضيء لأرى متى يجب عليّ الذهاب لأحل محله.

كان الوقت قبل منتصف الليل بعشر دقائق وهو الوقت الذي تحين فيه نوبتي هناك. كنت على وشك الذهاب إلى مطبخ المركب لأعد بعض القهوة أولاً عندما فكرت، أو بالأحرى أحسست، بومضة سريعة مفاجئة: حسناً، لو أنني استطعت أن أفعل واحداً من الأشياء التي علمني إياها المولويون، فلربما أمكنني الآن أن أفعل واحداً آخر. أتصور أنني أستطيع. أتصور أن ذلك صحيح. أتصور أنني أحاول. أتصور أنني أتمكن...

تددت في السرير المبيّت*، وأغمضت عيني، وبدأت في صياغة الكلمات.

* السرير المثبت في الجدار، مما يستعمل عادة في البواخر.

يمكنني أن أرسل جسدي هناك إلى دولاب القيادة، جسداً مع عينيه لتراقب البوصلة، جسداً بيديه لتقودا الدولاب. ولكنني لست ذلك الجسد. سأبقى هنا، لأنام. سأضطجع هنا، ممدداً في الجسد الوهمي المولوي، لأنام. كان نور نهارٍ براقٍ، بارد، والشمس تشع عبر غمام الصباح. كانت الريح لا تزال شديدة، ولكن العاصفة خفت.

كنت هناك على الدولاب، وكان المركب مستقراً في مجراه. كان هال، كما عرفت فيما بعد، يصيح عليّ، ثم يضربني على ظهري، ثم يحاول أن يسحب يدي بعيداً عن الدولاب. كانتا باردتين وزرقاوين مثل يدي إنسان ميت.

قلت: صباح الخير. فقال: "صباح الخير للجحيم، يا ويلي، ما الذي جرى لك بحق الارضين؟ ظننتك مغشياً عليك. كانت عيناك مفتوحتين باتساع، والمركب مستقر في مجراه... لم تتغير الريح... وقد بقيت تتلاعب به الليل كله. ولكن عندما جئتُ إلى السطح، تصورتك قد غشي عليك. كان يجب أن أجيء في الرابعة، كما تعرف، ولكنني غرقت في نوم عميق، وأنت لم تنادني. أظنك لا بد قد غشي عليك وعيناك مفتوحتان على سعتيهما، قبل أن أجيء إلى السطح تماماً". فقلت: "ما الوقت الآن؟".

قال كثير بعد السادسة.

نظرنا إلى ساعتينا. كان الوقت قريباً من السابعة. قال: "أنت متأكد من أنك بخير الآن؟ أيمكنك أن تنزل بسلام؟"، فقلت: "نعم، إنني في خير حال. وعلى فكرة، اصعدتُ أنا ليلة أمس أم أنك جئت وأخذتني؟" فقال: "ما الذي تعنيه، يا ويلي؟ كان الوقت منتصف الليل بالضبط، وكنتُ على وشك أن اصرخ إليك في الأسفل عندما صعدت. ألا تتذكر؟"، فقلت: "أقلتُ لك شيئاً؟". كلا.

"أفعلت أي أمر غريب؟".

"كلا، فيما عدا أن عدم قولك أي شيء كان غريباً. سألتك إن كنت تريد بعض القهوة، وتعجبتُ نوعاً ما لعدم إجابتك".

إذاً، فهذا ما كان الأمر عليه. لقد فعلتُ ما فعلت، كائناتاً ما كان. لا ذكرى عندي

عن أي شيء طرأ في فاصلة السبع ساعات منذ أن كررت كلمة "أنام". كان جزء مني، مع القدمين، العينين، العضلات، اليدين، يؤدي وظائفه باعتباره جزءاً من جسم إنسان آلي: صعد إلى السطح وبقي هنا عند دولاب القيادة يؤدي عمله الجسدي- الميكانيكي. وكان جزء آخر مني في إغفاءة عميقة وعديمة الأحلام- في مكان ما. لا أصر أين كنت لأنني لا أدري أين كنت.

يَعْلَمُ المولويون أنه كان نائماً في "جسد وهمي" ترك ممدداً تحت السرير المبيّت، فيما صعد إلى السطح جسد اللحم والدم ثلاثي الأبعاد عديم الروح. إنهم يَعْلَمُونَ بأن الجسد الوهمي كان سيكون غير مرئي وغير مدرك للعين والملمس الطبيعيين، ولكنّ خبيراً كان بمقدوره أن يرى خطوط ظلاله.

إنهم يَعْلَمُونَ بأن هال- يعني أي شخص له حواس ومفاهيم طبيعية فقط- كان يمكن أن يجلس، أو ينام، في السرير المبيّت نفسه، غير واع تماماً بحضور آخر. ولكن ذلك كان ستعرفه الققط والكلاب. لست متأكداً ما إذا كنت أصدق ذلك الجزء من التعليم المولوي. إنني، على العكس، انزع إلى الشك فيه. أعرف ببساطة أن جزءاً مني قد نام عميقاً خلال الليل، في حين كان جزء آخر مني قد أبقى القوزاق مستقراً- وهو يوجه بدولاب القيادة، الريح والبوصلة- وأبقاه في مجراه.

٣- كاغليوسترو الحديثتين

إذ أتطلع وراني، من أجل غرضي المحدود إلى كاغليوسترو ببساطة باعتباره رجلاً ادعى أنه أعظم ساحر أبيض في عصره، رعاه الملوك والأمراء و"ماري أنطوانيت" و"الكاردينال دي روهان"، والذي نسب له "هودون" صفات مثالية وخلّده لاحقاً "دوما" في "جوزف بالسامو" (وتاركاً مقارنتي علاقته بشؤون مثل قلادة الملكة، ما دام أي واحد من السادة الحاليين، الذين أنوي اختبارهم، لم يتهم قط بالغش أو الخداع) - أجد ثلاثة بارزين، سحرة بيضاً، أحياء ونشطين، في عالمنا الغربي الحديث اليوم، مع مجموعة جديدة بديدة تبلغ المستوى المطلوب سنة ١٩٤٠. أقصد بتسميتهم "سحرة بيض" أنهم يتعاطون السحر والتنجيم، مدعين مساعدة إخوانهم البشر لا أذيتهم. وتسميتهم كاغليوستروات^١ أقصد أنهم - في عملية قيامهم بذلك - كسبوا، بطرق متباينة، الشهرة والمال، عاشرهم ورعاهم المعادلون الديمقراطيون للملوك والكاردينالات والأمراء، وزوجاتهم وعشيقاتهم - في (وال ستريت)، و(جادة بارك)، و(شارع بارك) وال (شامب اليزيه). لقد عرفت اثنين منهم على نحو حميمي جداً في فواصل طويلة فترة طويلة من السنين. والثلاثة هم:

جورج غوردجييف، باني مؤسسة غوردجييف في (فونبنلو) و(نيويورك)، التي قيل في يوم عزها إن لديها تسعاً وعشرين مدرسة منتشرة في أوروبا وأميركا.

١ - باستخدام "كاغليوسترو" مصطلحاً فضفاضاً لهؤلاء السحرة المحدثين المشهورين . لا أنوي الزعم بأن أيّاً منهم محال . وما إذا كان الفرد الذي يتعاطى بالسحر الأبيض محتالاً أم لا . هو دائماً أمر يتعلق بوجهات النظر . اعتماداً على ما إذا كنت تؤمن بسحره أم لا . بالنسبة للملحد - من باب المثال المتطرف - يكون الكاهن الرومي الكاثوليكي المخوّل . المحتفل بطقوس القداس - فنياً - محتالاً . وبالنسبة لكثير من العقلانيين . فجميع السحرة البيض محتالون . وفيما يتعلق بالسادة الثلاثة الذين أنوي أن أناقش أمرهم . فإن آراءك الخاصة .

آليستر كراولي، مؤسس الأخوية البيضاء العظمى، طائفة فرسان الهيكل* الشرقية في إنكلترا وأميركا، وكلية الروح الأقدس، التي يشار إليها أحياناً بـ كنيسة ثيليماء، في (سيفال) بـ (صقلية).

بيير برنارد، المعروف بـ "أوم كلي القدرة، مؤسس نادي وعبادة "براي بيرن" الباذخ في (نياك) بـ (نيوجرسي). لم التق قط السيد برنارد، الذي رعاه آل رذرفورد، آل فاندربيلتز، الدوقات، السيدة أوغدين ميلز السابقة، والكثيرون الآخرون من الناس البارزين، بمن فيهم ملاكمو "لونوفا" المحترفون. لكن لديّ، على كل حال، كل المواد المتوافرة للجمهور عنه، وسأدرجها في ملاحظاتي بالملحق.

إن جورج غوردجيف، أو كان، في رأيي، أعظم الثلاثة. جاء إلى أميركا ابتداءً في كانون الثاني ١٩٢٤، ورعاه المرحوم "الفرد ريتشارد اوراج"، محرر "تيو ايج" سابقاً، والرياضي الروسي المشهور عالمياً "آوسبنسكي"، و"مورييل دراير"، و"زوناغيل"، و"كلود براغدون"، و"ارنست بول"، وغيرهم من الأميركيين المحتفى بهم بأنماط مختلفة وذوي النفوذ.

أخذت للقاءه، على انفراد، في الليلة التي تلت وصوله، في جناح كالكصور في فندق على الطراز القديم بأعلى المدينة، وتأثرت كثيراً بحصافته وقوته الوحشية بحيث جلسنا نتحدث حتى قريب الفجر. وسواء أكانت قوته تكمن، ببساطة، في حقول التنويم المغناطيسي والإيحاء الذاتي، أو تتجاوز ذلك إلى التخاطر والاستبصار الصادقين، أو حتى إلى أبعد من ذلك في المجالات التيبية واليوغاوية لصنع المعجزات السحرية المزعومة، فإنني لم أقتنع قط - بسبب أنني لم أقتنع إطلاقاً حتى الآن بأن القوة في هذه الأصناف الأخيرة يمكن أن توجد على الإطلاق.

ولكن كائنة ما كانت الفئات التي ربما كانت تكمن فيها قوة غوردجيف - فقد كانت له القوة في تلك الأيام.

كان قد جلب معه من أوروبا مجموعة من أربعين حوارياً، وفي ليلة ٢٣ كانون

* فرسان الهيكل الأصلية هي منظمة عسكرية أنشأها بعض الفرسان الفرنسيين سنة ١١١٩، أيام الحروب الصليبية، لحماية حجاج بيت المقدس.

الثاني قدم تظاهرة عامة في (صالة ليزلي للرقص)، في الرقم ٢٦٠ غربي الشارع ٨٣. في ٢٩ شباط، أجرى تظاهرة أخرى لجمهور مزدحم في (قاعة كارينغي)، وأقيم عدد آخر من التظاهرات، بعضها مجاني وبعضها الآخر لقاء رسم دخول، في (مسرح الجوار)، وأماكن أخرى، وأقيمت تظاهرة توديع في ٣ آذار، مرة أخرى في (كارينغي). شملت هذه التظاهرات- كما جاء في البرامج المطبوعة- حركة، موسيقا وإنتاج ظواهر"، وكانت هذه الأخيرة تقوم أساساً على "التنويم المغناطيسي والمغناطيسية بالمعنى الواسع". وكان ثمة أيضاً "حيل، أنصاف حيل وظواهر حقيقية تطراً في الطقوس الدينية".

كانت أجزاء التنويم المغناطيسي"، المغناطيسية"، قراءة الأفكار، الاستبصار، والتخاطر، من الأدوات متنوعة ومثيرة للاهتمام، ولكن بما أنها لم تكن تختلف أساساً عن أداءات "هوديني"، الذي كان ينكر على وجه الخصوص أي قوة فوق طبيعية، مهما كانت، ويصر على أن الجمهور كان يجري إمتاعه بـ "سحر مسرحي"، فليست هناك من ضرورة لوصفها.

كان ما أثارني وأثار اهتمامي هو قابلية التعلم المدهشة، الذكية، الشبيهة بالآلية، غير البشرية، العvisية على التصديق تقريباً والتي تشبه طاعة الإنسان الآلي، التي كان يبدئها الحواريون، في أجزاء الأداء التي كانت تتعلق بالحركة"

كانوا مثل مجموعة من قوى فوق طبيعية كاملة التدريب أشبه بتلك التي يرى أتباع الودونية أنها تدخل أجساد الموتى فتحييها، أو مثل حيوانات سيرك تقفز عبر أطواق مؤطرة بحلقات نار، مثل جنود كريستوف الذين كانوا يمishون مشية عسكرية من دون خطوة زائلة خارج متراس الحصن على سفح الجبل الشديد التحدر في (هايتي). لقد فعلوا أشياء، من دون التعرض لأي أذى ظاهر، تكاد تبلغ خطورة السقوط عن جرف، وأخطر بالتأكيد من النط عبر أطواق نارية.

كانت المجموعة تتكون من نسوة فتيات وأفتى، كان أغلبهن قسيمات وبعضهن جميل، ومن رجال يبدون وكأنهم جاؤوا ويمكن أن يكونوا جاؤوا في معظم الحالات، من أفضل البيوت والجامعات البريطانية والقارية.

ولقد التقيت عدداً من هؤلاء الحواريين، وكانوا بلا استثناء تقريباً أناساً ذوي ثقافة

وتربية وذكاء. كان يراد من التظاهرات، فيما أتصور، أن تبين مدى ما علمهم إياه "معهد غوردجييف" في (فونتمبلو) من قوى فوق طبيعية للسيطرة البدنية، التنسيق، الاسترخاء، والخ... ولم يكن ثمة تلاعب في الأمر، بصرف النظر عما إذا كان فوق عادية أم لا، لأنهم لو لم يكونوا قد تعلموا التنسيق الفائق لكانوا كسروا أذرعهم وسبقانهم، ولربما أعناقهم، في بعض الأعمال الجسورة التي أدوها. ولكن ما أحسست أن التظاهرات بينته، حتى أكثر من سيطرتهم على أجسادهم، كان التسلط الرهيب لغوردجييف، السيد. لدى أوامره كانوا يتسابقون وينتشرون، بسرعة تكسر الرقاب، ذات الشمال وذات اليمين عبر المسرح، ولدى إيعاز بصوت خفيض آخر منه كانوا يتجمدون في منتصف القفز ما لو التفتتهم كاميرا مضمار سباق خيل.

رأيت مرة غوردجييف يدفع راقصاً كان "تجمّد" لدى إيعازه في وضع توازن صعب. تشقلب الراقص وتدحرج بضع مرات، ثم تدحرج مستقيماً وعاد ثانية، من دون أن يتظاهر لا إرادياً، كما كان واضحاً، إلى الوضع المتجمد الأصلي.

لم يكن غوردجييف نفسه، وهو رجل هادئ، كالشور، له عضلات- في تلك الأيام- كالفلواذ، يرتدي ثياب عشاء عديمة العيب، ورأسه حليق كرؤوس الضباط البروس، وله شاربان منمقان أسودان كمقود دراجة، ويدخن عموماً سجائر مصرية غالية الثمن، يقف عرضاً تحت- بين الجمهور- أو خارجاً إلى الجهة المحاذية للبيانو، الذي لم يكن فوق المسرح.

لم يكن يصرخ قط. كان غير مبال على الدوام. ومع ذلك مسيطراً تماماً. كان الأمر كما لو أنه كان سيد عبيد، أو مدرب حيوانات متوحشة، يحمل سوط ثور غير مرئي يهسهس غير مسموع في الهواء.

ومن بين خصائصه الأخرى، أنه كان استعراضياً عظيماً، وجاءت ذروة في إحدى الليالي أخرجت، حرفياً، الجالسین في الصفوف الأولى من مقاعدهم. كانت الفرقة منتشرة في النهاية القصوى للمسرح، تواجه الجمهور.

لدى إيعاز منه، جاؤوا يتسابقون بهجوم كامل نحو أضواء مقدمة خشبة المسرح. توقعنا أن نرى عرضاً مدهشاً للحركة الموقفة ولكن بدلاً عن ذلك أدار غوردجييف ظهره بهدوء، وكان يؤرث سيجارة.

في جزء الثانية التالي، كان اندفاع بشري هوائي يطير في الهواء، عبر الاوركسترا، إلى أسفل بين الكراسي الشاغرة، على الأرض، الأجساد مختلطة الحابل بالنابل، مكدسة أحدها فوق الآخر، الأذرع والسيقان ناتئة في أوضاع غريبة- متجمدة هناك، واقعة، في سكون وسكوت تامين.

لم يستدر غوردجييف وينظر إليهم إلا بعد أن جرى ذلك، وهم متمددون هناك، لا يزالون غير متحركين. عندما نهضوا الآن، بناء على إذنه، وكان واضحاً أنه ما انكسرت أذرع ولا سيقان ولا رقاب- لم يبدُ أن أحداً تعرض ولو إلى خدش أو كدمة- ارتفعت عواصف من التصفيق، مختلطة باحتجاج بسيط: لقد كان ذلك، نوعاً ما، كثيراً جداً.

كان الجمهور الذي رأى بعض هذه العروض الخيالية يشمل مراسلي الـ "نيو يورك تايمز"، محرراً في "كولير"، بعض المحررين من الـ "بوكمان"، و"قالي هيرست"، "جي. جوليوس فورمان"، "والتر دامروش"، "كارل براندت"، "بيرسي ستكني غرانت"، "كريستوفر مورلي"، "السيدة فيليب لايدغ"، "والتر كينغسلي"، "آرنولد غنثه"، "ريكا وست"، وأعداداً من أساتذة الجامعات.

على وفق ما قاله "أوراغ"، الذي سبق أن ترك "العصر الجديد" وحركة الضربة الواحدة ليصير ذراع غوردجييف اليمنى، وأيضاً على وفق "أوسنسكي" و"كلود براغدون" وأعداد من الخبراء البارزين الآخرين وطلاب أمثال هذه الأمور، فقد كان غوردجييف وقتئذ يدير بنجاح قوات من "السحر الأبيض" في مجال السحر والتنجيم كانت أكثر لا اعتيادية بطريقتها من أي من هذه العروض المثيرة في (نيويورك).

كائنة ما كانت- أو مهما كان أساسها- فقد كان غوردجييف يمتلك القوة. على سؤال ما كانت وما الذي يمكن أن يكون أساسها، حددت سلفاً بوضوح بين حدود تشكيكي.

إنني أقدم الحقائق عن غوردجييف، وأتركك تكون آراءك الخاصة. إن العديد من هذه الحقائق عرفتها مباشرة، والأخرى عرفت بها من "أوراغ" وشركائه. والقليل من الحقائق والتواريخ انتخبت من مكتبة "نيويورك تايمز".

ولد جورج غوردجييف سنة ١٨٧٣، لأبوين يونانيين، في مدينة (الكسندربول) القفقاسية، ما جعله مواطناً روسياً.

جرى تعميده باسم جورج س. جورجياس". هرب إلى البحر في سن باكرة، وقضى لاحقاً سنوات عدة في (منغوليا الخارجية) و (التبت)، حيث قيل إنه كان ذات حين راهباً تيبتيّاً، وأنه قد تشرب الممارسات والتعاليم الغامضة للصوفيين، اليوغاويين، المولويين، الرفاعيين، وال دراويش الفرس.

وأستطيع أن أشهد، من معرفتي الخاصة، بأن غوردجييف يعرف عن صوفية الدراويش وسحرهم أكثر من أي رجل سبق لي أن قابلته خارج تكية للدراويش. أثناء الثورة الروسية والسنوات التي تلتها مباشرة، كان في (القسطنطينية)، في (لندن)، وأخيراً استقر في (فونتنبلو)، خارج (باريس)، حيث أسس المعهد الذي يقال إنه يمثل أول جهد منظم يجلب الممارسات المحصورة بفئة محدودة، التي طُورت في (الهند) و (التبت)، إلى العالم الغربي.

كان طلاب هذا المعهد المقام في قصر بديع مع ملحقاته*، على أرض رائعة، أناساً أغنياء، مثقفين، و- في حالات نادرة- مشهورين، وكان ثمة أيضاً عدد محدود من الطلبة المجانيين، رجالاً ونساءً.

كان الإيقاع، والطقس، والضبط الجسدي، يلعب دوراً كبيراً في الروتين في القصر. تبدأ الدروس تمارين رقصها عند الغسق، ويستمر بضع ساعات أثناء الليل. أثناء النهار، كان الطلاب- بمن فيهم أميرة أو أميرتان، كونتسات مصنّفات، وعدد من المصرفيين الأثرياء- يكسرون الصخور، يدفعون عجلات اليد، يعنون بالخنازير، يقلعون الأدغال، ويعملون في مهمات يدوية شاقة أخرى.

ثمة نظرية تقول إنهم، عندما يتعبون جداً بحيث يصير الانهيار وشيكاً كانت القوة تأتي من منبع داخلي للقوة الاحتياطية بحيث يحصلون على ربحهم الثانية"، كما يمكن تسميتها أو مهما كان ما يسمون به الريح الثانية على قمة جبال (الهمالايا).

قال غوردجييف باختصار مفيد ذات يوم، "إن تربية الخنازير واقتلاع الأدغال ميلان إلى تعليم الناس ممن رؤوسهم في الهواء بأن أقدامهم ينبغي لها أن تظل على الأرض".

* بالفرنسية في الأصل .

وهكذا، فقد كان يعلم الكونتيسات الخضوع والطاعة- ولكن كان عنده تعليمات أولية مختلفة للطلبة المختلفين.

كان غوردجييف، أوصل إخباركم، في تلك الأيام رجلاً عظيماً، وأظنه حقاً كان كذلك. فعلى سبيل المثال، في التعامل مع الطلاب الذين كانوا من نمط (نيو انغلند) الطهراني، القاسي، كان يوصي- بدلاً عن قلع الأدغال وتكسير الصخور- بـ "موسيقا هادئة وأنبذة معطرة!".

كان يقول: "اعرف بالطبع أن التسميم ليس جيداً دائماً- ولكن الرصانة ليست جيدة دائماً أيضاً.

إن هدهدة الموسيقى، وإيقاد المشاعر علاجان لا ينفعان على كل حال، مع كل طلابي.

وللآخرين كان يصف قسوة المعاناة، المصاعب، التعذيب- حتى بالسياط- وساعات طويلة من التأمل.

لقد تعلم غوردجييف، مهما كان تعلمه، من الغوامض المقصورة على فئة معينة في الشرق. لم يكن غوردجييف حكماً للألعاب الداخلية. كان يرفع الحرارة. في الوقت الذي كان الصحفيون الفرنسيون والبريطانيون والاميركان يسمح لهم بزيارة الموقع، وقد فعلوا في أحيان كثيرة، وكان عدد منهم لا يحبون بالتأكيد السيد غوردجييف، لم تربط بالمعهد أي فضيحة أو إشارة لفضيحة على الإطلاق.

عندما يتم ذكر غوردجييف وعبادته الفونتنبلوية فإن أول ما يحتمل أن يتذكره الرأي العام هو "أوه، نعم، المكان الذي توفيت فيه كاترين مانسفيلد". وهذا صحيح، لكنها كانت تحتضر من التدرن الرئوي قبل أن تذهب إلى هناك أصلاً.

كانت نقطة رئيسة في تعاليم غوردجييف هي تحطيم العادة، و- للمساعدة في إنجاز ذلك- كان كثير من الرقصات وحشياً وشاذاً في المدى الأبعد. ما دام كل امرئ يعرف أن الجنس لا "يُسببُ رأسه القبيح" قط في طريقة عمل* غوردجييف، ولكن بمعزل عن ذلك فالرقصات كانت تهجيناً من زهر تعاويذي في الغابة واحتفال معبدي لغوامص اليوسيس.

* لاتينية في الأصل .

إن الأطراف والعضلات والجسد قد ذهبت إلى هنا وهناك. ورقصاتنا البهلوانية في أفضل أحوالها وأكثرها زخرفة هي ديدان أرضية عديمة التصور بالمقارنة مع طلاب غوردجييف عندما يواصلون مسيرهم حقاً. إن عشرات منهم- وفي وقت ما كان عنده مئة تقريباً منهم- يرقصون متلفعين بأردية بيضاء، رمادية وقرمزية متطابرة. كان الموسيقيون مخفيين، والموسيقا غريبة جداً، شرقية، في بعض الأحيان صوفية وحسية، وفي أحيان أخرى وحشية وساحقة. وكان غوردجييف، السيد، يبقى خارج المشهد وراء ستار، ومن هناك يصدر إيعازاته. كان كل راقص فرد يستجيب للأوامر "كما تملّي عليه روحه".

كتب مراسل زاتزل "عالم" الأحد، وهو يصف هذه الأمسيات النموذجية: سَلِم رجال أعمال، مصرفيون، مثقفون، ممثلات، بارونات، كونتيسات، أصحاب ملايين، أنفسهم إلى الموسيقا. لدى إيعاز من غوردجييف وقفوا متصلبين تماماً بضع دقائق، ثم يدؤوا يحركون، في اتحادٍ أذرعهم في حركات منتحفة سريعة، ومفاصلهم تؤدي مفعول العمل على محل الكريات. أسرعّت الموسيقا وقعها، وكذلك فعلت الأذرع. تمايلت السيقان والأجساد، اهتزت الرؤوس بسُعر من جانب إلى جانب. عملت الأذرع والسيقان، الأيدي والرؤوس، باستقلال تام بعضها عن بعض، وبدا كل راقص وكأنه ينفذ سلسلة من الحركات التي تختلف عن حركات جاره، ومع ذلك، كان التأثير الكلي للمجموعة منسجماً فيما كانت تنتقل بسرعة كهربائية من نموذج معين إلى آخر. ارتفع صوت الموسيقا. ولدى إيعاز آخر من غوردجييف توقفت الموسيقا فجأة ووقف الراقصون كما لو أنهم تحجروا في أوضاع غريبة حتى حرّره إيعاز آخر. كان واضحاً أن تلاميذ غوردجييف يعملون بمنهجية، تحت سيطرته، ليحطموا كل عاداتهم، الجيدة والسيئة معاً، محررين- عن هذا الطريق- حيواتهم من عبودية الإنسان العادية الاعتيادية للعادات. كانوا يحيون حياة مشاعية. لم يعتبروا تمارينهم الموقّعة طقوساً أو مراسم. كانوا يعتبرون الحياة المشاعية ضرورية لإنتاج شكل عالي التركيز لكل الاحتكاك، كل ردود الفعل، السعيد وغير السعيد، التي تعرض في الحياة الاعتيادية.

كان عدم المبالاة بردود الأفعال هذه أحد أهدافهم.
كان يبدو أن جوهر التعليم هو أن الماكينة الجسدية تُجعل - عبر الجهد البدني الكثيف، الصيام، والتمارين المعقدة - مطيعة ومستجيبة للإرادة بشكل كامل. كانوا يؤمنون بأن الفرد، إذ يفعل هذا، يصير مالك ملكات تتجاوز كثيراً ملكات الرجل المتوسط.

إن الاستبصار والقدرة على الرؤية عن بعد والقوة لمعرفة ما يفكر به الآخر وقدرة التخاطر، يفترض أن تكون بعض الإنجازات، وكذلك، الرؤية الأوسع للعالم.
قال غوردجييف: "إن عشنا أياماً هادئة رتيبة وليالي مسالمة فسنفسد من الأفضل أن نعذب أرواحنا ذاتها من أن نتحمل تفاهات الهدوء".

ولهذا كان حواريه يتم إيقاظهم في كل ساعات الليل، على نحو مفاجيء، وقد تعلموا أن يبقوا متجمدين في الأوضاع نفسها التي تصادف أن كانوا واقفين أو واقعين بها عندما قفزوا خارجين من الأسرة.

كنت سأتمتع بأن أكون غوردجييف في تلك الأيام. لقد كانت عندي قائمة كاملة من الأصدقاء بمن فيهم اثنتان، من سيدات "النهر" القديمات، جيليتان وعزيزتان، استمتعت كثيراً بأن كانتا لديّ بين مجموعة كهذه.

لست واثقاً ما إذا كنت سأهتم بأن أكون واحداً من حواربي غوردجييف. كان للرجل قوة. ولكن ما إذا كان قادراً على نقلها للآخرين فتلك مسألة أخرى.
بدا لي أن الحواريين عندما يدخلون طائفة غوردجييف إنما يضحون بإرادتهم وشخصياتهم، بدلاً من أن يُثروها.

أعرف، بالطبع، إن سادة أعظم من غوردجييف (بمن فيهم حقاً "السيد")، كانوا يعلمون فلسفة عميقة ومساوية في وضوح التناقض. ولكن قدرتها الصوفية، مثل كل شيء تقريباً في دنيا الـ "السحر الأبيض"، في عالمنا الحديث تبقى سؤالاً مفتوحاً.
كانت إحدى أقوال أيوب المحتفى بها، التي من الواضح أن صديقي غوردجييف لم يقرأها قط، هي:

"ليت خصمي كان قد كتب كتاباً!".

كلما فكرت بهذا القول تتحسن الحال - كما يمكن لهذه الحادثة المتعلقة بغوردجييف أن تُصور.

عاد السيد غوردجيف إلى نيويورك في كانون الثاني ١٩٣١، استأجر عدداً من الشقق الفاخرة في الرقم ٢٠٤ غربي الشارع التاسع والخمسين، وتلفن لي ذات يوم أنه قد ألف كتاباً. كان يعرف أنني أحبه.

لم يكن قد كتب كتاباً فقط، ولكنه تاق- كما يفعل الكتاب الهواة في أحيان كثيرة- إلى أن يُقرأ بعضه بصوت عالٍ لمجموعة من الناس قد تكون قادرة على تقدير جماله وحكمته.

كان دائماً يفعل الأمور بالأسلوب العظيم. طلب مني أن أدعو قدر ما أشاء من الأصدقاء المختارين، إلى مجمّع شققه في ليلة معينة، من أجل القراءة، وللاستمتاع بطعام الليالي العربية الخفيف بعد ذلك كنت أعرف أن العشاء سيكون ممتازاً، وأحسست أن من واجبي أن أختار أصدقاء أذكاء فقط لسماع القراءة.

ولقد اتهمت فيما بعد بأنني انتخبت أفراداً كان ذكاؤهم، من غير ريب، من فئة متصلبة. لو أنني فعلت ذلك، فقد كان ذلك لتملق السيد غوردجيف. من بين أولئك الذين جاؤوا، أذكر خصوصاً السلوكي "جون واطسون" من (جون هوكينز)، المحروم "لينكولن ستيفنس"، و"وليام بيبيريل مونتانخ" واثنين آخرين من "براغماتي كولومبيا"، و"جورج سيلدس" (دعوت أيضاً "غيلبرت" وبدا لي أنه جاء لوقت قصير)، و"هارل هيلم" من صحيفة "السن"، واثنين من سايكولوجيي "هارفارد"، والخب. وكان من بين السيدات "ايريتا فان دورن"، "كلابر سبنسر"، "فيرجينيا هرش" و"بلاير نايلس".

كانت الليلة- بمعزل عن البطيخ الجزائري الرائع، والباذنجان المحشو، وأوراق العنب الملفوفة، وأوعية الطبخ الضخمة من الماعز، أو كائناً ما كان، المطهر بالغلي البطيء، كل ذلك ببهاء بغدادي- إخفاقاً كاملاً، على أنها كانت مؤدبة وودية دائماً.

قرأ لنا حواريون وسكرتيرات أقساماً مطولة من قطع معنونة مؤقتاً بـ "نقد لحياة الإنسان، أو حكاية بيلزبوب لحفيده".

وفي وقت متأخر من السهرة بدأ السيدان ستيفنس وجون واطسن يتهاامسان. في هذه الأثناء قال السيد واطسن:

"إما أن هذه مزحة متعمدة وماكرة تَغْمُض علينا النقطة الرئيسة فيها تماماً، أو أنها هراء عابث. في أي حال، لست أرى الكثير مما يمكن كسبه من سماع المزيد منها.

اقترح، إن كان السيد غوردجييف موافقاً، أن نتحدث بعض الوقت". وهكذا، فقد انعتقنا جميعاً، وتحدثنا، وتناولنا العشاء الآن، في ودّ متساو من جانب كل من المضيفين والضيوف.

كان السيد غوردجييف أكثر ذكاءً، وأسرع خاطراً مما كانت المخطوطة. كان مقبولاً جداً، متوقد الذكاء جداً، وعذب المعشر جداً، بحيث إن ستيفنس واطسن مونتاغ وكل الباقين وضعوا فيه ثقتهم الكاملة وأوضحوا بالإجماع إيمانهم بأن مستقبله - ما لم يكن يحاول أن يغطيه بنكتة فضفاضة من نوع ما لم يتضح بعد مغزاها - لا يمكن في الكتابة. اقترح غوردجييف أن فحواه ربما كان أعمق كثيراً بالنسبة لفهمنا المحدود.

كان ثمة اختلاف في الرأي بين أصدقائي بعد أن انصرفنا فيما يتعلق بما إذا كنت مارست عمداً لعبة على غوردجييف في اختيار سامعيه - أو ما إذا كنت وغوردجييف نتآمر لنجعل منهم قردة من أجل ليلة ممتعة - أو ما إذا كان السيد غوردجييف يسخر منا جميعاً.

أنا نفسي لست واثقاً. بقدر ما اعرف، لم يتوافر بعد ناشر لـ "حكاية بيلزوب". إن غوردجييف رجل عظيم ولكنني أشك في أن يكون مجال عظمته هو الأدب المحض*.

ولقد كان لقائي الأول به "آليستر كراولي" عن طريق المرحوم "فرانك هاريس"، حوالي سنة ١٩١٧، في نيويورك

كان هاريس قد أنهى كتابه عن سيرتي حياة شكسبير و"اوسكار وايلد"، لم يكن بعد قد لوّث نفسه بكتابه "حياتي وغرامياتي"، وكان يحرر مجلة بيرسون*.

كان يعيش برخاء في واحد من البيوت ذوات الفيرندات بالجادة السابعة، في قرية غرينتش التي كانت لا تزال تضم "ثيوردرايسر" في منخفض غربي الشارع الثاني عشر، و"ادنا سانت فنسنت ميلاي" المقيمة في صف المباني ذاته، و"سينكلير لويس" في ستوديو من طابقين في الشارع العاشر، و"يوجين أونيل" الذي ينتج مسرحياته في "بلاي هاوس البروفنس تاون" إلى الجنوب من ساحة واشنطن.

* المقصود هو الأدب بوصفه فناً جميلاً .

كنت قد خدمت فترة مع الفرنسيين على الجبهة الغربية، وأصبحت بالغاز في (فردون)، وشفيت بما يكفي للعودة إلى الوطن وبدء الكتابة من جديد. وكان "آليستر كراولي" - وهو إنكليزي غريب كرس جزءاً من عمره لـ "السحر الأبيض" وكان يتهمه أعداؤه الكثير، عن جهل، بممارسة السحر الأسود أيضاً، يعيش في الرقم واحد من (ساحة الجامعة)، الأمر الذي كان يسبب رعباً صارخاً لسيدتين تقليديتين من الجنوب كانتا أجرتا له الطابق الأرضي.

كان رجلاً كامبرديجياً، شاعراً مبرزاً، مذكوراً في كثير من المختارات الأدبية البريطانية، بما فيها "كتاب اوكسفورد عن الشعر الصوفي". كان قد ذهب إلى الهمالايا بوصفه متسلق جبال، ويفترض أنه كان درس التراث التيبتي. ووفقاً لما ذكرته الـ "مانشستر غارديان"، فقد قاد حملة استكشاف لصعود (كينشينجوانا)، على بعد مئة ميل إلى الجنوب الشرقي من جبل (افرست).

هاجمت البعثة الوجه الجنوبي للجبل، فوق (مجلدة* يالونغ)، ولكنها واجهت كارثة. اكتسح انهيار ثلجي واحداً من المتسلقين وعدداً من الحمالين. كان كراولي إما نصف إيرلندي أو متعاطفاً مع الإيرلنديين، وكان يشجب إنكلترا أثناء الحرب العالمية بوصفها "مصاصة دماء بين الأمم".

كان يعتبر موالياً للألمان، وقد تعاون فترة مع جورج سيلفستر فيريك في "شهرية الوطن الأم والألمية". وقد تركتني هذه الأمور غير مبال ولم أكن مهتماً قط لا حينذاك ولا بعدئذ بأي منها. كنت أريد ملاقة كراولي لأنه كان يعتبر حجة في سحر القرون الوسطى، وقد ابتهج عندما دبر فرانك هاريس "اللقاء".

تقابلنا على الغذاء في مطعم (موكان). كان آليستر كراولي رجلاً غريباً باعشاً على الارتباك، على حال من الفخامة الثقيلة المخلوطة بقدر كبير من المزاح الماكر، الشبيه بمزاح القروء، والحقود أحياناً. كان يضع نجمة ياقوت أزرق هائلة الحجم على سبابة يده اليمنى، وقد حلق رأسه حينذاك تماماً على طريقة "اريش فون ستروهايم". وقد أنشأ لاحقاً عراكاً أميركياً هندياً كان منطقياً قليلاً وجعله يشبه إلى حد ما

* نهر جليد .

(بوجهه المستدير، المحلوق ناعماً، وعينييه الكبيرتين المدورتين) الولد المؤذي لدار حضانة متكرراً على هيئة "مفيستوفليس".

تركني الحديث على ذلك الغذاء فاغر الفم. كان فرانك هاريس أحد أعظم المتحدثين في هذا القرن أو أي قرن آخر، وكان كراولي يتكلم مثل ألعاب باني" النارية. لم يُذكر أي سحر لا أسود ولا أبيض، حتى آخر الغذاء، عندما قال كراولي إنه قد سمع أنني مهتم بالسحر، ودعاني لزيارته.

تلفت في وقت متأخر من صباح أحد الأيام، وحصلت عليه في البيت وذهبت إليه قبل الغذاء. لدى دخول غرفة المعيشة الفسيحة، جرى تقديمي إلى شابة تسمى ليه هيرسيغ". كان ذلك في الأقل، كما عرفت لاحقاً اسمها في دليل التلفون وفي العالم البارد في الخارج. هنا في قلعة الساحر الدافئة البديعة، كانت عارية كطائر الزرياب*، وغير مبالية كطائر الزرياب.

لم يكونا من أنصار التعري. لم يكن الأمر من هذا القبيل إطلاقاً. فهمتُ بطيئاً أن "ليه" كانت كاهنة كبيرة، وأنها كانت تتحول أحياناً أيضاً إلى "عشتار"، "عشتروت"، و"ايزيس" وبما أن هاته كن إلهات لهن سوابق تمتد مئات القرون، فإن عدم إحساسها بالحرّج صار أيسر فهماً.

لكن ما بقي مدهشاً، إلى أن فسره مضيفي الرقيق، كان الشيء الوحيد الذي نرتديه. لم تكن تستطيع، على نحو جيد، أن تتجنب ارتداءه، لأنه كان قد وُسم إلى داخل بشرتها البيضاء بحد سيفٍ صيني محمي حتى الاحمرار: على ثديها كانت تحمل نجمة، تشير إلى جرة المخلل، كما فعلت نجمة الملك "وليامز" الشاب. كان السيد "ثيريون" (الذي هو كراولي) قد قام بعمل فني مرتب بهذا الشأن، وبعد أن يتغلب المرء على الصدمة الأولى، يجد ذلك مجملاً نوعاً ما لفتنة الكاهنة العليا.

بعد الزيارة الأولى تمكنت أن اعرفهما كليهما جيداً جداً، وعلى مدى وقت طويل. كانت لكراولي عبادة، مع أتباع وحواريين. لم يسع قط لجعلي عضواً فيها. لقد قبلني بصفي زميلاً في السحر متدرباً، ولقد حضرت عدداً من احتفالاتهم.

* أو : القيق ، أو : أبو زريق . وهو طائر كالغراب في مؤخر رأسه قنزعة ريش .

كانوا من نبط "الباحثين عن الكأس المقدسة"*، في الغالب. كانت بعض التعاويذ جميلة جداً، وكانت له "تصنع ترابطاً ممتازاً ما بين الكاهنة العليا والآلهة. إن الجزء الطقوسي من حذلقات كراولي واقتباساته المختصرة غير نافعة لأغراض هذا الكتاب. ثمة المئات من عبادات كهذه، هي في الأغلب غير مضرّة وعموماً متعبة عندما يكون المرء قد رأى الكثير منها وكان ما يهمني في أليستر كراولي هو الشيء ذاته، أخيراً، الذي أثار اهتمامي بالسحرة- الأطباء الأفارقة وفيما بعد بغوردجييف. وراء الهذر السحري، سواء على رغم الهذر السحري أو بسببه، كان لأليستر كراولي قوة.

وسواء أكانت من نوع القوة الجدير بالامتلاك أو نوعاً يمكن أن يكون له إطلاقاً- في أيدي أي كان- أي أثر عميق على العالم، أو ما إذا كان يستخدمها دائماً بنزاهة، فتلك مسائل خارج أي صدد أريد ذكره. ولا أظهار بأنني أوضحه. إنني أفضل أن أروي عدداً من الأحداث التي كان لديّ عنها معرفة شخصية وثيقة. ستلقي هذه بعض الضوء على ادعائي بأنه كانت لديه قوة، وقد تلقي ضوءاً أيضاً على سبب كتابتي بأريحية عنه. أثناء سنواته في أميركا، كان أسقفيّاً جزئياً وجزئياً نسناساً وجزئياً مطراناً، إن كان أي رجل على الإطلاق فقد كان كل هذا. أتذكر أن سيدنا ثيريون جمع أتباعه حوله ذات صيف، وأعلن أن كواكبه كانت على الاقتران الفلاني في منطقة البروج، وأن الوقت قد حان بالنسبة له ليدخل فترة انسحاب أمدّها أربعون يوماً إلى الـ "برية" من أجل الصلاة والتأمل الصوفي. كان الطقس حاراً كالجحيم في نيويورك، وكانت فكرتي الخاصة أنه كان يريد ببساطة أن يذهب إلى الريف.

صادف أنه كان يفتقر إلى النقد في ذلك الوقت، ولم يكن الصيام لمدة أربعين يوماً

* هي الكأس التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس وراح المسيحيون يبحثون عنها .

١ - لقد كتب أليستر كراولي نفسه مئة مجلد أو أكثر عن التقطتين . وقد كُتب عنه ما لا يقل عن عشرة كتب . بما فيها سيرة حياة أدبية سميت "نجمة في الغرب" ، كتبها اللواء "جي . اف . سي . فولر" ، الذي صار بعد سنوات واحداً من الإنكليزيين الوحيدين اللذين دعيا إلى حفل عشاء عيد ميلاد هتلر الخمسين . وقد نشرت الصحافة البريطانية ، خاصة الـ "دايلي اكسبرس" ، الـ "دايلي مايل" ، والـ "دايلي تلغراف" . أطناناً من المواد عن كراولي ، الشاجبة في الأغلب .

وليلة جزءاً من برنامجهم. قررنا أن ندعمه مالياً ليقوم برحلة تخييم، إلى أعالي (نهر هرسون): حصلنا له على كُنُوءٍ وخيمة، وزودناه ببعض المال وقائمة من الأغذية الأميركية المعلبة، وهي التجهيزات التي كان يتعين أن يذهب لشراؤها في اليوم التالي. كان المفروض أن تذهب هذه، إلى جانب الكنو والخيمة، على مركب (ألباني) النهاري، وكنا سنهبط لنودعه في الصباح التالي. عندما وصلنا إلى هناك، كان مسروراً جداً، بادية عليه معالم الأهمية الزائدة، وهو يشرف على تحميل التجهيزات.

كانت "التجهيزات" تبدو مرببة، وبما أننا دفعنا لقاءها، فقد قررنا أن نفحصها. كانت تتكون من خمسين غالوناً من الطلاء الأحمر، وثلاث فراشي دهان بيوت كبيرة، وشدة جبل ثقيلة تحرينا أكثر.

لم يكن قد اشترى حتى علبة فاصولياء أو رغيف خبز. كان قد نسف كل سنت على الطلاء الأحمر. لم يكن عنده شيء في جيوبه عدا التذكرة للسفر في النهر صعوداً. سألته:

ما الذي ستأكله، للتذمر بصوت عالٍ؟"، وأجاب، بحالته الأكثر ثقلًا:
"يا أبنائي، إنني ذاهب إلى جزيرة ايزوبوي"، وسيتم إطعامي كما أطعمت الغريان السوداء النبي الياس". فصرخنا، فيما كان المركب يمضي مبتعداً:

"استعد في عربة نار، أو في عربة نقل السجناء؟"، ولوح لنا مودعاً، بتكشيرة.
إن مزارعي أعالي ولاية نيويورك مجموعة يصعب على أيّ كان أن يجعل منها موضع سخرية، أو يتلاعب عليها- ولكن المزارعين المجاورين أطعموا أليستر كراولي طيلة الأربعين يوماً. وفي آخر الأربعين يوماً رأى كل سياح الصيف الذين كانوا يصعدون النهر وبهبطونه، علامتين هائلتين مخطوطين على جروف (جنوبي كينغستون):

كل رجل وامرأة ستارة!

افعل ما شئت هو كل القانون

كان قد ألبس نفسه شبكة حبال، وراح يدهنها، كما قيل لنا، من مطلع الشمس حتى غروبها. وبعد ذلك جلس متصالب الساقين على الأرض مقابل خيمته، في حين كان الجيران- سواء أاعتبروه نبياً عظيماً أم نزقاً غير مؤذ- يجلبون له البيض والحليب،

وفي بعض الأحيان الذرة السكرية. حين كانوا يمرون في الصباح التالي، في بعض الأحيان، كان هو لا يزال جالساً مثل صنم، والبيض والحليب لم يُمسّا. كانوا يقولون إنه يأكل بتقدير مرة كل أربع وعشرين ساعة، وكان غير معروف متى ينام- ما لم يكن ينام وهو جالس كبودا في وضع زهرة اللوتس.

لم يقم بأي مسعى للمتاجرة بالشعارين المطليين على الصخرة، أو يستجلب النقد لقاءهما أو يحصل على اعتبار مالي من ورائهما.

كان أراد أن يصبغهما هناك، وذلك كل ما في الأمر.

عاد آ. ك. إلى نيويورك في أيلول، ملوحاً بالشمس، أعجف، ذا لياقة، وفي مزاج بديع الجودة. كان المعارف الذين لم يكونوا من بين المنقلين إلى ديانتهم يقولون إنه مجنون جنوناً مطبقاً. وفكرت كذلك، إلا أنني تذكرت أن الرب "غاوثاما" قد جلس على تلك الشاكلة إحدى عشرة سنة.

كان ذلك جنوناً في عصر السيارات والطائرات، أنا أوافق على ذلك، ولكنه كان شيئاً ما.

في اليوم التالي لعودته إلى نيويورك دعوته إلى غرفة الشواء في الـ (بلازا)، للغذاء، حيث أمتع نفسه بصغار السمك، اللحم المفروم المحمّض، كيك القشدة، وفوقها براندي نابليون*- ثم أرث سيجاراً موشعاً*. قلت:

"ما الذي يحصل عليه، غير تنظيف قولونك وإزالة الوزن عن بطنك؟".

"لقد حصلت على قوة أعظم. فسألت:

"أي نوع من القوة؟"، وأجاب: "ربما أمكنني أن أريك"، فقلت: "إنها تُفعل في

الظلام، أو من وراء ستار، أو بأشباح، لن أصدقها".

فقال، كما لو كان يضرب عن الموضوع صفحاً (أو أكان يضرب حقاً؟).

"إنه يوم صاح بالشمس، براق. افترض أن نتمشى في المتنزه في ضوء الشمس"،

فقلت:

"أو أن أقف في محل "برنتانو". افترض أننا نمشي هابطين الجادة الخامسة بدلاً عن

ذلك، فأجاب:

* سيجار غليظ مستدق الطرفين يشبه الوشيعة .

"أينما تشاء".

وتمشيناً. كانت الجادة مزدحمة. وقال:

"على صف مبان، حيث يخف الزحام قليلاً، سأريك".

تريني ماذا؟".

فردَ بجلال:

"سأريك".

بدا الزحام أخف أمامنا قبالة المكتبة العامة، وفيما عبرنا الشارع الثاني والأربعين، لمسني آ. ك. خفيفاً على المرفق ووضع أصابعه على شفتيه. كان يتمشى أمامنا سيد طويل يبدو ثرياً، لاهياً، وسار كراولي- الصامت مثل هر- وراءه مباشرة منسجماً مع مشيته. بدأ وقع خطاهما يتزامن، ثم لاحظت أن كراولي، الذي يمسك نفسه، عموماً، منتصباً بتفاخر، ويميل إلى الاختيال في المشي، قد هدل كتفيه، دفع رأسه قليلاً إلى أمام، وقد بدأ يهز ذراعيه في تزامن تام- صار من الكمال الآن بحيث إنه صار مثل متحرك أو شبح وهمي للآخر.

وفيما اقتربنا من صف المباني، جعل آ. ك. ركبتيه، فجأة- وهو يخطو خطوة متقدمة- تنطويان تحته، بحيث إنه سقط، أقام نفسه على وركيه، وانتصب ثانية على الفور، ماشياً.

سقط الرجل الذي أمامنا كما لو كان ساقاه قد أطلقت عليهما النار من تحته... وراح يدبّ. ساعدناه على النهوض، فيما تجمع حشد. لم يكن أصيب بأذى. شكر لنا، وراح يبحث عن قشر موز. لم يكن ثمة قشر موز. واضعاً يده على كتف أحدهم، نظر إلى نعلي حذاءيه. كانا جافين. نفض نفسه، استعداد قبعته، اختبر ساقيه بتوجس، شكر لنا، وواصل المشي.

أظنني أعرف الأجوبة كلها. أسهلها أن السيد كان أداة. لكن المشكلة الوحيدة في ذلك هي أنني كنت أنا من اقترح الخطو هبوطاً على تلك الجادة، وكنت إلى جانب آ. ك. منذئذ. وعلى كل حال، فإن السيد- لو كان آلة- كان بإمكانه أن يتسكع خارج ال (بلازا)، منتظراً إشارة ما. إن التعريف عنه، وشهادات قَسَمه المكتوبة ما كانا ليساعدان قط، ما دام أنه ربما كان ممدداً إن جحيم كل هذه المادة هو أن شيئاً من ذلك النوع هو دائماً الجواب الأسهل.

والجواب الآخر هو أن السيد، من دون أن يعي، وقد سمع الصوت الخابي لوقع خطي كراولي الشبيهة بخطى الهر، متداخلاً في تزامن تام مع خطاه، ماهي الإيقاع من دون وعي مع إيقاعه هو، وقد سقط عندما انقطع الإيقاع بعنف.

ثمة عدد من التنويعات لذلك السؤال، مدققاً قليلاً، ولكن لا يزال تاركاً الظاهرة في ميدان الحس. ومع ذلك، فإن جواباً آخر هو أن كراولي كان يمتلك قوى فوق طبيعية، كان يولد ويبث انبثاقات فوق طبيعية وفائقة الحسية. اظنني أعرف كل الأجوبة- ولكنني غير مقتنع بأي منها.

وفي صيف تال- كان حوالي سنة ١٩٢٠- دعوت آ. ك. ليقضي قموز وآب معي في مزرعة قريبة من (آلاتتا). انصرفنا إلى الحديث ذات ليلة عن الرهبان اللاترايين*، عن ندور صمتهم والخ... فاقترح أن نحاول تنويعاً جالباً للاهتمام. اقترح أن نحدد، لمدة أسبوع، كل التواصل اللفظي وكل المحادثات إلى مقطع لفظي واحد مسبق التنظيم. جربنا العديد، جربنا مقاطع مفردة حيوانية مختلفة، بما في ذلك "أرر"، "ووف"، "مو"، "با"، واستقرنا أخيراً على "واو".

بقينا على ذلك الأسبوع كله.

كانت كاتي متسلية ومتحملة، والزوار يتساءلون ما إذا كان أصابنا الجنون، في حين كان "شب" و"قوني"- خادمانا الزنجيان- مقتنعين بأننا إما انضمامنا إلى، أو أسسنا فرعاً لديانة جديدة. عرفنا في البضعة الأيام الأولى، أو اعتقدنا أننا عرفنا، قدراً كبيراً عن الحال التي تتواصل بها الحيوانات فيما بينها. ولقد تساءلنا، كلانا، كم سنتواصل، بمجرد تغيير طبقة الصوت، نبرته، والخ... بعد أن صرنا جيدين جداً، أو تصورنا أننا صرنا جيدين، في: "هات الزيدة"، "لا أريد المزيد"، "أتحبين أن تتمشي؟"، "تلك فتاة جميلة"، "إنه صباح بديع"، "نعم"، "لا"، "ربما"، "أحب ذلك"، "لا أحبه"، "عليه اللعنة"، "أليس مدهشاً؟"، وأشياء أساسية من ذلك القبيل- صادف أن "شب" جلب لي ذات ليلة غالوناً من ويسكي الذرة.

جلسنا أنا وآ. ك. تلك الليلة، شربنا معظمه، وأجرينا حواراً فلسفياً عميقاً

* ينتمون إلى دير الممتنعين عن الكلام .

مطولاً، بلغة الـ "واو" حتى بواكير الصباح الأولى، عندما جعلتنا "كاتي" أخيراً نلزم الصمت ونمضي إلى النوم.

وهي لا تزال تصر على أننا سكرنا وجلسنا أحداً ينبح على الآخر الليل بطوله، ولكنني وآ. ك. أحسنا بأن الكلام كان عميقاً ومنيراً.

وعلى أية حال فهو كان نافعاً، لأنني كتبت فيما بعد فانتازيا حول ما يمكن أن يحدث لو أن اللغة البشرية، أزيلت، بعثها إلى "ه. ل. منكن". كانت بعنوان "ولو"، وقد ظهرت في عدد من المنتخبات.

ذهب آ. ك. فيما بعد إلى (صقلية)، أخذاً كاهنته العليا "ليه" معه، اشترى ما يعادل ديراً قديماً وأراضي في التلال قريباً من (سيفالو)، خارج (باليرمو)، وجمع بعض الحوارين من إنكلترا وأميركا، وأسس هناك كلية روح قدسه الخاصة.

كنت في أفريقيا مرة أخرى عندما وقعت الحادثة التعيسة للشاعر الاوكسفوردي الشاب والقطعة، ولكن عندي معرفة أوثق عن مأساة أخرى تعلقت بمثلة اميركية مشهورة إلى حد ما مثلت أدواراً في (برودواي) وفي (هوليوود).

لا تحوي القصة أي شيء قد يسبب تشويه سمعة لأياً كان - بل على العكس! - وقد أعارتني يومياتها التي تغطي كل فترة (سيفالو)، مع الإذن بأن أقتبس منها، ولكنها رجنتي ألا أذكر اسمها.

كانت تعاني، كما تعاني خيرة ممثلاتنا، أو كن يعانين من فورات الغضب من عاطفة غير مقابلة لـ "هوراس ليفررايت"، "جد هاريس"، "ماكس ايستمان"، "ماكس بودنهايم"، أو بعض الرجال الميتين فتنة، المثقفين لعصر حانات تهريب مشروب جن مغطس الحمام، من الجزع، وبعض العقارات المسكنة الأخرى التي كنت أظنها تشمل الباريتال*.

كانت قد التقت آليستر كراولي، وعانت أيضاً من فضول بشأن مسائل السحر القديم، وبديلاً عن الانتحار فقد انتقلت لتصير واحدة من حواريه أثناء الصيف.

* ذرور أبيض متبلر يستعمل منوماً .

لم يكن ما وقع بعد أن قُبِلت في كلية الروح القدس واتخذت مسكنها في (دير ثيلما) ، شيئاً مما سبق أن توقعته.

على رعن صغير معزول لجبل صغير ضمن أراضي الكنيسة، ومطلاً على البحر، نصب "السيد ثيريون" المعادل الصقلي لخيمة- بيت كلب، وهي مأوى راعٍ، مستندة على أعمدة مسقوفة بالقش، ليست أكبر من حقيبة الملابس التي جلبتها عبر المحيط.

ووراءها، حفر حفرة صغيرة لتكون مرحاضاً ثكنة. وكان ينبغي أن تقتصر خزانة ملابسها ومعدات تخييمها على روب حمام ليغطي عريها إذا ما أحست برداً في الليل، أو عند هطول المطر. كان رويأ هائل الحجم، خشناً من الصوف له قلنسوة. لا سرير، لا كرسي، لا مصطبة، لا قش، لا بطانية، لا وسادة- لا مواد زينة، لا كتب، لا أوراق لعب، لا ألعاب.

قال "السيد ثيريون" إنها ستكون لها الشمس والقمر والنجوم والعالم لتقرأها وتلعب بها.

كان عليها أن تبقى على تلك الصخرة وحيدة طيلة شهر. ما كان سيصعد أحد إلى هناك فيما عدا صبي صغير يأتي بهدوء ليضع رغيف خبز خشناً، عنقود عنب، ووعاء ماء، كل ليلة حين تكون نائمة.

أخبرت "السيد ثيريون" أنه مجنون، ف أخبرها أن ثمة قارباً يتوقف في اليوم التالي عند (باليرمو)، وهناك توجد حقيبة ملابسها غير المفتوحة، وكان هناك الباب المفتوح، والتلفون- ولكن عندما يكون القارب قد أبحر شمالاً فستكون جالسة عارية في الأعلى هناك على الصخرة تراقبه إذ يختفي.

ولمدة شهر!

ما هذه اللعبة الفاضحة التي تقولها؟ فلننظر إلى الأمر دقيقة. إن فظائعها تجمع غذاءً تقشيفاً متوازناً على نحو كامل، علاجاً بالراحة، حمامات شمس، علاجاً بالهواء الطازج، إقامة على ساحل البحر المطل على أحد أجمل خلجان الدنيا.

تولت أن تجربته، وفعلت ذلك. ولقد اغفلت أن أذكر أنه بعد انقضاء سبعة أيام، سيتم إرسال قلم رصاص إليها مع الصبي، لكي تتمكن من كتابة يوميات.

كانت اليوميات مثيرة للاهتمام من عدة جوانب. ربما كانت الخطوات المتوالية التي تبنيها هي أكثر شيء إثارة للاهتمام فيها:

أثناء الأيام الأولى كانت عصبية، غير مرتاحة، غاضبة وسريعة الامتعاض، ولكن عازمة على تحمل المشقات حتى النهاية.

ثم صارت، لفترة، مجرد عصبية كما كانت، ولكن أكثر راحة، ولم تعد غاضبة أو سريعة الامتعاض، ولكنها بدأت تسأم.

ثم صارت، لبضعة أيام، "هادئة، ولكن سئمه".

كان السأم- وليس الصعوبة وانعدام الراحة، اللذين لم تعد تحسهما- هو الذي أغراها، عندما انقضت تسعة عشر يوماً، على التخلي عن الأمر.

تحملته حتى النهاية، وعاشت خلال الأيام العشرة الأخيرة "هدوءاً تاماً، متعة عميقة، تجدد قوة وشجاعة"، كما تعبر هي عنها. كانت قد "أطلقت نفسها" في نيويورك، وقد "أمسكت بنفسها ثانية" هناك، على الصخرة. وكذلك، بشأن الغذاء المحدود، الألعاب الجம்பازية المفروضة ذاتياً، الشمس والهواء، كانت قد "فقدت ستة عشر رطلاً في الأماكن الصحيحة"، الأمر الذي كان بلا شك السبب في "متعته العميقة".

هبطت عن الصخرة، وبقيت في المستعمرة أثناء الصيف. درست أساساً السيطرة على الذات والتدريب على منابعها الداخلية وقوتها الاحتياطية، وعادت إلى (برودواي)، واستأنفت مهنتها.

كانت أساليب السيد ثيرون" قد تنكّتهت بالهراء الدرامي، ولكنني أشك فيما إذا كان "بيل براون"، أو المرحوم مولدون"، أو أشباههما الأكثر رشداً واستقامة وغلاء، الذين ترعاهم سيدات ثريات، يمكن أن يكونوا قاموا بعمل أفضل.

بعد وفاة الشاعر الاوكسفوردي الشاب والرياضي "راؤول لوف داي" (فردريك تشارلز)، بعد أن كان قد ضحى بقطة على مذبح عبادة سيفالو وشرب كأساً من دمها، أثارت أرملة الشاب، "بيتي ماي لوف داي"، الموديل السابقة، ضجة بمعونة الصحافة البريطانية. وفي ربيع ١٩٢٣، طرد الفاشست أليستر كراولي من الأراضي الإيطالية.

أثار ضجة مضادة بدعاوى تشهير ولكنه لم يحصل على تعويضات.

إن من قرؤوا الـ "دايلي ميل" و"دايلي اكسبرس" و"التلغراف" قد يحسون إيماناً من جانبي بأن الشيطان ليس دائماً بالسواد الذي يُرسم به"، أو- إذا لم يكن إيماناً، فهو رغبة من جانبي في تبييضه قليلاً.

بدلاً من استخدام فرشاة تبييض على السيد "ثيريون"، ما دام قد أصر دائماً على أنه ساحر أبيض على أية حال، فإنني أتصور أن قول الكتاب المدرسي القديم المأثور قد يكون له تأثير على القطة. لقد أكلت القطط في (نابولي) والزواحف في (ساحل العاج). وقد أكلت كذلك شاباً مطبوخاً بالغلي البطيء. لقد شربت دم الأضاحي من الماعز والثيران عند مذابح الودونية، وقد رأيت من هم أفضل مني، اللابسين الرداء الكهنوتي الأبيض يشربون من كأس على المذبح الأعظم، سائلاً يؤكد أي ناس أحكم وأفضل مني أنه قد استحال على نحو إعجاذي إلى دم رجل صار إلهاً ذات مرة. كما رأيت كذلك عمتي من (هاوكينسفيل) - (جورجيا) - تركع أمام أحد أشباه المذابح العظمى هذه وتأكل مادة كانت تعتقد أنها جزء من جسد الإنسان. كان أعظم الإغريق وأنبلهم يضحون عادة بالطيور والحيوانات، و- على نحو أكثر ندرة- ببناتهم، ويستشيرون الأحشاء التي تغلي.

وهكذا، فإذا كان أليستر كراولي وحواريه راؤول لوف داي" اختاراً- وهما يؤسسان ديناً جديداً- أن يقتلوا قطة ضالة ويشربوا دم حياتها، يبدو لي أن ذلك ليس من شأن أحد ما لم تفضل الجمعية الإيطالية للرفق بالحيوان التدخل. ولو أن ذلك تسبب في مرض "راؤول" فيما بعد، يبدو لي- على نحو مشابه- إن ذلك كان سوء حظ الشخص.

وعلى كل حال، فإن المرء لا يكاد يتصور موقفاً إلى هذا الحد من الاستقلال من جانب موديله الأرملة الشابة الحسنة. كانت معروفة باسم "المرأة- النمرة"، وعلى هذا النحو كانت تعنون الكتب التي كتبتها عن نفسها سنة ١٩٢٩ × ل (دكوورث). إنني أشك، بوصفي محلاً نفسانياً هاوياً، في أن "بتي" كانت تفكر على نحو غير واع بأن النمر هو قط أيضاً. ربما يستحسن أن انصرف من هنا ما دام العمل جيداً. على كل حال، فقد هربت، وهذا ما تخبرنا به في "المرأة- النمرة" عن القطة الأخرى، وعن وفاة زوجها الشاب في غير وقته:

"افتتح الاحتفال بالدخول المهيب للصوفي الملتف بالأرواب البهية لأستاذ أكبر في نظام الماسونية. وبعد أن اتخذ مقعده على العرش أمام الكانون الموقد بنار فحم الخشب، الذي كانت تتدلى حوله سكاكين التضحية وسيوفها، أخذ بقية أعضاء الديانة مواقعهم

على المقاعد المثلثة عند رؤوس النجوم. كانوا يلبسون- كقاعدة- أرواباً كتلك التي رأيت "ليه" في البدء فيها، والقلنسوات مسدلة على وجوههم، فلا يبين منها إلا عيونهم عبر شقوق العيون الضيقة. كانت سحب البخار تتعلق في كل مكان من جو الغرفة. عندما اجتمع الجميع، نهض الصوفي عن مقعده، وبعد أن تناول أحد السيوف من جانب الكانون، أمسكه موجهاً نحو المذبح، في حين كان يترنم بالابتهالات بلغة لم أكن ألفها. وعلى كل حال، فنتيجة لسماعي لها كل يوم، تبقى الأصوات منقوشة في ذاكرتي:

ارثاي كنتُ مالكوث- فيغابولار، فيغادورا، أي- آر- لا- آه مون".
وكانت الأخيرة نغمة عالية الطبقة على التقيض من باقي التعويذة. بعد هذا، سار متجهاً إلى راؤول، وأوكأ ذؤابة السيف على جبينه، وتلفظ هراً آخر، مختتماً بزعة "ادونيس" مرتفعة- وكان ذلك الاسم الذي عُرف به زوجي في الكنيسة. ثم مضى عبر الأداء المشابه أمام "ليه"، فيما عدا انه وقف- في البدء- صامتاً قبالتها دقيقة بطولها، متنفساً بعمق الوقت كله- متنفساً بروح كاهنته، كما شرح لي راؤول لاحقاً.
بعد أن أدت هذه الابتهالات الأولية، شرع الصوفي يؤدي تشكيلة من الرقصات الوجدية. وكانت هذه مؤثرة ومضحكة في آن. ساط نفسه إلى سُعر مطلق، ملوحاً بسيفه، وراقصاً واثباً في الدائرة السحرية. كانت عيناه تشعان، والكلمات التي انشدتها لها إيقاع رتيب وفارض غرابته، وعيناه تنيران بحماسة مسعورة.
في كل ليلة جمعة، كان ثمة ابتهاال خاص لـ بان"، تُعلن فيه- كما مبين في ترنيمة هذه المناسبات- عقيدة العبادة. كانت مكتوبة بالإنكليزية، وسأدرج الأسطر القليلة الأولى:

"اهتز برشاقة بتوق النور

أيها الرجل، يا رجلي

تعال، مائلاً خارج الليل

إليّ، إليّ

تعال مع "ابولو" في ثياب العرس-

(في ليلة التضحية)

اتخذ كل موقعه المعتاد ، فيما عدا أن راؤول في هذه المناسبة ، بما أنه كان مقرراً أن يكون المنفذ ، استبدل بمكانه مكان الصوفي . جُلبت القطة ووضعت ، وهي لا تزال في الشوال على المذبح .

كانت فاتحة الطقس مثل فاتحة (الاحتفال) النجمة الخماسية المستعملة رمزاً سحرياً ، التي سبق أن وصفتها . كان الهواء مثقلاً بالبخور . تلا راؤول الابتهاال ، وسار بسيف مرفوع نحو "ليه" والآخرين ووضع ذؤابته على جباههم فيما كان ينطق الصيغة المعتادة . كنت أرى خارج الدائرة السحرية وأراقب الأداء المخيف .

في الوقت الراهن ، حين كان جزء كبير من الاحتفال قد انتهى ، رأيت راؤول يأخذ "كوكري" (سكين الغورخا*) من مكانها إلى جانب الكانون ويتقدم من المذبح ، حيث كان الشوال يتلوى . سحب القطة المقاوم والمرعوب من قفا العنق وأمسكها بيده اليسرى على مبعدة ذراع فوق رأسه . ويمينه أمسك الكوكري موجهاً حافتها إلى الكانون .

سكن الصوفي مقاومات القطة مسلطاً تربتاً أثيراً على أنفها . كان الجميع الآن جاهزين لابتهاال التضحية ، التي كان راؤول قد كتبها خصيصاً للمناسبة ، والتي تعين عليه الآن أن يتلوها في الوضع المرهق الذي وصفته توأ .

كان ابتهاال طويلاً ، وقبل أن ينهي نصفه كان يمكنني أن أرى ذراعه اليسرى ترتجف من التوتر . فيما اقترب من النقطة التي يقع فيها القتل ، نزلت "ليه" من مقعدها المثلث ، وبعد أن أخذت وعاءً عن المذبح ، أمسكته تحت القطة .

كي تحفظ الدم ، الذي كان يفترض ألا يضيع أي منه . أخيراً ، حانت اللحظة . رأيت يرفع الكوكري ، ثم أغمضت عيني حتى ينتهي الأمر... ثم وضع الجثة ، وهو يتأرجح قليلاً ، على المذبح ، بعد أن تم هذا ، نفدت موارده ، وتعين على الصوفي أن يتولى عنه إدارة الطقس .

بعد أن أنهى الابتهاال ، تناول الوعاء الذي يحوي الدم ، نطق صيغة قداسية ما ، عليها وسلّمها لـ "ليه" التي كانت تقف جانباً . اقتربا معاً من راؤول . ثم رفس الصوفي بشدة الوعاء مبعداً إياه عن وجه راؤول وبعد أن غمس إصبعاً في الدم تقصى علامة

* الجنود النيباليون .

النجمة الخماسية على جبينه الأبيض الناصع، وكذلك لكل الآخرين، ولنفسه أخيراً.
طقس الختام... بقي الآن وحده ما يجب إجراؤه... تناول الصوفي كأساً فضية صغيرة، أفرغ إليها بالمغرفة بعض الدم من الوعاء وسلمها لزوجي، الذي أفرغها حتى الشمالة.

اقتنعت مدة أن رأؤول قد تسمم بدم القطة. ولكن عندما ازداد سوءاً باطراد واستدعي له طبيب، اكتشفت أنه كان يعاني من مرض معوي، وهو مرض ليس عديم الانتشار في تلك الأنحاء".

كان أمراً مفهوماً تماماً، إن كنت تعرف البريطانيين، أن تكون الهياجات خماسية النجوم^١ لهذين السيدين البريطانيين، اللذين كان أحدهما رجلَ كامبردج فخرياً والآخر خريج أو كسفورد، صاعقة إلى حد ما للقضاة المتعلمين الذين استمعوا إلى دعاوى التشهير التي رفعها السيد ثيرون، والذين تعاونوا بحماسة شديدة مع هيئة المحلفين التي رفضت أن تعطي السيد كراولي حتى ولا فلساً واحداً كتعويض.

اقتبس هنا من "التايمز" اللندنية، بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٣٤:

قال سعادته- في توجيه هيئة المحلفين- إنه لم يسبق أن سمع قط هذراً بهذا البغض والفظاعة والتجديف والكراهية كذلك الذي أصدره الرجل الذي وصف نفسه بأنه أعظم شاعر حي".

قال القاضي "سوفت" في اليوم نفسه، من منصة القضاء: "إن لي أكثر من أربعين سنة وأنا مشغول بتطبيق القانون في مركز أو آخر. وكنت أظنني أعرف كل شيء، يمكن تصويره للشر. كنت أظن كل شيء أثيماً وسيئاً قد أنتج في وقت أو آخر أمامي. وقد تعلمت في هذه القضية أن بمقدور المرء على الدوام أن يتعلم شيئاً أكثر لو أنه عاش المزيد".

لم ينل السيد كراولي رضا من المحاكم، ولكنه حصل على مرح تالٍ بالتنبؤ بالحرب العالمية الراهنة*، وبالإيحاء بأن المحاكم والرأي العام البريطاني لو كانا أكثر تعاطفاً معه، فلربما كان سيمنح تجنب الكارثة.

١ - انظر الملحق، ص ٣٣٣ .

* يقصد : الثانية .

ووفقاً لما جاء في الـ "دايلي اكسبرس" ليوم ٢٣ كانون الأول ١٩٣٧، فإن أجزاءً من كتاب تنبؤي لآليستر كراولي "قُرء في "كليوباترا نيدل"، في الساعة ٦ والدقيقة ٢٢ صباحاً، فيما دخلت الشمس برج الجدي، من قبل إنكليزي يهودي، زنجي، وملايوي*. كان ثمة خطبة قصيرة لكراولي بوصفه قسيس الأمراء. أعلن قانون "ثليما" وسلم نسخاً إلى المندوبين البيض والحممر والسممر والسود والصففر. بيّن أنه نشر ثلاث مرات، وفي كل مرة اندلعت الحرب بعد تسعة شهور، وأن "عظمة سحره انفجرت وتسببت في كارثة للمدينة"، وقال لو أن كل امرئ فعل ما سبق وأمره أن يفعل، لكان بالامكان تجنب الكارثة".

لقد ضيعها قليلاً في توقيته. لكنها وقعت. إن الحرب، كما كان نوستراداموس يعرف، رهان مأمون للأنبياء دائماً. لقد كتب نوستراداموس العجوز، الذي كان أعظم ساحر في القرون الوسطى، في "سان ريمي" كتاب تنبؤات: "القرون"، الذي أعيد طبعه في طبعة شعبية وصار مرة أخرى أكثر الكتب مبيعاً في باريس^١.

قد أكون غير مبال جداً، ولكنني أشعر أن البريطانيين عموماً، بصرف النظر عن معاملة "نينا هامت" له في "المجدع الضاحك"، كانوا ثقيلين قليلاً في موقفهم تجاه السيد "ثيريون". لو أنه كان أميركياً، ما كنت لأستطيع الامتناع عن الإحساس بأننا كنا سنحظى بمرح أكبر معه.

ولقد فعلنا في الواقع، عندما كان هنا. لقد رأيت أخيراً في باريس سنة ١٩٣٣. تناولنا الغذاء، في مطعم (فويوت)، بدعوة منه. كان لا يزال يتمتع بقدر كبير من المرح مع العالم.

* نسبة إلى الملايو .

١ - انظر الملحق ، ص ٢٢٧ .

٤ - "الراديو الذهني" لـ "آبتون سنكلير"

من كل التجارب في التخاطر الباردة من جهة، وخارج حجرات التنويم المغناطيسي المسكونة بالأشباح من الجهة الثانية، فإن التجارب التي أراها جديرة بالاهتمام العمومي هي تلك التي أجراها "آبتون سنكلير" وزوجته "ماري كرايغ سنكلير" في منزلهما في (باسادينا)، بـ (كاليفورنيا). لقد زرتهما قبل بضع سنوات، وأجريت معهما أحاديث عدة وخرجت من محضرهما متأثراً بعمق. وفيما بقيت متشككاً باحترام فيما يتعلق بموضع الإدراك فائق الحسية كله، أشعر بأن ما أنجزه الزوجان سنكلير ربما كان أهم من أي شيء حدث حتى الآن في (ديوك).

من دون رفع الحرارة" بالطريقة التي كان دراويش الحلبسون يفعلون بها ذلك قط، عملاً على نظرية الدراويش القائلة بأن "تفريغ" الجلبة الحسية- الذي يصب باستمرار خلال حواسنا الخمس الاعتيادية- إضافة إلى استخدام الإيحاء الذاتي، هما الضرورتان الأوكيتان لإقامة اتصال مع الانطباعات فائقة الحساسية. لقد اشتغلا على الافتراض، كما قال البروفسور "وليام مكدوغال"، بأن "الإجراءات التخاطورية الخافية وغير الاعتيادية لو كانت تكشف عن نفسها، فإن طريق الدماغ ينبغي أن يُحفظ صافياً من المشاغل الأخرى". ومن دون أن أرغب في أن أكون بالغ الإلحاح في نصرتي للممارسات الدرويشية بوصفها المعارض لألعاب التخمين العرضية، لا أستطيع الكف عن الإحساس بأن ثمة توازياً بين الشرط المادي الذي صادف أن كانت فيه "ماري كرايغ سنكلير" عندما صارت خبيرة أول مرة، والشروط المادية التي يستحثها الدراويش عمداً بوصفها خطوة أولية نحو الرؤية فوق الاعتيادية.

لقد عانت، في عنفوان حياتها، من مرض جسدي طويل ومؤلم كان، كما كتب

زوجها، "قصة معاناة لا حاجة للخوض فيها، يكفي أنه كان لديها عدة علل لتجري عليها التجارب، وصارت السيطرة الذهنية فجأة مسألة حياة وموت...
لو أنها تؤمن الآن بأي شيء، سأطمئن إلى أن ذلك سببه أنها قد اختبرته في أنابيق الألم....".

وبهذا المعنى، فإن الحرارة قد "رفعها" القدر أثناء الفترة التي بدأت فيها "ماري كرايغ" تتعلم، وتستخدم، تكنيك الانفصال الذي أدى إلى النتائج المذهلة التي ذكرها السيد "سكيلير" في الـ "راديو الذهني" بمقدمة البروفسور "وليام مكدوغال"، الذي كان في جامعة "ديوك" آنذاك.

قبل ولوج الظاهرة، أود أن أقدم - بإذن آبتون سنكيلير - ومن أقوال ماري كرايغ سنكيلير بالذات، التناول الذي استخدمته في فك قفل "الباب" الذي ربما يستقر وراءه الجواب على غموض عظيم.

لا اعرف إلى أي مدى تأثرت بقراءاتها الواسعة لباطنيات الصوفيين والمولويين، ولكن مفهومها عن طبيعة التركيز يتماهى مع مفهومهم. تقول: "إن أول شيء عليك أن تفعله هو أن تتعلم حيلة الانتباه غير المقسم". هي تعني بذلك ما يعنيه المولويون، وليس كل ما نعينه نحن عندما نتكلم بشكل اعتيادي عن التركيز.

يركز المرء (في مفهومنا الاعتيادي) على كتابة فصل في كتاب، أو على حل مسألة في الرياضيات، ولكن هذا (النوع من التركيز) عملية معقدة لتقسيم انتباه المرء، مسلماً إياه إلى تفصيل بعد آخر، حاكماً، معادلاً، ومتخذاً قرارات.

إن نوع التركيز الذي أعنيه هو وضع الانتباه على موضوع واحد، أو فكرة غير معقدة واحدة... وإبقائها هناك مستقرة.

إنها ليست تفكيراً، هي فكرة مسيطرة، إلا فيما يخص فكرة واحدة، أو موضوعاً واحداً في فكرة.

إن عليك أن تكبح نبض التفكير في الأمور المحيطة بالموضوع، أن تختبرها، تقوّمها، أو السماح لسلسلة الذاكرة بأن تربط نفسها بها.

١ - نشرته دار "ألبرت وتشارلس بوني"، سنة ١٩٣٠. في ٢٣٩ صفحة. وهو مصور.

لم يسبق للشخص الاعتيادي قط أن سمع بهذا الشكل من التركيز..
يجب ألا يصل الانتباه أبداً إلى أحاسيس الجسد. ولكي تركز بهذه الطريقة غير
المقسمة، فإنك تزرع في نفسك "الإيحاء" بأنك سترخي ذهنك وجسدك، تجعل جسدك
غير حساس والذهن خالياً... عليك أن ترخي تماماً قبضتك الذهنية على، أو معرفتك
بكل إحساس جسدي.

تشير السيدة سنكلير إلى أن ذلك كله عمل شاق، وأظنها تعي أيضاً مخاطرة
عندما يساق بعيداً لأنها تشرح بأن عليك أن تحتفظ بالقوة على "تخيطيم" التركيز.
ويشمل هذا التناقض الظاهري بين "إطلاق العنان" الكلي و- في الوقت نفسه-
التماسك". تقول إن الألم توتر، وإن الألم يمكن قمعه بالإيحاء الذاتي.

أسقط جسدك، الثقل الميت، من عقلك الواعي. اجعل عقلك الواعي فراغاً.
إن العقل، واعياً كان أو غير واعٍ، هو ما يبقي الجسد متوتراً. ومن أجل جعل العقل
الواعي فراغاً، من الضروري إطلاق الجسد، إن عقلك ليس فراغاً فإنك لم تنجح في
التخلص من جسدك. يُنصح بالعمته، إما بإطفاء كل الأنوار أو بإبقاء عينيك مغمضتين.
من الواضح أن كل هذا مختلف كلياً عن الحال العرضية التي يجري فيها ألعاب
حدس الورق، المختبرية. كتب البروفسور "مورتون برنس" لماي كرايغ، بعد أن تعلمت
أن "تنزلق" تماماً عبر الباب، كما يفعل الدراويش، "إنك تلعبين مع قوى قوية وخطرة".
وطبيعي أنها كانت تفعل ذلك، ولكنها لكونها شخصاً عاقلاً و- فوق كل شيء- خيراً
ومتوازناً، فقد كانت قادرة من دون الانزلاق بعيداً على أن تستعيد من طرف "الباب
الآخر سلسلة من التجارب التي أجدها الأكثر إثارة حتى اليوم.

بدلاً عن استخدام ورق الإدراك ما فوق الحسي أو أي رموز ثابتة موضوعة، أجرى
آل سنكلير تجارب في التخاطر (قراءة الأفكار) برسوم اعتباطية بقلم الرصاص. كان
السيد سنكلير، أو واحد من اصدقائهما المقربين، يرسم بقلم حبر أو رصاص تخطيطاً
عاماً لموضوع ما، حقيقي أو متخيل، قد يكون أي شيء.

١ - إنني مقتنع بعمق أن الخيار الأساسي هو الحماية الوحيدة ضد مواجهة الرعب والهدم الممكن على الطرف
الآخر من الباب "الملتبس والغامض".

عندئذ يجلس من رسمه ويركز عليه، وتقوم ماري كرايغ سنكلير - المستقرة في مكان آخر في العتمة بمحاولة أن "تري"، ثم تصف، أو تعيد إنتاج ما رأت"، عن طريق رسم من جانبها.

إن بعض النتائج من الإدهاش بحيث أجد نفسي "في الحال" في مواصلة الاعتراف بأن حتى هذه الظاهرة السنكليرية، التي اعتبرها أفضل ما أنتج حتى الآن في أميركا، أو ربما في أي مكان من جانب ناس حسني السمعة وعقلانيين في عالمنا الغربي، ما زالت تتركني مذهولاً وفي شك. لا أعرف عن طريقة ممكنة لمقاطعتها، ولا أستطيع أن اقترح أية طريقة، غير القبول بها بوصفها حقيقة أن انتقال الفكر فائق التحسس (وفي أحيان معينة الاستبصار أيضاً) قد تمّ.

إن بعضاً من الظواهر السنكليرية تكاد تكون- في حين أنها بسيطة وتتعامل مع أمور بسيطة- ربما صبيانية بقدر صبيانية الألعاب الداخلية، فهي مع ذلك تحمّله بمضاعفات مرعبة.

على سبيل المثال:

في صباح ١٣ تموز ١٩٢٨، كان "روبرت ل. اروين"، وهو رجل أعمال شاب، يجلس في غرفة بمنزله في (باسادينا)، في الساعة الحادية عشرة والنصف المهيأة سلفاً. كان قد وافق على أن يرسم تخطيطاً عن أي موضوع يختاره، اعتباطياً، ثم أن يجلس محدقاً إليه، مركزاً كل انتباهه عليه لفترة ما بين خمس عشرة وعشرين دقيقة. رسم، بقلم رصاص على صفحة ورق الخطوط الفجة، البسيطة، لشوكة مائدة.

في الساعة المتفق عليها عيناها، كانت ماري كرايغ سنكلير تتمدد على أريكتها في مكتب، في بيت آل سنكلير على ساحل البحر في (لونغ بيتش)، على بعد أربعين ميلاً. كانت في شبه عتمة، وعيناها مغمضتان، مستخدمة طريقة التركيز التي سبق أن وصفتها جزئياً. بعد أن اقتنعت، كما يسجل السيد سنكلير، بأن الصورة التي جاءت إلى ذهنها هي الصورة الصحيحة- لأنها كانت تلح، وتعاود المجيء مرة وأخرى- جلست وتناولت قلم رصاص وورقة، وكتبت:

١ - انظر الملحق . ص ٢٢٤ - ٢٢٦ . لغرض هذا الرسم والرسوم الأخرى ، التي أعيد إعدادها بإذن آبتون سنكلير .

"أرى شوكة مائدة. لا شيء آخر.

بعد يومين، قاد آل سنكلير سيارتهما إلى (باسادين)، حيث أخرج الرسم والكتابة وقورنا. وقد انفعلا جميعاً بحيث أن السيد "اروين" وماري كرايغ حررا شهادتين مقسماً عليهما، هي محفوظة الآن. ويمكن أن تكون أيضاً مجموعة شهادات مقسماً عليها حول الولادة البتولية لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح. إن الشهادات المقسم عليها في هذا المجال هي حتى أكثر سخفاً من تلك التي يوقعها المرء عندما يقدم تقريره المتعلق بضريبة الدخل.

فالناس إما يصدقونها أو لا يصدقون. إنني اعتقد أن ذلك جرى، بالطريقة التي يذكرونها بالضبط - أو التي يتصورون أنه جرى بها - لأنني أعرف آل سنكلير. إن لديه ما اعتبره أفكاراً خيالية عن عدد من الأمور، غير الإدراك فائق التحسس. ولكنه لا يغش أبداً. ولا يغش أيضاً أي من الناس المرتبطين بتلك التخطيطات.

ذات ليلة جلس آبتون سنكلير في مكتبه وخطط رسماً بالقلم الرصاص لنجمة خماسية كتلك التي يقصها الأطفال من الورق البراق ويلصقونها على القبعات. كان بمفرده، والباب مغلق من قبل أن يقوم بالتخطيط، ولم يفتح قبل انتهاء الاختبار أمسكه أمامه، وركز عليه فترة عشر دقائق. ونفذت زوجته - التي كانت ممتدة على أريكة في جزء آخر من المنزل وبينهما أبواب مغلقة وجدران - خمسة تخطيطات أو ستة، تنطوي جميعاً على جوهر النجمة هندسياً، أو على أحد خطوطها أو رموزها - ثم رسمت أخيراً النجمة.

إن الحالات التي أسيء فيها فهم التخطيطات الأصلية وشوهت من جانب ماري كرايغ تبدو لي أكثر إذهالاً من تلك التي شخصت فيها الشوكة (أو كائناً ما كان ما قتلته).

إن قدم صبي مقلوباً رأساً على عقب على مزاج ذوات عجلات، يفترض أنه سقط ممدداً، التي رسمت عمداً لإرباك وتحيير ماري كرايغ، مرت بأطوار تحول غريبة. رسمت الساق والحذاء المقلوبين على هيئة عنق ورأس حيوان غريب، وعجلات المزوجة ذات العجلات على أنها عيون! كان ثمة تشابه في الخط العام. مثل خطوط شيء "شوهه"

من خلال زجاجة على نحو معتم، الذي هو أكثر إثارة لقلقي، بوصفي شكاكاً، مما يمكن لتخطيط أوضح أن يكون.

في ٢٩٠ رسماً، كان مجموع النجاحات التامة ٦٥، أو نحو ٢٢ بالمئة، ولكن مجموع النجاحات الجزئية كان ١٥٥، أو حوالي ٥٣ بالمئة. وكان مجموع الإخفاقات الكاملة ٧٠، أي نحو ٢٤ بالمئة.

ذات يوم، تحت ظروف مشابهة لحالة شوكة المائدة، رسم "روبرت اروين"، الذي كان متزوجاً بأخت ماري كرايغ الأصغر - فهو بالتالي قريبهم بالنسب ولكن ليس بالدم - رسم صورة غير دقيقة من أمام تماماً لساعته ذات الوجه المكشوف لزهرة مسطحة، تشبه زهرة الأقحوان اليابانية، مع بتلات فجة، منفصلة، تطوقها في دائرة.

وكان ما رسمته ماري كرايغ منظرًا مواجهًا تمامًا. لقد ركبها القلق منها، فكتبت على رسمها "أظنها ليست وردة بل سلكاً (معدنياً، يلمع). و"البتلات" ليست بتلات وإنما سلك، وينبغي له أن يكون متجانساً... إنني لا أرى وردة وإنما شكل وردة على الورق. ثم أقرر أنها من سلك، ولكن هذا قد يكون لأنني أرى رسماً، ليس له لون وردة. وعلى كل حال، فأنا أراها تبرق كما لو كانت من معدن...". لم تحزر قط أنها ساعة.

وقد رسم سنكلير ذات مرة رأس بلشفي كوميدي له شعر أشعث وسالفان أشعثان. وكان ما رسمته، بعد كفاح طويل، مشرق شمس أو مغربها، وراء ذروة جبل، صنعت فيه الأشعة المرسومة بقلم الرصاص خطوطاً تشبه شعر البلشفي وسالفيه الشعث!

وذات مرة صارت الدواكسات على قيثارة قدمين في صندلين، وأسيء فهم الخطوط العامة للقيثارة فجري تصويرها على أنها تنورة خافقة فوقها.

وقد طرأت الحالة الأكثر إثارة للقلق من بينها جميعاً بالارتباط مع محاولة أخذ فيها اروين بوصلتين ورسم دائرة بسيطة. من الضروري أن نوضح بأن السيد اروين كان مريضاً بدينياً. قبل يضع سنوات كان قدّر المتبقي من عمره بضعة أشهر فقط، بسبب التدرن الرئوي. إن من الأفضل أن انقل مباشرة عن السيد سنكلير في هذه الحال. يقول إنها كانت الحالة الأكثر إثارة من الجميع."

... عليّ أن استمحيكم عذراً على التفصيلات الطبية التي تذكر. إن كثيراً جداً من المعرفة الحيوية يعتمد على هذه الاختبارات بحيث أنني سألت نسيبي أن ينسى مشاعره الشخصية. فأرجو من القارئ أن يعتبر نفسه طالب طب أو ممرضاً في مستشفى، في اللحظة الراهنة. وقع الاختبار في ١١ تموز ١٩٢٨. قامت زوجتي برسمها (الذي حاولت فيه بالتخاطر أن تعيد إنتاج ما سبق لإروين أن رسم)، ثم أخبرتني بالموضوع فوراً. كتبت أيضاً كل التفصيلات والسجل الآن أمامي. رأت ريشة، ثم غصناً مورداً، ثم سمعت صرخة.

كانت فكرتها الأولى في حال المرض أو الخطر تنصرف إلى أبويها المسنين، وقد اعتبرت الصرخة صوت أمها، وقد أثارها هذا جداً بحيث فقدت الاهتمام بالتجربة. ولكنها سرعان ما ركزت ثانية، ورسمت سلسلة من الدوائر متحدة المركز مع نقطة سوداء داكنة في المركز. ثم رأت بقعة أخرى وأوسع بكثير، وبدأت هذه تنتشر وتغطي صفحة الورقة. في الوقت نفسه جاء شعور إحباط شديد، وقررت كرايغ أن البقعة السوداء دم، وإن بوب قد نزف... قادت زوجة بوب به السيارة إلى مسكننا، وفي حضورنا نحن الأربعة جميعاً أخرج الرسم الذي سبق أن رسمه. كان قد أخذ بوصلة ورسم دائرة واسعة، جاعلاً - بالطبع - ثقباً في مركز الورقة.

سألت زوجتي: أهذا كل ما فكرت فيه أثناء الوقت؟ فقال بوب: "كلا، ولكنني أكره أن أدعكم تأخذون بقيتها".

طبيب، اكتشفت أنه كان عندي بواسير ولم استطع أن أضع ذهني على أي شيء عدا الفكرة، (يا إلهي، رثائي - كليتي - والآن هذا! إن البواسير، بالطبع، عرضة لأن تكون مصحوبة بنزف، ويبدو واضحاً أن زوجتي أخذت مزاج الإحباط الذي كان لنسيبها، وأفكاره عن الدم والأنهيار الجسدي، وكذلك الدائرة والثقب في الورقة... لا أرى كيف يمكن أن يوجد دليل أكثر قطيعة على التأثير التخاطري - ما لم يشك المرء بأننا نحن الأربعة جميعاً سلسلة من الأكاذيب الحمقاء وعديمة المعنى... ونص التعليق الذي كتبته زوجتي (على تخطيطها في الوقت الذي أجرته فيه): كل هذا المعتم كالبقعة - أحسه دماً، أن بوب مريض - أكثر من المعتاد".

قطعت التجارب التي كانت تجري مع السيد اروين لأنه سرعان ما اكتشف أنها

كانت جهداً كبيراً عليه، في صحته المعتلة. وبقي آل سنكلير يجربون. لم يسمحوا قط بالنتائج المدهشة أن تُقلق أو تُخربط حياتهم الخارجية الاعتيادية، المشغلة والفعالة، ولكن عندما صار معروفاً عموماً أن هذين الزوجين المشهورين كانا مهتمين بالظاهرة فائقة التحسس وفوق الاعتيادية، وأنها قد جذبت إلى بيتهم أعداداً من الـ "الخبراء"، من الممارسين، الوسطاء"، إلى جانب الزوار العرضيين من أمثالي الذين كانوا مهتمين لا بهذا المجال فقط، وإنما بتشعباته المتنوعة.

هناك كان أن قابلت أول مرة الـ مطران "آرثر أ. فورد"، رئيس الجمعية العامة للكنائس الروحانية في أميركا، وفي بعض الأحيان رئيس الكنائس الروحانية المنظمة للعالم، والذي يشار إليه أحياناً في المطبوعات الشعبية على أنه "بابا" الروحانيين^١.

حظي "فورد" بكثير من شعبية الصفحات الأولى ارتباطاً مع جهوده غير الموفقة لإقامة اتصال مع شيخ المرحوم هوديني. كان الآن في طريقه للمعاونة في إعادة تنظيم الكنائس الروحانية في استراليا، وكان- مثلي- يزور (باسادينا)، ويرى آل سنكلير. لم يكن آل سنكلير من الروحانيين، ولم يكونوا كذلك قط قبلاً، ولكنهم كانوا مهتمين بالسيد فورد وكان يتسائل، كما تساءلتُ غالباً، ما إذا كان بعض الظواهر التي تقع في جلسات استحضار الروحانيين واجتماعاتهم لا يمكن أن تعزي إلى التخاطر بين الأحياء أكثر من التواصل مع الأموات.

وعلى أي زعم آخر، فإن حالة الروحانيين في رأيي هي تحت الصفر تماماً جداً وقد كانت كذلك تماماً، رمية موفقة إلى قطع بمئات التحريات بحيث يكون من غير المجدي أن تُفرغ في هذا المجلد.

إن حماسي للتجارب التي أجراها آل سنكلير، وقناعتي التي لا تحتاج إلى ذكر بخلاصهم الواضح، لم يشملا، أو يمتدا إلى، المطران فورد وروحانييه، الذي حضرت عدداً من اجتماعاته في لوس أنجلوس.

كما لا تمتد سذاجتي أو عواطفي إلى السيد البولندي، المدعو "اوستايا"، الذي لاقيته لاحقاً عن طريق آل سنكلير، والذي كان زمناً محميمهم.

١- انظر الملحق ، ص ٣٤٨ .

يكتب السيد سنكلير بتحمل أكثر مما أستطيع أن أبدي عن مصاحبتهم المبكرة مع هذا الشاب فوق الاعتيادي، الذي كان قد درس مدة في الهند. كان لديه عادة أن يندفن ببسجاما حرير صفراء، ويجري بالتالي الحفر عنه واستخراجه، في جميع أنحاء كاليفورنيا، وتفضيلاً بوجود الصحافة وكاميرات الأفلام الإخبارية، وذات ليلة، بعد أن كان آل سنكلير قد حفروا عنه واستخرجوه ودعوه إلى العشاء، يبدو أنه حصل على مائدة ثقيلة، يسيطر عليها الأشباح، عائمة بتقلقل في الهواء فوق رأس آبتون سنكلير. ما كنت لأحب ذلك. قد تكون الأشباح أسقطته على سنكلير. وإن كانت قد فعلت، فلربما تكون قد دمّرت عقولاً أكثر وأفضل مما يمتلكه أي درويش من (التيبت) إلى (تيمبوكتو).

وفيما يلي تقرير السيد سنكلير الذي تفضل بإذن بأن أنقله:
"في بيتنا قُدم ما بدا وكأنه عرضٌ للارتفاع في الهواء من دون اتصال. إنني لا أقول إنها كانت ارتفاعاً في الهواء حقاً، إنني أقول فقط أن أصدقاءنا الذين شهدوها.... لم يقدروا حتى أن يقترحوا طريقة اعتيادية يمكن أن يكون الحديث وقع فيها.

لم يكن ثمة أحد حاضراً يمكن أن يكون شريكاً، وقد جرى تفتيش الوسيط الروحي بحثاً عن جهاز.

جرى ذلك في بيتنا، وما كانت هناك فرصة قط، مهما ضوّلت، لتحضير ما. كان رسغاه وكاحلاه ممسوكة بإحكام من قبل أشخاص أعرفهم جيداً، وكان ثمة نور كافٍ في الغرفة بحيث كان بمقدوري أن أرى الخطوط العامة لشكله، وهو يربط في كرسي. في مثل هذه الظروف، ارتفعت منصدة وزنها ٣٤ رطلاً أربع أقدام في الهواء وتحركت ببطء مسافة ثماني أقدام فوق رأسي".

ويضيف السيد سنكلير برقة:

لقد رأينا هذا، رآه أصدقاؤنا في ذهني، وكذلك في أذهانهم، إن دودة الشك قد تزحف دائماً إلى الداخل".

إن دودة الشك تلم هي، في رأبي، حية بوا عاصرة بالحجم الكامل.
وفقاً لرواية السيد سنكلير، فإن هذا الشاب، "أوستايا"، الذي يسميه "يان" في

حديثه، "شخص غريب". في بعض الأحيان يكون منفتحاً وصريحاً، وهو قد يصير غامضاً ومتمكناً مرة أخرى. في وقت ما، قد يعلمنا كل ما يعرف، ومرة أخرى قد يتمسك بفنونه، التي سبق أن اضطر للذهاب على الطريق الطويل إلى الهند، كله، كي يكسبها. أكان السبب هو أنه يعتبر هذه القوى أخطر للهواة من أن يلعبوا بها؟ أو كان الأمر مجرد أنه كان يتأمل وسائل معيشته؟"، هذا ما يتساءل عنه السيد سنكلير.

إن ما لا يمكنني الكف عن سؤاله سيستدير إلى حية البوا العاصرة هناك بالضبط في ذلك المسكن اللطيف والودود؟

يبدو أن "يان" كان، من بين أمور أخرى، منوماً مغناطيسياً، وفي هذا المجال كانت ماري كرايغ تلتذ أحياناً بالسخرية منه، كونها شيئاً من منومة مغناطيسية هاوية هي نفسها، وشيئاً من ساحرة بيضاء" أيضاً في أفضل دلالة للعبارة التنيسية.

في أحد الأيام عندما كان يحدث إليها، مؤدياً إيماءات غزل بيديه، ومحاولاً أن ينميها مغناطيسياً، ردت ماري كرايغ التحديق، بدلاً من أن تنام بوداعة!

إن جزءاً أساسياً من تكنيك "يان"، كما يقول السيد سنكلير، كان- كما يشرحه "يان"- في إذهال المريض وعدم رمش عينيه إطلاقاً.

والآن فجأة رمش، ثم أغمض عينيه وأبقاهما مغمضتين. سألت مريضته في براءة مدعاة:

"أتؤذيك عيناك؟"، فأجاب: "كلا". وسألت: "أأنت متعب؟" فقال: "كلا، شكراً". سألت: "قيم كنت أفكر؟" فرد، ناعساً: "في أن تنوميني مغناطيسياً".

الآن أغمضت عينيه هي، وطلبت أن ينهض "يان" ويذهب إلى التلفون. فتح "يان" عينيه قليلاً، وإذا رأى عينيه مغمضتين قال: "أأواصل علاجك؟" فأجابت: "نعم، أرجوك". ولكن "يان" تردد ثم قال: "اعذريني، إن علي أن أتلفن لصديق!".

بأية صورة فعلتها ماري كرايغ، كان المنوم المغناطيسي يُرفع على منجنيقه الخاص. يكتب السيد سنكلير عن هذه المغامرات في "الراديو الذهني". وهو يحمي نفسه بالقول: "إن قصص "يان" هذه.... هي الأغرب، والأقل إمكاناً للبرهان"، ثم يروي بسخاء عدة أخرى تشير إلى أن الشاب يمتلك فعلاً قوى غير اعتيادية. وعلى كل حال، فالتى أحبها أكثر هي، بالطبع، حكايات المبارزات العديدة التي وقعت بين سيد الأعمال المعدة لفئة محدودة القادم من الشرق هذا و"ساحرته المتدربة" ذات يوم.

يقول السيد سنكلير:

يدخل "يان" إحدى حالاته العميقة- غشية الإغماء التخشبي، كما يدعوها- يكون جسمه فيها متيبساً وبارداً. إن لديه القدرة على أن يعين مقدماً الوقت الذي سيخرج فيه من الغشية، ومن الواضح أن عقله الباطن يمتلك القدرة على تقصي الزمن- أيام، ساعات، دقائق، وحتى ثوانٍ. ولقد رأيتُه يدهش مجموعة من العلماء بأن يخرج بالثانية، بينما كانوا يمسون عليه ساعات قابلة للتوقيف.

ولكن الآن تعتقد زوجتي أنها ستغير هذا الإجراء. إن "يان" يدخل الغشية في بيتنا وتجلس كرايغ وتشاء بصمت: سيخرج ساقك، سترفعه، ستضعه أرضاً مرة أخرى. ستجلس منتصباً"- وهكذا. من دون أن تنطق كلمة، يمكنها أن تجعله يفعل ما تشاء. إن "يان" "ذكرُ قاري"، وتشن كرايغ في بعض الأحيان "حرباً أنثوية ضارية عليه". إن من التقاليد بين سيدات الجنوب الشابات أن يماكن الرجال، وكانت كرايغ تحظى بالكثير من المرح بين وقت وآخر، من "تعذيب معلمها الخارق للطبيعة". لقد كان آل سنكلير ألطف بحق السيد "اوستايا" مما صورتُ. كانا رائعين تجاهه. ولكنني أود أن أفكر، وأنا مضطر أن أفكر، بأنهما لم يكونا قط "مُغوين" تماماً عليه- أكثر مما كانا مغوين تماماً للمطران فورد والروحانيين.

حقاً، لقد نالا ما يكفي- وربما أكثر مما يكفي- الأمر الذي كان محيراً وباعثاً على القلق في القوى لتي تبدو فوق اعتيادية، التي كانت ماري كرايغ موهوبة فيها. لا أستطيع الامتناع عن الشك في أن أي قوة كاملة، يمكن السيطرة عليها وثورية تكمن خلف الباب في الجدار" ولكنها تكمن أحياناً وراءه، وكائنة ما كانت تفلت أحياناً من اليد، وتصير خطرة. إن آبتون سنكلير يلامس ذلك برفق، فيما أظن، على رغم المرح السطحي في عباراته، عندما يدعو ماري كرايغ بـ زوجته الساحرة". إنها ساحرة بيضاء" خالصة، لم تشع أبداً أي شيء عدا اللطف- ولكن امرأة شريرة، موهوبة بقوى كقواها، كائنة ما كانت، كان بمقدورها أن تشع الخراب والتدمير بالتأكيد كما فعل السحر في أفريقيا.

إن لدى السيد سنكلير فقرة منيرة بشكل رائع بشأن هذه النقطة، يقول فيها: "إنها لم تجرب قط هذه التجارب مع غريب أو في حضوره... لقد تعلمت من تجاربها مع

نسيبها المريض أن الوسيط يمكنه أن يرسل لك أماً خوفاً، كما تفعل الكراسي وشوكات المائدة، وهي بالتأكيد ما كانت لتدخل بخفة إلى حالة ألفة وونام مع أولئك الذين لا تعرفهم ولا تثق بهم".

كان يمكن لآل سنكلير أن يعتقدوا أنني - في مبارزتي التي تشبه مبارزات الدمى مع "أبي بنهويل" سيئ الصيت - بأني أرسلت له أماً خوفاً عبر قنوات غامضة مشابهة. لكنني لا أستطيع تصديق ذلك تماماً.

٥- و. ي. وودوارد"، مع دبوس قبعة مفروز في فكيه

كان "بيل وودوارد" يشبه "كيوبيد" بدنياً. أصيب في رأسه بأحد سهامه المريشة، وكان يقول بقناعة مسرورة:

"آي و- و ووا آآ آي أو- آي وو آآ ي ي- أو و أو- إي ي آ وو- آي. آي آ ي أوو آآ آ آ، آآ، آي آي ي آ أوو- آ".

وقالت زوجته "هيلين روزن"، مرتعبة وعصبية، ولكن مقهقهة على الرغم من ذلك: كنت متعودة فهم كلام الأطفال. أظنه لا يستطيع أن يلفظ أصواته الساكنة. أظنه يقول إن الأمر لا يؤذيه إطلاقاً. يقول إنه يؤذيه قليلاً، الدخول والخروج. يقول إنه لا يستطيع أن يبدو متكلماً على الإطلاق، وأن ذلك أمر مزعج".

"آ آي أو!"، هكذا وافق الكاتب المشهور، كاتب سيرة جورج واشنطن"، الجنرال غرانت"، و"لافاييت"، مؤثراً سيجارة، أضاعت نجمة أخرى ناتئة من بين فكيه مثل أشعة دولاب هؤلاء الرابع من تموز- وعبر المسافة ليتأمل نفسه في المرأة.... في أيام ما قبل الانكماش الاقتصادي تلك كان ال (غروسفينور) القديم- ويكاد لا يزال تقريباً، كما قيل لي- منزل السكن الجليل الأكثر زخرفة، والمؤثر على الطراز القديم، في الجادة الخامسة. واعتيادياً، كان السيد "و. ي. وودوارد" جليلاً بقدر ما كان وديعاً. لم يسبق لخدعة كهذه أن وقعت تحت ذلك السقف القديم قبلاً، أو يحتمل أن تقع. ولكنك ربما ستذكر أنه، قبل أن يصير "ودودارد" كاتب سير، كان قد فاز بشهرة ملحوظة بكتاب سمي السرير المبيت*.

كان إفراغ الجياد المحشوة والقمصان المحشوة، ولو بطريقة رقيقة على الدوام،

* المبيت بالجدار . مما يستعمله البحارة عادة .

إحدى هواياته. كان قد دعا حفنة منا إلى هناك تلك الليلة، بمن فيها "آبتون سنكلير"، "جوزف كراغمور"، "كاتي سيبروك" وأنا. تمت دعوتنا لتقابل السيد البولندي "أوستايا"، الذي سبق أن درس في الهند، بين الدراويش، وكان قد أنتج- أو هكذا قيل- بعض الظواهر الاستثنائية في كاليفورنيا، التي يبدو طقسها- كما علق الكاردينال المرحوم "غيبوس" ذات مرة على نحو فاتن، "مؤدٌ بشكل غريب إلى المعجزات".

ثمة شيء من الجهة الأخرى، بشأن طقس ساحل شمالي الأطلسي الفظ، ولاسيما في مناطقه الحضرية، الأمر الذي يبدو أقل مساعدة- عموماً- من كاليفورنيا على إحداث هذه الظواهر الرقيقة، وفي هذه الليلة الخريفية الدافئة ترك آل "وودوارد" النوافذ مفتوحة، ونسيماً رائعاً مالحاً يهب داخلاً من المحيط.

كان السيد "أوستايا" يكافح ليُفرح، وكان آل "وودوارد"، باهتمامهم العميق، الودود، والذكي، بهذه الأمور، مَيَّالين لأن يعتقدوا بأنه كان يمتلك قوى خارقة للطبيعة قوية، فوق اعتيادية.

ربما كانوا صادقين في هذا الصدد. إن لديّ إحتراماً عميقاً وإعجاباً مخلصاً بآل "سنكلير"، ولست متأكداً مما إذا لم يكونوا على حق. ولكن، ما إذا كان بسبب الطقس غير المهادن أو لأسباب أخرى، فقد كانت التظاهرة، عموماً، غير حاسمة. ولكن ذلك لا يعني أن بعضها لم يكن فاتناً. فالبروفسور "كراغمور"، على سبيل المثال، في حين كان غير مبال كلياً، بقدر ما أعرف، بالوسطاء والشواميين*، كان مولعاً بشكل عاطفي بأي شيء منكّه بالـ "ألعاب الداخلية على الطراز القديم. ولقد كان الزر بيدنا... السترة العسكرية... الرجل الأعشى.... هرة في الزاوية... والسيد "أوستايا" دائماً في دور النجم- أو في الزاوية.

وفي مناسبتين أو ثلاث، حتى قبل واقعة دبوس القبعة، كانت الزاوية ضيقة جداً. جرى لعب إحدى الألعاب على هذا النحو

اتفقنا، بحضور السيد "أوستايا" وبمعرفته، على الشيء الذي يتم إخفاؤه. اخترنا، اعتبارياً، جدعة قلم رصاص اتفق أنها كانت مطروحة على مكتب "بيل".

* المعلمين الدينيين الهندوس .

رفعها السيد "اوستايا" وامسكها بولع برهة. ثم خرج من الغرفة، ومضى إلى الطرف الآخر من الصالة، بحيث لا يوجد تطلع من ثقب مفتاح أو تنصت على حركاتنا. أخفينا قلم الرصاص، في درج منضدة صغيرة، في الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة. وعاد السيد "اوستايا": جدلسنا جميعاً متحلقين وأخذنا نفعل ما نحب. وقف في وسط الغرفة، وكان سيجد القلم. إن الإدراك ما فوق الحسي، الذي يتجلى كاستبصار أو تخاطر، أو كليهما، كان سيمكنه من العثور على القلم. ما دمنا جميعاً كنا نعرف أين هو، فلربما ستهديه أمواج فكرنا. سيكون ذلك تخاطراً. وما دام يعرف ما كان، فلربما سيتمكن من رؤيته، من دون أن تساعد أمواج فكرنا. وسيكون ذلك استبصاراً. وربما يكون الاثنان عاملين.

كان أداء السيد "اوستايا" باهراً. تنقل ببطء حول الغرفة، متقدماً من الأماكن والأشياء - ومتقدماً منا أيضاً حيث كنا جالسين. كان يقف مستغرقاً في تفكير منتشر - أو كائناً ما كان - دارساً زهرية، أو متأملاً واحداً منا. بدا ذلك مناسباً تماماً. كان يمكن، بالطبع، أن يكون الشيء مخبوءاً عند أحدنا. كنا نتحدث عن أمور أخرى، أو نلزم الصمت، كما نشاء. خلال عشر دقائق - وهي وقت طويل في ظروف كهذه - كان السيد اوستايا يركز على زاوية الغرفة التي كان القلم مخبئاً فيها. وفي نهاية نحو عشر دقائق أخرى، فتح الدرج وأخرج القلم. أطلقنا صيحات إعجاب. ولكن السيد "وودوارد"، وبعضاً من بقيتنا أيضاً، لم يقتنعوا بأن أي فرضية ظنيّة عالية التحسس كانت ضرورية. بعد أن انتهت التعليقات المهذبة، بدأ "بيل" يبيري القلم بموسى "او كسام" الشهير. وافق على أن ذلك كان بالغ الإبهار، ولكن حتى لو كان السيد اوستايا مخلصاً في تصور أنه فعل ذلك بالتخاطر أو الاستبصار، فقد عرفنا جميعاً متى يصير دافئاً أو يصير ساخناً أو يبرد، وكان يمكنه أن يقاد إلى الهدف بإشارات بارعة، ويتناول برقة، ربما غير واعٍ من جانبه أو من جانبنا، ولكن مع ذلك من خلال توسط الحواس الاعتيادية. قال بيل:

"والأكثر من ذلك، فقد كان بمقدور أي منا، فنياً، أن يكون على اتفاق معكما، وربما كان قد قادك على وفق إشارات متفق عليها مسبقاً. إنني لا اصدق ذلك لحظة واحدة. أعرف أنه غير صحيح. ولكنه ممكن فنياً".

لم يكن السيد اوستايا مكدرًا أو فظًا غليظًا. كان بمقدوره أن يفعل الشيء نفسه، كما أكد لنا، معصوب العينين ومحشو الأذنين بالقطن، وملفوفاً عليه شريط لاصق. قاده "هيلين" أدنى الممر وتركته، مع جدران بعيدة، كبيرة، ثقيلة، وبابين مغلقين بينه وبين الأستوديو. أخذنا فيل عاج صغيراً عن الجدار وحشرناه في الأذنى وراء حشايها كنبه. وكانت "هيلين" في الغرفة عندما فعلنا ذلك.

استدعي اوستايا للعودة إلى مركز الغرفة، وهو يبدو مثل الضحية المضمدة لغارة قصف، ولم تكن ندري كيف سيمكنه أن يجد الفيل - ما لم يكن بمعجزة فائقة التحسس. وعلى كل حال، فقد تطور الأمر إلى أنه كان يجب أن يمسكه احدنا بيده. كان يجب أن تمسك يده عندما يكون في الظلام. يجب أن يبقى أحد إلى جانبه، ويجب أن يكون معه فيما يتنقل في الأنحاء، ويجب أن يبقى أحد إلى جانبه، ويجب أن يبقى على اتصال معه.

همس بيل: "م م، لا أستطيع أبداً أن أفعلها، ولا يستطيع أي منكم أيضاً. أظنني ربما أدري كيف يتم القيام بالأمر، ولكن المرء يجب أن يكون أهلاً لفعله. وهكذا، فقد أمسكت هيلين بيده، ولزمنا جميعاً الصمت هذه المرة، فيما بدأ بتنقلان ببطء حول الغرفة، مثل بيلاس وميليسانده"، كما همس أحدنا ما.

كان ذلك باهراً جداً. لم يكن في الأمر شيء مذهل. تجوّل اوستايا في الأنحاء، قائداً - هو - هيلين فيما يبدو. كانت هيلين تعرف الاحتمالات، مضاعفاتها وكان واضحاً أنها تبذل جهداً محدداً لتترك نفسها تقاد بتسليم تام. كانت مسلّمة، فيما أظن، إلى أقصى حد يمكن لأحد أن يكونه. ولكن عندما كانا يقتربان من شيء يمكن أن يرتطم اوستايا به أو يتعثر، كان يبدو عليها - غير واعية تقريباً - إنها تتردد، ولو قليلاً جداً. كانت تتركه يرتطم بالشيء أو يتعثر به، ولكن قبل ذلك بالضبط - كما بدا لي - كانت تعطي الانطباع بالانكماش، ولو قليلاً جداً. لم يكن ثمة تقريباً شيء يُرى أو يُسمع. مضى الأمر ببطء بالغ، ولكنه كان أمراً باهراً، لأنه كان قد وجد الفيل الآن. كنا آسفين تقريباً، جميعاً، عندما قال وودوارد:

"إنني آسف. هذا رائع. إنني لا أظن في صدق السيد اوستايا، ولكنني رأيت "جون مولهولاند" يفعلها، في نادي المتع الهولندي. وكان هوديني متعوداً فعلها. وقد فعلها اوستايا الآن وإنني أهنته.

ربما ليس في العالم دزينة من الأشخاص الذين يستطيعون أن يفعلوها. وعلى هذا الأساس، فالسيد اوستايا مدهش، ولكن بصرف النظر عن مدى السلبية التي حاولت هيلين الظهور بها، فلربما كانت لديها طول الوقت ردود فعل تحركها الأعصاب غير محسوسة لنا كلما صار "أدفاً" أو "أبرد"، كما كانوا يقولون، وكان السيد اوستايا يسجل هذه، واعياً أو غير واعٍ، باتصاله التحسسي بها. إنه أمر فائن، ولكن إذا ما طُلب إلينا أن نقبله دليلاً على أي شيء خارج الحواس الاعتيادية، فذلك يتركني، مع ذلك، في شك".

كان السيد اوستايا، الآن، مستاءً بوضوح. وكان آل سنكلير- الذين ليسوا كفلاء للسذاجة، وأرق وألطف الناس الذين عرفتهم على الإطلاق- مستاءين نوعاً ما أيضاً، كما بين الأصدقاء الجيدين، عندما يختلف الأصدقاء الجيدين. وكان السيد وودوارد يقول:

"أتصور أن بعضنا متشكك على نحو غير مسوَّغ في رفضنا لقبول ما فوق الطبيعي. ولكن هكذا أنا. اقترح أن نسمي الليلة بالجمابة وتنصرف جميعاً إلى سرداب مهجور".

فقال السيد اوستايا، المستشاط غضبه الآن:

"لا! قف! إنك تتندر عليّ، ليس لديك إيمان، إنك تنكر! هل ستؤمن إذا ما غرزتُ، ربما خنجراً في رأسي؟".

فرد مضيفنا المذهول:

"أرجوك ألا تفعل. لم أكن أدري أن مفهومك عن الشرف ياباني إلى هذا الحد. هنا، لا نجد أنفسنا مضطرين للذهاب إلى ذلك الحد. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا لا أحتفظ بخناجر في البيت".

فقال البروفسور "كراغموور" راجياً:

"عندي سيف "سامورائي"، وشقتي لا تبعد إلا نصف صف مبانٍ. سيسرني أن أركض إلى هناك فأجلبه....".

شرح آل سنكلير على عجل أننا أسأنا فهم محمّيه، فالسيد اوستايا لم يكن يهدد بالانتحار.

يبدو أنه كان لدى السيد أوستايا، من بين مواهبه فوق الاعتيادية الأخرى، موهبة جعل بدنه محصناً ضد الألم. يمكن أن تعدو الخيل الوحشية بسرعة وتدوس فوق صدره دون أن تؤذي، فيما يتمدد متصلباً مستلقياً على ظهره ومتخشباً كالمصابين بالإغماء. من أجل فيلم سينمائي، كان قد انطرح غشية مثل لوح خشب أو سمكة محصورة بين ألواح خشب بصلابة وبرودة ما يمكن أن يكون عليها ذلك، ورأسه على كرسي فيما عقباه على كرسي آخر، بينما هُشمت صخرة تزن ١٥٠ رطلاً من (الكاتراز) على بطنه بإرزية*. كما يمكنه أن يُثبَّت لولبياً في تابوت ويدفن تحت الأرض، فيما يمكن إجراء لعبة كرة، بما فيها الركض والمناولات وصخب التشجيع، على قبره.

لسوء الحظ، لم يكن لدى السيد وودوارد خيلٌ تحت اليد، ولم يكن في (الغروسفينور) أي اصطبلات. كما صادف أنه لم تكن ثمة صخور أو إرزيات متوافرة أيضاً في الشقة في تلك اللحظة. تذكر "كراغموور"، الكبير الأمل دائماً، أنه كان ثمة حانوتي إيطالي في شارع بليكر، كان يبقى فاتحاً محله طول الليل، وبيع التوابيت برخص ٢٥ دولاراً للواحد. مبطنة بقماش جبني**، رمادي ولها مقابض من النيكل المضاد للصدأ.

عرض البروفسور "كراغموور" أن يساهم بالخمسة والعشرين دولاراً، واقترح بمرح أن نزرع السيد أوستايا في (ساحة واشنطن). كان على وثام كبير مع بعض ماسحي الأحذية، وهكذا فقد كان بمقدورنا أن ننظم حتى لعبة الكرة مع صخبها، في الصباح التالي. لكن السيد أوستايا، الذي كان الآن مستشاطاً غضباً تماماً، كان منكباً على تبرئة نفسه في ذلك الوقت، والمكان، بأن يغرز شيئاً طويلاً وحاداً ومديباً عبر فكيه. كان ذلك في الأيام التي كانت فيها النساء ما زلن يلبسن قبعات، فعرضت إحداهن بسرور دبوس قبعة طويلاً للغاية وقتلاً، مزينة بنسر بروسي مطلي بالذهب. كان تذكارات حرب- سبق أن كان علامة نبالة لأحد الضباط- وقد لحم بدبوس القبعة، كراس له. ارتعشت بقية النسوة وقلن "أوو!". على السيد أوستايا، وكان سيفعل ذلك حقاً.

* المطرقة الثقيلة .

** قماش رقيق استعمل أصلاً للف الجبن .

كان يمسحه كما يفعل المرء بمِغُول* المبارزة، بمَنديل حرير لا شائبة فيه.

كان السيد وودوارد هادئاً، ولكنني سبق أن لاحظته ينخسه بحذر بالغ بإصبع على أحد فكيه السليمين السمينين المحلوقين حتى جذور الشعر. نهض فجأة وقال:

"انتظر الآن دقيقة. إنني أعتذر للسيد أوستايا. لقد كان لطيفاً جداً ولم أكن أنا لطيفاً جداً إزاء الأمر، فأنا اعتذر. أتصور أن الليلة تقدمت بعيداً جداً. أتصور أن علينا أن نشكر له، وننصرف جميعاً إلى السرداب كي نشرب ودياً".

عندما يصير بيل وودوارد في غاية الرقة ومنتقصاً لذاته فقد تعلم أصدقاؤه وبعض الناس الآخرين من التجربة أن يتوقفوا.

ولكن السيد أوستايا كان قابل السيد وودوارد تلك الليلة فقط، لم يصر مولعاً به بشكل مرعب، ولربما لم يكن سمع قط بأوبرا السيد وودوارد الكبيرة المسماة بـ "السريـر المبيّت".

وهكذا فقد رد السيد أوستايا ببطولة: "ولكنني أصر. لقد شككت بي، وأنا مصر على أن أريكم". فقال بيل:

- تريـنا ماذا؟ إن كنت تصر، فقد أخبرك أن ذلك لن يؤدي كثيراً على أية حال. ولا أظن أنه ينزف إن فعل ذلك أي إنسان. وهكذا، فلماذا تتعب نفسك بأن تفعلها؟".

عندئذ قام السيد أوستايا، بزَلَّتِه. لم يعرف، لا هو ولا أي منا أنها كانت زلة. ولكنه قال، بسخرية مؤدبة، شخصية، بولندية:

افترض أنك تتصور أن بمقدور أيِّ كان أن يفعلها....". فرد بيل بلطف مثل حمل:

"أظنني أقدر. على أية حال، سأجرب".

وقالت السيدة وودوارد على عجل:

لن تفعل". ولكن اعتراضها الزوجي لم يكن شيئاً بالمقارنة مع اعتراض أوستايا.

كان ينط. بعد نحو دقيقة من مهزلة "ألفونسو وغاستون" بالإنكليزية المقلوبة، التي كانا يصركان فيها كلاهما، هو وبيل، على نيل الشرف، قال كراغموـر:

"لم لا تأتيا بـدبوس قبعة آخر وتفعلها كلاكما؟". فقال بيل:

*سيف مستقيم طويل مدبب .

"اجلسوا، جميعكم.

أمسك بدبوس القبعة، نفخ وجنته، فتح فمه مثل سمكة محتضرة، وبدأ يدفع دبوس القبعة ببطء إلى لحمه. بعد أن اختفى نحو خمس بوصات منه جانبياً، معترضاً تجويف الوجنة، بدأت الوجنة من الجهة الثانية تنثأ إلى الخارج قليلاً. خرج دبوس القبعة مخترقاً. واصل دفعه حتى انغرز بضع بوصات على جانبي رأسه. ابتسم، أو حاول أن يبتسم، وبدأ يتحدث حديث أطفال.

كان السيد اوستايا يبحث الآن عن قبعته وعصاه، وانسل بلا جلبة خارجاً من الباب.

لقد أدخلت هذه الحكاية التافهة على موضوع جدي، كثيراً أو قليلاً، لأبين أنه- بينما ربما يكون التخدير الحسي ظاهرة صحيحة- فإنه لا يحدث بالضرورة دائماً عندما يبدو كذلك. إن القديسين، الصوفيين، الدراويش، والخبراء يمتلكونه كما أتصور، ولكنهم نادراً ما يعرضون قوتهم للمشاهدين، ولا يعرضونها قط لمجرد أن يبرهنوا على أنهم يمتلكونها. إنني لا أنكر أنه فعل ولكنه لم يكن يقترح أن يرفع الغطاء عنها تلك الليلة. إن تحفيز هذه الظاهرة أسهل، وغالباً ما يكون أكثر تأثيراً مسرحياً، كما في حالة غرز دبوس القبعة عبر الفكين، الذي لا ينطوي على جهد تركيزي قط وألم أو انعدام راحة ضئيل جداً- كتحفيز أو الإيحاء بحالة تنويم مغناطيسي ذاتي يستطيع فيها القديس "لورنس" أن يبتسم منتشياً في حين ينقل جسده- الذي صار بالنسبة له مجرد جسد- ويهش على المقلاة.

إنه أسهل- وأكثر إثارة- أن يتمدد المرء مرتاحاً، أو حتى غير مرتاح قليلاً على فراش من خوازيق من أن يركع أربعاً وعشرين ساعة كما كانت تفعل القديسة "تيريزا" من (آفيل)، أو أن يتدلى من رسغ واحد كما يفعل الأولياء المسلمون في طرابلس.

جرّيتُ سرير درويش من مسامير، في تركستان، وهو مخادع أكثر من دبوس القبعة المغروز عبر الفكين. إن هذا الأخير يتطلب قليلاً من قوة الأعصاب، ويوجع قليلاً- ولكن فراش الخوازيق، مع أنه يبدو رهيباً، هو أكثر انعدام راحة بقليل من السرير الكثير الكتل في الغرفة الاحتياط لعمتي من (هاوكينسفيل)، أو سطح منضدة براقية في الصالون حول الزاوية عن بيتها حيث تعودت أن أنام لأطرد نشوات شراب الذرة في حادثتي في جورجيا.

يمكنك أن تجربته بنفسك، إن سمحوا لك- أعني سرير الخوازيق- عندما ترى واحداً في عرض نادر ستندهش. ولقد اندهشت، عندما جريته على الطريق إلى (كاشغر). من أجل نيل الشرف، أعطيت ماله عشرين روبلاً، ولكي أحفظ ماء وجه الدرويش تركته يعلن للمتفرجين غير المتحمسين إطلاقاً أنني درویش زائر.

إن ما يتلخص إليه فراش الخوازيق هو مقدار فائق البساطة من الحساب. إذا عدت رقم المسامير، وخبّنت وزن الفقير، فستجد أن ثمة- عموماً- بضعة مسامير لكل رطل من وزن الفقير. ليست المسامير أو الخوازيق على الإطلاق مديبة تديب الإبر. إنها ليست حادة الذؤابات أكثر من تلك التي تشتريها من أي حانوت لبيع الخرداوات المعدنية.

يمكنك الآن أن تأخذ أربعة مسامير معدنية- أو ثلاثة لهذا الغرض- وتثبتها على لوح خشب، ثم احفظ على ذؤاباتها رطلاً من الفاصولياء الملفوفة بورق رقيق. لن تخرق المسامير الورق الرقيق أو تمزقه- ما لم تكن استعملت فاصولياء مديبة مكسيكية أو دفعت الكيس إلى أسفل. إن الأمر بهذه البساطة. وربما كان ذلك هو السبب في أن الدراویش الشرفاء اخترعوا أصلاً فراش الخوازيق عوناً للتأمل الصوفي في خصوصية غرف نومهم، قبل أن بدأ يظهر في العروض الجانبية لـ (جزيرة كوني) والأسواق الشرقية. إن الفارق الحاد بين فراش من مسامير وحشية هو أنك ينبغي لك أن تنام ساكناً عليه.

كان هذا سر درویش "بلاكامان" الشهير الذي كان نجم "سيرك ميدرانو" في (مونمارتر)، في أواخر العشرينات إنه يتمدد على ظهره فوق كومة من قناني البيرة المهشمة، في حين كانت فيه توضع أوزان ثقيلة على صدره، فيما هو يعادل موائد بدميه. كان السياح يتصورون قناني البيرة زائفة، ولكنها كانت خشنة حقيقية.

كان "بلاكامان"، الذي كان عارضاً عظيماً، قد تعلّم أن يبقي ظهره وكل عضلاته عديمة الحركة. وعلى الرغم من ذلك، كان ظهره غالباً ما ينخرق بالشظايا لو كان ليتحرك يتقلب، أو تتألم عضلاته، لكان ظهره ينجرح مهروساً نازفاً. لو أن فراش مسامير الدرویش كان أعجوبة أسهل من دبوس القبعة المغروز في فكّي المرء، فإن فراش قناني البيرة المهشمة أكثر خطورة وصعوبة بما لا يُحدّ.

لدى تذكرى تفاصيل السهرة في منزل السيد وودوارد قبل سنوات، أرسلت له سطرًا قبل أيام، وها هو ذا ما كتبه لي جواباً:

عزيزي ويلي:

طبقاً لدفتر يومياتي، فقد كان اسم الشاب أوستايا (في الأقل كان يُسمع على هذا النحو وقد تهجأته على النحو نفسه أيضاً) وكان بولندياً. كان تحت جناح آبتون سنكلير. لم يسبق لي أن دفعت دبوس قبعة في وجنتي من قبل، ولقد فعلت ذلك لمجرد أن أرى ما إذا كنت أستطيع. أتذكر أن ذلك أثار سُعر السيد أوستايا. تصورني أسرق عرضه، الأمر الذي لم يكن هدفي قط.

منذئذ، غرزت دبابيس قبعات في وجنتي مرات عدة. ليس في الأمر شيء، ويمكن لكل امرئ أن يفعله. كل ما هنالك ليكن دبوس القبعة نظيفاً، ويجب أن يكون حاداً جداً.

ثمة وجع وخز بسيط فيما يدخل في لحم الوجنة اليمنى، ولكن الألم الخفيف يتوقف على الفور. فيما يستقر الدبوس في موضعه، لا يمكنك أن تحرك لسانك، أو تتكلم، فذلك أمر مزعج.

أطيب التمنيات

و.ي.و.

ملاحظة كان التاريخ الأحد، ٢١ تشرين الأول، ١٩٢٨.

إن فضح زيف الحيل الداخلية، سواء في (نيويورك) أو في الطريق إلى (سمرقند)، لا يلغي إمكان أن التخدير الموحى به ذاتياً للألم البدني، والإجهاد، والإرهاق، قد يؤدي إلى مجال فاتن وربما مهم.

إن السيطرة الحقيقية بهذه الطريقة من الألم باعتباره ألماً، ذات أهمية مشكوك فيها، إلا في حالات نادرة حينما تكون المسكنات الاعتيادية أو مواد التخدير غير متاحة. ويعتبرها الخبراء الشرقيون، حقاً، إن أهميتها هي في توفير واحد من الأبواب، التي يمكن للعقل (أو الروح) - وقد انفلت متحرراً من المشاغل التحسسية، سواء أكانت مؤلمة أم مبهجة - أن "يجتازها" إلى عوالم أخرى من التأمل والتجربة. إنني اقترح أن أفحص عدداً من هذه التجارب المفترضة في الفصول الختامية من كتابي.

٦- الدرويشة "جوستين" متدلية

إن ما يدعوه البروفسور "راين" بال "إدراك المسبق"، أخذ لمحة وامضة على الأحداث التي ستأتي، إلقاء نظرة وامضة على الأحداث القادمة عبر "كسرة" لحظة الزمن، ربما هو أكثر إقلاقاً وإثارة من كل الظواهر التي تبدو فائقة التحسس.

إن السيدة الشابة التي سادعوها "جوستين" كانت تبدو في مناسبات نادرة مالكة زمام هذه القوة، ولكن من الظاهر أنها لم يمكن أن تستثيرها إلا عندما يكون الإرهاق والتوتر المستطيلان من نوع ما قد حقق انعزال "نفسها" الذاتية وتجردها من الطرف المتحسس للجسد الموضوعي.

وما حدث في هذه المناسبات بدا، جوهرياً، شبيهاً بما سبق أن وقع لي، تحت الشد التصادفي للإرهاق والفقدان المستطيل للنوم، عندما نجحت في تجريد "نفسي" الداخلية من الجسد الروبوتي الذي سبق أن جلس في تلك الأثناء مثل زومبي* عند عجلة مركب "هال سميث" وقاده الليل كله عبر عاصفة. عدا أنه حيث كانت "نفسي" التي يفترض أنها رفيعة، قد طرحت غير واعية، بدأت "جوستين"، لدى تجريد نفسها من جسدها الروبوتي المتعب، في التحرك إلى وراء وإلى أمام في فترة زمنية، إلى مغامرات غريبة وفي بعض الأحيان جميلة إن التكنيك الذي سبق أن استخدمته على المركب قد علّمني إياه الدراويش المولويون. والتكنيك الذي استخدمته عادة مع جوستين لبضع سنوات هو التكنيك الذي كان يستخدمه الرفاعيون، وهم طائفة دراويش في طرابلس، لقرون عدة. سبق أن حاولنا كل أنواع الطرق الغربية، وقد أكدنا على "تدلي لدرويش" بوصف ذلك الأفضل والأقل خطراً. في طرابلس، في تكايا الدراويش في الجزيرة العربية، إنها

* الأفي المؤهلة في الديانة الودونية .

طبيعية ومحترمة كما هي سارية علمنا المستقر عند معارض الإقليم، صائمين أيام الجمعة، أو راكعين في توسط روحاني طويل في كنيسة أو كنيسة قصر.

لو أنه بدا هنا متخبطاً القيود العجيبة، فذلك فقط لأننا كنا نفعل ذلك في مدينة (نيويورك). لم أغط ذلك قط - فكل امرئ يعرف دائماً كل شيء على أي حال - والأصدقاء الذين ساروا أحياناً فوقه جرى تشويشهم في عدد من المناسبات السخيفة. ولكننا كنا كلانا نعرف ما الذي يجري، وقد أجبنا ذلك كلانا. كنا نعشق أحداً الآخر، وإن لم نكن نستمتع بالألعاب التي كنا نلعبها، ما كنا بالتأكيد لنذهب إلى كل تلك المصاعب غير الأتانية للدفع الملتبس للمعرفة العامة إلى أمام (المسيطر عليها لا مختبرياً، في حالتنا، والعديمة الجدارة، بالتالي، بضعف ذلك)، في مجال علمي جديد مريب قور ريبة المفهوم فائق التحسس.

جازفت ألعابنا في بعض الأحيان بالخروج عن السيطرة. ولكن غالباً عندما تكون الأشياء في هذه الفئة على حافة الخروج عن السيطرة - على حافة المضي بعيداً جداً - تؤدي إلى النتائج الأكثر جدارة بالاهتمام.

سأرويها هنا منذ البدء، بدلاً عن توفير ذلك لذروة أخرى، بنتيجة ما جرى ذات ليلة عندما خرج تعليق الدرويش عن السيطرة، بسبب عدم انتباهي، قذف "جوستين" - عبر ما بدا أنه "كيسة" في الزمان إلى تجربة خارجية في إدراك مسبق جاءت نتيجته بعد عدة شهور في مكان يبعد ثلاثة آلاف ميل.

كانت "جوستين" على رؤوس أصابعها ذات ليلة. سبق أن رتبت كل شيء بعناية غير اعتيادية، لأننا كنا بدأنا مبكرين وكانت لدينا فرصة لجعلها تركض، إن ركضت، مدة سبع ساعات أو ثمان - وحتى أكثر. لم نكن قد مضينا إلى اختراع القناع بعد، وهكذا فقد أطفأت كل الأنوار، كما كانت تفضل، وسحبت الستائر المخملية الحمراء على نوافذ الأستوديو الكبيرة، بحيث صارت الغرفة في ظلام دامس تقريباً. كان نور ضئيل، أضال من أرق نور قمر، يأتي من الشارع في الخارج عبر الستائر الأخف للنوافذ الأصغر. سبق أن حاولنا ذلك في مناسبات أسبق بيد واحدة، كما يفعل الرفاعيون - مُمرِّين رسغاً عبر أنشودة جبل ناعم ثقيل يتدلى من حلقة في السقف ثم يدور حتى ينشد الجبل إلى التوتر الصحيح - ولكنها كانت وجدت أنه يشغل أفضل ويترك عقلها

أكثر حرية عندما كانت مثبتة من كلا الرسغين و"بقيت موضوعة". وتركها هذا يائسة مثل "اندروميديا" حديثة، يائسة جداً، في الحقيقة، لأنها لم تكن تحب أن تثار أو تُهدأ، أو يجري التدخل معها. وهكذا، فقد اعدنا ترتيباً بأدلة التلفون في تلك الليلة، كانت ثلاثة منها- دليل (مانهاتن)، ودليل (بروكلن) والدليل المبوب- مستقرة تحت رجليها عندما بدأ الأمر، بحيث أنها فيما وقفت ورسغها مشبتان فوق رأسها، كانت على رؤوس أصابعها إلى حد ما، ولكن أصابع قدميها كانت مستقرة على دليل التلفون. لو أن الحبل ارتخى- كما يقع أحياناً- أو لو أن الأشرطة اللينة حول رسغها انزلقت قليلاً، لأمكنها أن تدفع واحداً أو أكثر من الكبت عن تحت، بأصابع قدميها، من دون تدخل، لتستعيد التوتر.

في بعض الأحيان، في ليلة طويلة ما كان ليحدث شيء قط، وكنا سنتخلى عن ذلك.

وفي ليال أخرى، عندما كانت تمضي عبر الباب" فقد كان يمكن أن تقول أحياناً ما كان يجري في ذلك العالم الآخر في فترة الزمن، وراء أفقنا ثلاثي الأبعاد... إذا كان ثمة أي عالم من هذا النوع. وبالعدد نفسه من المرات كانت ستبقى صامتة طيلة الوقت، ولا تخبرني عنه إلا فيما بعد، إن كانت ستخبرني أصلاً. في شبه الظلمة كان يحدث أحياناً كثير من الانتظار المريض. كنت أخرج في بعض الأحيان وتركتها بمفردها طيلة الليلة وكنت سأخرج على النحو ذاته، خلال القسم المبكر من هذه الليلة، لأن شيئاً لم يحدث إلى حدود الساعة العاشرة ثم سمعتها تجرجر أدلة التلفون بأصابع قدميها، دافعة احدها عن تحت، كما تصورت، لتزيد التوتر قليلاً.

سرعان ما بدأت تتكلم.... بحلم في البدء. كانت عبر الباب"، وكانت تحظى بوقت بديع. نادراً ما كانت تذهب عبر ذلك الباب إلى أي رعب أو عنف. لم تكن مثل "ناساتيا فيليوفنا". في غشيانها، أو كائنة ما كانت هذه، فقد كانت تواجه أحياناً أشياء هي جيدة وجميلة. لو كان ثمة مثل هذا العالم الآخر وراء إدراكنا الاعتيادي، فثمة في الأقل حكمة ذات وزن أخلاقي هناك كما هنا أينما ذهبتن يتعين عليك أن تأخذ نفسك معك. لو كانت لك روح مستذئب فقط هنا فإنك تتحول إلى مستذئب، أو تقابل مستذئبين على الجانب الآخر من "الباب". إن الأمور التي قابلتها جوستين كانت،

بالإضافة إلى كونها جميلة، مدهشة ومسلية أيضاً في بعض الأحيان. لم تكن قط في أوروبا آنذاك، ولكنها كانت تتجول على طول رصيف، مطل على نهر، وكان وراء الرصيف قلعة أو قصر هائل.

كانت ثمة جماهير، عربات شارع، حوانيت، سيارات، ناس على دراجات هوائية. تصورت أنها قد تكون لندن، كما وصفتُ بسرور الأشياء التي كانت ترمقها. كانت قشي.

توقفت لتنظر إلى الزوارق الصغيرة التي كانت تمر في الجدول. أردت أن أسألها بأية لغة كانت كانت علامات الشوارع، وبأية لغة كان الناس في الشوارع يتكلمون- ولكننا علمنا أن مثل هذه المقاطعة غالباً ما كانت تقطع الاتصال. فيما كانت تتكلم، واصفة، ومندهشة من طرافة المباني أو جمالها، تولد لدي الانطباع بأنها لم تكن (لندن). تساءلتُ إن كان يحتمل أن تكون (بودابست)، أو ربما جزءاً من (فلورنسا) القديمة. لقد كانت على نهر كبير، وكانت بديعة كما وصفتها. ولكنني لم انفعل كثيراً بشأنها. أية مدينة معينة اتضح أنها هي، فقد كان، ببساطة، يمكن أن تكون رأتها في أفلام الأخبار، في تصاوير في مجلة "ناشيونال جيوغرافيك"، أو في أية مجلة عرضية، منسية- أو ربما في كتاب قديم ما رأته وهي فتاة صغيرة ونسيتها منذ وقت طويل بذاكرتها الواعية.

لهذا السبب يكون صعباً إثبات "الاستبصار" المفترض أو جعله يقف، من هذا النوع أو أي نوع آخر.

استدارت إلى شارع جانبي، شاقة الطريق مبتعدة عن الرصيف والنهر، وقد اجتذبتها صوت الموسيقى، وجاءت حالياً إلى المهرجان، مع دوامة الخيل، النشار*، المهرجين، العجلات ذات المقاعد، أكشاك الحيوانات، كان ثمة دب راقص بقبعة مدببة على رأسه، وكان ثمة مهرجون. كان مثل سيرك، كل ما هنالك أن المهرجين وعربات الحيوانات لم تكن تحت الخيم.

أدهشها ذلك، ولكنها كانت تستمتع به. كانت ترى أحد معارض الشوارع الكبرى

* قصاصات الورق التي تشر على الرؤوس في الاحتفالات والمهرجانات .

في القارة- ربما ال (فواردي نوبي). ولكن ماذا لو كانت مندهشة ومستمتعة فعلاً؟ كان يمكنها أن ترى الشارع أولاً (ونسيت، عن وعي، الأمر فيما علقت بعقلها الباطن) في فيلم أخبار عن الأحداث الجارية أو في مسرحية، على شاشة، مصنوعة في هوليوود. ذهبت إلى إحدى الخيم حالياً لتشاهد الأسود المدربة. كانت ثمة مدربة أسود، على مسرح مرفوع، وراء القضبان، تجعل أسداً يقوم بألاعيه. قهقهت جوستين حالياً قليلاً. كان أسداً غريباً. كان اسداً عجوزاً، متعباً وكما لو أنه كان محفوظاً بين كرات مضاد العثة. وكانت مدربة الأسود "جذابة"، بجزميتها وجاكتتها الحمراء. كانت جميلة كانت جميلة، حتى لو كان لديها شعر مشقر وكثير من الصباغ الأحمر على وجنتيها. ها هي ذي تذهب الآن لتضع رأسها في فم الأسد. نعم، كانت تتمدد مع الأسد. أوو، نعم، لقد فعلت! لقد وضعت رأسها داخل فم الأسد الهائل بالضبط وبعد ذلك كان الأسد قد نهض وتثاءب. جاء إلى مقدم القفص وتثاءب. قهقهت جوستين: "لو كان أسدي، لكنت علمته أن يزأر".

لزمت جوستين الصمت الآن، في شبه العتمة، لدقيقتين، ثم أطلقت لهاثاً وقهقهة، وقالت: "لا أصدق ذلك! لم يحدث!".

كنت أتساءل ما الذي لم تصدقه، ما الذي لم يحدث، عندما انفجرت في نوبات من الضحك، وصرخت:

نعم، لقد وقع! لقد وقع حقاً! ظن الآخرون أنه مزحة أولاً، جزءاً من العرض. وتصورت ذلك أنا أيضاً. تلك المرأة في الصف الأول مع الرضيع كانت غريبة جداً!".

كانت جوستين قد تركت الآن معرض الشارع وعادت متجهة إلى الفندق، أو حيثما كانت ذاهبة في العشية، وقد أخذت سيارة أجرة. كانت لا تزال هادئة. ويبدو أنها كانت تمتع نفسها. كان صوتها هادئاً ناعماً، مسروراً كنت قد نسيت، تماماً تقريباً بقدر نسيانها هي جوستين الأخرى التي سبق أن كانت واقفة، طيلة ذلك الوقت ورسغها مرفوعان إلى أعلى فوق رأسها، هناك على رؤوس أصابعها، على أدلة التلفون. والآن، في فترة الصمت، لم أحب صوت تنفس جوستين الأخرى. وأشعلتُ النور.

كانت الساعة الآن نحو الثانية صباحاً، وكانت آخر خلط غير منتظم لأدلة التلفون، أو أي حركة أخرى قبل العاشرة مساءً. كان ما سبق أن فعلته هو أن تدفع أو ترفس كل

أدلة التلفون السميكة جانباً. لأكثر من أربع ساعات، كانت تتدلى هناك غير ماسّة الأرض، معلقة من رسغيها، وكامل وزنها يتعلق برسغيها، وأصابع قدميها تتأرجح على ارتفاع نحو بوصتين عن الأرض.

كانت الشفتان، اللتان سبق أن كانتا قبل ذلك يسيل منهما دائماً كلام هاديء، مهدىء، مبتهج، وفي بعض الأحيان مسرور وضاحك، قد عضتها وسحجتها أسنانها هي، وكان وجهها ملوياً ألماً كوجه فتاة تبكي حين لا تنهمر الدموع. كانت عيناها زجاجيتين، صافيتين، منتشيتين، مفتوحتين على اتساعهما في الضياء.

أربكها الهواء، ولكنها كانت لا تزال بعيدة. وعندما رفعتها وأرخت الأشرطة حول معصمها، قالت: "لا تفعل! لا تفعل! إنني أرى...".

حملتها إلى أريكة، جعلتها تشرب قليلاً من البراندي، وبدأت تفرك رسغيها. لم تتشاجر قط - ولكنها كانت تلك الليلة غاضبة جداً بحيث أنها هددت بالآ تعود قط. قلت: "انظري إلى رسغيك! يسودان ويزرقان غداً، وسيبقى إبهاماك خدرين أسبوعاً". فقالت:

"إبهاماي! ظننتك شجاعاً جداً وجريئاً، وأنت تخبرني أن رسغيّ سيسودان ويزرقان! إنها رسغاي وإبهاماي، إن شيئاً بديعاً يحدث لي. إنه يختلف عن أي شيء حدث سابقاً". قلت:

"لقد قمت بحيلة قذرة عليّ هناك في الظلام. ما كنت لأفعل ذلك لك - لمدة أربع ساعات وما كنت لأسمح لك بأن تفعلها لنفسك...."، فقالت

"لقد فقدت أعصابك، وإنني استخزي منك. أقول لك إن هذا مختلف".

كيف يختلف؟ كيف، على حافة شيء يمكن أن يكون هائلاً لو أمكنت السيطرة عليه - كيف ربما فوق الحافة فعلاً، كانت جوستين تلك الليلة، لم أعرف، وكنت ما أزال لا أعرف في الصيف التالي، عندما كانت ستة أشهر قد مرت، وكانت هي في سفرتها الأولى إلى أوروبا، وكنا نقضي أسبوعاً معاً في جنوبي فرنسا.

في عصر ذات يوم قدنا السيارة إلى (افينون)، وكنا نسير على امتداد الرصيف نحو الجسر القديم، و(القصر البابوي) على يسارنا، عندما قالت:

"ولكن ها هو ذا! هذا هو المكان الذي كنت فيه تلك الليلة، الليلة التي تشاجرنا فيها لأنك أعدتني سريعاً جداً. ذاك هو الرجل على الدراجة، لابساً قبعة ديربية* وهاته هن الفتيات الثلاث يضعن شالات، وذاك هو القس على دراجة. أتذكر كم كان القس مضحكاً، في أروابه، مع لحيته، على دراجة.....".

كنت خائفاً قليلاً، ولا أزال متشككاً. فكرت:

لقد رأت (افينون) من دون أن تكون في أوروبا قط من قبل. (القصر البابوي)، الرصيف والجسر المشهور هي موضوعات تمثيلات محاضرة مصورة".

"إنك لم تذكر قط أي قس على دراجة، أو رجلاً بقبعة قذرة على دراجة أيضاً".

فسألت:

"ألم أفعل، يا ويلي؟ لا أدري ما قلته تلك الليلة. هل أخبرتك عن معرض الشارع؟ اسمع، يمكنك أن تسمع الموسيقى تقريباً الآن. ستعلو دوامة الخيل تلك الزاوية الثانية الآن، حول دورة أخرى، مع الخيم والمهرجين".

قمنا بالدورة الأولى، وبدأت أسمع دوامة الخيل، فأنكمش قشعريرة. أحس قفا عنقي بالبرد. كنت كُلي بشرات قشعريرة، وكنا ممسكين أحداً بيدي الآخر بإحكام، إلى حد ما، عندما صرنا في معرض الشارع ذاك. حاولت أن أسيطر على نفسي، بقيت أفكر: "كلا، لا يمكن أن يكون. إن معرضاً يقام هنا في كل صيف، المعرض نفسه، المهرجون أنفسهم، الحيوانات عينها، الدب الراقص ذاته، مدرية الأسد ذاتها. لا بد أنها شاهدته في فيلم في مكان ما". وبقيت أقول لنفسي أنها لا بد رأتها في فيلم في مكان ما. بقيت أقول لنفسي إن مدرية الأسد تكون دائماً امرأة صغيرة تلبس جزمة، ومعطفاً أحمر، ولها شعر مشقر، والكثير من الأحمر على وجنتيها. ويكون الأسد دائماً عجوزاً، وهي دائماً تتمدد وتضع رأسها في فمه. ولكن، أيتشاب دائماً كما يفعل الآن؟ لا بد أنه تشاب، في أي فيلم أو محاضرة مصورة سبق أن شاهدته جوستين أو حضرته ثم نسيتها. لأنه كان يتشاب الآن.

كان بالتأكيد جزءاً من المشهد. قالت جوستين وبدأت أصاب ببثور القشعريرة

ثانية:

* قبعة مستديرة، تكون سوداء عادة.

"لو كان أسدي، لكنت علمته أن يزأر".
ثم جلسنا هناك. قالت بانفعال:
"سيبل أولئك الناس الجالسين في الصف الأمامي".
كانت مصطبات الصف الأمامي على بعد ستة أقدام من المسرح المحصور بقضبان،
وعلى مستوى أدنى.

تناقل القط العظيم، مشى منحرفاً إلى القضبان الأمامية، أدار ظهره، قرفص
نصف قرفصة، وأطلق جدولاً هائلاً من سائل عنبري، تقوس في الهواء وتطرطش على
ملابس ووجوه الناس في منتصف الصف إلى أدنى من هناك.
كان الجمهور مندهشاً، ثم راح يقهقه، ثم يصيح مرحاً، وانفجرت جوستين في
نوبات ضحك.

أمسكت بي وقالت:
"راقب المرأة ذات الرضيع! ستنهض الآن....".
نهضت المرأة، وهي فلاحه حاسرة الراس تضع شالاً أسود، ممسكة عالياً طفلاً ناحباً
كانت تمسح وجهه، صعدت على المصطبة، وصرخت بسُعر، باللهجة المرسلية:
"لقد رأيتم ذلك! أطلبكم للشهادة! على الوجه! في عيني بريئي العزيز! في الوجه
بال. إنه وجه "بويون" الصغير! من أجل هذا دفعت فرنكين وخمسين سنتيماً!".
نبح الجمهور عليها وضربها بالبيض.
قلت لجوستين:

"هل استطعت أن تفهمي ما قالت؟". فقالت جوستين:
"كلا، لم استطع أن أفهم كلمة منه، في أي مرة. ولكن الأمر كان ببساطة،
مضحكاً جداً، ألم يكن كذلك؟ إنني مسرورة لأنك رأيته أنت أيضاً".
انزعجت أكثر مما سبق لي أن انزعجت قط بشأن أي أمر رما. كنت أفكر في
"كسرة" الزمن، في لوازم أينشتاين، في عبارة كتبها أعظم رياضيي جامعة كولومبيا،
الدكتور "كاسيوس جاكسون كايزر": "إن تزامن الأحداث نسبي، غير مطلق، إن معنى
الزمن مجرد معنى ناقص كبعد رابع في الفضاء". ومع ذلك كنت مقتنعاً. ثمة معتقد

في المنطق الفلسفي، يدعى "شفرة اوكسام" *، يقوم على نكران ضرورة زيادة عدد الحكام على قضية جوهرية. فكرت: "يمكن أن يكون هذا الأمر كله قد وقع قبلاً. قد يكون جزءاً من مشهد.... كما قد يكون التثاؤب جزءاً من مشهد بالضبط.... ويمكن أن يكون أمسك في فيلم- أو يمكن أن تكون جوستين قد قرأته".

في الصباح التالي ذهبتُ وحاولت أن أخلق مدربة الأسد بشفرة اوكسام. ظننتني محامياً، أو شاكياً، وقالت إن بمقدوري أن أكلم زوجها، الذي هو مدير العرض. أقنعتهما أنني صحفي، وأن كل ما كنت أريده هو أن أعرف إن كان الشيء جزءاً من المشهد، أو إن لم يكن جزءاً من المشهد- ما إذا كان سبق ووقع قط. فاحتجاً: "ولكن يا إلهي!". طبعي أنه لم يسبق أن وقع قط! كل ما هنالك أنهما اشتريا الأسد العجوز في كانون الثاني. لقد اشترياه لأنه كان "لاعباً عريقاً" عجوزاً ولد في قفص، ولد في شغل الاستعراض.

أسبق أن سمعا قط بشيء كهذا يحدث من قبل مع أي أسد؟ فضحكا: "ليس من خلال قضبان القفص! ليس على النظارة. كان ذلك سيكون مضحكاً، لو لم يتطرش أحد. إن الأشياء المستحيلة، غير المتوقعة، التي يراها الأسود هي دائماً الأغرب. ذات ليلة مع هذه الدببة الثلاثة في ال (ميدرانو)...."، كانت المرأة تقول. وسألتُ:

"أعملين في ال (ميدرانو)؟". فقالت مفتخرة: "طيلة حياتي. هذا هو الموسم الأول الذي أعمل فيه إطلاقاً في معرض بالشارع". تبادلنا، أنا وجوستين، أحاديث مطولة عن الأمر، وأحسنا أننا ربما كنا على حافة شيء هائل. كنا نعرف كلانا أننا لو استطعنا أن نسيطر، حتى إلى حد بسيط ما، ثم نركز هذه اللحظات خلال كسرة الزمن، لو أن ذلك هو ما كانته حقاً، فسرعان ما ستكون لنا حلقات حول أصابعنا وأجراس على أصابع أقدامنا وأفيال نركبها، لو كنا نفضل الأفيال على سيارات ال "رولس رويس". كان ذلك هو جحيم هذا الأمر كله- أنه لو امتلك أياً كان وأمكنه السيطرة على أي مرحلة من الاستبصار، فهو يمكن أن يكون

* ينسب إلى الفيلسوف وليام أوف اوكام الذي هاجم المبدأ القائل بأن سلطة البابا تفوق كل سلطة دنيوية .

أقوى من "جَيّ. بي. مورغان" أو البابا. إن حقيقة كون أحد لم يستخدم قط الاستبصار أو الإدراك المسبق بفاعلية عملية، سواء في جامعة ديوك أو على قمة في التبت، هو أقوى دليل لي على أن المفهوم فائق التحسس، إن كان ثمة مفهوم كهذا، لم يمكن قط السيطرة عليه أو التركيز إلى درجة تستحق الانفعال بشأنها.

لو أن جوستين، على سبيل المثال، أمكنها قط أن ترى وتقرأ صفحة سوق الأسهم للسنة التالية في الـ "هيرالد تريبيون"، أو صفحة الأسبوع القادم أو صباح الغد، فإنها يمكن أن تكون أغنى من زوجة مهراجا قبل أن تغرب الشمس التالية.

ولكن، كائنة ما كانت القوة المنطلقة بسرعة التي تمتلكها، مع أنها تعود خافقة متضائلة في بعض الأحيان، فما كنا لنستطيع السيطرة إلى المدى الأدنى. ومن أجل تركيزها- فإن الشيء العملي الوحيد الذي جلبته كان برميل سمك مجمّد، ذات مرة، في (كندا). كان ذلك كالتحدث إلى شبح "أوقليدس"، في جلسة تحضير أرواح عبر وسطاء، وجعل شبح ذلك العبقرى العظيم يخبرك أن خطأً مستقيماً هو المسافة الأقصر بين نقطتين. كان مثيراً بشكل هائل، ولكنه لا يوصلك إلى أي مكان.

٧- جوستين مقنعة

من المعارف العامة أنه عندما تخمد إحدى الحواس الخمس الاعتيادية، سواء على نحو مؤقت أو دائم، فإن الحواس الأخرى قد تميل إلى أن تصبح أكثر حساسية بكثير.^١ انظر فيما حولك إلى أي نظارة في قاعة كارنيجي"، أو أي مجموعة تستمع إلى موسيقى الحجرات*. ستكون أعداد من الناس مستمعة بطرب وأعينهم مغمضة. ليس هذا دائماً توضعاً، مع أنه يعرض نفسه بيسر لن يفهم وكأنه تظاهر.

لكن بعض الناس يسمعون أفضل، عملياً، بعيون مغمضة، أو في الظلام. كما أنه على القدر نفسه من العمومية بين الناس الذين جربوا مسائل من هذا النوع خارج المختبر، لأي سبب مهما كان، إن الخطوات المتخذة نحو التهدة إلى نعاس، تهويد، تبلد أو محور الحواس الخمس جميعاً إلى أي مدى يصمم تكون الخطوة الأولى نحو سرعة تلقي الأفكار فائقة التحسس.

إن الظاهرة الأكثر معروفة في دنيا الحواس الخمس الاعتيادية هي حالة الأعمى، الذي تكاد تكون حاسة لمسه دائماً حادة بشكل غير طبيعي، وتكون حاسة سمعه أحياناً كذلك. إن حاسة اللمس المتزايدة لدى الأعمى تبدو في بعض الحالات وكأنها تمتد بعيداً وراء الاتصال الجسدي الفعلي مع أي شيء، سواء بالأصابع أو بالبشرة. كان "باول دوناهو"، المحامي الأعمى، محققاً في أسباب الوفيات المشتبه بها في (منطقة ريتشموند)، ب (اتلانتا)، في (جورجيا).

١ - إن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة يكمن في العلاقة المتينة بين حاستي الشم والتذوق المتحدتين . من الواضح أن هاتين الحاستين متداخلتان على نحو وثيق جداً بحيث أنه عندما تخمد واحدة منهما ، تكون كلتاهما قد خمدتا . ولكن أي اثنتين أخريين من الحواس الخمس ليستا متداخلتين العلاقة على هذا النحو .
* هي التي يعزفها موسيقيون قلانل لجمهور صغير .

كان يمكنه أن يحدث، يمكنه أن " يحس" بطريقة ما، بالدواخل والخوارج، متى ما اقترب إلى نحو أربعة أقدام من أي شيء أو عائق صلد.

ليس ضرورياً أن يكون ذلك جداراً كبير الحجم، أو سطحاً واسعاً، مثل جانب بيت، مع أن مثل هذه العوائق الثقيلة وواسعة السطوح هي الأيسر من بين العوائق.

وكان بمقدوره دائماً أن يقول، على نحو مشابه، عندما يقترب من باب، ما إذا كان مفتوحاً أو مغلقاً. وكان يمكنه أن يعرف دائماً تقريباً، ولكن ليس من دون خطأ، عندما يقترب من عمود تلغراف أو عمود مصباح، أو يمر على مقربة أربعة أقدام منه.

لم يكن "باول" معنياً بالاستبصار أو أي منحى من مناحي ما فوق الطبيعي، ولم ينسب حساسيته إلى أي شيء غامض. لكنه كان راغباً في التكلم عنها، وقد علمت أنه، في حين لم يكن فيه واثقاً من كيفية فعله ذلك، كان يعتقد أنه يمكن أن يفسر بمفهوم حساسية اللمس الفائقة، حساسية السمع الفائقة- وربما مزيجاً من الاثنين. لم يكن يمكنه أن يكون واثقاً، ولكنه كان يعتقد بأنه يحس، ربما على بشرة وجنتيه أو يديه، وربما بجسده كله، فرقاً دقيقاً ما في كثافة الهواء، عند الاقتراب من الأشياء الكبيرة الصلدة، أو بعض الاختلاف ربما في اهتزازات الهواء أو تيارات الهواء. قد يكون ذلك هو المفهوم الاعتيادي لللمس، المزداد رهافة وحساسية- ولكن المتحسس على الدرجة نفسها بالتأكيد عندما يحس المرء نسمة على وجنته- أو يضربه إعصار.

بالإشارة إلى احتمال حساسية السمع المفرطة لديه، تصور أنه ربما كانت أي أصوات، حتى أخباها، يصادف أن يكون في الجو، تحدث أمواجاً تُقَاطِع، تُحرف قليلاً، ترمى إلى وراء مشوشة قليلاً لدى اتصالها مع الأشياء الصلدة. وإذا ما كان هذا صحيحاً، فستكون حاسة السمع الاعتيادية، وقد رفعت حساسيتها بشكل غير طبيعي- ولكنها تكون متحسسة بالتحديد كما عندما يذهب المرء إلى ما وراء حظيرة "جونني ماك" ويصرخ، فيسمع الصدى. لم تُخترع بعد صفارات الكلاب التي لا تستطيع أي أذن بشرية أن تسمعها. وإذا ما كانت اخترعت، لكنت أحب تجربة واحدة منها على "باول".

كانت جوستين من نوع الفتيات تامات اليقظة، حادات الذكاء، حساسة ونشطة مثل هريرة، ممتلكة تماماً كل حواسها الخمس البدنية، وعبدة لها ولعاداتها كما كل

إنسان. كانت تميل، في الواقع، إلى أن تصبح امرأة ثرثرة. وفي تجاربنا - إن كان يمكن تكريمها بهذا اللقب - في "الألعاب" التي كنا نلعبها والتخيلات التي انغمسنا فيها، سرعان ما اكتشفت أنه عند الحرمان المؤقت من هذه الحاسة أو تلك وعاداتها الملزمة، كان ذلك يجعل الحواس، التي تُركت حرة، أشد تلقياً وأكثر إثارة للاهتمام. كانت تأتي أيام، مثلاً نلعب فيها اللعبة التي لا يُسمح لها فيها بأن تستخدم يديها. لم يكن يُسمح لها بأن تلمس أي شيء مهما كان. لو كانت تنسى، فتتناول شيئاً ما، أو تسوي ثوبها، أو تُرجع شعرها إلى وراء، أو تحك أرنبه أنفها، كنت أوثق يديها وراء ظهرها لمدة يومين. لم نكن نفعل ذلك بقدسية، في صمت متكتم، أو في الخفاء. لم نبأه بذلك قط، ولكننا لم نبال قط بأن نغطي عليه كثيراً أيضاً.

جوستين معنا مرتدية كاباً* سائباً، كنا نمشي ونجلس في المتنزه، نستأجر سيارات، ونذهب إلى المقاهي والمسارح. لم نكن قط محبين لعرض ذلك.

لكننا كنا نذهب إلى أماكن بدلاً عن البقاء وراء أبواب الاستوديو المغلقة. لم يكن الناس يلقون علينا أكثر من لمحة ثانية، لم يكونوا يبالون قيد أغلّة كانت جوستين جميلة كالصورة في تلك الأيام، رابطة الجأش وسعيدة مثل طفلة. لا يتدخل أحد مع طفلة رابطة الجأش وسعيدة، حتى إذا ما كان الصديق يغرز فيها دبابيس. يحسب الناس أن ذلك شأن الفتاة الخاص. لا أحد، حتى ولا النادل أو الزوجان على المائدة المجاورة، ألقى أكثر من لمحتين، حتى لو كنت امسك كأساً أو ملعقة عند شفيتها، أو أسرح شعرها، إلى وراء، بالفرشاة. رأوا فتاة لم تكن مشوهة، معاقة، جدعاء، ولكن لم يكن بمقدورها أن تستخدم يديها. كانوا على حق في ذلك. لم تكن تستطيع. حسبوا أنه لو كان ثمة شيء إجرامي في الأمر، فإننا ما كنا لنكون هناك، في صالون الشاي في ال (سان ريجي)، مستمتعين. وكانوا على حق في ذلك أيضاً. كنا زوجاً من طيور الوقواق، متعبين من الرتابة، ونصنع عوالم لعبنا الصغيرة الخاصة لنعيش فيها. وقد أسررت بذلك كله، في الأيام الماضية حين كنا نفعل ذلك، إلى صديقي الدكتور "أ. أ. بريل"، عميد الفرويديين في أميركا. وقد استمع إلى ذلك بتسلّ مندهش ولكن

* معطف عديم الأكمام .

غير مذهول.... وقال إنه كان للإغريق اسم يطلقونه على ذلك. لم نكن نحتاج إلى عميد فرويديين كي يخبرنا بذلك. كان المرح الجنسي الذي نحصل عليه من ذلك حصراً هو شأننا الخاص وليس له أهمية فيما يتعلق بمغامرات معينة في هذا المجال، يحاول هذا الكتاب أن يتناولها. وإذا ما كنت أذكر تلك الزاوية إطلاقاً، فليس ذلك من طبيعة اعتذار، وإنما ببساطة لتوضيح حقيقة أنني لست نعاماً، ولست أكتب للنعام.... ولا للأبرياء.

ثمة معان إضافية جنسية، منحرفة في طرقها المختلفة والأكثر ألفة، ما بين صفحة وأخرى من الصحف اليومية، في الحوارات السقراطية، في الأسفار المقدسة، في القصائد الغنائية السحاقية وسوناتات شكسبير.

إن مثل هذه المعاني الإضافية غير ذات شأن ما لم تكن مؤكداً عليها بشكل خائق ومكررة بالبحاح. لو كانت مكررة بالبحاح فهي غير ذات أهمية لأي شخص وإنما فرس نهر آخر^١.

إن شيئاً واحداً مما ينتج من الأمر بالأيدي، وما يمكن أن يكون ذا أهمية عامة، كان اكتشافنا للاتصالات العرضية، غير الواعية تقريباً، وغير الضرورية عموماً، اللمسية للشخص الطبيعي التي يمارسها باليدين في مجرى يوم اعتيادي. إنك، وتسعة وتسعين ممن يمكن أنك تعرفهم، تلمسون، من دون أن تعلموا، مثلاً، ذقونكم أو جباهكم أو وجوهكم أو شعركم، لمساً رقيقاً، كما لو أنكم تبعدون نسيج عنكبوت متصور، أو كما لو أن وجوهكم ذاتها هي هريرات فتقومون بالترتيب عليها، بخفة وشرود في لحظات نادرة.

وستقوم بذلك، ما لم تكن يداك مشغولتين على الدوام، في الحياكة أو الطباعة، أو تشد البراغي في ناقلة "فورد"، بمعدل ١٥٠ مرة في الأقل يومياً.

١ - "فينوس في الفراء" لـ "زاخر-مازوخ". أجزاء من "عشيق اللايدي شاترلي" لـ "دي. ه. لورنس"، "جامياني" لـ "الفرد دي موسيه"، و"كوريدون" لـ "اندرية جيد" غير جاذبة لاهتمام غير أفراس نهر أخرى. إن "نساء عاشقات"، "سوناتات" "شكسبير"، "المزيفون" لـ "اندرية جيد"، و"موت في البندقية" لـ "توماس مان" لا يجري فيها تأكيد الجنسية الذهنية أكثر من اللازم أو تكرارها بالبحاح. وهي غير ذات أهمية دائمة لأي كان. لقد عرفت عدداً من أفراس النهر الجاذبة. ولكن هذه القصة ليست لهن.

إنك تقوم بالتربيت على ركبتيك، أو مداعبة مرفقك، تعدل بلا مسوِّغ تفصيلاً أو ثنية في ملابسك، لامساً أو مطبباً ذراع كرسي أو منضدة، والخ... مئات عديدة من المرات في مجرى الثماني عشرة ساعة ذاتها.

وتتضمن تلك جميعاً انطباعات تحسسية بسيطة، غير واعية عموماً، ما لم تربت-شارداً- مدفأة محمية حتى الاحمرار أو مكعب ثلج، خطأ- وهذه الحقيقة هي التي تساعد في تفسير سبب بقاء الخبراء وممارسي اليوغا الشرقيين عديمي الحركة وخدرين، مثل صور خشبية أو تماثيل جصية، عندما يحاولون أن يسببوا الانفصال عن الحواس، التي يمكن أن تدع المفهوم فائق التحسس يدخل.

في لعبة محاولة التهويد، التخدير، أو محو "الأشياء التحسسية التي لا تعد ولا تحصى التي تثبت من دون وعي بمعدل ربما بضعة آلاف في الثانية عبر مجموع الحواس الاعتيادية الخمس، أجرينا بعض التجارب بالصوت والسمع، ولكننا لم نمض بها بعيداً جداً. سبق أن أعطاني "باول موران" صندوق كرتات زهرية مع قطن وشمع- كانت قد اخترعت حديثاً حينذاك- لجعل النوم أسهل عندما تمر سيارات الإطفاء في الشارع أو يقوم الجيران في الشقة السكنية بمرح صاحب بعد منتصف الليل... ولكنها، ببساطة، تخمد الصوت. وإضافة إلى ذلك، فإن أذنيك بالذات تنزان في الداخل. لقد انفق "بوليتزر" الأكبر آلاف الدولارات ليجعل غرفة تبطن بالفلين وملفوفة بالحرير، تُشرنق الجدران أيضاً، فيما يقال، محكمة بصوف المناجم)، ولكنه بقي يسمع، أو يتصور أنه يسمع، أجراس الكنائس تدق. وحتى لو أنه لم يسمع الأصوات الخارجية، فقد كان ذلك لا يزال مكاناً صاخباً. كان قلمه وكأنه ققط تخمش، وعندما يوقع قلم رصاص على السجادة كان يصوت كما لو كان قنبلة أعماق ذات انفجار معوق. الفراغ هو الشيء الوحيد الذي يحو الصوت كلياً، ولا يمكن للمرء أن يحيا في الفراغ.

في مجال الأمواج الضوئية، النظر والرؤية، حققنا، أنا وجوستين، تقدماً أفضل وحصلنا على نتائج مثيرة للاهتمام. لو كانت طريقتي في تعريف ذلك الحقل تبدو تكرارية بشكل غير مفيد فذلك بسبب أن الحقل ذاته، كما اكتشفنا سريعاً بعد ذلك، معقد ومخادع. إن أي ضغط على الأجفان المطبقة يجعلك ترى نجوماً وأقواس قزح صغيرة تتطوع. ولو أنك ضغطت أكثر على أجفانك بباطن إبهاميك فسترى الشفق

القطبي الشمالي ونار (سان فرانسيسكو). وأي ضغط بسيط، مثل تعصيبك وقتاً طويلاً أو وضع "قناع النوم"، المصنوع من الساتان الذي شاع منذ ذلك الحين وصار يباع في المحلات الموكبة للموضة، أو مجرد أن تبقي عينيك نصف مغمضتين بثبات فسُنتج ذلك سهماً صغيراً متعاكسة ويقع ضوء أو خيالها.

ولقد جربناها بتلك الطرق المتنوعة، وراء الأبواب وفي الخارج، واكتشفنا أن ميزات جوستين الأخرى- مع أنها لم تسبب غير ظلام نسبي- صارت أقوى وأحد. صارت حاسة شمها، تحسسها للصوت وحاسة لمسها تخبرها أكثر مما افترضت أنها يمكن أن تفعل ذلك اعتيادياً.

كان يمكنها أن تجلس على مصطبة في (سنترال بارك)، وعيناها نصف مغمضتين، ذات صباح صيفي، وتقول ما إذا كان من يمر رجل واحد أو رجلان أو رجل وامرأة، متى تكون عربة أطفال ومتى تكون عربة فشار الذرة (عن طريق الرائحة على مبعده ثلاثين قدماً إذا لم تكن الريح في الاتجاه الخطأ) التي تمضي على دواليب مطاط وتحدث- كما قالت- صوتاً مشابهاً تماماً لصوت عربة طفل.

في الداخل، حاولنا كثيراً من ألعايب عصب العيون، ولكن عصب العيون مخادع، مزعج للشخص، مضجر، وغير حاسم أحياناً.

كانت جوستين تبقي عينيها مغمضتين أحياناً- وكانت تعصب في مناسبات أخرى- في تجارب الدراوش المتدلي، وفي غيرها، باستبصار من نوع أو آخر كموضوع لها. ولكنها كانت تعمل الأفضل عندما تكون عيناها غير مغمضتين، في الظلام أو شبه الظلام. وما صرنا نسعى إليه الآن ليس مجرد محو حاسة لزيادة حدة الحواس الأخرى، وإنما محو، أو تسكين كل الحواس الاعتيادية الخمس جميعاً، أن نمنعها من التدخل في مغامراتها في ذلك العالم الآخر الذي كان ذاتياً محضاً وربما فائق التحسس.

كان القناع الذي أعدناه أخيراً فكرتي جزئياً، وجزئياً من بنات أفكارها. عندما أذنتُ فيما بعد- عندما كنت أعيش في فرنسا، للمتحف الفرنسي للتاريخ الطبيعي بأن يطبع، في إحدى نشراته الرسمية، صورة لجوستين وهي ترتديه- مع مقالة دراسية تتعلق بجوانبه النفسي- جنسية ما كتبها "ميشيل كيري"- ظن الناس الذين رأوا الصورة ولكن أساءوا فهم المقالة، إن الشيطان هو من اخترعه.

بعد أن خططنا له، واعددنا مخططين، وقررنا ما نريد، مضينا لنرى أفضل خبير قفازات وجلود صافد أنني أعرفه- لدى "آبر كرومبي وفينش". كانوا بريطانيين نوعاً ما بشأن الأمر، رفعوا حواجبهم، بما أنه لم يكن له سابقة، ولكنهم لم يرفعوها كثيراً، بما أنني اشتريت مرة كثيراً من المعدات الأفريقية- ورأوا أنه ربما أمكن صنعه. وربما تكون الكلفة، إن صنعه- بما فيها قالب رأس السيدة الشابة الذي ينبغي لهم أن يعملوا عليه، والتجربة وربما الخطأ- يمكن أن تكون باهظة. لم يكونوا راغبين عاطفياً في التعهد به لقاء أي ثمن، واقترحوا أنه ربما أمكن العثور على عامل جلود أقل كلفة متخصصاً بالملبوسات المسرحية يمكنه أن يصنعه، وأعطينا عنوان شيخ إيطالي يسمى "سيناترا"، يعرج قليلاً ولديه حانوت خاص به مع نصف دزينة من العمال في منزل مبني بالحجر البني، حول إلى مشغل، غربي الرقم ٤٧ من (الشارع الغربي)، شرقي (برودواي).

اهتم الرجل بالأمر، بالضبط لأنه كان ينطوي على صنع شيء لم يتم صنعه قط من قبل، وخلال أسبوع أو نحوه قدم شغلَ فنان حرفي- جميلاً ماهراً. جرى صنعه، بناءً على توصيته، من جلد عجل ناعم لين لماع. جربنا أولاً بالجلد المزاهر ولكن- صدق ذلك أو لا تصدقه- أي جلد عجل ناعم وخفيف بما يكفي اتضح أنه غير عازل للضوء. ومن الجهة الأخرى، فقد كان الجلد الناعم مضاداً للضوء مثل صفيحة رصاص.

غطى القناع رأس جوستين كله، وتبع كل استدارات وجهها، وتناسب- عندما شدَّ بإحكام من وراء- بنعومة وإحكام مع جلدها. كانت الفتحة الوحيدة شقاً للفم، يتبع خطوط الشفتين، وسرعان ما تعلمت أن تتنفس، من خلاله، بعمق وبانتظام.

ولكن الآن وقد تم صنعه، وبدأت تلبسه، مرت بفترات بغض له وخشية منه، لأنه كان يحقق، كما قالت الأمور، الأمور التي رجونا أن يحققها على نحو بالغ الكمال. بدلاً عن إحداث التأثير الاعتيادي لعصب العيون أو لإغماض العيون راحت عيناها، المفتوحتان على اتساعهما في داخله، تحدقان إلى ظلام مطبق كانت حاسة الشم قد محيت بما أنه لم تكن ثمة فتحات للمنخرين. وأخذت حاسة السمع وحاسة

اللمس في وجنتيها (التي تشعر عادة بالدفء أو البرد بتيارات الهواء، عندما تُفتح نافذة أو تغلق، عندما كانت تعصب عيناها فقط) ومحيت تماماً. لقد أغلقها القناع- بشكل كامل كما يمكن إغلاق عقل واع- عن أي شيء في الخارج. غالباً ما كان يمكنها أن تعرف- الأمر الذي صار قريباً من الرعب- ما إذا كنت أنا أو أي شخص آخر، في الغرفة. ما إذا كنت قريباً إلى جانبها أو ما إذا كنت قد ابتعدت وتركته وحيدة كلياً هناك. كان ذلك، كما قالت، يشبه العودة "إلى رحم الزمن". وكان ذلك أكثر مما تقايضت عليه. كانت ثمة أوقات تكرهه فيها وتخافه، وتوشك أن تمزقه لو لم أكن أبقى يديها مربوطتين أو مقيدتين، على مبعدة بالغة من وجهها ورأسها. وأخيراً تعودته، وتخلت عن "مكافحته"، تاركة إياه "يأخذها"- حسب تعبيرها- وانتهت بأن صارت تحبه.

أرادت أن تكون وراءه كلما أمكنها ذلك، حتى عندما كنت اضطر للذهاب بعيداً وتركها بمفردها طيلة اليوم، كما كنت أفعل أحياناً.

بدأنا الآن نحاول، ليس علمياً جداً، وإنما بالتأكيد بـ "حرارة مرفوعة"، سلسلة من التجارب في التحسس الفائق المفترض. إن أوراق لعب الإدراك فائق الحساسية لـ "راين"، التي جعلها "قارار" و"راينهارت" شعبية باعتبارها لعبة داخلية لها قواعد وكتاب تعليمات ودفتر تسجيل نتائج والخ... لم تكن بعد قد صارت متاحة عموماً وكنا نعمل غالباً بشدة "بوكر" اعتيادية. سبق أن أخبرني "مونتاغ" من (كولومبيا)، الذي سبق أن اشتغل في بعض لجان "اوزابيا بالادينو" القديمة، بأنه لو نجح أي شخص في جعل المفهوم التحسس الفائق يعمل بدقة واطمئنان مسيطر عليه، فإنه سيعدّل كامل الوجه الراهن للعالم ويصطف من حيث الأهمية مع اكتشافات "كبلر"، "غاليلو"، "كوبرنيكوس" و"آينشتاين". احتفظت بسجلات كهذه قدر ما أمكنني، ولكن مجاميعها ونسبها المثوية لم تكن أكثر تأثيراً من مجاميع "راين" ونسبه المثوية، أو المجاميع والنسب المثوية التي أنتجها "جون مولهولاند" التهكمي بجهاز بليد استعاره من "شركة مكائن المكاتب العالمية".^١

١ - انظر الملحق ٠ ص ٣٠٢ .

في الجزء الأكبر من الوقت، بدا لي أن ما كانت جوستين تفعله هو معادل التخمين الخالص. و يبدو لي أن هذا ما تبدو عليه دائماً التسجيلات سواء أكانت عليه أم خفيفة، التي صنعها أتباع "راين".

كانت ثمة فرص نادرة أخرى بدت فيها جوستين وكأنها "تنسلُ صاعدة" كما تطلق على ذلك هي، إلى اللحظات وامضة لما بدا إنارة فعلية، عندما كانت تبدو واقفة بإحكام في تلك اللحظات نافذة الصبر، كانت تسمي الأوراق، مصرة على أنها رأتها. ما الذي كانت تعنيه بالرؤية؟ هي، كما تقول، مثل أن تغمض عينيك في الذاكرة وترى وجهاً أو شيئاً مألوفاً. لدى فعل ذلك، لدى التفكير بوجه، أو فتحة باب، أو منظر طبيعي، لا تكون ثمة رؤية بمعنى تأثير الضوء على العين، ولكن مع ذلك فالصورة الذهنية التي تكون لديك هي بصرية. قالت إنها عندما "تنسلُ صاعدة" و"يحدث الأمر"، كان الأمر كذلك. وكانت تلك تجربة غريبة، عاطفية إن لم تكن مقنعة علمياً، عندما كانت تقول أحياناً: "ولكنني أراها، ببساطة.... إنها تسعة البستوني، وأنت تمسكها من جنب".

أما فيما يتعلق بكونها تخاطراً استبصاراً، مصادفة محضاً، فلا أدري بعد. لم تكن مهتماً بتجارب الورق على أية حال، وكانت نافذة الصبر على الدوام فيها. لست واثقاً من أنها لم تكن على حق في كونها نافذة الصبر.

كان ما تستمتع به جوستين هو المغامرات التي تقع عفو الخاطر، التجارب الذاتية، رؤى النشوة، أو كائنة ما كانت، عندما كان ذهنها يتجول - وقد أغلق عن كل تأثيرات العالم الحسي وتحرر، بالنتيجة منه - الذي ربما كان حقاً عالماً آخر في منطقة بُعد - رابعة ما في الزمان والمكان - أو ربما مجرد عالم حلم من فانتازيا الغيوم التي بنيت بالتطور المنعقد ولا شيء غيره.

انسلت ثلاث مرات أو أربع، خلال عدد من السنين، صاعدة مرة أخرى إلى ما بدا وكأنه حقل الإدراك القبلي - الحقل الذي سبق أن أثارنا وأثار اهتمامنا أكثر من أي شيء آخر، منذ الليلة التي سبق وانسلت إليه فيها أول مرة فرأت أسد معرض الشارع. لكن لمحاتها من المستقبل، إن كانت كذلك حقاً، لم تُعدْ قط أي شيء ذا أهمية جدية أو قيمة جوهرية. لم تتنبأ قط بالهدنة ولا بالازدهار الاقتصادي، ولا بالكساد، ولا بموت البابا. كانت على الدوام شيئاً مبتدلاً - جوهرياً - فانتازياً - عادة - كالغفارت، أو

أصوات الأشباح، مشرفاً على حافة الهزلي غير المتوقع، كما في حالة الأسد البائل السخيفة.

والمرة الأخرى التي تمشت فيها جوستين إلى زمان- مكانٍ بعد رابعي، كان الشيء الوحيد الذي جلبته معها هو برميل سمك. كانت تبقى جالسة بالقناع النهار كله، مقرفصة، في وضعية استعرناها من عراقي "بيتر فرويشن" وسَحَرَتِه، ورسغاها مثبتتان إلى كاحليها. عندما بدأت تتكلم تلك الليلة- وكان ذلك في كانون الثاني- بدت وكأنها تبضع في "ساكس" الجادة الخامسة، في فصل الصيف، مع ابنة عمها "لوسي". ابتاعت بعض الملابس الصيفية. كانت تتكلم مع "لوسي" عن الحرارة، وعما إذا كان يستحسن أن تسيرا إلى البيت أو تأخذا سيارة أجرة. اشترت بعض الملابس والحلي الرخيصة، بدا أنها مستمتعة. كانتا ستناولان الآن صودا الثلجات...

إن ابنة عمها هذه، لوسي، كانت تعيش في أحد أرقام الستينات شرقاً، في شقة صارخة المظهر، مع مطبخ صغير ووصيفة ملونة كانت تأتي عصراً فقط. لقد ذهبت إلى هناك بضع مرات لتناول الشاي. كان ذلك المكان هو ما تذهبان إليه الآن، كما عرفتُ من هذر جوستين مع "لوسي".

كانتا تسيران بضعة صفوف مبانٍ. كان الجو قد صار أبرد، وهكذا فقد سارتا الطريق كله. كانت جوستين تثرثر، وقد جرى ملء فترات الصمت، كما تصورتُ، من جانب لوسي، عندما وصلتا الشقة وفتحت لهما الوصيفة.

كانت جوستين تقول:

"ماذا؟ ماذا قلت إنه جاء؟ برميل سمك؟ جلبه مستخدم شركة النقل السريع وهو في المطبخ؟ لا بد أن هذه نكتة! لا أصدقها!".

كانت ثمة بقعة صمت، ثم كانت جوستين تزعق ضاحكة. يبدو انه كان ثمة برميل سمك في المطبخ، برميل صغير، لكنه برميل. "سمك... طازج!... قابل للتلف!" زعقت جوستين، وهي لا تزال عاجزة عن التعبير تقريباً بسبب الضحك.

حلت الآن فترة صمت طويلة. ثم حدقت جوستين، كافحت قليلاً هدرت، أنت مثل

رضيع. كانت قد خرجت منها" أو قد "عادت" أو مهما تريد أن تدعو ذلك. إن خيط ما جرى كائناً ما كان، قد انقطع.

قالت:

"يا ويلي... أنت هناك؟ إن رسغي يوجعان، وكتفي متألمتان. ما الوقت الآن؟ أرجوك دعني اذهب الآن".

في وقت متأخر من الليلة ذاتها، كانت جوستين على التلفون، بعد أن انتهت من محاولة الاتصال بي تكراراً منذ الساعة السادسة وقالت: "أنا عند لوسي، الأسماك! جاءت من كندا، وتظن لوسي أن بمقدورها أن تخمن من الذي أرسلها. استدعينا البواب إلى فوق كي يفتح البرميل. كان مملوئاً بالملح والثلج تقريباً.

يقول إنها أسماك تروثة* وسالمون المياه العذبة".

فقلت: "هي". إنني قادم إليكم الآن".

ذهبت ورأيت برميل الأسماك. سمعت لوسي في اليوم التالي من الصديق العائد الذي كان في إجازة والذي سبق أن أرسلها. كان قد عاد إلى نيويورك. لم أكن قد التقيته من قبل، فلم يكن يستطيع أن يفهم لماذا جئت كي أراه.

كان قد عرف لوسي مدة أطول مما عرفتها أنا، كانت لوسي فتاته، وما شأني أنا على كل حال؟ بسبب إرسال السمك.

لماذا يفعل أي كان أي شيء؟ قال إنه أرسله جزئياً بناءً على هاجس وجزئياً باعتبارها مزحة".

سبق أن وعد لوسي، أو أياً من أصدقائها، بأنه سيرسل إلى لوسي ذات يوم برميل سمك؟

إيه، ما هذا؟ لم يسبق أن فكر في الأمر حتى اصطاده، ثم إنه لم يفكر في الأمر إلا لأن الدليل أخبره بأنه يمكن تحقيق ذلك. كان يريد أن يعرف، أخيراً، إن كانت الأسماك قد تلفت.

لم تكن الأسماك قد تلفت. أكلتُ بعض السالمون، ولكنه - على الرغم من روعته -

* السالمون المرقط .

لم يستقر جيداً في معدتي، وهو لا يجلس مستقراً، حتى اليوم، أفضل من ذلك في ذهني. إنني على وعي تام بأن برميل السمك هذا - بينما في حالة قفص الأسد لم تكن ثمة فرصة في أعداد لا تحصى من التنبؤات الاعتيادية، أو من التواطؤ - كان قدراً مختلفة منها. لو أن جوستين، ومروضة الأسد المشقرة، والأم الغاضبة مع ولدها الناحب. كنَّ على نحو غامض في تعاون وثيق عبر الأطلسي، فذلك ما زال يترك الواقعة كلها في الهواء - لأنه كان لا بد أن يكون الأسد فيه أيضاً. ولكن في حالة التنبؤ المسبق الظاهر هذه، ما دمنا قد أخبرنا لوسي بها بالطبع، ما كان شيء ليصير أسير على لوسي وصديقها من أن يمارسا مزحة متعمدة. لم يكونا فعلاً ذلك، في الحقيقة، ولكن لا يستطيع أحد، لا أنا ولا أي شخص ولا حتى هما، أن يبرهن تحت القسم على نقيض من هذا النوع، باللغة التي تطلبها المختبرات، عن حق، باعتباره دليلاً. لم يكن ثمة زعم بالسيطرة في هذه الحال، ولم أقم بأي محاولة لفرض أية سيطرة. إنها مفتوحة بقدر غيرها - من قصص الأسماك. ولقد كانت، لسوء الحظ، شبيهة ذلك في البضع الحالات التي بدت فيها وكأنها تمر عبر "الباب في الجدار" كي تخطو إلى أمام في زمان - مكانٍ بعد رابعي. لم نَحْظَ قط ثانية بأي شيء يمثل جودة الأسد.

إن تجاربها في الإدراك المسبق هذه كانت تحدث بندرة فائقة. لم تحدث إلا أربع مرات في المجموع، خلال مدة أكثر من خمس سنوات. وسرعان ما بدأت تتعود وتبدو وكأنها تفضلها على هذا النحو، على الانسلاخ إلى وراء بدلاً عن الأمام - الانسلاخ إلى الماضي، في نشوات كانت - لو أنها صحيحة - في حقل ما وضع عليه البروفسور راين لصيقة التراجع.

في هذه وجدت جوستين متعة بالغة، ولكن في هذه الرحلات إلى وراء، كما يشير راين باقتدار في كتابه "حدود جديدة للعقل"، ليس ثمة قط تقريباً أي مكان سيطرة. لو اتبع المرء تحليل الدكتور راين، عن قرب وبإحكام، فسترى لماذا هو هكذا: لو أنه شيء من الماضي المعروف، مع أنها ترجع في تاريخها إلى ما قبل بناء الأهرام، ثمة دائماً إمكان أن يكون الرحالة مسلوب اللب، بصرف النظر عن مدى إخلاصه، سمعها أو قرأها أو رآها (في التصوير المصور، في المتاحف، أو على الشاشة)، واحتفظ بها في البئر العميقة للعقل الباطن.

لو كان ذلك شيئاً خارجاً من الماضي هو غير معروف، ليس ثمة تقريباً أي طريقة للبرهنة على ما يبدو أنه رآه في استعادة الماضي قد حدث أصلاً.

إن الطريقة الوحيدة لبناء السيطرة من هذا النوع الأخير ستكون أن ينقّب الرحالة على سبيل المثال، عن الذهب، أو أدوات العائلة القديمة التي سبق أن رأى، في الرؤيا، جده الأكبر يدفنها سرّاً.

بما أنه لم يضع أحد قط، لا جوستين ولا غيرها الإدراك الارتجاعي في أي استعمال نافع من ذلك النوع، فما زال الحقل بأكمله ملفوفاً في ضباب وضوء حطب متفسخ سميكين.

في هذه الحقول غير المسيطر عليها ومشاهد الضباب المرئية من خلال صفّي أشجار وضوء الحطب المتفسخ صارت جوستين تتجول عموماً الآن عندما تذهب عبر الباب في الجدار هناك كان المكان الذي تحب أكثر أن تتجول فيه.... بدا لي أنها كانت تعاني توتراً أقل.... أنها أقل تمسكاً.... تعاني إجهاداً وإرهاقاً تالين أقل.... في هذه الرحلات إلى وراء، مما كانت تعاني في المناسبات النادرة، العنيفة، عندما كانت تبدو مقذوفة في المستقبل.

كان لجوستين متجولة في الماضي، مغامرات طويلة، شائعة أحياناً كالطبخ على نار مكشوفة أو متح الماء من بئر، وفي بعض الأحيان بهية وخيالية مثل أي شيء في "ألف ليلة وليلة" ولكن لن يكون ثمة جدوى، في هذا السياق، في حكايتها أو تزيينها. لأسباب قدمها راين، ليس كهذه التجارب من قيمة سريرية، وإن قيمتها الحقيقية الوحيدة، التي تكمن في مجال الفن، عندما تكون، جوهرياً، جيدة بما يكفي - وهو مجال لا علاقة له بالهدف العام لهذا الكتاب الراهن - هي القيمة التي سبق أن عرضها بإسهاب أكثر من أستاذ عظيم كتب كيلبنغ: "إن فتى (بروشوود)، "دو مورييه"، كتب "بيتر ابستون"، وكتب "آرثر ماخن" "تل الأحلام" وكتب "فيولا هانت" "الأريكة" وكتب "ه. ج. ويلز" "الباب في الجدار"، وأسهم سبعة وتسعون عظيماً آخر، بمن فيهم "بو" خاصتنا و"امبروز بيرس" و"جاك لندن" و"ماري أوستن" بحاكاياتهم الكلاسيكية والقريبة من الكلاسيكية، في أحيان متعددة، قائمة على ما يعتقدون أنه تجارب حقيقية. إنها جميعاً، في الواقع، قصص باب في الجدار"، والجدار هو دائماً الجدار عينه - الجدار الذي

يحبسنا جميعاً نحن البشر الاعتياديين في التحسس ثلاثي الأبعاد هنا والآن، ما يمنعنا عن الحقل الرباعي الأبعاد للمكان- الزمان، المؤلف للقديسين والعباقرة والصوفيين قبل أن يمنحه آينشتاين أساساً علمياً كامناً في نظريته عن النسبية^١. كانت جوستين تنال متعة عند التجوال في ذلك العالم أكبر من أي عالم آخر، ولكن عديدون تجولوا هناك، وقد عادوا بكنوز ثرية، وشاطروها فيما بعد مع العالم، بحيث أنها لو حاولت وإيبي أن تقص كل مغامراتها فسيكون ذلك مجرد جلب مزيد من الفحم إلى (نيوكاسل)* يكون فيها أكثر الفحم ملمعاً أصلاً ليصل إلى إشعاع الماس. أهى ماسات حقيقية، أو هل أنها مجرد كاريبون ملمع؟ يظن بعض الناس أنهم يعرفون الجواب، ولكنني لست متأكداً من أي شيء في مجال ما فوق الاعتيادي هذا. وأنا لست حتى متأكداً- ولا أستطيع بعد تجربة جوستين مع الأسد- من نفاذ شكوكي ذاتها.

١ - إن أحد أجمل الأشياء التي نستطيع تجربتها هو الغامض . إنه منبع كل العلم والفن الحقيقيين . ومن لا يستطيع بعد التوقف عن التجول هو جيد كالموت"- ألبرت آينشتاين .
* كقولنا : كناقل التمر إلى (هجر) .

القسم الرابع

ملحق

ملاحظات تكميلية ، نوادر وتساوير

ملاحظات على المقدمة

١- لدينا ساحرة بيضاء محبة للخير في (راينيبك)

إنها سيدة كسيحة تعرف ما المعاناة، وتستخدم "سحرها الأبيض" لمساعدة الآخرين.

قبل بضعة أسابيع تحدثت "مجلة راينيبك" عندنا عن "معجزة" طيبة تركت متلقيها متحيراً، ممتناً ومدهوئاً.
ذات يوم، أخبر موزع الخبز- وهو يوزع- السيدة العجوز بأنه يعاني من آلام في رأسه.

عندما عاد مبكراً في الصباح التالي، قالت:

"حسناً، كيف هو رأسك الآن؟" فقال:

"ما زال يؤلم". قالت:

"سيكون ذلك على ما يرام. في العاشرة بالضبط من هذا الصباح سيتوقف عن إيلاملك كلياً".

مضى في جولاته. توقف الألم تماماً. نظر إلى ساعته، كانت العاشرة بالضبط.
يقول الموزع:

"لا أدري ما جرى، ولكنني أقول لك إنه يحملك على التفكير".

قد يجعلك ذلك تفكر أنني التقطت حدثاً عرضياً في مدينة صغيرة لا يبرهن على أي شيء.

ربما لن تكون واثقاً إلى هذا الحد عندما أخبرك ببعض الحقائق التي قدمها مؤخراً
واحد من كتاب أميركا العمليين الرئيسيين:

"جورج و. غرلي"، كاتب "جبهة العلم المتقدمة وصورة العالم الجديد".

في مجلة "هاربر"، عدد مايس ١٩٣٩، ثم جرى تكثيفها في عدد حزيران من مجلة "ريدرز دايجست". يخبر في مقالته عن بعض العلاجات المدهشة التي أنجزت نتيجة إجراءات عادية في العيادات باستخدام "السحر الأبيض" في حالات يكون المرضى فيهم قد نحسوا أنفسهم.

جاء رجل إلى المستشفى ذات يوم وذراعه منقطان بمرض جلدي مزعج. أخبرهم أنه يصاب بطفح جلدي على أسوأ حال في صباح الاثنين. سأله الطبيب: "ما الذي تفعله أيام الأحد؟"، فقال المريض إنه يزور، عادة، سيدة شابة. تطور الأمر خلال سنوات إلى إن جرت بينهما الخطبة، ولكن الفتاة كانت تؤجل باستمرار تسمية يوم الزفاف. يقول الدكتور "غراي" إن الرجل كان يضغط كل يوم أحد من أجل قرار، وكان الاثنين هو اليوم التالي للخيبة. وفي كل اثنين تقريباً كانت بشرته تحتج على حالته القلقة بتحول الطفح إلى اكزيما.

والى المستشفى الشرقي الكبير نفسه جاء رجل مريض بشكل خطر بالربو. بعد أسابيع من العلاج تم شفاؤه، وجرى تعيين يوم لتسريحه. وفجأة، في عشية مغادرته المخططة، عادت أعراضه الخطرة السابقة. استؤنف العلاج، ومرة أخرى تحرر تنفسه، وتكررت الترتيبات لرحلته ومرة أخرى عاد الربو بأقصى شدة. كان معلماً في كلية تورط في شجار مدرسي، وكان يخشى على شغله. كان يشعر، على نحو غير واع، بأنه يكون في أمان أكبر داخل الجدران الحامية لمستشفى مما لو عاد وواجه فصلاً محتملاً. يقول الكاتب: "في تلك الحالات، ثمة أكثر من الحال الجسدية. كان ثمة الاضطراب الذهني أو العاطفي الذي له نظيره في الآلية الجسدية".

نقل الدكتور "اروين موسى" حالة رجل عنده ضغط دم انقباضي يبلغ ٢٨٠، كان مصاباً بمشكلة رئوية ويبين بوله آثاراً من الزلال.

لم تنفع الراحة والأدوية في المساعدة، وعلق المريض ذات يوم بأنه سبق أن قام بخطأ فظيع تجاه زوجته المنفرة.

هبط ضغط دم الرجل إلى ١٥٠، زالت أعراض رثته، واختفى الزلال.

بعد بضع سنوات كان المريض في صحة جيدة، بضغط دم لا يتجاوز ١٣٠.

وانتبهوا رجاءً إلى أن السادة الذين يروون هذه الأمور ليسوا معالجي إيمان ولا

مهووسين. إن هذه الحقائق مثبتة في سجلات المستشفيات. إنني أورها كي أسهل عليك الإيمان بدماي.

ويروي "غراي" عن سيدة أعمال كانت قادرة جداً في مركز كبير، وجرى ترفيعها على نحو غير متوقع إلى شغل تنفيذي.

بعد ثلاثة أشهر تفاقم عندها مرض جسدي شديد. خمن الطبيب في هذه الأثناء أن مسؤولياتها المزدادة كانت منبع الخوف. وعندما أقنعت بالاستقالة من العمل التنفيذي الذي لم تكن صالحة له، واستأنفت العمل في موقعها السابق مساعداً، الذي كانت مناسبة له بشكل رائع، اختفى المرض الجسدي.

إن مفتاحاً للطريقة التي يمكن للسحر الأسود والدمية أن يقتلاك بها (اعني بزرع القلق والخوف عمداً) تعطي، فيما أظن، في التحليل العلمي التالي الذي يعبر فيه "غراي" - في المقالة التي وصفتها الآن- عن اعتقاده بأنه يمكن للقلق أن يصير، فعلاً، عاملاً بيوكيمياوياً له خطورة البكتيريا:

إن فسجلة القلق كلها مرتبطة بفكرة الحماية، وتمتد أصولها بعيداً إلى وراء في التاريخ الإنساني.

لقد كان الحفاظ على حياة المرء مشكلة عويصة للإنسان الأولي. كان ثمة، في كل يوم، ضرورة القيام بعمل قوي إما بالقتال أو بالهرب.

بنت هذه المطالب بالتدرج في الجسد مخططاً آلياً من التكليف السريع للعمل. في وقت الخوف أو الغضب تقع تبدلات قوية داخل الجسد: تحفز عضلات القلب إلى نبض أسرع، ينتقل جريان الدم من المعدة والأمعاء إلى عضلات القلب، الدماغ، الرئتين، والخاصة بالهيكل العظمي - تحشد كل منابع لقتال أو فرار أكثر فاعلية. إن آليات ردود الأفعال الآلية كيميائية إلى حد كبير - تسببها مواد قوية تفرزها الغدد ونهايات الأعصاب. وكل انطباع من العالم الخارجي يهدد أمن الفرد، أو يثيره إلى حد الغضب أو يوحى له بالخوف، يستدعي آلياً للعمل هذه الآلية البيوكيميائية المعقدة لتهيئة الجسد للعمل.

والآن، فالرجل الذي فقد ثروته في إخفاق مصرفي يعاني من خوف يشبه في حقيقته خوف رجل الكهوف الذي يواجه وحشاً ضارياً. وعلى كل حال، فسواء أركض

رجل الكهوف أم وقف وقاتل، فإنه كان يحتاج إلى نبض قلب أقوى، وتغيير في الدورة الدموية.

ولكن هذه التعديلات غير ضرورية بالنسبة لضحية الإفلاس. أنها تهيئه لعمل لا يحدث. اتخمو نظامه بمواد قوية لا يحتاج إليها وتسبب تضاداً داخلياً. إن أمثال هذه التضادات تميل إلى أن تقمع، ولكن حقيقية كونها غير واعية لا يعني أنها غير ضارة. على العكس تماماً. إن التأثير المتوازن لمصدر من مصادر القلق يبدو وكأنه يزداد في نسبة عكسية مع وعي الضحية بهويتها.

يبدو محتملاً أن تأكيدات الحياة تؤثر في فرد ما على نحو مغاير لتأثيرها في فرد آخر بسبب الفروق في التركيب، في الضعف النسبي لأجهزة معنية تقوم أيها يجب أن يفسح في المجال أكثر من غيره، وفي تكييف خبرات الطفولة المبكرة.

يلاحظ الدكتور "ليون جي. ساول"، من معهد شيكاغو للتحليل النفسي:

"قد يسمح لطفل ما بأن يعبر عن غضبه بحرية تامة، بالمقارنة مع غيره. وسيسمح لنفسه، لاحقاً في الحياة، بأن يغضب كثيراً، فيما يصاب الآخرون بالصداع. ومرة أخرى، إن شخصاً كان محمياً أكثر من اللازم في طفولته سيشعر، على نحو أكثر استعداداً، بتوتر مجتمع عالي المنافسة يتطلب هجومية واستقلالاً متطرفين، وإن شخصاً كهذا سيطور أغراضاً باستعداد أكبر. إن رجل الأعمال الهمومي الذي قمع اشتياقاته للتراجع إلى الحب، والعناية، والحماية، غالباً ما يكون له ميل إلى التعبير عن صراعاته الخفية بقرحة معدية. وتحت سطح شخصية مراعية رقيقة، من الجهة الأخرى، قد تكون حالة غضب مزمن مخفية- وهو كبت يعبر عن نفسه بضغط دم مرتفع.

يأخذ الطبيب الحصيف بالحسبان كل الظروف. قد يستخدم المخدرات، الجراحة، الإيحاء، إعادة التكييف الاجتماعي، أي شيء يمكن إن يصل إلى جذور الحصر النفسي. إنه لا يعالج القلوب أو الرئات أو الأمعاء أو الكلى فقط. إنه لا يعالج ما هو مريض فقط ولكن أيضاً المريض أو المريضة.

لقد قال الدكتور "ستانلي كوب" إن معيار تسمية مرض بالعضوي وآخر بالوظيفي معيار مصطنع، وإن الخط الفاصل بين الجسدي والذهني متخيل.

لقد رأينا أن التغيرات في "بنية" الدم تشكلها كميات صغيرة جداً من مادة مضافة- الادرينالين*، مثلاً. قد يعتبر الدم عضواً سائلاً.

فيما يتغير هذا العضو الجاري بتغيرات بسيطة لمحتواه الكيميائي، كذلك تتغير الأعضاء الأخرى فيما هي تستحم بهذه السوائل المتغيرة. وهكذا، يصبح القلق عاملاً بيوكيميائياً. عبر التحفيز الذري لإفرازات قد تطلق مواد تكون مفسدة للجهاز بقدر إفساد البكتيريا.

يقدم "أ. جي. كرونين"، مؤلف "قلعة هاتر" و"المعقل"، تقريراً في الد "كوسموبوليتان" - عدد تموز ١٩٣٩- عن الحالة التي ربما ستعطيكم المزيد مما تفكرون فيه. إنه يقدمه تحت قناع القصة، ولكنني أؤمن أنها تقوم على تجربته الفعلية أو تجربة صديق ما. إنها تتعلق بمساعد حلاق كوكني** صغير- يدعوه الدكتور "كرونين" بـ "جايم" في القصة- شخص صغير مبال للمساعدة، رقيق وكفء، ولكنه "خجول، لطيف، وجبان". وقع "جايم" في حب فتاة حسنة تدعى "نانسي". ذات ليلة، بعد أشهر، ذهب "جايم" لرؤية أحد حماته، وهو طبيب من النمط القديم، يعمل في الطب العام. كان "جايم" تعساً بشكل ميئوس منه لأنه لم يستطع إن يجمع شجاعته ليطلب من "نانسي" أن تتزوجه.

سبق أن جرب الوسكي لـ "يصلب أعصابه"، ولكنه لم يساعده في شيء. أعطى الطبيب "جايم" ثلاثين قطرة مما اعتقد "جايم" أنه دواء غامض وقوي بشكل مرعب. اندفع "جايم" خارجاً ونال الفتاة. بعد خمس سنوات عاد "جايم" إلى صديقه- طبيبه العجوز، في إحباط. كان ملاكم ضخم قد هاجمه ونانسي، ولم يكن يجرؤ أن يطرد الرجل خارجاً. والجريمة ذاتها! اندفع "جايم" إلى البيت قوياً قوة عشرة نمور، وهزم الرجل الضخم هزيمة حاسمة. كانت مكونات الدواء المرعب الماء، ونقطة أو نقطتين من السكر المحروق لتلونه، وإيمان "جايم".

والأمر ذاته، في وضع مقلوب، مع التمانم والتعاويد للساحرة السوداء الشريرة

* أو : الكظرين : هرمون الغدة الكظرية الذي يعمل منبهاً للقلب .

** لندنني أصلي . وخاصة لندنني من أحياء لندن الفقيرة .

ودماها الكريهة، ربما لا يمكنها أن تؤذيك إن كنتم لا تؤمنون بها، ولكن إن كنتم تؤمنون، فبإمكانها أن تدمركم.

يسجل السير "بالدوين سينسر" - عضو نظام فرسان كولومبوس، زميل الجمعية الملكية، الأستاذ الفخري لعلم الأحياء في جامعة ملبورن، والذي كان وقتاً ما الحاكم الخاص للحكومة الاسترالية والحامي الرئيسي للأرومين* في الإقليم الشمالي - حالة كانت هذه القوى الغامضة ذاتها فعالة فيها، تقتل وتعالج. إنها تتعلق بمواطن في (آرونسا) أصيب بضربة بمرنغ** - كان يمكن أن يموت حتماً لو ترك لرعاية العلم الحديث - ولكنه شفي تحت معالجة الأطباء - السحرة. إنه أمر شائع لدى هؤلاء السكان الأصليين أن "يسحروا" سلاحاً ما بال "غناء" عليه. لم أسمعهم قط يغنون، ولكن السير بالدوين كان سمعهم، ويقول إنها مسائل "ماما وزه"*** ذاتها.

في نغمات مهمهم بها، هس الطبيب - الساحر بالتعاويز التالية، مكرراً بلا انقطاع: "بورتو لينجا أبينا اينتآ با انكيريلتا كون أباني انتر باكالالا - آ" (لينشطر عمودك الفقري مفتوحاً ولتتمزق أضلاعك إرباً).

"او كينشنسا كون أبينا الشا الشا - آ" (لينشطر رأسك وحنجرتك مفتوحين).^١ ثم، وهنا ثمة شيء لاف للنظر، لو تنبأ صاحب السلاح بعدم وجود فرصة مباشرة لملاقاة عدوه وضربه بالسلاح، أو غرز السلاح فيه، ولكنه يعرف في أي معسكر يقيم عدوه، فإنه يتقدم متلصصاً من ذلك المعسكر حتى يمكن تمييز ضحيته بوضوح وهو قريب من ضوء النار. يجلس الآن هناك في الظلام، يشير بالسلاح نحو عدوه، ويردد التعاويذ خلال وقت قصير - شهر على الأكثر - يفترض أن يمرض الضحية ويموت، ما لم يتم إنقاذ حياته بسحر طبيب آخر أو طبيب ساحر.

* سكان البلاد الأصليين .

** قطعة خشب ملونة يستعملها سكان استراليا الأصليون بوصفها قذيفة يرشقون بها هدفاً ما . احد أنواعه يرتد إلى الرامي .

*** قصص منظومة ومصورة للأطفال ، تقص أحد الباحثين أصل تسميتها إلى سنة ١٦٥٠ طبع بالفرنسية أولا ، وكانت أول ترجمة انكليزية لها قد صدرت سنة ١٩١٦ . ولا يعرف مؤلف معين لها .

١ - السير "بالدوين" والمرحوم "ف . جي . غيكن" ، "لأرونتا : دراسة في إنسان العصر الحجري" ، ماكميلان وشركاه ، لندن ، ١٩٢٧ ، في مجلدين .

عندما يشتبكان في قتال، أو في المعادل الذي عندهم عن شجار البارات، يفترض أن يكون أي رمح، هراوة، أو بوميرانغ كان "غني" عليه قد اكتسب الـ "آرونغ كيلتا"- يعني: خواص سمية" سحرية، وكل واحد من المحللين يؤمن بأنه ضرب به، لنقل مثلاً: رمح مسحور"، فمن المؤكد أنه سيموت، سواء كان الجرح خفيفاً أو قاسياً، ما لم يتم إنقاذه بسحر مضاد. يقول السير "بالدوين"، بمسؤولية دراسة استغرقت عمراً، وليس ثمة شك في أن المحلي يموت بعد الإصابة حتى بأقل الجروح سطحية "لو... كان يؤمن بأن السلاح الذي أوقع به الجرح قد "غني" عليه".

لو أن الضحية يكون قد خدش فقط برمح "مغنى" عليه أو مضروب بيملرنغ "مغنى" عليه، فإنه- ببساطة- سينطرح، يرفض الطعام، ويذوي. قال السير "بالدوين" سنة ١٩٢٧:

قبل وقت غير طويل أصيب رجل من (باروكريك) بجرح طفيف في أربيته. مع أنه لم يكن به، ظاهرياً، شيء خطر، فقد ألح، مع ذلك، بالقول إن الرمح قد سحر وإنه لا بد سيموت، الأمر الذي وقع حسب انتظاره في خلال بضعة أيام. وأصيب رجل آخر هابط إلى (ينابيع أليس) من (تنانث كريك) ببرد طفيف، ولكن الرجال المحليين أخبروه بأن أعضاء مجموعة، على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً إلى الشرق، قد أخرجوا قلبه، ولما كان قد صدق أن الأمر كذلك، فقد أضجع نفسه، ببساطة، وتلاشى هزلاً. وبطريقة مشابهة، جاء إلينا رجل من (مياه شارلوت) بجرح رمح خفيف في ظهره. جرت طمأنته إلى أن الجرح غير خطير، وجرت معالجته بالطريقة الاعتيادية، ولكنه ألح في القول بأن الرمح كان "مغنى" عليه، وأنه- مع إن ذلك لا يرى- قد خرق ظهره وإنه سيموت، الأمر الذي وقع فعلاً.

يستحيل أن نبرهن على أن الموت ما كان ليتبع هذه الوقائع تحت أية ظروف- يعني، سواء كان الساكن المحلي قد تصور أو لم يتصور أن السلاح قد "غني" عليه- ومع ذلك فمع معرفته ما يمكنه أن يتحمل من جروح وإصابات لو لم يكن يشك بتدخل السحر، يستحيل تفسير الموت في ظروف كهذه إلا بكونه رافق، مباشرة، إيمان الضحية الراسخ بأن السحر قد دخل جسده، وإنه لا بد أن يموت، بسبب ذلك.

إن شجارات البمرنغ، مثل تلك التي في ينابيع أليس"، تقع أحياناً هنا في

(مقاطعة الدوقية) الشمالية. إن السيدة "لينا غروسنيك" مستعدة دائماً لتهدئ كل ما يبدأ في (لافابيتسفيل)، بمضرب البيسبول* المنشور، الذي تحتفظ به وراء القناني على المقصف.

إن "لينا" تصب فيه، ويتم حمله بارداً إلى سيارتها من جانب شرطة الولاية، ويستيقظ ليحس أنه ليس بذلك السوء في الصباح التالي، ما دامت السيدة "غروسنيك" ليست ساحرة، وإنهم يخلون من الهموم الخرافية. إن الصديق الارونتي، الموغل في الإيمان بالخرافات، الذي كان يحتمل أن يموت ما لم ينقذه السحر المضاد، قد ضرب ضرباً مبرحاً بيمرنغ سبب له جرحاً ليس أسوأ من خفقة يد "لينا" الرقيقة. كان الـ "جرح" مجرد ضربة على مؤخر الرأس، مؤدية فقط إلى صداع أو أثر، فيما نتحمل هنا لو شربنا ويسكي "لينا" الرائع، وضربها ايانا بأمانة، بمضرب بيسبولها المنشور.

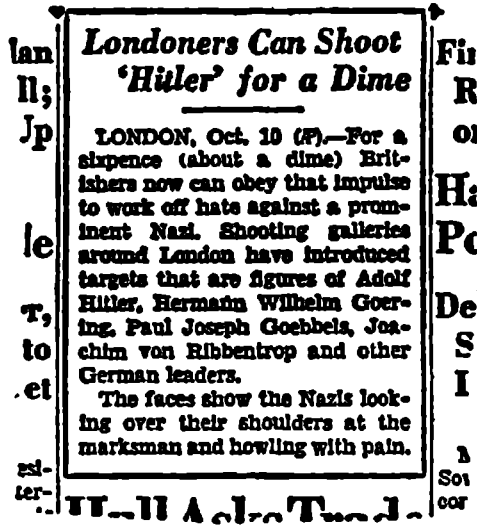
كانت المشكلة أن الفتى في (بنابيع أليس) كان مقتنعاً بأن البرنغ الذي طرحه أرضاً كان مميتاً. عندما استيقظ في الصباح التالي أعلن بأن السلاح قد أرسلته إلى أسفل عشيرة "البيرا"، التي تعيش بعيداً شمالي آروننتا ذا جدوى، ولكن كان ثمة، لحسن الحظ، طبيب- ساحر ألبيري متوفراً. وجد، استؤجر، دفع له، فرضي بأن "يغني" السحر المضاد. حرك يديه فوق السلاح كما يفعل السحرة، متمطقاً ومهمهماً فوق الجرح. لما كان الطبيب- الساحر ينتمي إلى بيئة الرجل الذي "غنى" أصلاً على اليمرنغ ذاتها، فقد كان ساكن آروننتا يجد "إيماناً، ثقة، اعتقاداً، في كفاءة السحر المضاد، وبدلاً عن الموت تحسن، لأنه كان يعرف أنه سيتحسن.

إن أمثلة على أحداث من هذا النوع، في العيادات الحديثة بمستشفيات نيويورك وشيكاغو ولندن، كما في الآجام الاسترالية، يمكن أن تزداد إلى النقطة التي قد تجعل هذا الملحق- المنوي أن يكون مقروء- رسالة انسكلوبيدية.

* أو : كرة اللقاعة .

ملاحظات على القسم الأول الفصل "١"

١- فيما يتصل برميهم، أشرت الـ "هيرالد تريبون" هذا النبأ السار للأسوشيتيد برس على صفحتها الأولى:



* ترجمة النص : يستطيع أهالي لندن رمي هتلر مقابل عشرة سنتات - لندن . ١٠ تشرين الأول (أ. ب) :
مقابل ستة بنسات (حوالي عشرة سنتات) . يستطيع البريطانيون الآن أن يطيعوا ذلك الحافز الذي يحثهم على أن
يتخلصوا من الكراهية ضد نازي بارز . لقد أدخلت صالونات الرماية في أنحاء لندن أهدافاً هي أشخاص « أدولف
هتلر » . « هيرمان ويلهلم غورنغ » . « بول جوزيف غوبلز » . « يواكيم فون راينبروب » وقادة ألمان آخرون .
تظهر الوجوه النازيين وهم ينظرون من وراء أكتافهم نحو الرامي ويصرخون ألماً .

في الأيام الأولى للحرب العالمية الأخرى*، استعمل البريطانيون- الذين يفوقونا نحن الاميركان في الابتذال- أوعية حجرات** تحمل قيعانها وجه "القيصر". في كانون الأول ١٩٣٩، حملت، التايم" رسالة من سيد كان يغرز الدبابيس في صورة لـ "ستالين". في ١٩٢٥، عندما كنت في الجزيرة العربية، اشترى الأمير الشاب "فؤاد"، ابن الأمير "توري شالين"، أمير "الروالة"، صورة لعدو من دمشق. أخرجها إلى الصحراء، وأمطرها بوابل من الرصاص.

* الأولى .

** مبادل قابلة للنقل .

الفصل "٢"

١- تقع حالات السحر الأميركي الجارية بأعداد مستقرة، ويتنوع مرض بمعدل بضع عشرات في السنة. وفي أدناه- كبداية- مزيد منها من حصاد ١٩٣٩ و ١٩٤٠ :
١١ كانون الأول، ١٩٣٩ : تروي "وورلد تلفرام" كيف صب "سلفاتور بتروزلا" الملح في هيئة صليب أمام منزل جاره في (كوني آيلاند)، "ألكس كولونا". وهذه واحدة من المعادلات الإيطالية- التي يفترض أنها الأكثر إماتة- لدمية الساحرة. ذهب "كولونا" مرتعباً إلى الشرطة، الذين كانوا من التعقل بما يكفي لإلقاء القبض على الساحر.

اعتبره القاضي "جوزف سي. ه. فلين" مذنباً بالتصرف المضاد للنظام. ولقد شهد بأن كثيرين من الطليان يؤمنون بأن الموت واقع للبيت الذي يلعن بالملح. يبدو أن "بتروزلا" كان يخطط لمذبحة "سحر" في الجوار ما دام سبق أن وضع صلباناً ملحية أمام منازل أعدائه المتعددين. قال القاضي للشاكين: "إن أمثال هذا الأمر لا تقبل في هذه البلاد. لا تخافوا، سأبعد اللعنة".

١٥ تشرين الثاني ١٩٣٩ - (سان خوزيه) - (كاليفورنيا): تروي ال "ميركوري هيرالد" كيف دخلت ممارسة السحر في محاكمة بالمحلفين في نزاع حول وصية مبلغها ١٧٠٠٠ دولار على أرض "جوزيف بوتلهو" أمام القاضي الأعلى "وارن تايرون". شهد بأن ابنة "بوتلهو"، "ماري"، كان يعتبرها العجوز "شيطانة على الصليب"، وذلك هو التعبير البرتغالي المقابل لـ "الساحرة". وقد شهد بأن الابنة استخدمت سحرها لترعب أباه وتؤثر فيه.

١٣ آب ١٩٣٩ : تروي "بوفالو كورير- اكسبرس" عن صيدلاني حاصره الناس الذين كانوا يعتقدون أن لعنات نزلت عليهم من قبل السحرة، وتوسلوا إليه أن يبيعهم

كانت امرأة قد وضعت لعنة سحر عليها، أنها تزداد مرضاً باستمرار، وتوسلت في طلب تعويذة لتكسر اللعنة. باعها الصيدلاني- الذي كان يعرف شيئاً عن الإيحاء الذهني- علبة من رقاقات الكواسية أو رقاقات الخشب المر لقاء عشرين سنتاً. أخبرها بأن تخمرها وتشربها، وأنها عندما تفعل ذلك ستكون اللعنة قد زالت. شرح الصيدلاني للمرسل انه- مع اعتقاده بأن عمله كان غير أخلاقي إلى حد ما، إلا أنه- كان مع ذلك تطبيقاً جيداً لعلم النفس. لا بد أنه كان على صواب، لأن المرأة عادت معافاة، بعد أن كانت على حافة الانهيار والتحطم العصبي التامين. وطلبت امرأة أخرى، أم، تعويذة حب لتنقذ ابنها من برائن "فتاة شريرة"، وهددت بالانتحار ما لم يجهزها الصيدلاني بها. أعطاه بعض سكر الحليب في محلول، ومرة أخرى فعل السحر فعلة. كان يتلقى أحياناً نداءات تلفونية في طلب البيروج (نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانية) وعشب المحبة، لكنه كان يرفض أن يبيعهما- مع أنها جذور عديمة الأذى- عندما يشك بأن الشاري مؤمن بالخرافات، فهو يعرف بأن عشب المحبة يستخدم في تركيب وصفات لعنة الموت.

في ٢٩ تموز ١٩٣٩، في (نيوآرك) بـ (نيوجيرسي)، تروي الـ "ليجر" كيف احتجز الزنجي "جون بابتالك"، المتهم بالسحر، بموجب كفالة ٤ بانتظار قرار هيئة المحلفين الكبرى في قضيته*. كان يعطي الناس السذج "حمامات سحرية" وسبق أن أرسل "جيمس اليجا" إلى مقبرة عند منتصف الليل ليجلب له تراباً من قبر حفر حديثاً.

٢٨ تموز، ١٩٣٩- (ريفرهيد)- (نيويورك): تروي الـ "ويكلي نيوز" كيف استخدم "ادوارد سميث"، من (هنتفون) قنينة حليب ليكسر اللعنة التي سلطتها عليه "ميلندا كارمان"، التي تصور أنها ساحرة. حاول أن يكسر اللعنة بتحطيم القنينة على رأس "ميلندا"- التي كانت طريقة جيدة شأنها شأن كثيرات غيرها.

١١ مايس (أيار) ١٩٣٩- (ديترويت): تستعيد الـ "فري برس" حالة السيدة "لورا بيتشيتي" الشهيرة- التي تقضي محكومية السجن المؤبد في "دار الإصلاح" لقتلها ساحرة شابة اسمها "ماريان دويل".

* تنظر هيئة المحلفين الكبرى في الأعمال المشكوك فيها، لتقرر ما إذا كانت تشكل جريمة أم لا. وإذا ما شخصتها على أنها جريمة، تجري محاكمتها أمام هيئة محلفين (صغرى).

دخلت السيدة "بيتشتي" للأخبار مجدداً لوضعها طفلاً.
٩ آذار، ١٩٣٩ - (ديترويت): تروي الـ "فري برس" كيف تستيقظ السيدة "جاكلين توماس" بين أوان وآخر في الصباح لتجد بدنّها مغطى بخدوش عميقة مؤلمة يفترض أن تكون أوقعتها روح حكيم هندي. تزوجت السيدة "توماس" هندياً خالصاً من "مجمع الأمم الست" في (برانفورد). كان جد الزوج - وهو رجل بوو (كاهن أو طبيب هندي أحمر) عظيم - قد منعه من الزواج من الجنس الأبيض، والزوج واثق من أن سحر الجد يعاقب زوجته. لقد رأى الأطباء الآثار وهم لا يعرفون ما يحدثها. إن السيدة "توماس" تنام بمفردها في غرفة مقفلة، ومع ذلك تقع الخدشات. لقد حاول وسطاء روحانيون إن يصطادوا الشبح، وانشغلت المستشفيات المحلية بالأمر الخفي، الذي قد يكون مشابهاً لحالات الندوب التي أحدثتها المسامير على جسد المسيح، التي لا تزال تقع في أوروبا.

١ كانون الثاني ١٩٤٠ - الـ "نيويورك تايمز": تحمل الـ "اسوشيتيد برس" حكاية عن السحر واللعن السحري من قرية جبلية شمالي (نيومكسيكو)، تسمى (مورا)، تبعد نحو ستة وعشرين ميلاً إلى الشمال من (لاس فيغاس): عاد "ر. ي. كوبر"، مساعد مدعي المنطقة، من (مورا)، وقال إن جلسة استماع أولية كانت تجري في محكمة هناك لرجل اتهم بالتشويه المتعمد والذي اتهمه أهالي البلدة بـ "تحويل نفسه إلى ضفدع" و "إصابة الناس بالنحس".

كان المتهم، "إفليني اسبينوزا"، قد اتهم بتشويه زوجته وابنة عمها، ليلة عيد الميلاد. وجدت أصابع يدي السيدة "اسبينوزا" مصابة، وفقدت السيدة "سيسنيروس" اثنتين من أسنانها.

وقال السيد كوبر:

"شهدتا بأن "اسبينوزا" تصرف على نحو غريب ليلة الميلاد وأنه وضع علامات على الأرض قرب سريريها. قالتا إنه عندما ترك المنزل ركبهما الرعب وأقفلتا الباب". اقتبس السيد "كوبر" عن السيدة اسبينوزا قولها إنه كان ثمة في الصباح التالي "ضفدع في الغرفة ولكنه اختفى عندما ناديت زوجي فدخل من باب آخر".
شهدت السيدة اسبينوزا بأنه "لو أن الضفدع فعلها، فلم يكن بمقدور زوجي أن يفعلها".

وقال السيد كوير بأن أهالي الجبل مضى عليهم وقت طويل وهم يتهمون اسبينوزا بكونه "الرجل الذي يتحول إلى ضفدع". تدفق جمهور كبير حول مبنى المحكمة أثناء جلسة الاستماع.

أودع اسبينوزا كفالة بمبلغ ١٠٠٠ دولار بانتظار جلسة استماع محكمة المنطقة. ١١ كانون الثاني ١٩٤٠: كان لدى "دنفر بوست" القصة التالية من (بريتوريا) في (أفريقيا الجنوبية):

ستكون محاربة السحر جزءاً من مهمة "ل. ف. و. ترولوب"، الذي كان قد عين للتو "حاكماً ومفوضاً محلياً لـ"كابريفي زيفل الشرقية) من قبل دائرة الشؤون الوطنية في حكومة (جنوب أفريقيا).

هكذا يجري وصف واجبات "ترولوب" ومساعدته في بيان رسمي أصدره "د. ل. سمت"، الوزير المحلي:

"أديروا المنطقة بالاستفادة التامة، حيثما أمكن، من المؤسسات المحلية لمكافحة شر السحر".

٣١ كانون الثاني، ١٩٤٠: تنقل الـ "نيويورك هيرالد تريبون" أن المحترمة "جوزفين كاربونه" - راعية معبد المعجزات (وهو كنيسة عنصرة في الشارع رقم ١٥٥٨، بـ (بروكلين)) - وجدت لها هيئة محلفين في محكمة كينغز كاونتي مذنبة بارتكاب سرقة عظيمة من الدرجة الأولى. وقال "انجيلو نيكوسيا"، وهو أرمل في التاسعة والخمسين، إنه دفع لها ٥٥٧ دولاراً في ٢٥ تشرين الأول ١٩٣٨ لتقوم بمعجزة وتحصل له على زوجة جديدة. لم تتحقق المعجزة. أوصت هيئة المحلفين بالرافة فأمر الحاكم "أدوين ل. غارفني" باستمرار حبسها في "دار توقيف النساء" بانتظار الحكم في ١٤ شباط.

في ٢٠ شباط ١٩٤٠، توجد فقرة عن الـ "يونائيد برس" في الـ "نيويورك هيرالد تريبون" من (ينابيع بالم)، (كاليفورنيا)، يروي كيف أن أما شابة، عضوة في عبادة ودونية تؤمن زعماً بالتضحية بالبشر، اعترفت بأنها قتلت ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات، "جيرالدين"، لأن الطفلة كانت "أفضل كثيراً من أن تبقى حية".

٢١ آذار ١٩٤٠: تقول الـ "نيويورك صن"، تحت عنوان "ابتزاز في جيرسي ألقي اللوم فيه على السحر":

كانت شرطة ثلاث مدن في (نيوجيرسي) تحل اليوم ألغاز القصة الغريبة لرجل دورية سابق في (منتزه ريجفيلد)، الذي قال "اوغست ف. ونيكلمان"، نقيب الشرطة في (اليزابث) إنه سحر فتاة في التاسع عشرة من العمر لتساعده في ابتزاز المال من مستخدميها.

قال ونيكلمان إن "جورج بارنينغ" قد "نوم الفتاة مغناطيسياً" للتفكير بأن حيوات البيض في خطر.

يؤمن أكثر من نصف سكان الولايات المتحدة بالسحر، وتصل في كل سنة عشرات القضايا إلى المحاكم والصحف. وفي أدناه عدد قليل متناثر من قضايا جديدة خلال العقدين الأخيرين:

٢ تشرين الأول ١٩٣٦، في (وودبريدج)، بـ (نيوجيرسي): اتهمت السيدة "تيريز زينكوتا" من جانب جيرانها بأنها ساحرة ومستذئبة. تم استماع القضية في محكمة بحضور حاكم أمام "ريكورد هاري روتنبرغ".

كانت الشاكيات هن السيدة "هاري روتنهورف"، و"السيدة جيرترود متر"، و"السيدة روز زيتر". أخبرت السيدة "روتنهورف" كيف سبق أن نظرت من وراء النافذة فرأين السيدة "زينكوتا" تصنع مشروبات مخمرة سحرية وتؤدي طقوساً سحرية. وشهدت إحدى النسوة بأن "جسدها تغير، فظهرت على رأسها قرون، وأخذت تمشي على أربع كالحيوان". وأقسمت شاهدة أخرى على أن الساحرة كانت مجرد ترتدي جلد حيوان، وأن القرون كانت مجرد خيوط ضوء. وقالت أخرى: "رأيتها تنحني وتتحول إلى شيء كالكلب". وقالت أخرى: "كانت على أربع، تلبس جلد حيوان، وكان ثمة خيوط نار فوق رأسها". وعندما شهدت شاهدة أخرى أيضاً بأن السيدة "زينكوتا" تحولت إلى حصان ومشت على قائمتيها الخلفيتين، خسر "ريكورد براون" الدعوى - وألقي بالسيدات العزيزات إلى خارج المحكمة.

في ٢٦ شباط ١٩٣٥، في (ويليامبورغ) بـ (بنسلفانيا)، بدأ صبي يانع، يدعى جون فريتز، يحفر أخاه الطفل بسكين قصاب. واتهم طبيب سحر أشيب اللحية، يسمى "دايف سنايدر"، وعمره ٨٤ سنة، بسحر الصبي وحمله على القيام بذلك. قالت عائلة طبيب السحر إنه لا يستطيع القراءة والكتابة، وبالتالي فلا يمكن أن يكون مطلقاً على

"الصدیق المفقود منذ زمن طويل" أو "كتاب موسى السابع"، الذي يعرف أيضا في (بنسلفانيا) باسم "الإنجيل الأسود". إن "الصدیق المفقود منذ زمن طويل"، الذي طبع أول مرة في ألمانيا سنة ١٨٢٠، هو كتاب "يوهان جورج هوهمان" الموسوم "در لانغه فير بورغينه فرويند". وقد اتسع نشره إلى أكثر من خمسين طبعة، وهو يتمتع ببيع هائل في أميركا.

في ١٠ نيسان ١٩٣١، في (ويلكس باره)، قتلت السيدة "كارل ثومسن"، البالغة من العمر ٢٩ سنة وخريجة (ويلسلي)، ساحرة مزعومة، الأنسة "ميني ديلي"، البالغة ٧٦ سنة من العمر، بسكين وزجاجة من جعة الزنجبيل. إن عادة مهاجمة الساحرات بالقناني تبدو أميركية بشكل غريب. قالت السيدة "ثيسمن": "لقد صبت لعنة علي وعلى زوجي، فكان الأمر إما حياتها أو حياتي".

٢٥ شباط، ١٩٢٩، تروي "بروكلن دايلي ايغل" كيف قتل "ناثانيال كونواي" زوجته "لأنها ساحرة وقد وضعت علي لعنة موت".

قتلها بسكين، ثم "خنقها"، لأنه- بصرف النظر عن مدى موت ساحرة ما بالسكين أو المسدس، لا يمكنك إن تتأكد ما لم يتم خنقها أو حرقها.

١٧ مایس، ١٩٢٩، وجدت "ساحرة" مشهورة محلياً في (روما) بـ (جورجيا)، مقتولة في منزلها. قالت الشرطة إنها مارست السحر لسنوات عدة وإن أحد زبائنها أو ضحاياها قد قتلها.

في سنة ١٩٢٧، في (بلوفيلدز) بـ (نيكاراغوا)، تزوجت سيدة باسم "دورث فوكس"، رجلاً من (وسكونس) باسم "جون بولتون"، وأصبحت كاهنة عليا في السحر الأسود المحلي. نصب لها كمين وقتلت في (بيرل لاغون) على أيدي ثلاثة رجال أفزعهم سحرها كانوا متأكدين من أنهم على حق عندما نبشت الكلاب قبرها.

في (موبایل) بـ (ألاباما)، قبل بضع سنوات (لا يستطيع أن أحدد التاريخ الدقيق)، تم إلقاء القبض على "الملك ويليام كارينتر" و أربعة من كبار كهنة المعبد المحلي لديانته الفودوية لأن رجلاً مسناً توفي عندما كانوا يحاولون تطهير روح شريرة يفترض أنها سبق ودخلت جسده. كانت إحدى طرق التطهير تثبيت المصاب إلى عمود بسلسلة جر عربات وضربه بالسياط.

وعندي سجل بنحو عشرين من حالات القتل الأخرى بين الزوج في أميركا خلال السنوات الخمس الأخيرة، كانت ديانة الفودو وممارسة السحر فيها الأسباب المحركة. ولما كانت الحالات من هذا النوع - سواء بيضاء أو سوداء - لم تصرف معروفة ما لم يلق القبض على شخص ما، فإن مدى كون عدد الحالات، التي يحتمل ألا نكون سمعنا بها، أكبر سيكون أمراً من أمور تخمين أي إنسان.

٢- فيما يتصل بجريمة القتل بالسحر في نيويورك، ونهايتها السعيدة للمشاركين الشابين البرينين نسبياً، الذين غادرا السجن في السنة الماضية وقد انمحت تلك النقطة الكابوسية السيئة الوحيدة من حياتيهما السابقتين، كتب "جون م. ماك كوكو" في الـ"فيلادلفيا إنكوايردر"، عدد ٦ آب ١٩٣٩:

يصعب وصف الـ"سحر" بكلمات قد تعني شيئاً للشخص الاعتيادي، لأنه خليط من الخرافة، السحر، على الشياطين القروسطي والديانة البدائية. تحت تأثيرها المزعوم، ارتكبت جرائم، مات أطفال أبرياء في ألم مبرح من دون الاستفادة من رعاية طبية، وذهب رجال ونساء إلى القبور تسكنهم الغيلان المقيتة التي ناضلوا ضدها في طقوس مضادة من دون جدوى....

إن الزعم بأن كل أنصار السحر والمؤمنين به، أو عدداً كبيراً منهم، ذوو عقول ضعيفة هو أكبر غلطة. فهم ليسوا كذلك. إن العديد من الحظائر، المستقرة وسط فدانات الأراضي الزاهرة في أقاليم (لانكستر)، (يورك)، (بيركس)، (ليهاي)، و(لبنان)، لديها على جملوناتها قبلانية* غريبة مصوغة على هيئة صليب من (اللورين) بشكل فظ، الأمر الذي يدفع أذى الأرواح الشريرة.

في الواقع، أثناء المحاكمة أخبر موظف إقليمي بسيط مؤلف هذا الكتاب بالتالي: "طبيعي أنني لا أؤمن بالسحر، ولكن ثمة حقيقة هي أن جمرة، لا يمكن أن يشفيها أي طبيب، اختفت، عندما كنت طفلاً، بعد أن وصف طبيب سحر وصفة لي".

محتقر ومتحد نصف خجول في نفس واحد!

كانت "الوصفة" تعويذة من ساق ضفدع، كبد فروج، وزوائد أخرى، صلي عليها في جدعة متعفنة في طور أساسي معين للقمر!

* فلسفة دينية سرية، من بقايا إيمان بعض مسيحي العصور الوسطى.

إن القوة الرهيبة للإيمان بالسحر قد كشفت عن قابليتها للتراجيديا مرة أخرى وأخرى في تاريخ عشرات الولايات في الولايات المتحدة.
يقدر الأطباء أنها مشكلة لتعليم الشباب و- في طورها الأكثر تفاقماً لدى الراشدين- للممارسة الأكثر عناية، الأكثر تعاطفاً والأكثر جداً وكداً لعلم الطب النفسي.... إن الإيمان بقوة لعنة ما، أنتجت بها بيئة عائلية، يمكن أن تكون بفضاعة معرفة الجنون الوراثي، في العقل الذي تبتليه في عقل فرد اعتيادي وغير مبتلى من أفراد العائلة.....

من السهل أن يبدي المرء احتقاره لأمثال هذه التخييلات.... ومع ذلك:
أفلم تلاحظ قط شخصاً ذا شأن وذكاء، فيمن تعرف، يقوم بانعطافة متعمدة، مع أنها في الظاهر لا أبلية، لتجنب السير تحت سلم؟ هل تعرضت قط لأن تكون انقذفت عبر الزجاجاة الأمامية لسائق سيارة بالغ الذكاء، يضغط الكابح لـ"تجنب" قطعة سوداء؟ هل ألقيت عليك قط محاضرة من جانب صديق بأن تأخذ "الشعلة" الثالثة من عود ثقاب؟

الفصل "٣" الثالث

٢- في ال "ماما وزة"، اديث سيتول"، غيرترود شتاين" (كما في كل البربرة*، وكما في كل إيقاعات الكلمات السحرية للعصور الوسطى وتعاويذها ولعناتها وتمائمها)، تستخدم الكلمات لتأثيرها المتراكم، القرع، على طبله العواطف، زائداً تأثير محتوى الكلمات العاطفي الجوهري، بالتمييز عن المجموعة الأخرى من القيم والمضامين المحتواة في الكلمات عندما توصل منطقياً لتعبر عن بيانات ومعان باردة، منطقية.

إن "حمامات على العشب للأسف" ** و"وردة هي وردة هي وردة هي وردة هي وردة" لهما رنين طبله صغيرة، عميق وتأثير اتصال عاطفي - وذلك هو السبب في صيرورتها مشهورة عالمياً ومألوفة حتى للناس الذين يهزأون بها.

لقد عاشت ماما وزة قرناً كاملاً، وستواصل البقاء لأنها محملة بطريقة مشابهة. هيكوري، ديكوري، ديك.

يجعل الساعة الأبدية تلك سواء أجرى فأر لاحقاً فوقها أم لا.

دولار دولار

في الساعة العاشرة دارس***

تبقى في الذاكرة بصرف النظر عما يحدث عندما يصل إلى بناء المدرسة الأحمر الصغير.

يمشي، يمشي مضطرباً سميناً قصيراً ابني جون

ذهب إلى السرير مرتدياً سرواله،

حذاء واحد مخلوع، والحذاء الآخر ملبوس

* كلام غير مفهوم . كلام عديم المعنى . مما يستخدمه المشعوذون مثلاً .

** هناك جناس لفظي بين "عشب" و"للأسف" في الانكليزية .

*** هناك جناس لفظي بين كلمتي "دولار" و"دارس" في الانكليزية .

يمشي، يمشي مضطرباً قصيراً سميناً ابني جون
سيعيش جون قدر ما تعيش جوقة المعريدين في "الوعاء الإغريقي الكبير"
لـ "كيتس"، ليس بسبب ما ليس عندما ذهب إلى فراشه، ولكن بسبب:
يمشي، يمشي مضطرباً قصيراً سميناً
ولهذا، أيتها الأنابيب العذبة، اعزفي!

أضافت اديث سيتول "الأنابيب العذبة عندما صنعت مجموعة من الاسطوانات
المسجلة، مغنية "واجهتها" للموسيقا. إنها ساخنة من حرارة تأثير صوت الطبلية
الصغيرة، وزيد إحماؤها بالتأثير العاطفي للكلمات التي تشير الأعصاب معاً لمجرد
قيمة مضمونها العاطفي، المختارة بمكر كما لو من جانب ساحر إفريقي اسود:

يجب أن يقول الإنسان الوداع
للأبوين الآن
ولوليام تل
والسيدة بقرة-

يجب أن يقول الإنسان الوداع

إن غيرترود شتاين ساحرة، ولكنها مثقفة أيضاً، وتمزج دوريتها أحياناً. بوصفها
ساحرة، أظنها تستطيع أن تفعل بالكلمات في حياكة لعنات وتوائم أكثر مما يفعل أي
كاتب حي آخر. إنني لا أقدم هذه الفكرة بوصفي ناقد أدبي وإنما بوصفي طبيباً-
ساحراً إفريقيا تحت التدريب. اسمي هو ويلي، وبوصفي ويلي أظن أن بعض سطورها
عن "ليلي لوسي" في "أربعة قديسين في ثلاثة مشاهد" ستبقى بقدر ما بقي شكسبير
وجويس.

في كتاب جديد للأطفال تكتب:

اسمي ويلي أنا لست مثل روز

وسأكون ويلي مهما جری

سأكون ويلي لو كان هنري هو اسمي

سأكون ويلي دائماً ويلي في كل الأحوال

عجباً
أي سماء
ثم القلم الزجاج
لدى روز قلم زجاج
عندما آه عندما
يا صغيراً، يا زجاجياً يا قلم
قل متى
لن يكون هناك ذلك الأرنب الصغير

متى
عندئذ
قلم*

هذا هراء، وكذلك ماما وزه، وتخمين طيببي الساحر هو أن قلم غير ترود شتاين الزجاج الصغير أكثر عرضة للعلب مما يبدو. سواء أكنت محقاً أم لا بهذا الشأن، فإن جزءاً كبيراً مما تكتب (حتى عندما لا يكون قد أفسده تعليمها العميق) يؤثر، مع القوة غير المصقولة للغاية علي- وإنني ابتهج أكثر لأنها في جانب الملائكة والأطفال بدلاً عن أن تكون في جانب الشياطين والظلمة والموت:

هات لي خبزاً
هات لي زبداً
هات لي جبناً**
واجلب لي مربي**
هات لي حليباً
واجلب لي فروجاً
هات لي بيضاً

* كل كلمتين متجاورتين من الكلمات التي تحتها خطوط ذات وزن واحد في الانكليزية .
** الكلمات المؤشرة بعدد واحد من العلامات تشترك في وزن واحد فيما بينها .

وقطعة فخذ خنزير صغيرة
كان يا ما كان يستطيع شيء
كان يا ما كان لا يرى احد
ولكن إن فعلت ما يسرني
لو ركضت حول العالم كما ، بالضبط يسرني
أنا ويلي.
وأظن أنا، ويلي أيضا، انه لجميل حد اللعنة كوني أتمنى فقط لو كان حقاً- لي أنا ويلي.

الفصل "٧"

١- إن الخواص السحرية للملح والمعادن يؤمن بها كل البدائيين. فالملح عامل فعال في إلقاء اللعنات، وإذا ما كنت تحت سحر شرير يصبح الملح سماً. ولقد ذكرت ذلك في تقريرتي عن الزومبيين في "جزيرة السحر"، وعلق الدكتور "رولف رايزمان" في السنة الماضية أكثر عليه في "المجلة الكولونية":

في أحد فصح تُركت امرأة بمزرعة كي تعنى بالزومبيين. كانت متلهفة بشكل فائق على الذهاب إلى القرية المجاورة ورؤية موكب استعراض الفصح، وقررت أن تأخذ الزومبيين معها. جلست هذه المخلوقات في السوق وأخذت تراقب الاحتفال بعيون غير متعاطفة غير رائية. نظراً للاحتفالية العامة للمناسبة، اشترت المرأة بعض الكعكات بالسكر، قليلة الحلاوة، للزومبيين، بعد أن أكدت لنفسها أنها خالية من الملح. ولكنها، لسوء الحظ، نسيت إن تلاحظ شيئاً واحداً- إن حبات الفستق التي كانت تعلوها سبق أن لفت بالملح.

بعد أكلها، سار الزومبيون عائدين إلى قراهم الأصلية، على بعد أميال عدة. والمعدن قوي على نحو مشابه في رمي أو صب اللعنات، ولكنه خطر للمس إن كان المرء تحت السحر مسبقاً. ظهرت مقالة لـ "فرانك غيرفاسي" في مجلة كولبيرس، عدد ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٩، عن الملك "ألفونسو" و"العين الشريرة"، روى فيها كيف أبقى الطليان المؤمنون بالخرافات المفاتيح في جيوبهم عندما جاء ملك اسبانيا السابق إلى روما. يتحدث عن بواب، يسمى "بييترو"، في الـ "غراند هوتيل"، عندما كان "ألفونسو" واقفاً هناك، حياه. وعندما تأكد من أن صاحب الجلالة لم يكن ينظر "مد" بييترو" يده تحت ذيل معطفه وسحب مفتاحاً حديداً براقاً طويلاً. خلع قفازيه الابيضين برشاقة. بيديه العاريتين مسح المفتاح الصقيل وقتم- فيما كان يفعل ذلك- ما بدا

وكأنه تعويذة إيطالية. أعاد بييترو المفتاح إلى موضعه بوضع شخص اشترى للتو كمية كبيرة من التأمين على الحياة.

فرك "بييترو" المفتاح الحديد لأنه- شأنه شأن كل الطليان الآخرين، اعتباراً من "بنيتو موسولينى" إلى أدنى فلاح- يعتقدون ضمناً أن "الفونسو" هو "جتاتوري"، أي- حرفياً- "رامياً" للحظ السيئ.

إن لألفونسو، كما قد يشرح بييترو للسائل، "عيناً شريرة". إن إحدى الوقايات شبه المؤكدة تماماً ضد التأثيرات الكارثية للنظرة الشريرة هي الاتصال المباشر والحميمي مع قطعة حديد- مفتاح، حدوة حصان، أو أي شيء، تحت اليد.

إن الخرافة الخاصة بالـ "جتاتوري" قديمة قدم إيطاليا نفسها. كتب "بلينى" عن القوانين التي مررت لنفى أولئك المشكوك بأنهم، أو ثبت أنهم، لديهم "العين الشريرة" من دون محاكمة. أمر أحد البابوات، أثناء العقم الثقافي للقرون الوسطى، في بيان رسمي بابوي بإعدام "السحرة والساحرات" الذين يلقون لعناتهم بالعيون.

وفي مناسبة أخرى، في (نابولي)، يخبرنا "غيرماسي" أن الأمهات بأعداد كبيرة، على الأرصفة على امتداد الواجهة المائية، كن يبصقن ثلاث مرات على صدور أطفالهن الرضع، على وفق النصيحة القديمة لـ "ثيوقريطس"، لحماية الأطفال من الرمشة المصيبة للآفات لألفونسو المذهول. وكان الرجال يلبسون قمائم من حديد، ويحملون مناخل حديد ويقعقعون مفاتيح حديد.

كانت قعقعة الأشياء المعدنية ترتفع فوق جوانب السفن، وكانت شيئاً يسمع. إما الملح وإما المعدن هو الوقاية، إن لم تكن واقعاً تحت لعنة مسبقاً- ولكن لو كانت اللعنة واقعة عليك أصلاً- فعليك أن تلبس ربطات ساق باريسية، ينبغي لك ألا يمسك أي معدن، ولا تجرؤ على أكل الملح. عليك أن تأكل طعاماً غير مملح، من وعاء خشب، بملقعة خشب.

ملاحظات على القسم الثاني

الفصل "٤"

١- إن جمعيات الفهود في لندن هي من بين العبادات الغربية التي قام "إيليوت أودونيل" بالتحقيق بشأنها مؤخراً. لقد أخبرت أصدقاء يصعب أن يصدقوا، تكراراً، بأنني واجهت رعباً وغموضاً وإيماناً بالخرافات السوداء والشر الروحي والبغض الشديد الغريب في ظلال ناطحات سحاب نيويورك، وأبراج لندن، وكاتدرائيات باريس (ولاسيما كاتدرائية القديس سولبيس) أكثر مما واجهته على الإطلاق في الغابة الأفريقية. من المفرح أن اقتبس من السيد "أودونيل" تأكيداً لهذا، مع الإشارة إلى لندن. لقد اكتسبت من كتابه "العبادات الغربية والجمعيات السرية في لندن" بإذن من "أي. بي. دتون وشركاهم": ناشريه الأميركان. أرجو أن يتحفنا السيد "أودونيل" بكتبه التالية، المشابهة، عن نيويورك، باريس وبرلين.

فيما يتعلق بشركات اللعب المناسبة في لندن الحديثة لشركات لعبي الدمويات الصغيرات في (ساحل العاج) يقول السيد "أودونيل":

"إذا أردت إن تخبر أياً من أصدقائك بأن ثمة فهوداً وغموراً بشرية مخططة في لندن، فإنهم لن يصدقوك، بالطبع. ومع ذلك، فأنا أرى ذلك حقيقة. ثمة عبادة سرية في لندن تقلد، بقدر ما تجرؤ، معتقدات شعوب النمر المخططة والفهود في إفريقيا، وممارساتها.... ذات ليلة صار أحد معارفي - وهو كاتب إيرلندي ذو شهرة ما - بعد أن شرب أكثر مما هو جيد بالنسبة له نوعاً ما.... في محاولته للتهادي عائداً إلى بيته من ناديه، على نحو لم يستطع قط أن يفسره، في داخل بيت غريب بدلاً من بيته، ووجد نفسه في غرفة شبه معتمة ملأى بناس غربي المظهر، ذكوراً وإناثاً، ملتفين وملتفات بجلود فهود. وإذا أعطته فتاة أجنبية المظهر جلدًا في الظلام... لبسه.... ربما لم يوليه

أحد أي انتباه، لما كان انتباه الجميع مركزاً على امرأة، كانت تقف في وسط الغرفة، تخطب فيهم. لم يستطع صديقي أن يرى بتمييز جيد، بسبب كون الأنوار مطفأة، ولكنهم حكموا بأنها ملونة، فقد كانت تبدو داكنة جداً، لا من الرعايا البريطانيين، إذ كانت تتكلم بلهجة أجنبية.

صحّاه هواء الليل البارد، وهو يهب إلى داخل الغرفة عبر نافذة قريبة، وصفا ذهنه تماماً. أدرك عندئذ أن الناس من حوله ينتمون إلى عبادة دخيلة غريبة، وأخيراً اتضحت له حقيقة كونهم ناساً فهوداً ونموراً مخططة.

كانت المرأة التي تخطب فيهم طبيبة- ساحرة. كانت تسهب في وصف الخصائص المختلفة للفهد والنمر المخطط، تطري جمالهما بإفراط، براعتهما وشجاعتهما، وداعية جمهورها ليتخذ هذين الحيوانين نموذجين لهم، ينسخونهما على أفضل ما يستطيعون، من دون أن يوقعوا أنفسهم في مشكلة جدية. عندما أنهت نصائحها، جُلِبَ فهد محشو ووضع في وسطهم، وكرر كل واحد منهم- وهو يركع أمامه- بصوت خفيض رتيب، نوعاً من صلاة أو تعويذة، كانت الطبيبة- الساحرة تصفق أثناءها يديها في فترات، وممس الجميع الأرض بجباههم. إذ انتهت التعويذة، قرع أحد الحضور- وهو رجل طويل جداً- بضع مرات على طبلية صغيرة فيما شابك كل الحاضرين- وهم يتشكلون في دائرة- أبديهم ورقصوا في الأنحاء حول الطبيبة الساحرة والنمر المخطط- ناترين رؤوسهم إلى وراء وأمام، وعاوين ونابحين، مقلدين بذلك- على وفق تصور صديقي- الضجة التي يُحدثها الفهد. استمر هذا العرض إلى أن أصيب بعض المشاركين بالإرهاق- كما هو واضح- فصفقت الطبيبة الساحرة يديها، في إشارة فتوقف. بعد ذلك جلس كل واحد على الأرض، متصالي السيقان، على الطريقة التركية، فيما رفع النمر ووضعت في مكانة دمية تمثل امرأة. عندئذ قفزت الطبيبة- الساحرة، عارضة طريقة النمر والفهد في إمساك فريستهما، على ظهر الدمية، غرزت مخالب الجلد الذي كانت ترتديه، فيها وتظاهرت بدفن أسنانها في حنجرتها.

ربما كان المشهد سيصدم بعض الناس بوصفه رهيباً ومثيراً، إلا أن صديقي تصوره مضحكاً لغرابته فقط. كانت الطبيبة- الساحرة بدينة قطعاً، وكان من المضحك مشاهدتها تؤدي مثل هذه الأوضاع الغريبة لكن أعضاء العبادة لم يفكروا على ذلك

النحو، كانوا في لهفة صاعقة، وعندما أتمت الطبيبة- الساحرة عرضها، نهض بعض الحاضرين، قلدوها- واحداً بعد الآخر- بأفضل ما استطاعوا، مارّين بالعرض ذاته. وأخيراً، بعد مزيد من القرع على الطبلّة الصغيرة والغناء، أخرجت فتاة "سلطانية" ضخمة، ملأى باللحم النيء، وشرعت تسلمه في أنحاء الغرفة. كانت هذه آخر قشة بقدر تعلق الأمر بصديقي... لم يستطع تحملها، وهكذا فقد قرر أن يشق طريقه للتراجع. كانت العضوة التي سبق أن خرجت من الغرفة لتجلب اللحم قد تركت الباب منفرجاً قليلاً، فانسל صديقي خارجاً من دون أن يلاحظ. تذكر مغامرته بعد بضعة أسابيع، عندما قرأ في إحدى صحف لندن أن فتاة وجدت ميتة في طريق عام بالضواحي منعزل، حاملة جراحاً غريبة، مثل خدوش يحدثها حيوان كبير ما، على ظهرها وصدرها.....

قد يتذكر عديد من الناس الواقعة التي حدثت قبل بضع سنوات، سواء في لندن أو في إحدى الضواحي، عندما قتل شاب- لغير سبب ظاهر غير شهوة الدم أو حب القسوة- صبيّاً أصغر منه بكثير.

استدرجه الشاب إلى بقعة منعزلة ما ثم- إذ قفز على ظهره كما يفعل حيوان مفترس- هرسه وقتله. مع أنه لم تجر الإشارة إلى شيء من هذا القبيل في المحكمة أثناء المحاكمة، لكنه أشيع في الأنحاء القريبة من موقع ارتكاب الجريمة أن القاتل قد يكون من المنتمين إلى واحدة من جمعيات الفهود، لأن رجالاً متسرلين بجلود فهود كانوا يشاهدون، بين وقت وآخر، في حديقة أحد البيوت هناك.... وجرى قص حكاية غريبة عن العبادة ذاتها عليّ من جانب السيدة بيسيير، التي كانت تعيش- قبل بضع سنوات- في (فاربورج سانت أنطوان)، بـ (باريس). قالت إنها كانت تسير في طريق هادئ، في وقت متأخر من ليلة صيفية، عندما تجاوزتها سيارة خصوصية، وتوقفت خارج منزل، على الجانب ذاته من الطريق، على بعد نحو عشرين ياردة أمامها. خرج رجلان من السيارة ثم- بتحفظ فيما بدا للسيدة "بيسيير"- سيدة ترتدي عباءة أوبرا. تناول كل من الرجلين احد ذراعي المرأة وسحباها، مخرجة تقريباً، إلى المنزل.

توقفت السيدة "بيسيير". لأنه كان في الرجلين شيء لم تحبه، خارج المنزل، مناقشة في ذهنها أكان المرء أن يستدعي شرطياً أم لا. كانت لا تزال تقف هناك، غير

قادرة على التصميم، عندما اندفعت سيارتان أخريان ترجل منهما بضعة رجال وبع نساء واقتربوا من المنزل. فيما فعلوا ذلك، انفتح الباب الأمامي (يبدو أن مجيئهم كان منتظراً)، ورأت السيدة "بيسيير" شيئاً حيرها إلى درجة كبيرة. بدا وكأنه غر مخطط على قائمتيه الخلفيتين.

على كل حال، قبل إن تتمكن من أن تحسم أمرها بتقرير ما الذي كانه، انصفق الباب مغلقاً، بعنف نوعاً ما. بقيت أمام المنزل بعض الوقت مفتونة بما رأت، وفي هذه الأثناء واصلت المشي، ولكنها لم تكن قد مضت بعيداً عندما سمعت صرخة، صرخة ألم.

بدا أنها قادمة من المنزل، وتبعها صمت شامل.... لم تمر بالمنزل ثانية لمدة نحو سنتين، وعندما فعلت، لاحظت أنه كان خالياً ومعروضا للبيع. وإذ دفعها الفضول، فقد استأذنت الدلال، وذهبت - بصحبة أحد كتابها - لتنظر فيه بمجرد دخولها من الباب الأمامي أحست بوجود رائحة غريبة.

كانت هذه الرائحة، ويا لغرابة الأمر، مألوفة لها، ولكنها لم تستطع في البدء أن تميزها. ثم ميزتها فجأة. كانت رائحة قطط كبيرة من قطط الغابات، الرائحة التي سبق أن تعودتها تماماً عندما كانت تعيش في جزر الهند الشرقية الهولندية. سألت الكاتب أكان بمقدوره أن يفسر الرائحة؟ كيف وصلت إلى هناك؟ من أين جاءت...؟

بعد كثير من التملق من جانبها، وتأكيدات عدة بأنها - لو أنه أمرها - لن تقول كلمة واحدة عن الأمر لدلال البيت.... قال إنه كان يشاع أن جمعية غريبة، تعود أفرادها أن يرتدوا جلود غمور مخططة وفهود وينغمسوا بكل أنواع طقوس العريضة، سكنته ذات مرة، وأنه بعد أن انتقلت شكا الناس - الذين كانوا يطلون عليه - من الرائحة التي تحدثت عنها، رائحة الحيوانات الضارية...

يقال إنه كان للناس الفهود والنمور مقرات في (بلاكهيث) قبل وقت ما، وهي تقع على مقربة من جوار طريق (شوتر هيل).

في كتاب "دتوى"، يذهب أودونل إلى أن في المدينة ما لا يقل عن سبع عشرة ديانة غريبة وجمعية سرية تزدهر اليوم في ما يبدو على السطح بوصفه المدينة الأكثر تقليدية، المدينة العظيمة الواعية. إن ما كان عنده ليقوله عن الغورغونيات و"عبدة

المومياءات" ربما سيفسر جزئياً لماذا كانت "الدمية الراقية" - التي كشفتها في لندن- أقل فوضوية مما بدت عليه في مكان ما على ضفتي الـ (تايمس)، بين (ريتشموند) و(مايدنهيد)، تحتفظ الـ "غورغونيات" - وهي جمعية سرية للنساء اللاتي.... ليس لديهن ود تجاه الرجال- بمقراتهن.

تدعى كاهنتهن العليا.... "ميدوزا". وقد جرى وصفه إياها على أنها متوسطة السن، طويلة، ذات بنية رجولية ومظهر أسدي هو خارق للطبيعة تماماً.... لا تؤمن الـ "غورغونيات" إلا بالطبيعة وعبادة الطبيعة. في كل ليلة من الأسبوع يجتمعن، إما في الداخل أو خارجاً، ويعبدن الطبيعة، إما بشكل حي أو تعوزه الحيوية. وأشياء الطبيعة التي يختزننها ليعبدنها هي، عادة، أما تلك التي يجلبها القدماء أو تلك التي تم تحديدها من جانب كاهنة الديانة العليا، "ميدوزا"، ويقال بين أتباع العبادة، من دون تمييز، أنها من الجنس المؤنث.

إن الشمس والقمر والنجوم والنهر والغابات والبرك، هي جميعاً أشياء متحدة، وإنها لغريبة حقاً هي التقدّمات التي تقدمها لها عابدات ضفاف الـ (تايمس) هاته. وأستطيع، على كل حال، أن أجهز قرائي بتقرير موثوق عن بعض احتفالات الغورغونيات، ما دامت قد وصفتها لي عضوة سابقة في الديانة، سبق أن شاركت فيها. حضرت الآنسة "بيغس"، مخبرتي، احتفالها الأول، الذي تُقدّم فيه البيعة للتايمس، مباشرة بعد أن اجتازت إليه، عملياً، أمراً....

كان لباس ميدوزا الأبيض - مثل لباس تابعاتها - عديم الردين، وكانت تضع خلاخيل ذهبية عديدة ومختلفة على ذراعيها، وكانَ قدماها الحافيتان محفوظتين في صندلين، وأظفار قدميها مغطاة - ليس أقل من أظفار يديها - بورنيش أحمر....

كانت هذه المرحلة الأولى، كما شرحت الآنسة "بيغس"، شأناً مريباً مرهقاً نوعاً ما، كان على جديدة العضوية - لكي تثبت خفتها وقوتها - أن تركض كذا ياردة في كذا ثانية، أن تقفز ارتفاعاً ليس بالقليل، أن تسحب نفسها بضع مرات على قضيب أفقي، وتصارع إحدى العضوات الأشد ضخامة جسدياً. ولكن ذلك لم يكن كل شيء، فمن أجل البرهنة على رغبتها في التسليم لميدوزا وإطاعتها في جميع الأمور، عليها أن تركع أمامها، تطبع قبلة على كل من قدميها، وتتلقى منها ثلاث ضربات، وضربات

شديدة حقاً أيضاً، توقع بعضا اقتطعت من شجرة دردار.... تلي ذلك التضحية، باحتفالية أكثر. تكون كل واحدة من العضوات قد جلبت مقدمة إما من طعام أو نبيذ، أو مادة مزينة، وعندما تكون كل هذه العطايا قد وضعت في مراكب قديمة، ربطت على طول الشاطئ، تشعل النار بالمراكب ويتم دفعها، إلى وسط المجرى، بمصاحبة أغنية انتصار العبادة.

وفيما يتعلق بعبادات الموميات السرية، ثمة واحدة منها في الأقل في لندن، كما يقول أودونيل، لها مقر في (نوروارد العليا) . وهو يصف احد احتفالاتها الذي حضره احد أصدقائه.

اجتمع أعضاء الجمعية في باحة المقر، حول ضريح تتمدد فيه موميا أميرة (بيروية). بعد طقس عبادي قصير، خرج أربعة من أعضاء الجمعية، اللابسين السواد، من البيت، حاملين نوعاً من نقالة تقعد فوقها موميا أخرى على مقعد خفيض. كانت الموميا ملفوفة في جلد لاما، ولم يبق غير مغطى من جسدها إلا قدميها ويديها. وضعت النقالة إلى أدنى بين العابدين. إلى جانب المقعد الخشبي كان ثمة بضع قطع من الفخار البيروي الملون بشكل لماع، وكان ثمة رسم زخرفي متوهج- على ما بدا شبيهاً بقطعة من قماش الخام، ملحقه بجلد اللاما فوق صدر الموميا- يصور الشمس. بعد ترديد رئيس الجمعية بضع صلوات طويلة، كان الأعضاء يركعون خلالها في صمت، أخذت الموميا إلى الـ "تشولبا" (الضريح)، وأودعت هناك. ثم أحرق البخور، وتليت صلوات أخرى، وجلس الجميع على الأرض، متصالي السيقان، وعيونهم على باب الـ تشولبا".

مرت دقائق، ثم انفتح باب الضريح ببطء وظهرت الموميا على المدخل. في هذه المرة تحركت بإرادتها الحرة بالذات، مارة بين الأعضاء، وملامحها مغطاة بخمار، ويديها وقدميها طليقة. حتى إنها انحنت وقبّلت أحد الأعضاء. ثم واجهتهم جميعاً، مدت ذراعيها، أطلقت ثلاث صرخات، وانسلت عائدة إلى الضريح. تلا الرئيس قليلاً من الصلوات، أغلق باب الضريح وأرجعه وأعلن انتهاء الاجتماع.

الفصل "٥"

١- إن التعذيب لطرد الشياطين يبشر بالنجاح ليعاد إلى مركزه السابق من جانب العلم. إن الطرق الأقدم والعائدة والقروسطية لمعالجة الـ "ممسوسين" والمخبولين كانت تقوم على نظريات مشابهة لتلك التي كان يؤمن بها المسيحيون الأوائل والأطباء- السحرة الأفارقة. بالضبط كما عاد "آينشتاين" و"كارل" و"شتاينمتز" إلى نظرية عن الكون يتمسك بها الأطباء- السحرة الأفارقة وقلّة من المسيحيين المتأخرين في مواجهة المادية، بحيث قد يتقدم الطب الآن في عملية عودة علمياً إلى التعذيب باعتباره طريقة علاجية وعلاجاً نفسانياً سهلاً.

إنهم يدعونه العلاج الشامل"، وفي أدناه جزء مما قالته الـ "تايمس" عنه في تشرين الثاني، ١٩٣٩:

يطبق الأطباء النفسانيون اليوم، مع تعديلات علمية، شيئاً شبيهاً جداً بعلاج الصدمة القروسطي على ضحايا انفصام الشخصية (الجنون المبكر)*. إن الشكل الأكثر شيوعاً للجنون، الذي هو انفصام الشخصية، يشمل ٢٠٠٠٠٠ مريض في المستشفيات العقلية الأميركية....

إن الميترازول** محفز قوي للمراكز التي تنظم ضغط الدم، وعمل القلب والتعرق..... يتم حقن نحو خمسة سنتمرات مكعبة من الدواء إلى عروقه (المريض). خلال نحو نصف دقيقة يسعل، يلقي نظرات مرتعبة حول المكان، يتلوى ألماً، يلفظ عويلاً خشناً، يتجمد إلى تصلبٍ وفمه مفتوح واسعاً، وذراعه وساقاه متصلبة كالألواح.

* باللاتينية في الأصل .

** عقار منشط للقلب والبروتين .

ثم يدخل في نوبات تشنج. خلال دقيقة أو اثنتين تنتهي النوبة، فيعبر بالتدريج إلى غيبوبة، تستمر نحو ساعة. بعد سلسلة من الصدمات، قد ينظف ذهنه من الأوهام. هكذا هي نوبات الصرع الاصطناعية التي هي من الرهبة بحيث لا يخضع للعلاج بها أي مريض بإرادته. والأعراض الشائعة هي "ومضة من الضوء المحمي"، و"هالة من الرعب". وصف أحد المرضى العلاج بأنه موت "بالكرسي الكهربائي". وسأل آخر، بهيئة تستدعي الشفقة: "يا دكتور، أئمة علاج لهذا العلاج؟". والأكثر جدية من هذا الرعب الذاتي هي خلوع الفك، الكسور دقيقة الضغط للعمود الفقري، التي تقع لمرضى الميترأزول في أكثر من ٤٠٪ من سلسلة واحدة من الحالات.

يقوَس المرضى - أثناء تقلصاتهم العنيفة - ظهورهم بقوة هي من الشدة بحيث أنهم يسحقون، أحياناً، فقراتهم، حرفياً.

وهكذا، فمع أن الميترأزول يستخدم على نطاق واسع، فإن عدداً من الأطباء النفسانيين يدينونه باعتباره "عقاراً خطيراً جداً"....

ويوافق أغلب الخبراء الآن على أن الميترأزول - على الرغم من بعض عمليات الشفاء المذهلة - أقل فاعلية بكثير من الأنسولين ويُجري قليل من عمال المختبرات تجارب على عقارات من العائلة نفسها، محاولين أن يركبوا بديلاً أقل خطورة.

ملاحظات على القسم الثالث

الفصل "١"

١- ربما كان أول من لمح العالم خارج المفهوم الحسي، خارج أبعادنا الثلاثة والمفهوم التقليدي للزمان- المكان، هو أفلاطون. لو أمكن لشبحة الجليل أن يعود بعد أكثر من ألفي سنة في التذبذب البندولي الذي صارت فيه مادية القرن التاسع عشر مضحكة- شأنها في ذلك شأن نقيضها الأسبق- فلربما كان الشبح الجليل سيبتسم إذ يعرف أن أينشتاين، "شتاينمتز"، "كارل"، "دون"، "هالداين" وأصحابهم قد عادوا إلى مفهوم لا يختلف عن ذاك الذي سبق أن وضعه في فم "سقراط". فيما يلي ما جعل "سقراط" يقوله للعزير "غلاوكون":

"انظروا! إن الكائنات البشرية التي تعيش في حجر تحت أرضي التي لها فم مفتوح باتجاه الضوء ويصل إلى الحجر كله، هنا كانت منذ طفولتها، وتركت أرجلها وأعناقها تُغلُّ بحيث لا تستطيع أن تتحرك، ولا تستطيع أن ترى إلا أمامها، إذ تمنعها السلاسل من إدارة رؤوسها في الأنحاء.

فوقها ووراءها تتألف نار في البعيد، وبين النار والسجناء طريق مرفوع، وسترون- إن نظرتن- جداراً خفيضاً مبنياً على طول الطريق، مثل الشاشة التي تنصب أمام محركي الدمى والتي يعرضون عليها دُمَاهم.

- أرى.

قلت: وهل ترى رجالاً يمشون على امتداد الجدار حاملين كل أنواع الأوعية، وتماثيل الحيوانات وأشكالها المصنوعة من الخشب والحجر والمواد المختلفة، التي تظهر فوق الجدار؟ بعضهم يتكلم، وبعضهم يلزم الصمت.

- لقد أريتيني صورة غريبة، وإنهم لسجناء غريبون.

أجبت: مثلنا، وهم لا يرون غير ظلالهم، أو ظلال أحدهم الآخر، التي تلقىها النار على جدار الكهف المقابل؟

فقال: صحيح، كيف يمكنهم أن يروا أي شيء غير الظلال إذا لم يكن مسموحاً لهم بأن يحركوا رؤوسهم؟ ومن الأشياء التي تُحمل على النحو نفسه لن يروا غير الظلال؟ فقال: نعم.

- وإذا ما تمكنا من الحديث أحدهم مع الآخر، أفلن يفترضوا أنهم إنما يسمون ما كان أمامهم فعلاً؟

- صحيح جداً.

- وافترض أيضاً أن للسجن صدى يأتي من الجانب الآخر، أفلن يتخللوا بالتأكد- عندما تكلم احد المارة- بأن الصوت الذي سمعوه كان يجيء من الظل العابر؟
- فأجاب: لا سؤال.

- وقتلتك بالنسبة لهم، لن تكون الحقيقة، حرفياً، إلا ظلال الصور".

سيكون مسلياً، بعد الاقتباس من الكلاسيكيات الإغريقية، أن نقتبس بعد ذلك بقليل "تقريراً قصيراً" من "ريدريز دايجست"، عدد كانون الثاني ١٩٤٠. تعطينا المجلة ما يلي من كتاب "السيدة إيلانور سميث" الموسوم "الحياة سيرك" (صدر عن دار لونغمانز):

"كان الوقت حوالي الثالثة صباحاً، وكان خمسة منا يجلسون في قاعة استماع معتمة، فارغة، يراقبون التجربة الأخيرة لدور ال طائر الثلج" من "باليه راقصة الباليه"، وهي تمثيلية كتبت على أساس من أحد كتبي. لقد ألهمت أن أكتب الكتاب بعد أن شاهدت "بافلوف" ترقص ال "بجعة" قبل بضعة أشهر من موتها، وذلك قبل سنوات.
سبق لـ "بافلوف" أن ألهمتنا جميعاً، مباشرة أو على نحو غير مباشر.

دار المسرح ليعرض فرجة في غابة ودخل شكل ضئيل ببياض الثلج في تنورة قصيرة منتفخة مزأبرة، ورأسه ملفوف بریش بجعة، وتوقف، ثم صالب نفسه. بدا لي أن النجمة، "فرانسس دويل"، قد ازدادت ضآلة. ثم فيما انسلت إلى دائرة الضوء، حبست أنفاسي. لم يكن الشكل شكل فرانسس. لقد اتخذت شكل أنا بافلوف.

تشبث "بات دولين"، الممثل المشارك مع "فرانسس"، بيدي حتى ظننته سيكسرها.

نظرت إليه، كان شاحباً كالثلج. تتم: "هذا خارق للطبيعة.... ماذا فعلنا؟ أوه، يا إلهي- لماذا استعدنا الماضي أصلاً؟".

وقف الشكل الأبيض الذي على المسرح من دون جهد في توازن واحد على رؤوس أصابعه، التف حول نفسه ثلاث مرات- وهو أمر لم يكن بمقدور "فرانسس" أن تفعله- وانحرف، مثل زغب إوزة، إلى ذراعي شريكة رقصه، فيما أسدل الستار.

نظرت إلى صبحي: "بات"ن "تشارلز لاندستون"- مدير أعمالنا هادىء التفكير، و"هنري هاريسون"- مؤلف العرض ومديره". قال شخص آخر:
"نحن متعبون جداً.... دعونا لا نتصور أشياء. لا يمكن أن نكون قد رأينا جميعنا ما رأينا....".

ركضنا، بات وأنا، إلى باب العبور. كنا خائفين. كانت فرانسس واقفة على المسرح، قالت بصوت آلي متحير:

"إنني آسفة، يا بات... فلنأخذها ثانية. لم استطع أن أرقص. لا بد أنني متعبة بشكل رهيب. بدا ذهني فجأة وكأنه قد خلا".

رمقني بات بنظرة تحذير، ولم نقل شيئاً حينئذ. لكنه أكد فيما بعد: "لا نستطيع نكران الأمر. إن الروح القادمة من الماضي تلك قد استولت على عقل فرانسس وجسدها".

ربما كان أسد "جوستين" البائل وبرميل سمكها، اللذين يطرآن في الفصول الختامية، أقل سخفاً في ضوء نار كهف أفلاطون واللهب النفطي لخيمة سيرك السيدة "إليانور" مما بدوا لي عندما كنت اكتب في ضوء الشمس، وربما أقل سخفاً مما قد يبدو لك، إن تجشمت عناء قراءتها في ضوء مصباحك اليدوي.

٤- إن أرقام "راين" تؤثر في (بوصفي ساحراً أسود) وفي "جون مولهولاند" (ساحراً مسرحياً) حتى أقل مما تؤثر في الرعب المقدس لكل السايكولوجيين الاميركان: "جيمس ماكين كاتل"، والأساتذة الجامعيين المشككين الذين يربطون المهارة في الرياضيات مع اهتمام بعلم النفس المتقدم.

إن عندي إعجاباً دافئاً وودياً باهتمام "راين" الذي لا يكل، ونزاهته العلمية شديدة الوسواس، ولست أورط نفسي، بهذا، في أي خلاف يتعلق بالصلافة الرياضية للنظرية

التي يستخلص منها نسبه المثوية ومعدلاته. والأمر، ببساطة، هو أن الإضافات البسيطة، التي تبينها أرقام "راين"، ليست كافية في رأيي ورأي مولهولاند. أظن أن الرياضيين الخالصين قد عقدوا انتقاداتهم السلبية كثيراً بحيث أنهم لا يبرهنون على شيء إطلاقاً. أظن أن أرقام راين ذاتها تكاد تقف بوجه كل المقامرين الآن. ليس هناك فقط أشياء مثل "التعاقبات"، ثمة أيضاً أشياء مثل "الانزلاقات". خذ تخمين ورقة الآص من بين شدة ورق. إن حظوظك هي واحدة من ثلاثة عشر. أو خذ مقارنة البنات، حيث تكون حظوظك متساوية. ثمة دائماً "تعاقبات" و ثمة "انزلاقات" أحياناً. والشيء ذاته في أحمر الروليت وأسودها.

إنها تتوازن دائماً، بالطبع، في الزمن، ولكن ثمة لحظات معينة فقط تتوازن فيها. تبدأ "تعاقبات" و "انزلاقات" بالوقوع ثانية. سيفسر الـ انزلاق - ما بين غالباً إلى مؤكد - إضافات راين. قد تفسر سلسلة من الـ "تعاقبات" أغلبها. في جميع الأوقات، عدا اللحظة التي تتوازن فيها، حتى إذا ما رفعتها إلى أرقام فلكية، فثمة دائماً "تعاقب" إيجابي أو سلبي بطريقة أو بأخرى. لو أنك حاولت أن تخمن أوقات الآص الفوغل* فستحصل على معدل في مواقع معينة لواحد من كل ثلاثة عشر. ستحصل على ذلك المعدل الدقيق في واحد من كل بضعة ملايين تخمين، ولكن في ملايين المرات ما بين ذلك، ستحصل دائماً على "تعاقبات" وفي أحيان قليلة على "انزلاقات" مطولة بشكل خيالي.

وإليك ما فعله مولهولاند بها. يقول في كتابه "احذروا الأرواح المألوفة":
كنا أنا والبروفسور "بتكين" معنيين برؤية ما الذي يمكن أن تجلبه الفرصة الحقيقية. ولهذا طلبنا العون من الشركة العالمية لمكائن المكاتب. لم نطلب العون من الشركة فقط، بل ألقينا مشكلتنا إلى حضنها. وفيما كنا نعرف ما نريد، كنا في أشد الحرص على ألا يكون لنا شأن بالحصول عليه، وذلك لكي نستأصل أية فرصة ممكنة للسبب النفساني.

وكتبنا - مشتركين - الرسالة التالية إلى الشركة:

* هو الذي تسبق مئة صفر رقم الواحد فيه .

(يبدو أن التجارب المشيرة للاهتمام للبروفسور راين من جامعة "ديوك"، في علم نفس التخاطر،" تبين أن بعض الناس هم، بمعنى ما، مستبصرون، في حين أن آخرون هم تلفزيونيون. لقد كانت البلاد كلها تتبع اختبارات تسمية الورق، التي كان راين وأصدقاؤه العديدون يجرونها.

ولا يزال قليل من العلماء يشكون في أن شيئاً ما، في الطريقة أو في تفسيرات النتائج، تقتضي الإيضاح. ويصادف أن نكون نحن من أنصار هذا الرأي.

(في المناقشات الأخيرة قدمنا، إلى أمام، صفين من الأفكار، كلاهما متشابكان بشكل وثيق بحيث أننا قررنا أن ندعو شركتنا لإجراء اختبار أو أكثر، أبسط بشكل مقبول، على مكائننا، على طريق توضيح قضية أساسية.

(تتعلق هذه القضية ببنية تعاقبات طويلة لإحداث المصادفة المفترضة. إن ما يسمى "قوانين الاحتمال" في شكلها الرياضي الخالص لا تؤكد أي شيء يتعلق بالنتائج المحددة في النظام المكاني- الزماني الذي ندعوه بالعالم الحقيقي. كل ما يتم تأكيده هو أنه- من بين عدد معين من الأحداث، التي يفترض أن يكون قررها عدد كبير بشكل لا يُحد من المتغيرات- تميل تعاقبات معينة إلى الحدوث.

لا يُعرف متى يقوم تكرار معين، وليس أي تكرار غير اعتيادي يعتبر دليلاً على أن "سبباً خاصاً" يفعل فعله.

(في التفكير العام، على أي حال، يُتبع إجراء آخر. يفترض الناس بانتظام أن أية سلسلة مدهشة من الأحداث المتكررة المتشابهة تتضمن "احتمال" "سبب" خاص. إن "قاعدة البديهية العامة" أو "درس التجربة" يحرك هنا. يبدو لنا أن علماء نفس التخاطر لو لم يولوا اعتباراً مناسباً لنقاط ضعف منطقية في هذا النمط العملي من أنماط التدخل.

(فعلى سبيل المثال، ينبغي لنا أن نود المقارنة الدقيقة بين سلسلة رابنية متعاقبة طويلة جداً مع سلسلة متعاقبة طويلة بشكل مقارن تصنفها طريقة هي- بلا جدال- "مصادفة خالصة" بالمعنى الرياضي.

(إن تعاقبات من هذا النوع ستكون ممكنة المقارنة حصرياً بمجموع الاختبارات التي قام بها كل علماء نفس التخاطر. وعندئذ سيكون السؤال المهم قد أجيب عنه مباشرة، وهو:

(هل تتعلق الأجوبة الصحيحة التي تسجلها موضوعات علماء نفس التخاطر بمجموع الأجوبة في حالة تختلف بشكل ذي مغزى عن الاتفاقات المشابهة للأحداث المنتجة آلياً؟

(سيتم عندئذ حل شكنا بطريقة أو بأخرى. إننا نشعر بأن علماء نفس التخاطر، بطرد كل الأشخاص الذين يجيبون على وفق "قانون الاحتمال" وبالحديث حصراً عن الحالات النادرة التي تعرض صحة غير طبيعية في الإجابة عن التعادلات في الورق، إنما يشوشون الصورة بخطورة. هنا نتفق تماماً ونود أن نرى ترابطاً تاماً أجري بين مجموع التخمينات، الصحيحة والخطئة، في تجارب راين، وسلسلة واسعة تُصنع آلياً).

"إن شركة مكائن التجارة العالمية تدير، تحت توجيه مشغليها المهرة، منتي ألف بطاقة مرقمة. كانت أول مئة ألف بطاقة بيضاء، وتحوي كل بطاقة على أرقام من ١ إلى ٥. وكان ثمة توزيع متساوٍ لهذه الأرقام. كانت عشرون ألف بطاقة تحمل الرقم ١، وعشرون ألف بطاقة تحمل الرقم ٢، وهكذا دواليك.

خُطت الأوراق البيضاء آلياً من دون انتظام، وأدخلت إلى ماكينة طبعت الأرقام على ورق بالنظام الذي صادف أن صدرت فيه. وكانت المئة ألف بطاقة الأخرى حمراء، وكان لهذه أيضاً توزيع متساوٍ للأرقام الخمسة الأولى.

وتم خلط هذه أيضاً آلياً من دون انتظام، وجرى طبع أرقامها على الورق. كان العمل المنجز - كما أرسل للبروفسور "تبيكين" ولي - يتألف من صفحة بعد أخرى فيها أعمدة مطبوعة من الأرقام - عمود من البطاقات البيض وواحد من الحمر. ومثل اختبار الدكتور راين بالضبط، كانت ثمة فرصة واحدة من خمس بأن يكون زوج من الأرقام في أي خط معين مساوياً - يعني: أن يتطابق. ولكن لم يكن ثمة في اختبارنا أي فرصة لقراءة الأفكار أو الاستبصار بوصفه عاملاً. في الحصول على صورة حقيقية للفرصة المحض تكون تعاقباً من مئة ألف رقم صغير، ولكنه رقم كبير للعمل، فمثلاً: ليس ثمة مثل هذا العدد من الكلمات في هذا الكتاب.

طبعي أننا حصلنا كما توقعنا، على ما بدا تعاقبات أكثر استثنائية ونقص التعاقبات. عندما يقول الرياضيون إن حدثاً ربما يقع ولكن مرة في كذا عدد من المرات،

فإنهم لا يقصدون أنه لا بد أن يقع، أو أنه لا يمكن أن يقع أكثر من مرة في أي سلسلة معينة. لا تجري الإشارة إلى أي جزء ولا أي وقت معين في إعلان الرياضيين. لو كنا نعرف كيف نبني امكانات وقوع أحداث خاصة، فإنها ستكف عن أن تكون امكانات وستصير مؤكدات.

"حصلنا على نتائج مسلية بشكل عجيب. ثمة، على سبيل المثال، ثمة ما يبلغ اثنين وثلاثين خطأً من الأرقام في تتابع من دون زوج متقارن. طبيعي أننا قد نتوقع- بالمصادفة- أن نحصل على ستة أزواج متقارنة. ومرة أخرى، ستكون ثمة تعاقبات من الأزواج المتقارنة. قام البروفسور "تبيكين" بالاكشاف الأكثر إدهاشاً حول هذه التعاقبات. هبطت التعاقبات ذات الأزواج الخمسة المتقارنة بالتتالي ٢٥٪ أدنى من الطرء النظري، في حين ارتفعت التعاقبات السبعة، فقد قفزت مزيداً من الارتفاع إلى ٥٩٪ فوق التوقع المحتمل، وبالتعاقبات الثمانية ذهبنا إلى ٧٨٪ أعلى من الطرء النظري. والآن، إذا كان لنا أن نستخدم تعاقباً اختبارنا القصير على نحو غير منطقي، فقد نستنتج أنه في أي تعاقب طويل يكون الميل إلى طرء المصادفات المدهشة أغلب مما تستلزمه المعادلة الرياضية. ويقدر ما يطول التعاقب الاتفاقية يرتفع طرؤه بالمقارنة مع المتطلبات الرياضية.

من الواضح أن هذا ينتهي إلى سخف محض. والانحراف المهبوس المسلي الآخر عن التوزيع النظري هو أنه كان ثمة، في أول أربعين ألف زوج، ثلاث مرات تقريباً من تعاقبات الخمسة مما كان في الستين ألف التالية، في حين أنه بالتعاقبات الستة كان معاكساً بالضبط. ولم يكن أي من سلاسل التعاقبات هذه متوقعاً.

"ووجدنا أيضاً أننا، عندما اخترنا تعسفياً أجزاءً ما للطرود الزائد للأزواج المتقارنة فيها كنا نجد خمسة وعشرين ومرتين خمسة وعشرين ومرتين خمسة وعشرين بنصف الأزواج المتقارنة.

كانت هذه التعاقبات فوق فرصة التوقع عند ١٠٠٠٠٠، ولكن في عدد غير محدود كانت متوقعة.

كان كل ما لدينا سلسلة من الأعداد التي اتفق أن تأتي فيها هذه الأزواج المتقارنة.

"وإذا جمعنا عدد "التخمينات الصحيحة" في كل ألف من تعاقب صدفتنا المحض، وجدنا أن أربعة وعشرين ألفاً جاءت ضمن ٢٪ من التوقع الرياضي، وارتفعت عنه ثلاثون ألفاً وانخفضت ستة وأربعون ألفاً عن المصادفة النظرية. إن العدد الكلي للأزواج في المئة ألف كلها كان اقل في ٢٪ بعيداً عما كان متوقفاً. وبالمناسبة، فالمجموع كان تحت التوقع الرياضي".

ربما برهن الدكتور راين على أن قليلاً من الناس المعنيين لديهم قوى قراءة الأفكار أو الاستبصار، ولكن الاختبارات لا تبدو لي، حتى الآن، شاملة. أعرف أنه سيتفق معي تماماً عندما أقول إنه- حتى بالتسليم أن ثمة ناساً عندهم إدراك حسي فائق، فتلك هي المقدرة الأكثر عدم تأكيد وقابلية للاعتماد عليها.

إن العزلة المضللة باللغة السهلة في التعامل مع الدراسات السايكولوجية. كانت أُمي متسلية لسنوات بفعل كتاب أشار الكاتب فيه تعريفى الشبابى للغاية للموسيقى. أقام الكاتب فكرته على الملاحظات الشخصية وعلى الأجوبة التي أعطتها أُمي عن أسئلته. رأي أنفعل تماماً في غرفة طعام في فندق عندما بدأت الاوركسترا تعزف مارشاً ألفه "سوسا".

كنت مجرد طفل في كرسي مرتفع، ولقد تعجب تماماً لما سمعني أنادي "سوسا"! جاء إلى المنضدة وسأل أُمي أكننت قد قلت "سوسا" حقاً عندما بدأت الاوركسترا العزف، فأجابت بأنني فعلت. وسألها عندئذ عن اسمي وسني، فأعطيا له كلاهما. ومن باب المصادفة أن تسميتي الطفولية للموسيقا كانت "سوسا".

وكل ما هنالك أن البروفسور اخفق في طرح السؤال الصحيح. إلى هنا، لم يقنعني شيء بقدرة أي كان على قراءة الأفكار، ولكن كثيراً من الناس الآخرين يؤمنون بذلك.

إن أُمي لا تعتقد فقط بإمكان قراءة الأفكار وإنما تقيم دليلها على عدد المرات التي قرأت فيها أفكارها.

أظن أن الاحتمال هو أنني، في قليل من المناسبات، فقتها في الحدس، وضاعفت هي، كما الأمهات، بلا وعي / الرقم عدة مرات.

٥- إن امكان الإدراك المسبق مقبول ومشروح جزئياً من جانب المخترع العسكري

والعالم البريطاني "جي. و. دون"، في كتب مختلفة بما فيها "العالم المتسلسل وتجربة بالزمن". وتعليقاً على نظريات "دون" يقول "هنري جايس فورمان" في استعراض الكتب في الـ "نيويورك تايمز"، عدد ٣ كانون الأول ١٩٣٩:

"... مهما حاول السيد "دون" أن يصير شعبياً في طريقته لتقديم نظريته، لا يزال، وهو دائماً، المهندس، العالم، والرياضي.

".... قد يقول المرء بجرأة إنه كان لأي من نظريات العصر المشوش الراهن فرصة البقاء والنمو فإن نظرية السيد "دون" عن "الاشتراكية" هي الأكثر احتمالاً. لأننا اليوم جميعاً - من الأكثر ذكاءً حتى الأقل ذكاءً، متعبون من الضرب المادي الذي تلقيناه أثناء السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة.

إلى هذه الدرجة مُكّن الكون لنا بحيث لم يعد بوسع العلماء أنفسهم أن يتحملوه. ونسمع الآن من أعظمهم أن الكون يتألف من فكر خالص بنزوع إلى الحدس أحسنا على الدوام أن الحال على ذلك النحو.

لقد كنا دائماً نعرف، على نحو ما، أن الواقع مخفي بقناع ما يسمى المادة، وأن المادة نفسها لا تهم كثيراً.

إن الشعراء والقديسين والأنبياء هم من نتجه إليهم لنوسع أرواحنا، لا إلى مقولات الذين على مكائن الديزل، مهما بلغ ذكاؤهم، لا على تكتيكات قرن الأعصاب أو السرطان الذي يمكن معالجته.

... بين السيد دون، في كتابه الأول، الأمر الذي أثار استغرابه كثيراً، أن الأحلام لها خواص محيرة معينة، تكشف فعلياً المستقبل بقدر ما تتعامل مع الماضي.

إن كون الزمان الذي نعيش فيه وبه بعيد للغاية عن القصة كلها، وأن ثمة "الآن" يُكوّن ماضينا ومستقبلنا مجرد حجرات اصطناعية صغيرة منهما. ولكونه عالماً، فقد اتبع الطريقة التجريبية وتوصل إلى بعض النتائج المحيرة.

.... إن "الذات" التي لا نستطيع أن نتخيلها كما يبين، والتي ندركها بشكل غائم، هي حقل سفر يغير الانتروبيا* - نقطة تقاطع سفر.

* عامل رياضي يعتبر مقياساً للطاقة غير المستفادة في نظام دينامي حراري .

"إن كل الحالات التي تعتبرها الذات عند حقل السفر "مستقبلاً" هي من الحقيقة بمعنى "الوجود الآن" بقدر حقيقة تلك الحالات التي يعتبرها الفرد المقيد ذاته ماضياً. ويضيف: "إن الجميع حاضرون على نحو مساوٍ في "الآن" الحقيقي... ولكن الذات تستطيع التدخل في المكان الذي يصادف أن يكون فيه حقل السفر...". وهكذا يصل السيد دون بالرياضيات والفيزياء إلى النقطة التي يشير إليها هؤلاء القديسون والأنبياء من جانب السيد "بريستلي" حيث عندما يخبروننا أموراً من نوع "قبل أن يوجد إبراهيم كنت أنا"، أو- بكلمات الحكم البوذية- "كل الكائنات العلمية متشابهة في الجوهر مع الطبيعة الحقّة..... الطبيعية في ذاتها لا تغادر ولا تأتي...". إن "مسألة الشق في الزمان" هذه تشير الآن بالذات إلى أعداد كبيرة من الناس العمليين والواقعيين.

يخبر "لاول توماس"، عند طلب "مولهولاند"، في "احذر الأرواح المألوفة"، عن فتاة كان لديها تشخيص لوجوده في (إقليم الدوقية). يقول "لاول": "قديماً، في أيامي بالمدرسة، كانت لي صديقة حكيمة، سيدة شابة اختفت من حياتي عندما كبرتُ.

ولقد فقدت كل أثر لها تماماً. بعد الحرب العالمية، لدى العودة من عشر سنوات في التجوال حول الكرة الأرضية، كنت أمشي على امتداد الشارع في حياة (برودواي) الليلية، إذ رأيت- ما أدهشني- اسم صديقتي بالمدرسة، "بيولا بوندي"، مرسومة بالأضواء الكهربائية على علامة مسرح.

ذهبت إلى خلف المسرح على أمل أن تكون الفتاة ذاتها. كانت هي بالفعل، وتم التلاقي المجدد، والحديث عن ذكريات أيام الكلية المرحّة.

"قالت الآنسة بوندي: "يا توم، مع أنني لم اسمع شيئاً عنك على مدى سنوات وسنوات، فإنك لم تكن خارج أفكارٍ تماماً.

طيلة بضعة أصياف، عشتُ في سفوح تلال (بيركشاير)، وفي كل مرة كنت أمر فيها ببيت معين، كان يملكني إحساس غريب بأنك تعيش في ذلك البيت!".

"في ذلك الوقت لم أكن قط في الـ (البيركشاير) ولم أكن أعرف شيئاً عن (إقليم الدوقية)، ولم اسمع قط عن (تل الكوايكر) المحبوب.

ولكن بعد سنتين من مقابلة الأنسة "بوندي"، التي هي الآن ممثلة ادوار أشخاص على الشاشة محتفى بها، قررت أنني أريد مكاناً في الريف، وأنه ينبغي له أن يكون ضمن مئة ميل من جزيرة مانهاتن. وعندئذ بدأت تفتيشاً منظماً عن أي شيء، ضمن تلك المسافة. كان حلمي أن أجد طقساً كاملاً على طول السنة إضافة إلى جمال مشهدي علاوة على جيران جدد.

لسبب أو لآخر، حذفت (لونغ آيلاند)، (نيوجرسي الشمالية) وكلاً من الشواطئ الغربية والشرقية للـ (هودسون).

وأخيراً، أخذتني أسفاري إلى (إقليم الدوقية)، وإلى (تل كوايكر) التاريخي، وهو سلسلة جبال طولها عشرة أميال في الزاوية الجنوبية الشرقية من الإقليم، الذي هو أحد أحب البقاع على الأرض، ليس مذهلاً بقدر (وادي كشمير) - ولكنه، على طريقته الخاصة، وعلى الدرجة نفسها من الكمال.

"وهناك على أحد رعن من (تل كوايكر) رأيت بيت المستعمرات الذي كنت أريد. لم تكن العجوز المهيبة مالكة المكان في ذلك الوقت تفكر في البيع. ولكن تم عقد صفقة في الآخر. وذلك، كما لا بد قد خمنت في هذه الأثناء، هو ذاته الذي ربطته "بيولا بوندي" لسنوات عدة بصديقها من الكلية، البيت الذي رأيته، بعينها المتنبئة، أعيش فيه.

"وهذا ما اكتشفته بعد ذلك، بعد أن كنت قد انتقلت إلى الجوار".

يقول "فولتون اورسلر"، كما يقتبس عنه "مولهولاند":

"كان لغز الزمان والمكان يبدو لي دائماً أكثر أهمية من مسألة البقاء الشخصي، ولقد امتلكت فعلياً مئات التجارب التي بدا أنها تشير إلى حيوية نظرية "شق الزمن"، التي طرحت في السنوات القلائل الأخيرة من جانب المرتد العظيم عن الفرويدية: "يونغ".

ولقد توصلت إلى النظرية ذاتها على نحو مستقل. لا أدري أكنت قد صغتها قبل أن يصوغها "يونغ"، ولكنني صغتها بالتأكيد قبل أن يعلنها "يونغ".

الفصل "٣"

١- يرقى محصول بديع من السحرة البيض في سنة ١٩٤٠ بينما يذهب هذا الكتاب إلى المطبعة. إنهم يحصلون على صور في النشرات المصورة، ومساحات في الصحف، بما في ذلك الـ "هيرالد تريبيون" والـ "تايمس".

٢- في (اوكدایل)، بـ (لونغ آيلاند)، أسس "جيمس ب. شافر" "الأخوية الملكية لكبار الميتافيزيقيين، وقد تبنى طفلة صهباء تبلغ من العمر ستة أشهر، اسمها "جين غاونت". يفترض أن تخضع الطفلة لسحر أبيض شامل بوصفها مرشحة للخلود. في (همبستيد الغربية)، بـ (لونغ آيلاند) أسس روسي يدعى "غليب بوتكين". ابن طبيب القيصرة المتوفى، وأنشأ "كنيسة افروديت في لونغ آيلاند"، لعبادة "فينوس". في (لوس انجليس) بـ كاليفورنيا)، وسع "أدوين جي. دنغل"، زميل الجمعية الجغرافية الملكية، "معهد الفيزياء الذهنية"، الذي يأمل أن يعيد إحياء العالم الغربي باليوغا. عاش السيد "دنغل"، بالطبع، "في دير تيبتي"، حيث كان الكهنة يعلمونه "الطرق السرية المحروسة بإحكام لقرون عدة".

يخرج السحرة البيض العظام عن النمط السائد، أو يصيرون مزارعين، ولكن رهاني هو أن هؤلاء سيكونون موجودين لوقت معتبر. يوفر الميدان فرصة نجاح جيدة جودة الدواء أو القانون، ولكنه يكاد يكون مزدحماً بالقدر نفسه. ثمة آلاف من الصغار، ذكوراً وإناثاً، لم يتقدموا أكثر من الحديث إلى جدتك عبر "دليل هندي"، وقراءة كفك أو فالك مقابل خمسة وعشرين سنتاً، أو قراءة مستقبلك في أوراق الشاي بالسعر نفسه- مع إلقاء الشاي والخبز المحمص إلى الداخل.

إن المكافآت العظيمة هي للنجاحات العظيمة فقط، ولكن لو أنك أحسست في تواصلك مع عمتي المرحومة من (هاوكينسفيل، بـ (جورجيا)، أو مقابلها المتوفى من

عائلتك أنت- أو مع الكهنة التيبتيين أو مقابلهم المحدودين في العائلة الإنسانية العظيمة، فلربما أخذت درجة في السلم إليها. قد يحقق لك ذلك كثيراً من المال ويقدم مساعدة وراحة كبيرتين لأخيك الإنسان من إيصال مواد البقالة، أو العمل في مرأب، أو الطبخ، أو الكنس أو غسل الصحون. ربما يتطلب ذلك جيلاً جديداً كاملاً لتقرير أكنت "قديسة تيريزا" ثالثة (كانت خادماً من صارت الثانية) أو أكنت مجرد فتاة خدمة مخدوعة تحاول أن تتقدم في العالم أو أكنت "قديس فرنسيس اسيسي" آخر أو مجرد أبلة القرية. لو كنت مخلصاً وتهتم أكثر بمساعدة أخيك الإنسان بما تفعل لكسب نكلة، فلربما ستذهب في طريق طويل. لقد تم اختراع العديد جداً من أجزاء الآلات، التي ربما تحتاج إلى أكبر إصلاح على الإطلاق، هي داخلية في الحساب. إن الروح هي الجزء الوحيد، حسبما أعرف، الذي لا تعلمك "المدرسة العالمية للمراسلة كيف تصلحه. وقد يكون ذلك هو السبب في أن كثيراً من الناس العاجزين وغير المهرة يحاولون أن يفعلوا ذلك.

مرة في كل فترة زمنية، يأتي للعالم عظيم، أو من يمكن أن يكون عظيماً. وهم يظهرون عادة من الظلمة. إن القادم الأكثر وعداً في السنوات الأخيرة بوصفه "كريشنامورتى"، لكنه تعب من كونه "منقذ العالم"، وانفجر. وإن الأكثر إثارة للاهتمام من بينهم، الذي لم ينفجر، هو "الأب الإلهي" (الساحر الأبيض العظيم بين السود). وإني لأقدم له إطاراً إبقائه خارج هذا الكتاب لأنه يقدم الشرف، العمل الدؤوب والقيم الرئيسة، على السحر.

في هذه الأثناء، تحظى "جين غاوت"، الطفلة التي يجري تدريبها من جانب أنصار ما وراء الطبيعة للخلود، بدعاية أكبر من أي مرشح في هذا المجال. لقد شنت الـ "هيرالد تريبيون" حملتها الدعائية في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٣٩، بصورة لرضيعة وقطعة كتبها مراسل من جهازها. وقد ذكرت الـ "تايم" الرضيعة بضع مرات. وفي ٤ كانون الأول ١٩٣٩، وردت كالتالي في عمود "تايم" المسمى "علامات الطريق".

"جرى تبنيها: جين، الطفلة ابنة الخمسة أشهر، من قبل "جيمس برنارد شافر"، مراسل (أي رئيس) الأخوية الملكية لأنصار ما وراء الطبيعة، في (اوكدليل). سيكون

منزل جين قصر (اوكديل) ذا المئة غرفة (قصر "وليام ك. فاندربيلت" سابقاً)، ("تايم"، ١١ تموز، ١٩٣٨)، الذي بدل اسمه من "آيدل أور" إلى ("بيس هافن". ستحاول الأخوية، وهي عبادة دينية مكرسة للسلم وقمارس مزيجاً من الروزيكروشية*، والعلم المسيحي والمسيحية، وعلم العقل الأعلى ومعالجة الإيمان، ستحاول جعل جين خالدة، عن طريق تربيتها في بيئة لا يذكر فيها الموت والمرض (اللذان يسميان نتاجي التفكير الهدام) أو لا يفكر فيهما. ستحضر منذ البداية صفوف ما وراء الطبيعة، ستكون نباتية بمجرد أن يصير ممكناً توقفها عن وجباتها الخاصة".

وكتب المراسل من جهاز الـ "هيرالد تريبيون" في ٢٦ تشرين الثاني:
"يعتقد السيد "شافر"، وهو ما وراء طبيعي هادئ عذب اللسان، أن تعليم الطفلة يمكن أن يصاغ بحيث لن تدخل الأفكار الهدامة ذهنها، ونتيجة لذلك ستُحفظ من التخريب- حتى تخريب الجسد.

"نقل السيد "شافر" عن الإنجيل، "إن العدو الأخير الذي يجب تدميره هو الموت"، وعن ماري بيكر ج. ادي- "مؤسسة العلم المسيحي قولها- "الموت يجب التغلب عليه، لا الخضوع له". في حين سبق لكنائس أن علّمت خلود الروح، كما قال، فإن مدارس الحقيقة، كأخوته، تعلم أن خلود الجسد يمكن تحقيقه أيضاً. قال: "ليس هذا حلمًا. إننا نعمل جميعاً من منطلق خلود الجسد، ولكن أكثر الطلاب الذين جاؤوا في هذه الأثناء قد انغمسوا في الملذات ودمروا حيواتهم. إن عندهم الكثير من الأمتعة الذهنية التي يجب تفرغها.

"إن للرضيعة ذهنًا خاليًا. سنواصل التأكيد في ذهنها على جمال الحياة وجانب الحياة الذي نحاول الحياة فيه. لو أن الطفلة لم تفكر في أي شيء سيئ أو هدام، فليس من الممكن قمزق ذهنها.

"وكدليل على امكانيات ما وراء الطبيعة، تحدث السيد "شافر" عن معلمه هو، الذي- كما قال- "يبلغ من العمر أكثر من مئة سنة، مع أنك تظن، عندما تنظر إليه،

* مرت سابقاً .

أنه فوق الأربعين أو الخمسين فقط". ورفض السيد شافر أن يكشف اسم معلمه.
"كما أنه تحدث عن رجل كسر ساقه في الأسبوع الماضي، وعولج بعد ساعة وراح
يمشي. قال: "ما من مدرسة حقيقية موجودة إلا وتضم ملفاتها مئات العلاجات التي
تبدو إعجازية، ولكن ماذا ستكون فائدة الحديث عنها؟ فلن يصدقها الناس".

"وقد بدأ السيد "شافر" إجراءات التبني الرسمي للرضيعة "جين"، ومع أنه سيكون
أب التبني القانوني، فإن كل الطلاب الذين يأتون إلى (بيس هافز) سيشاركون في
تعليمها. إن الرضيعة ابنة زوجين كانا- كما قال السيد شافر- يجوعان نفسيهما كي
يُطعماها، وقد ابتهجها لأخذها كي تُربى في الجو الباذخ لد (بيس هافز).

"إن يوتوبيا (لونغ آيلاند) هذه هي القصر ذو المئة غرفة والذي بناه سنة ١٩٠١
المرحوم "و. ك. فاندربيلت" بكلفة ٢,٥ مليون دولار. إن غرفه العظيمة مؤثثة بسخاء
باذخ، وثمة ملاعب تنس، مسبح، ملعب سكواش، وخيل ركوب، محلات لرمي السهام،
جمنازيوم وتسهيلات استجمام أخرى. يستخدم الطلاب، وهم مهرة وأساتذة في ما وراء
الطبيعة، العقار- كما يقول السيد شافر- بوصفه "مسكناً مساعداً، وثمة دائماً ما بين
٥٠ إلى ١٠٠ قاطن.

"في هذا الجو ستعيش الرضيعة جين. عندها الآن مربية، مدربة لديها أيضاً تجربة
طويلة في ما وراء الطبيعة. عندما ستكون اكبر قليلاً ستلزم وصفة غذاء نباتية. إنها
تحضر صفوفاً الآن، كما يقول السيد شافر، لـ "الدخول في الجو". وسيتم تحصينها
لاحقاً ضد التأثيرات الهدامة بالتعليم.

"ستتعلم أن ثمة أشياء كاللحم والمشروبات الكحولية والسجائر، ولكنها ستتعلم
أيضاً لماذا يتم تجنبها بوصفها هدامة. ستتعلم أن ثمة شيئاً كالموت، ولكن سيتم
إخبارها بأنه شر غير ضروري. قال السيد شافر: "ينبغي لها أن تتعلم وتفهم كل شيء".
حيثما يوجد الجهل يكون الخوف، وحيثما يوجد الخوف يكون الخراب".

لست ادري أكانت فكرة الدكتور شافر نفسه أم اقتراحاً من "الدائلي ميرور"،
ولكن في كانون الأول نقلت الرضيعة "الخالدة" إلى مسرح "زيغفيلد" في سيارتها
الخاصة، مع سائقها الشخصي ومربيها الخاصة، حيث صوّرتها الـ ميرور".

جلست الطفلة وانضبط سلوكها فيما كان الدكتور شافر يلقي محاضرة على ١٥٠٠ شخص. وبعد ذلك أخذ "جين" إلى أضواء مقدمة المسرح، وسمّعها "أنى جئت أيتها الطفلة العزيزة؟"، فهدلت جين جواباً وتوضعت مرة أخرى للمصورين. قال الدكتور شافر: "كما ترون، فهي لا تخشى المصاييح الوهاجة. ستبقى إلى الأبد". كانت الـنيويورك قد اقترحت أنها إن فعلت، فيحتمل أن تنتهي بأن تصبح عبثاً مملاً على أحفاد أحفاد أحفادها.

والسيد الآخر الذي يشعر أننا لا نحتاج إلى أن نموت هو المدرس "اميرتيوس أدوين جي. دنغل"، زميل الجمعية الجغرافية الملكية، من معهد الفيزياء الذهنية في (لوس انجليس). أرسلت له بطاقة بريدية وتلقيت رسالة جواباً عليها. كانت من مكتبه الخاص في ٢١٣ (بولفار هوبارت الجنوبي)، وتضم كراساً فيه صورة إدارة وقاعة استماع في (لوس انجليس)، وكذلك اكليشة خشبية كدير لامي تيبتي في الـ (هيمالايا). أو، أكان باغودة*؟ كانت الرسالة لطيفة، خاطبني فيها السيد "دنغل" بوصفي صديقه العزيز وأكد لي أنه عندما سمع مني أحس على الفور أنني "انتمي". أخبرني لا فقط أن الله في داخلي، ولكنني أنا، ذاتي، "ولي سيبروك" الصغير، الله على هيئة آدمي. قال إن هذا سيدهشني، وقد أدهشني فعلاً.

ويواصل ليخبرني أنني سأندهش المزيد من حقوقي عندما أكون قد تعلمت المزيد عنها. ويخبرني أنني فيما أصبح ماهراً في قوتي الجديدة الغربية فإن عائلتي (التي تتكون من "مارجوري"، واسكوتلندي ما، وثلاث قطط) وكذلك أصدقائي ومعارفي سيفتنهم التغيير في.

لقد حصل على شيء هناك. أعتقد أن "مارجوري" سيبهجها أن ترى أي تغيير. يقول إنهم سيتعجبون من إشعاع ملامحي والقوة الأعظم في جسدي. قد أتمكن من التقدم أكثر من مثني ياردة بعد أن أكون سددت خزان القوة. وهو يخبرني أنني مثل عملاق بين يدي منوم مغناطيسي. يقول إن العملاق في قط صيّر يائساً، نوم مغناطيسياً بأفكار كاذبة عن ضعفي وعن التصورات التقليدية عن محدودياتي. أنا عملاق، ولكن عملاق مريض. يخبرني السيد "دنغل" أنه "رافع النوم المغناطيسي". أنه

* هيكل أو معبد هندي، صيني، أو ياباني.

كاتب رسالة مقنع. حصلت على الانطباع بأنه مخلص، "أنه يعتقد بهذه الأشياء (أو أن شخصاً يدعمه يعتقد بها)، وأنه يعتقد أيضاً بأنه يستطيع تعليمها أيضاً، كذلك يستطيع الدكتور "كو"، كذلك يستطيع "بوذا"، و"كونفوشيوس"، "محمد"، و"عيسى المسيح". لو أن مقارنة السيد دنغل للجمهور أكثر حداثة بقليل وأكثر في غطها الطلب- بالبريد- حرفة البيع- عالي القوة من نطهم- طيب، إن هذا عصر حديث، والرسائل المستنسخة لم تكن قد اخترعت في عصر "كونفوشيوس". لو أنها كانت مخترعة، فلربما استخدمها "كونفوشيوس".

يشرح الكراس أنه مؤلف عدد من الكتب بما فيها "عبر الصيني على الأقدام"، ثورة الصين"، و"عقلك وغوامضه"، وأنه كذلك محرر "أطلس دنغل الجديد" و"كومير شيال غازتر الصين"، و"خريطة الصين ثنائية اللغة"، وكتيب "منتجات الشرق الأقصى". لا أستطيع العثور عليه في "مشاهير بريطانيا"، أو "المشاهير الاميركان"، ولكننا سنعرفه بالإيمان.

إن هذا الحقل لناغلُ بالمشعوذين والدجالين والمحتالين والمبتزين الصغار. وكذلك هي حقول العلم والقانون والطب. ولكن، ليس صحيحاً على نحو آلي أن كل الدراويش مزيفون. ولا كل مؤسسي الأديان الجديدة هم بالضرورة مضحكون جداً كما بدوا أحياناً في البداية.

صارت الصحف مبالاة إلى أن تبحث بفضول، بمرح معتدل، عن "غليب بوتكين"، عندما وضع وزوجته تمثالاً لـ "فينوس دي مديس" على مكتبهما وبدأ يعبدانه. ولكن عندما أرسلت الـ "وورلد تلغرام" كاتبها من هيئة التحرير، "دوغلاس غيلبرت" إلى "وست همستيد"، امتنع عن القيام بأي محاكاة مضحكة. وضعت الـ "وورلد تلغرام" (١٥ تشرين الثاني ١٩٣٩) العنوان التالي لتقريره:

آلهة الكنيسة افروديت
التي تعطي الحب فرجة
روسي يحصل على إذن من الدولة بعبادة الحسناء
"عذبة الرائحة، العاشقة للضحك"

وإليك ما كتبه:

"أسس "غليب بوتكين" - ٣٨ سنة، وهو مشقف روسي، مؤلف كتب عدة باللغة الإنكليزية وابن طبيب القيصر - كان أبوه قد اغتيل مع الإمبراطور في التمرد الأحمر - ديناً جديداً، هو "كنيسة لوتغ آيلاند لأفروديت".

"أنشئت الكنيسة في ٢١ تشرين الأول عندما تلقى السيد بوتكين امتيازاه في دائرة الشؤون الخارجية لولاية نيويورك، وقد كانت تأسست في ٦ ميس ١٩٣٨. وقد أشهر وجودها اليوم.

"عنده منذ الآن ٣٥ تابعاً و ١٥ آخرون هم "حشوة" وهم يجتمعون في بيته، الكائن في الرقم ٥٥ شارع (ايفي)، غربي (همبستيد)، أيام الجمعة - إذ الجمعة هو يوم افروديت. "هناك يناقشون الدين الجديد مع مؤسسه، الذي هو قسيس، وأولئك المجادين في إيمان نبيهم ينفضون فيما بعد إلى غرفة نوم خلفية في بيته ويتعبدون أمام مذبح افروديت الذي نصبه على مكتب.

"والمذبح هو شكل للآلهة، العمل الفني ما بعد التطبيقي الذي يعرف باسم "فينوس آل مديسي". وهو ينتصب أمام وشاح ارجواني من نسيج مصور ويحرقون أمامه تسع شمعات ويخوراً. إنه جميل للنظر ومؤثر بشكل مخيف.

"إن الأعضاء الذين يجتمعون على هذا النحو أمام المذبح يتلون عندئذ قانون عقيدتهم ويترغنون بنشيد، وكلاهما كتبه السيد "بوتكين". يبدأ القانون:

"أؤمن بأفروديت، ذات وجه الزهرة، عذبة الرائحة، العاشقة للضحك، آلهة الحب والجمال، الموجودة بذاتها، المعبودة الأبدية والوحيدة في سموها، خالقة الكون وأمه، القضية العالمية، العقل الكوني، منبع كل الحياة وكل قوى الطبيعة الخلاقة الايجابية، رأس فوارة كل السعادة والحيور...

"ويختتم النشيد على النحو التالي:

"مباركة أنت، الآلهة الحسناء، وحبناً لك كالسمااء التي لا حدود لها، مثل اللانهاية التي لا نهاية لها، مثل الجمال ذاته الذي لا تستطيع أي كلمات أن تصفه. لأننا نحبك بكل ذرة من ذرات أرواحنا وأجسادنا، يا افروديت، الأقدس، الأحلى، الأحب، الأكثر مباركة، الأعظم جلالاً، إلهة الجمال الأكثر جمالاً.

"إن واحداً من أحلام السيد "بوتكين" المعززة هو أن يكون له، يوماً ما، معبد صغير. يقول إن ديانتة الكليركية على الطراز الحديث وإنه سيؤسس اكليروساً مكرساً لهذا الغرض.

"إن السيد بوتكين، بوصفه قسيساً، يلبس أساساً غطاء الرأس الافروديتي (وهو على شكل تاج أسقف)، وقد صمم مقدماً شعار كنيسة افروديت، وهو صليب، تعلوه دائرة. الصليب ذو مغزى للقاء الحب بين الرجل والمرأة، بينما تمثل الدائرة الأبدية. "يدخل الجنس إلى ديانة السيد بوتكين، الجديد، ولكن بوصفه مثلاً فقط، "إلهيا ومدهشاً". ليس جزءاً من الطقوس. إنه يضع هالة على التعبير، وفي مناقشته يجعله راسخاً مثل عناق الملائكة.

"إن أتباع السيد بوتكين ليسوا مجموعة من المجانين العراة العريبيين واضعي أوراق الكرم في شعرهم. إن أغلبهم أصدقاء مثقفون، كما يقول، ذوو استفسار واسع الأفق وقبول تحملي.

يعيش بعضهم في همبستيد الغربية، وبعضهم في نيويورك، وثمة قليل من المؤمنين في أوروبا يتراسل معهم. لم يتلق طلبات من لوس انجليس، بعد. وليس السيد بوتكين نبياً في روب منام وعصا راعٍ. إنه سيد راق مقبول على نحو جيد، طليق الكلام، يقدم كل دليل على الجد والإخلاص. وجهه نحيل ووسيم، وغالباً ما يتغضن بالابتسامات، ولحية تفرز ملمحه القديسي المسيحي.

"وزوجته سيدة بهيجة وجهاً وسلوكاً، لها شعر ابيض قبل الأوان. لديهما خمسة أطفال، ثلاثة أولاد وبنتان. وهم جميعاً طليقون وإنه لأمر رائع مؤاكلتهم.

"زاره هذا المراسل، وقد علم بهبة الامتياز لكنيسة في (الباني)، من دون إعلان مسبق. ليس لدى آل بوتكين تلفون، استقبلنا في مكتبه، وهو فجوة من غرفة المعيشة تحوي خوان كتب، منضدة، آلة طباعة، كرسي اتكاء عميقاً وسريراً خفيفاً قابلاً للنقل.

"كان متحفظاً بشكل اعتذاري عن الإدلاء بمعلومات عن كنيسة الجديدة. قال: "إنني أخشى تقديمها، لثلاثي العصابيين وغير المستقرين عاطفياً. ولكنني سيتعين عليّ أن أفعل ذلك، يوماً ما، وافترض أنه لا بأس في أن يكون ذلك الآن".

"قال إنه كان لبعض الوقت عارفاً للخصائص الافروديتية التي توجد في اغلب الأديان وإنه قد نَمَى أفكاره الخاصة عنها قبل تثبيته كاهناً ليصبح قسيساً في "الكنيسة الكاثوليكية الإغريقية" في (روسيا).

"قال إن هذا كان أساس ديانة "افروديت":

"البحث عن الحب والجمال والتناسق وتنميتها وقمع القبح والتنافر".

"قال إن ديانتته تتبع بالضبط الفرائز الطبيعية للإنسان وإن المسيحية غالباً ما تنكرها.

"وقال السيد بوتكين:

"إن المبدأ المسيحي هو قمع الرغبات وتنمية الروح. لكن ديانة افروديت، ذات الخصائص البسيطة، هي نقیضة ذلك.

فالجنس مثلاً وظيفة إلهية. ولكن استمع لهذا: في مؤتمر (لامبث) سنة ١٩٣٠، أعلن مطارنة الكنائس الأسقفية البروتستانتية أن "العلاقات الجنسية ضرورة مؤسفة حتى عندما تكون الحاجة للأطفال قائمة". وجواباً على هذا أعرب البابا بيوس الحادي عشر عن أسفه لارتخاء المطارنة الأسقفيين".

"إن الزواج، ضمن العقيدة المسيحية... هو مساومة مقبولة عندما لا يعود الرجال قادرين على مقاومة التبتل. في ديانة افروديت- عدّ التعبير الجنسي نفسه بفضيلة قدسيته".

"عندما لا يكون السيد بوتكين منشغلاً بنظرياته وعقيدته الافروديتية، يشتغل على كتاب يكتبه يتحدث فيه عن روسيا منذ سقوط القيصر. إن روسيا، لا ألمانيا النازية- التي من المؤكد أنها ستهزم- هي مشكلة العالم القادمة، كما يقول. ولكن الحب سيجد طريقاً.

"يقول إن الكراهية شر، والشر- في العقيدة الافروديتية- هو مجرد غياب الخير. ويقول إن الكراهية، والأنانية، والحسد غير طبيعية. إنه يضع ذلك في صيغة شعرية تماماً: "إن البستاني الجيد يقطع الدغل لا لأنه يكره الدغل وإنما لأنه يحب الزهور".

لم تكن عبادة فينوس وايزيس وعشتروت مضحكة في بلاد الإغريق ومصر القديمة. قد تكون مضحكة قليلاً ضمن ظل ناطحات سحاب (مانهاتن) في سنة ١٩٤٠. إنها مضحكة قليلاً (أي: هدف شرعي لسخرية بسيطة). إن كونها مسخرة ليست أساسية

ولا صُلبية ولكنها تتفرع من حقيقة أن تمثال غليب بوتكين المعبود ليس مجرد مفارقة تاريخية في الزمان والمكان، بل وقديم ومهجور أيضاً. إن سيدتنا للحمل بدون إثم في (لوردس) تبدو مساوية في وقوعها في غير الزمان والمكان الصحيحين سنة ١٩٤٠ ممتدة فوق كرتنا الأرضية الصغيرة من جانب الراديو والخطوط الجوية عبر الاطلنطي - ولكنها ليست قديمة مهجورة. إنها رمز حي مقدس لملايين الأحياء الآن:

تتغير الأنماط في الآلهة والإلاهات، كما تتغير في السحرة البيض، كما تغيرت في القبعات التي كانت ترتديها على الأرض عمتي من (هاوكينسفل)، ب (جورجيا)، التي تلبس الآن هالة، كما أرجو. لقد مشت عبادة فينوس على طريق قبعات المرحومة عمتي. ولكن غمط عبادة "مريم" وابنها لم تكد تتغير على مرور ألفي سنة، وربما سيكون العالم أفضل إن لم تتغير.

١- أ- انفجر كريشنا مورتى بوصفه مخلصاً عالمياً عندما جلبته السيدة "آني بيسانت" و ال "ثيوصوفيون" * - بعد إعداده طيلة سنوات ليكون خليفة الرب "عيسى المسيح" والرب "غاوتاما بوذا" - لا للمرة الأولى، إلى نيويورك في ١٩ تشرين الأول ١٩٣١. ملأ مراسلو الصحف المكان في مقابلته الرسمية الأولى، المنشورة صباح ٢٠ تشرين الأول في ال "هيرالد تريبيون" وال "تايمس"، والتي أجرتها ال "اسوشسييتد برس"، رد الثيوصوفي وتبرأ من السيدة بيسانت. "خلف الرسو غير السعيد تقوم قصة مشريكة. لست متأكداً إن كان أي منها يدحض احتمال أنه ربما كان "كريشنا مورتى" مخلصاً للعالم لم ينفجر. ها هي ذي كل الحقائق المعروفة، في تتابع ليس تاريخياً دائماً، ولكنه يشير دائماً إلى وراء وإلى أمام في الزمان إلى الانفجار الذي ربما كان حتمياً.

"في ٢٩ كانون الأول ١٩٢٥، كانت السيدة "آني بيسانت"، التي كانت عند ذاك رئيسة الجمعية الثيوصوفية للعالم، قد أعلنت في (أديار) في (مقاطعة مدارس) - (أديار) هي مقر الجمعية)، إن "معلماً للعالم" قد تم تجسيده وسرعان ما سيظهر في شخص "جيدو كريشنا مورتى". كان "كريشنا مورتى" هندوسياً شاباً، في التاسعة والعشرين من عمره حينذاك، محمياً لها وللمطران "تشارلس و. ليديتر" منذ عمر الاثنتي عشرة سنة.

* هم المؤمنون بمعرفة الله عن طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي، أو كليهما .

"لا احتاج إلى أن أخبركم عن السيدة بيسانت، التي سبق أن سقط العبء العظيم على عاتقها. لا أستطيع أن أخبركم الكثير عن المطران "ليد بيتر"، الذي توفي قبل بضع سنوات. كان إنكليزياً صار ماضيه مشيراً لاهتمام ال هيرالد تريبيون" في آب ١٩٢٦، عندما جاء كريشنا مورتى أول مرة إلى أميركا.

ووفقاً للهيرالد تريبيون الصادرة يوم ٢٥ آب، بذل أشخاص مجهولون جهداً لمنع كريشنا مورتى من الهبوط على أساس كونه مذنّباً بال "فساد الأخلاقي". كان الأساس هو أن معلمه السابق، المطران تشارلز و. ليد بيتر، سبق أن اتهم غالباً وسبق أن اعترف بممارسات غير أخلاقية".

أعلنت الهيرالد تريبيون:

"إن مآثر المطران ليد بيتر ومحاكماته وتكرار تصريحاته قد زلزلت النظام الشيوضوفي منذ ١٩٠٦. والآن (١٩٥٦) في عمر الثمانين، يعيش المطران في (سيدني)، (أستراليا)، محاطاً بالأساتذة والرهبان غير المثبتين في النظم الصوفية".

نقلت الهيرالد تريبيون عن "لندن تروث":

"سيذكر كثير من قراء "تروث"، ولا شك، ما قيل هنا في حينه فيما يتعلق بالسوابق التي لا نزاع حولها بشأن واحد أو اثنين من هؤلاء المشاهير.

إن كونهم نماذج غير منصفة لجمهور الحواريين الذين جمعتهم السيدة بيسانت حولها قد يخمن من الشأن الفضائحي الذي وقع توأ في "هولندا".

لا أدري ما كان "الشأن الفضائحي" في هولندا. لقد أسقطت الهيرالد تريبيون حبة البطاطا الساخنة. إن المعرفة الإضافية الوحيدة التي لدي عن المطران ليد بيتر هي أنه كان سيداً مثقفاً، يُزعم أنه لوطني، المطران الأول والوحيد لكنيسة الليبرالية الكاثوليكية التي كانت مؤسسة فرعية للحركة الشيوضوفية، ولم تكن له علاقة من بعيد بالكنيسة الكاثوليكية الرومية المقدسة. يختفي المطران ليد بيتر والكنيسة الكاثوليكية الليبرالية سريعاً من هذه الصورة، التي كانت صداداً لجميع الشيوضوفيين الأرثوذكس منذ أن بدأت ترسم.

بقدر ما يعرف كل إنسان، فقد قابلت السيدة بيسانت كريشنا مورتى في الهند، عندما كان كريشنا مورتى في نحو الثانية عشرة وكان يحضر تجمع الشيوضوفيين مع أبيه المترمل وأخ له أصغر منه. كان هذا سنة ١٩٠٨. كان أبو كريشنا مورتى كاتباً

لقاضٍ في الهند. قبلت السيدة بيسانت الوصاية على الصبي وأخيه الأصغر، من أبيهما، ووعدت بأن تتحمل مسؤولية تعليمهما، "شريطة أن تُعطى كامل السيطرة على الصبيين.

رحب الأب مسروراً بعرضي وسلم الاثنين إلى رعايتي. منذ تلك السنة حتى ١٩٢٥، بقيت وصيتهما، مع أنهما صارا- بالطبع- حُرَّين عند بلوغهما السن القانونية". يبدو أن السيدة بيسانت شعرت بأن معلم العالم" الذي سبق أن تجلَّى من خلال أجساد عيسى المسيح، وبوذا، وآخرين، يحل محل أرواحهم مؤقتاً أو دائماً، كان سيكشف عن نفسه ثانية من خلال كريشنا مورتى، إلى عالم قلق ومنتظر، لا سيما إلى الأميركيين والاستراليين وبقية "شعوب المحيط الهادئ البيضاء".

في ١٩١١، أسست السيدة بيسانت "نظام نجمة الشرق"، لتطور عمل التحضير لعلم العالم القادم من خلال شخص كريشنا مورتى. ثم جلب الأخوين إلى إنكلترا وتعليمهما هناك. نُشر أحياناً أن كريشنا مورتى تعلم في (اوكسفورد)، ولكن السيدة بيسانت أعلنت أنه درس في (كامبريدج). في ١٩١٧، كان كريشنا مورتى سائق سيارة إسعاف مع القوات البريطانية في فرنسا.

قبل ذلك، في سنة ١٩١٢، كان أبو الصبيين، جي. نارايانيا، قد قاضى كلاً من السيدة بيسانت والمطران ليد بيتر من أجل استرجاع الوصاية على ابنه. إن دور ليد بيتر في الدعوى المثيرة لاهتمام الرأي العام في الهند نادراً ما ذكر في التقارير الصحفية فيما بعد، بما أن السيدة بيسانت كانت في ذلك الوقت تخطف الأضواء.

اتهمت شكوى الأب أن كريشنا مورتى كان يُصير موضوع عبادة الثيوصوفيين بسبب عقيدة السيدة بيسانت في ما يسمى برسالته، واتهمت الشكوى أيضاً ليد بيتر بمخالفات أخلاقية مدعاة.

حكمت أعلى المحاكم في الهند بإعادة الصبيين إلى أبيهما، وذلك بعد محاكمة مطولة، ولكن القضية رفعت إلى مجلس شورى الملك، وذلك بعد محاكمة مطولة، ولكن القضية رفعت إلى مجلس شورى الملك، الذي قلب القرار السابق وأمر بأن يبقى كريشنا مورتى وأخوه تحت وصاية السيدة بيسانت، ولكن وصايتها وحدها.

أثناء إقامة كريشنا مورتى في إنكلترا، هياً له إنكليزي ثري دخلاً، لنحو عشر سنوات (١٩١٥ - ١٩٢٥). كان مرجع هذا الخبر "تيريز جُنز" من (هوليوود)، الرئيس الاميركي لـ "نظام نجمة الشرق"، التي مقرها في (هوليوود)، في مقابلة صحيفة سنة ١٩٢٦.

مع أن أغلب الصحف ذكرت سنة ١٩٢٦ على أنها تاريخ وصول كريشنا مورتى إلى هذه البلاد، إلا أنه كان هنا مرة - في الأقل - قبل ذلك، وربما مرتين. لقد حملت مجلة "نيويورك" صورته قبل ١٩٢٦ تحت أخبار (سان فرانسيسكو)، بوصفها معبراً إلى (بومباي) من هناك، وكذلك، فهو يفترض أن يكون قد زار هذه البلاد سنة ١٩٢٢. سبب الإعلان عن إسناد السيدة بيسانت لكريشنا مورتى نتيجة عكسية مرعبة في دوائر ثيوصوفي لندن وجيكوسلوفاكيا. انفصلت هذه المجموعات عن الهيئة العالمية. قال العقيد "سي.ل. بيكوك"، رئيس محفل لندن: "جرى استعمال مشين للجمعية من قبل رئيستها الحالية، السيدة آنى بيسانت، بتعاضد أفكارها السريع ومعتقداتها وخرافات الشخصية الخاصة والإعلان عنها ينقر من الجمعية أغلب أولئك الذين هم طلبة وباحثون أصليون للثيوصوفية الحقّة".

بعد إعلان كانون الأول ١٩٢٥ بقليل، بدأ كريشنا مورتى أسفاره. كان في باريس في حزيران ١٩٢٦، حيث تسبب في ضجة. وذهب بعدئذ إلى لندن فاستقبل بوصفه "معلم العالم" بأصوات (حشدتها ولا شك السيدة بيسانت ما دام محفل لندن يعد ٤٠ عضواً فقط) ٦٠٠ ضد ٣.

في ١٧ حزيران ١٩٢٦، رسم "جيمس مونتغمري فلاغ" صورة وكتب مقالة لإحدى وكالات الأنباء عن مقابلته مع كريشنا مورتى (صدرت في مجلة "نيويورك") تعاضد فيها المديح على الهندوسي الشاب.

في تموز ١٩٢٦، أقيمت الأولى من بين سلسلة من المخيمات السنوية في (أومن) بهولندا، وحضرها ألفا حاج ومندوب. بينما سُمع كريشنا مورتى يتكلم، قيل إنه كان مملوكاً من قبل آخر كان يتكلم بصوت مختلف، بالإنكليزية القديمة، لمدة أربع أو خمس دقائق. وكذلك، قيل إن نجمة هائلة انفجرت فوق رأس كريشنا مورتى إلى شظايا هبطت كالطر نازلة. ونقل عن آخرين قولهم إنهم رأوا عفاريت وجنيات والخ... أثناء إقامة المخيم.

وأعلن أيضاً أنه يزداد امتلاك جسد كريشنا مورتى في أحيان مختلفة من جانب "معلم العالم"، -و- على وفق أقوال السيدة بيسان- فإن أرواح المسيح وبوذا والخ.... ستمتلك هذا الجسد دائماً.

قال "فورتس دايفس"، كاتباً في الهيرالدتريبيون في ١٥ آب ١٩٢٦، عن كريشنا مورتى:

".... بينما يتكلم (هو) دائماً على نحو طيب عن الفقراء، فهو يشعر راحة أكبر في حضور الثروة التي أجيد استثمارها. إنه يعظ بـ "أرستقراطية روحية"، ولكن ربما أمكن الحدس بأن إقتراحاً ذا شأن بنوع آخر من الأرستقراطية هو ما يضفي أهمية على العبارة. ليس هذا حلولاً للث والأبتر. قد لا تصرخ جماهير الشارع استحساناً وتنشر سعف النخل أمام سيارته، ولكن عديداً من غرف الاستقبال ستفتح لـ "كريشنا جي" في نيويورك وأماكن أخرى. هنا، كما في لندن، جرى مقدماً تسجيل الناس ذوي الأهمية في الديانة الجديدة. وانضمت نسوة تزين أسماؤهن السجل الاجتماعي، وفنانون، وصيارفة، للتبشير بمجيء المسيح لوقت طويل منذئذ.

لدى وصول كريشنا مورتى إلى هنا في ١٧ آب ١٩٢٦، أعلنت السيدة بيسان أنه سبق أن غطى ما مجموعه ٣٠٠٠٠ سنة أثناء حياته السابقة (لا بمعنى أنه عاش بذلك الطول، ما دامت الروح قد تنتظر- بعد موت الجسد- حتى آلاف السنين جسداً جديداً، وفقاً للتراث الثيوصوفي، عبر تناسخ الأرواح و/ أو تقمصها).

وكذلك، سبق أن مر بواحد وثلثين تناسخاً مختلفاً ومتميزاً. كانت مناسبة زيارة كريشنا مورتى، زعماً، مؤتمراً بشيكاغو. قبل هنا منتصراً تقريباً، مع أن رؤوساً أبرد بين الاكليروس المسيحي والسيدة بيسان شجبوا بقسوة ادعاء تكريمات مسيحية.

في شيكاغو تجمعت الجماهير حوله بانتصار، أغلبهم ثيوصوفيين ومحبون للاستطلاع، وتذكر قصة صحفية أن صبيين من الكشافاة حملوا زهوراً أمامه. تحدث كريشنا مورتى أمام تجمع لمركز رجال الإعلان للفرقة الاميركية في شيكاغو، ذلك المركز الذي قبله لـ "زميل منتظم".

بعد مؤتمر شيكاغو هذا، كان يفترض أن كريشنا مورتى قد تقاعد. ونسمع عنه لاحقاً في بلاده مرة أخرى عندما جاء في ٩ نيسان ١٩٢٨، بعد

التدريس في أوروبا وآسيا. كانت سفرته هذه المرة مجردة من صخب الدعاية الذي رافق وصوله، الذي زُعم أنه الأول، وكما ذكر سابقاً، فربما كان وصوله إلى هنا سنة ١٩٢٦ هو وصوله الثالث، وهو بالتأكيد لا يقل عن كونه الثاني.

قيل إن كريشنا مورتى الزاهد، أثناء (إقامته هنا سنة ١٩٢٨، أخبر "بياتريس بلاكمار"، في مقابلة عن مقابلة "كاترين مايو" الموسومة "أم الهند"، نشرت في "نيويورك وورلد" يوم ٦ مايس- في استشراف أكثر دنيوية- إن "الهند ليس فيها جنس كثير. إن الملاعين البائسين لا ينالون الكثير منه. إنه آخر شيء في حياتهم".

في آب ١٩٢٩، أقام نظام نجمة الشرق معسكراً آخر في (أومن) بهولندا. أثناء تقدم المخيم ألقى كريشنا مورتى قنبلة (التايس، ٤ آب، اسوشيتيد برس) بين صفوف أتباعه عندما أعلن حل نظام نجمة الشرق وعودة كل الممتلكات والودائع التي تم "لتبرع" بها- على وفق تقرير لاحق- إلى النظام. وفي قصة شوشتها الصحافة قيل إن كريشنا مورتى قدم تسويغه، بين آخرين، بأن الحقيقة لا يمكن تنظيمها". وفي ضوء كلماته اللاحقة، من الإنصاف أن نخمن أنه ربما كان اشماز من الأمر كله وأحس أنه صَبِرَ أداة غير مقصودة بيد السيدة بيسانت لتطوير أهدافها الخاصة.

أعلن في بيان الحل الذي أصدره أن المنظمات "الدينية"، الفلسفية، والروحية هي حدود على فهم الحقيقة. إن الحقيقة لا تحتاج إلى حوارين. إنها لا تطلب شيئاً من أي إنسان. قليلون فقط سيفهمون وهم لن يحتاجوا إلى منظمة".

شرح كريشنا مورتى أن نظامه كان يهيئه منذ ثماني عشرة سنة ليعلن الحقيقة، ولكنه قال إن أعضاءه لم يكونوا راغبين بمواجهة الحقيقة. "ماذا إذن هي فائدة هذه المنظمة؟"، هكذا سأل الثلاثة الآلاف حاجٍ وحواريٍّ الحاضرين.

في ٢٠ تشرين الأول ١٩٣١، حملت النيويورك هيرالد تريبيون قصة تقول إن كريشنا مورتى أبلغ الصحفيين- قبل وصوله إلى هنا في اليوم السابق- أنه قد نبذ الثيوصوفية والصور التي صنعتها السيدة بيسانت له. أعلن أن السيدة بيسانت قد اختارته- بسبب طبيعته الصوفية- ليصير ناقل معلم العالم، عن طريق التجلي. ثم فيما بعد، فيما نضجت ملكاته الذهنية، رأى الخطأ الذي سبق أن سيق إليه، ربما

بحماسة عاطفية. قال إنه انجرف، تدريجياً، بعيداً عن المعتقدات التي تؤمن بها السيدة بيسان، وعن الشيوصوفية كلية، في الواقع.

"تعلمت أن كل واحد منا ينبغي له أن يقوم بتفكيره الخاص. إن القدسية- الحياة الأفضل- تستقر داخل كل واحد منا. إنك لا تستطيع أن تنظم منظومة للحقيقة، كما إنك، وأنا أيضاً، لا نستطيع أن نقيم مستوى دينياً لمنظومة أخرى".

أبحر إلى الهند في تشرين الثاني، ثم لم يُسمع المزيد عنه، في نيويورك على الأقل، حتى ٥ أيلول ١٩٣٤، عندما حملت الـ "يونايتد برس" قصة تحمل تقريراً من (اوجاي) بـ (كاليفورنيا)، حيث كان أحد نجوم المعسكر يتموضع سابقاً، وحيث كان يفترض أن يقيم كريشنا مورتى. والقصة، وهي قصيرة، تفيد بأن كريشنا مورتى أعلن أن العالم متجه نحو كارثة لا تصدق "ما لم يتعلم الناس أن يفكروا". إن حقيقة مجيء القصة من أحد معسكرات كريشنا مورتى قد تبدو مربكة، ولكن مع أن كريشنا مورتى نبذ السيدة بيسان وتعاليمها فإنه أعلن في تقرير موجز بالنيويورك تايمس بتاريخ ٥ آذار ١٩٣٠، عندما كان في نيويورك- أنه سبق أن نظم مدارس في الهند ينشر هو وأتباعه فلسفته بغرسها بين الشباب. وقد يكون معسكر (اوجاي) بـ كاليفورنيا أدير تحت رعاية مشابهة.

في قصة بتاريخ ١٢ آذار ١٩٣٥ ظهرت في النيويورك هيرالد تريبيون، أن كريشنا مورتى ألقى يوم ١١ آذار محاضرة في قاعة البلدية حول موضوع "فكر لنفسك". كان كلامه في جزء منه، ضد المفاهيم السابقة، ولا سيما عن الدين، وضد "القادة"، ولا سيما الدينيين منهم.

في قصة النيويورك هيرالد تريبيون، المؤرخة في ٣١ مايس ١٩٣٦، نصح كريشنا مورتى- لدى وصوله إلى هنا من شيكاغو في اليوم السابق- أتباعه ألا يثقوا بكل المسيحيين والقادة الدينيين. كان قد حاضر في أميركا الجنوبية طيلة سبعة شهور. قال عن نظام نجمة الشرق: "كان عبادة أخرى فقط، صخباً آخر، مثل أية كنيسة أخرى". وعندما حل النظام، أعاد الممتلكات والتبرعات التي سبق أن تبرع بها الحواريون من جميع أنحاء العالم. قال: "لم أكن لأستطيع أن آمر الناس بأن يحذروا مستغليهم ثم استغل نفسي. إنهم لا يزالون يسألونني عن الحقيقة، والله، والخلود، ولكنني أخبرهم بأن عليهم أن يتعلموا بأنفسهم. لا يمكنكم أن تؤثروا الطرق إلى أي

من الأشياء الحقيقية في الحياة. وإضافة إلى ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي اعرفه حقاً هو نفسي". تكلم في قاعة البلدية. قال إنه لا رسائل عنده. لا عقائد ثابتة. إن قصاصة سنة ١٩٣٦ هي آخر ما حملته التايمس أو الاسوشيتيد برس عنه.

إنه الآن في أوائل اربعينياته، يعيش في هوليوود، صديق لـ "الدوس هاكسلي" وغيره من المثقفين، محترم ومحبوب، نادراً ما يظهر إلى العلن ويحاول كسب الدعاية أبداً. أعتقد أنه كان، وربما لا يزال، رجلاً عظيماً بالامكان.

إنني أشك في أن السيد غاوتما بوذا، موسى، محمد، كونفوشيوس، سيدنا ومخلصنا عيسى المسيح، لو وقعوا بين يدي أني ببسائنت والمطران ليد بيتر، لكانوا سقطوا هم أيضاً، فرقعوا وأنهبوا أيامهم في هوليوود.

٣- انفجر "بيتر برنارد" (اووم كلي القدرة) أولاً إلى عيون الجمهور في الشرق سنة ١٩١٠، عندما تم إلقاء القبض عليه من قبل شرطة نيويورك بناء على تهمة وجهتها فتاتان: "زيلاهوب"، ١٨ سنة، و"غيرترود ليو"، ١٩ سنة. أسقطت الدعوى بعد تحقيق كامل أجراه مدعي عام المنطقة. رفضت الفتاتان سحب اتهاماتهما. من الواضح أنهما ذهبتا إلى الشرطة مدفوعتين بدوافع الغيرة. لم توجه اتهامات رسمية عندئذ أو في أي وقت لاحق ضد الرجل، الذي صار فيما بعد شهيراً في ميدانه الغريب. سبق لبرنارد، لدى وصوله نيويورك في أواخر ١٩٠٩ أن افتتح "كلية نيويورك السنسكريتية"، في الرقم ٢٥٠ غربي الشارع ٨٧، ولكن المشروع لم يكن ناجحاً.

بعد سنتين أو ثلاث برز على نحو غير متوقع في (ليونيا) بـ (نيوجرسي)، حيث التقى "الآنسة دي فريس"، وهي راقصة محترفة ذات قدرة استثنائية. وكان هذا اللقاء في الحقيقة، هو الذي وضعه على الطريق إلى النجاح، كما أبدت ذلك الأحداث. تزوج الآنسة "دي فريس"، وعلمها الرقصات الشرقية، ففازت - بعد وقت غير طويل - باهتمام نساء المجتمع المختلفات عبر برنامج اجتماعي لها. يعود لها الفضل في كونها أول من سجل اهتمام من كانت حينذاك "الآنسة اوغدن ل. ميلز"، ابنة السيدة "أ. و.

١ - صارت "مارغات روثرفورد"، على التوالي: السيدة "اوغدن ل. ميلز"، "اللايدي ديوكس"، "الأميرة مورا"، وكانت ذات وقت العضو الأكثر مماشاة للموضة في مستوطنة "اووم". وآخر أزواجها هو "فريدريك لايبورن سبراغ". وهو رسام لوحات من (مانا سكوان) بـ (نيوجرسي).

فاندرفلت". صارت "دي فريس" الكاهنة العليا" لدى "برنارد" في قصر "نياك" وأراضيه، الذي أقامه سنة ١٩١٩، تحت اسم "نادي براي بيرن".

في سنة ١٩٢٧ أقيم في (نياك) مهرجان للاحتفال بذكرى الزواج العاشرة لزوجين من (بيتسبورغ) في (بنسلفانيا)، وهما من أنصار "برنارد" المتحمسين. كان هذا هو "مهرجان التابوت" سيئ الصيت.

وكما روى شاهد مجهول (في "اميركية هيرست" ليوم الأحد، قسم المجلات، ١٥ مايس ١٩٢٧):

"من أجل هذا الاحتفال، الذي كان، رمزياً، زواجاً كما هو ذكرى، لبست "العروس" و"العريس" كما كانا يلبسان في عرسهما الأول. ولبست فتيات البطانة ونساؤها أرواب الراهبات وخمرهن، مغطيات البدلات البراقة والخرافية تحتها وكان الرجال يرتدون أرواب الرهبان وقلانسهم التي تغطي بدلات مرحة ومبهجة مثل تلك، يفترض أن يظهروا بها فيما بعد.

كان الجميع يحملون شموعاً طويلة، كما في مواكب الكاتدرائيات. خلف العروس والعريس مباشرة كان يحمل تابوتان كان هذان التابوتان رمزين للموتى ولدفن الماضي.

غطى التابوتان فيما بعد بقطع المخمل واستخدما طاولتين لمأدبة متقنة، فيما تخلص الرهبان والراهبات من أرديتهم الدينية وعادوا للظهور معريدين مرحين.

في سنة ١٩٢٩، يوم ٨ أيلول، أقيم "سيرك جمعية" على المسرح في (نياك). عرضت هناك "رقصة الموت"، التي نهضت فيها الآنسة "دي فريس"، زوجة "برنارد"، شريكة الديانة والكاهنة العليا، من تابوت، لتؤدي رقصتها. كانت ترتدي خماراً وتنفذ سلسلة من التمارين الافعوانية التي تصور انشاءات الجسد وتلوياته. في هذه الأثناء كانت تغني برصانة:

يملك ذلك الرجلُ العالمَ كله،

إنه يمتلكني، إنه يمتلكك،

إنه يمتلكنا جميعاً الآن،

إنه يملك العالم كله بين يديه

وعندئذ أدى برنارد لحناً منفرداً غريباً بمفرده. كما أدى أيضاً وصلة راقصة مع فيل صغير. يقال إن الحيوان كان فيلاً مقدساً في الهند. وسمى المراسل الأميركي الرقصة "حكمة الحلاقين".

من أجل الانضمام إلى الحلقة الداخلية لنظامه السري الذي يدعى الأثرياء للانضمام إليه، يجب أن يكون الرجل أو المرأة اعترفاً أولاً لبرنارد - بوصفه راهباً أعلى - بكل الخطايا، الرغبات السرية، بكل الأفكار الباطنية، ويجب أن يعدا عندئذ بأن يطيعا قراراته، وأخيراً ينبغي لهما أن يؤديا قسم النظام. في هذه الدائرة الداخلية، حسب قول امرأة سبق أن عاشت في مستوطنة (نياك)، كان (اووم) أكثر من مجرد راهب رفيع - لقد صار، في فكر أتباعه، نوعاً من إنسان - إله. إنه يرتدي لباساً كملابس راهب أعلى، ويغني أنصاره المتحمسون - مرتدين ملابس بوصفهم عباده وأتباعه - نشيد النظام:

صر لي غورو (معلماً) محباً،

صر غورو النظام

ثم يركع المدخلون إلى الديانة، كما يفعل الناس في الكنيسة، ويغنون، في نغمة مفردة وتيرية: "اووم ما نا بادما اوم".

يجري غناء ذلك بتكرار في نغمة مفردة وتيرية وملمة، مثل قرع طبول في غابة، ويفترض به أن يؤدي إلى حالة نشوة، إن هو استمر لمدة طويلة بما يكفي.

قيل إن سر قوة برنارد فيما يبدو هو إعطاء أتباعه مفهوماً جديداً عن الحب. في الوقت الذي قابل فيه الأنسة دي فريس في (ليونيا)، بنيوجرسي، يفترض أن تكون قالت له:

"إن نصف المآسي المنزلية، وثلاثة أرباع الطلاقات، والكثير من الانهيارات العصبية وغير قليل من الانتحارات والاضطرابات في أميركا تعود إلى الجهل والبلاهة المتأصلين للإنسان الانكلو - سكسوني العادي في موضوع الحب. سنعلمهم - وربما سنجعل مغامراتنا نجاحاً عظيماً".

أجرى "وينفيلد نيكولز"، وهو مشايخ لبرنارد تزوج فيما بعد من عشيرة "فاندريلت"، مقابلة مع الصحف الصادرة في نيويورك، قال في مجراها: "في ظل الدكتور برنارد، حاولنا أن نعد مخططاً معقولاً عن الحياة المتوازنة. حاولنا أن نواجه كل حقائق الطبيعة والحياة والفن بعيون مفتوحة ولا تخاف. لكننا لم نبالغ قط في التأكيد على أي من وظائفنا أو قدراتنا على السعادة أكثر مما نستحقه. لقد اعترفنا بالحب، ولكن بكل الأشياء الأخرى أيضاً". يقال إن أهداف برنارد المبدئية هي "تعليم الرجال والنساء أن يحبوا، وجعل النساء يشعرن كالملكات".

في مايس ١٩٣١ ("وورلد تيلغرام"، في ١٧ مايس ١٩٣١)، بعد دراسة أجراها برنارد لمدة سنتين، أعلن الدكتور "تشارلز فرانسيس بوتز" - الوزير الليبرالي لمدينة نيويورك ومؤسس "الإنسانية" - إنه كان يكتب سيرة جادة لبرنارد. كان الدكتور "بوتز" قد اتخذ لنفسه مسكناً في (نيك) منذ ١٩٢٩. ادعى برنارد أنه كان يُجري عملاً اختبارياً في بنية الجسد الإنساني وتربية الشخصية. بدأ "بوتز" "يفهم" لماذا كان برنارد يُدعى "اووم كلي القدرة". بعد التحدث إلى عديد من الناس "الذين أعادهم إلى العافية والقوة بعد أن كانوا يقررون أن الحياة غير جديرة بأن تُحيا".

أثارت طرُقهُ الأصلية في التعامل مع الشخصيات المهزومة اهتمام بوتز، فوجد برنارد قد "مزج معرفة الطرق الهندية الموغلة في القدم بعلاج أمراض العقل والجسد بأفضل الطرق الغربية، زائداً قدراً منعشاً من حسن الإدراك".

قال الدكتور "بوتز" (جرى تذكيري مرة وأخرى بحيوات قادة الماضي الدينيين العظام الذين سبق أن درستهم من أجل كتابي عن "قصة الدين". إن لدى الدكتور برنارد كل علامات العبقرية المميزة".

ويقال إن السيدة "و. ك. فاندريلت" قد أسهمت في عمل برنارد. صارت ابنتاها من زوجة سابقة، "باربارا" و"مارغارت رثر فورد"، حواريتان لبرنارد وعبادته النياكية وتزوجتا تابعتين للديانة.

سبق أن تطلعت "مارغارت" من "اوغدن ل. ميلز" و"باربارا" من "سيريل هاتش".

صارت "باربارا" السيدة "وينفيلد نيكولز" عندما تزوجت يد برنارد اليمين. وتزوجت "مارغارت" من جانبها، السير "بول ديوكس"، البريطاني الشهير الذي كان في ١٩١٥-١٩١٨ رئيس الاستخبارات البريطانية" في (روسيا). وكان انضم إلى ديانة برنارد في (نيك) سنة ١٩٢٢ .

وكان من بين حواربي برنارد الآخرين البارون دروسته فان نويلاوخ"، و"المارشال ياركولوميو"، والسيدة صموئيل ن. هوليداي"، و"السيدة تشارلز ب. الكسندر"، و"السيدة تشارلز وود البنت"، و"ديانا هنت وورثهايم"، "دوروثي جست"، "كريستوفر هارفي"، "تشارلز وود الابن"، "السيدة وود" و"ادموند تروبريدج دانا"- حفيد "هنري وادسورث لونغفيلو".

وفي وقت أحدث (١٩٣٩)، زُعم أن "لنوفاف"- وهو ملاكم محترف من الوزن الثقيل ذو شهرة ملحوظة- دُرّب، تحت رعاية برنارد، على طرائق اليوغا وما إليها. ظهرت صور "نوفاف" في وضعيات يوغا في صحف نيويورك. وقد أعدّ لينازل "توني غالنتو". أسقط "غالنتو" حوارياً اليوغا بلا حراك في حلبة بـ (فيلادلفيا).

يعلن الدكتور "بوتر" ((وورلد تليفرام)) أنه معجب بخصال برنارد غير الاعتيادية ولا يصدق القصص الرائجة عنه. ويقول إنه يخطط، في كتابه، لـ "معارضة أسطورة "اوم" الغربية التي أنشئت في تقارير الصحف، بالوقائع الحقيقية لحياة الرجل وشخصيته كما عرفتھا".

سمّى "بوتر" "برنارد" رجلاً هو نبي ورجلٌ استعراضٍ معاً، يمكنه أن يحاضر عن الدين باحتراق فردي ويمكنه بسهولة مساوية أن يقيم سيركاً كبيراً، ويدير فريق كرة فائزاً أو يضع قيد الاستعمال معرضاً للسحر ينازعه عليه "هوديني".

إنه يعرف الجسد الإنساني، تشريحياً ونفسانياً، بطريقة تحير شيوخ خبراء الجراحة وعلم النفس. إنه يبتهج بزيارة جلسة استحضار أرواح من دون الإعلان عن هويته، وبعد أن تكون الوسيطة قد فعلت كل ما بوسعها يقوم هو بإنتاج ظاهرة تجعلها تتطلب الأنوار في رعب".

وقال الدكتور بوتر إن التقارير عن كون نادي برنارد ديانة حب وإن حفلات عديدة غامضة كانت تجري هناك بين أوان وآخر تختلف كثيراً جداً عن انطباعي الخاص عن المكان الذي تحريته أكثر. سألت لماذا لم ينفِ الدكتور برنارد القصص المذهلة عنه وعن

ناديه، فكان الجواب أن سياسته لم تكن قط إجراء مقابلات وألا يصح القصص الكاذبة".

ووجد بوتر أن أعضاء النادي حرفيون ورجال ونساء أعمال من نيويورك، وأنهم أصحاء سعداء بشكل غير اعتيادي.

لم تصدر شرطة نيويورك، التي تعودت أن تزور محل نيك أحياناً، قط أي مدائح من هذا النوع- ولكنها لا بد أن تكون في الأقل في تطابق عملي مع الدكتور بوتر، ما دام أي عمل لم يتبع أياً من الزيارات إطلاقاً.

٥- إن النجوم الخماسية المستعملة رموزاً، والدوائر السحرية، تحدث للخير أو للشر بين كل الجماعات، منذ وقت لا يذكره أحد، التي تسعى إلى الاتصال بالمطلق، سواء لاستخدامه سلاحاً مؤذياً (كما تفعل الساحرات) أو ملجأ وملاذاً من سأم المطبخ وغرفة الطعام، كما تفعل سيداتنا العضوات في النجمة الشرقية في (راينبيك).

وإنني لأود لو كن، أو لو كانت صديقاتي الساحرات، يستطعن أن يخبرنني لماذا يمكن إغواء الله، الجمال، القوة، أو مستذنب ما، أو وقفه أو أسرته في فخ على هيئة دائرة أو على شكل نجمة، بأسرع بكثير من إغوائه أو وقفه أو أسرته في فخ على هيئة قبعة عمتي المرحومة في هاوكنسفيل.

كان كل ما استطعن تفسيره هو أنه ما دام الله، القوة، والمستذنبون قد أغروا أو أقفوا أو أسروا في نجوم أو دوائر رسمت كتلك التي رسمت في وقت المصريين الأوائل، فلا بد أن هذه خير الفخاخ.

قد تكون كذلك- لأنها التي جربت واستخدمت أكثر من غيرها، للخير والشر- سواء لإغواء الشياطين أو خداعها.

ويخ الإنكليز أليستر كراولي وجعلوه يبدو أكثر بشاعة بإظهار أن المذبح الذي فقدت عليه القطعة البائسة حياتها كان نجمة خماسية مستعملة رمزاً.

إن مذبح أليستر كراولي أساساً بريء براءة سيداتنا في (راينبيك). ليس شكل المذبح، على الإطلاق، هو ما يجعله جيداً أو سيئاً. إن ما يقدمه المرء من توضيحات وما يفعله حول المذبح هو الذي يجعله جيداً أو سيئاً.

لو كانت "غيرترود شتاين" قد طوّقت القطط السمينة على أشواك دائرة زهورها

السحرية، لأمكن أن يكون ذلك بشرائية أي دائرة سحرية وقف فيها "غيلز دي رَتنز" عندما كان ينحر حناجر الرضع.

وبدلاً عن ذلك، فما دامت غير ترود شتاين قد وقفت في دائرتها السحرية لمجرد أن تقول لبقيتنا- الذين نسينا ذلك على الأكثر- إن الزهرة زهرة، فإنني اشعر أن أحلى دائرة سحرية سيق أن دارت هي دائرتها الوردية. إنها تبدو بديعة، وهي لا تخبرنا أي شيء أكثر مما نحتاج إلى أن نعرف.

وفيما يلي بعضها لإراءتك بأنها جميعاً متشابهة جوهرياً
أ... أ.... : النشر في الفئة ي



لمجمة آلبيستر كراولي الخماسية المستعملة رمزاً والرموز المحيطة بها
والدائرة في الداخل، التي كانت القطة السمينة قد قُتلت فيها- أو: هل فعلت؟

أ.و.ت. أ.
صدرت بناء على أمر



Baphomet

فماذج من رموز أليستر كراولي.



الدائرة، مرئية ، والنجمة الرمزية مخفية تحت أرواب الدكتورين دي وكيلي،
وقد انشغلا في ممارسات أقل حملاً على الاحترام من ذبح القطط السمينة.
مذبح نظام النجمة الشرقية في راينبيك. يرجى دراسته وملاحظة
أن النجمة الرمزية تشرق بنور ديني نقي جميل

ISAROSE ISAROSE
ISAROSE ISAROSE

أحلى دائرة سحرية دارت

٦- عاد نوستراداموس ليكون الأكثر مبيعاً في باريس، كما تقول رسالة النيويورك- البرقية بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٩. لم يكن قد توقف قط عن أن يكون الأكثر مبيعاً في (آرلز) و(سانت ريمي). عندما ذهبت إلى سانت ريمي سنة ١٩٠٧، أخبرني كل شخص في مطعم العمال أن حرباً عالمية ستقع خلال عشر سنوات "لأنه سبق لنوستراداموس أن قال ذلك".

عندما عدت إلى هناك سنة ١٩٣٢، كانوا لا يزالون يقرؤون نبيهم المحلي، وأخبروني أن حرباً عالمية أخرى ستقع خلال عشر سنوات أخرى "لأنه سبق أن قال هذا". ربما كان يحظى بلمحاحات عبر الشق في الزمن". ربما أنه حصل فقط على قُرَج جيدة منذ وفاته. كانت تواريخه على الدوام تستفيد من الغموض في النص الأصلي، بصرف النظر عن الدقة التي يطبعها أنصاره بها، وإذا ما كان المرء غامضاً أو مرناً بما يكفي بشأن التواريخ، فإن الطريقة الأكثر اطمئناناً ليصبح نبياً كبيراً هي التنبؤ بالحرب، كما فعلت أصوات الأسلاف في "قبلاي خان". إنها تأتي دائماً وإليكم ما قالتها النيويورك عن هذا النبي بالذات هذه المرة:

"إن كاتب أكثر الكتب مبيعاً حالياً في باريس هو "ميخائيل نوستراداموس"، الفلكي المتوفى سنة ١٥٦٦. خلف نوستراداموس نحو ٥٠٠٠ سطر من النبؤات في خليط فاسد من الفرنسية وما قد يسميه النيويوركيون بـ "الكلام المزدوج" - وتُسَلَّم كل رباعية نفسها إلى عشرات التفسيرات المضادة.

لقد كان موضوع عبادة صغيرة وقتاً طويلاً، ولكنه لم يصير موضوعاً مهماً للناشرين إلا عندما اندلعت الحرب.

يمكنك شراء نصوص مكشفة صغيرة من نبؤاته في أكشاك الكتب بفرنكين، أو طبعة مفسرة، ذات هوامش، كبيرة، حررها دكتور باسم "دي فونتبرون"، لقاء ثلاثين، في المكتبات الكبيرة. باع فرع (جادة دز ايتا لينز) من دار "فلاماريان" وحده ٣٠٠٠ نسخة من الطبعة الغالية في الشهر الماضي.

في إحدى النبؤات يتحدث نوستراداموس عن خراب باريس بفعل "طيور من الشرق". يزعم بعض أنصار نوستراداموس أن نبوءته تتعلق بسنة ٢٠٤٠، في حين يعتقد آخرون أنها كان مقصوداً بها سنة ١٩٣٧، وفي تلك الحالة يكون نوستراداموس- شأنه شأن القيادة العامة الألمانية- قد فاته المركب.

يتفق جميع الخبراء على أن الفلكي تنبأ بنصر فرنسي كاسح في الآخر. ويمثل
الوباء الصغير "لنوستراداموس، كما يسميه باعة الكتب، عنصراً معيناً في المزاج
الآنني للباريسيين. ولا يعترف إلا قليل من القراء بأخذه جدياً، ومع ذلك فـ "هي حرب،
لحد الآن، بشعة" *.

* بالفرنسية في الأصل .

الفصل "٤"

٢- إن تخلية العقل، الطريقة السالبة، الاسترخاء ببساطة، كما تفعل القطط والحيوانات عندما ترتاح، هي الخطوة الأولى في الاتجاه الذي أدى إلى أعمق عندما استعملته "ماري كرايغ" أو دراويش.

إنها طريقة من العلاج العقلي الذي بدأ يحظى بانتباه مستحق، متجدد، في عالمنا الحديث البالغ الاستعمال.

ومن التكنيكات المفيدة ذلك الذي وصفه "آلان ديفو" في "كورونيت"، في حزيران ١٩٣٩، واختُصر بشكل مكثف في تشرين الأول ١٩٣٩، في الـ "ريدرز دايجست". يقول السيد "ديفو"، في أحد أجزائه:

"لكي نرى كم صرنا جهلة كلياً، من الضروري فقط أن نلاحظ السلوك المرضي للرجال والنساء الذين هربوا في أعمالهم بعض الوقت ويحاولون الآن أن يتكاسلوا. إن لعب الغولف، رمي كرة التريض*، قيادة سيارة، التنزه، الرقص- إن هذه الممارسات الناشطة ليست أجزاء مناسبة من الكسل الناجح. كما ليس الرجل، الذي يجمع أوراق الخريف أو يزيل العوائق عن طريقه أو يتمشى مع صديق، يمارس الكسل. إنه يتشغل، بالتأكيد، في مشاغل مبهجة ومقبولة. ولكنه لا يتكاسل.

إن وصفة الكسل سهلة: إنه يتكون من الوقف المؤقت للجهد البدني ووقف التفكير الهادف. إنه يتطلب أن يسمح المرء لنفسه أن يصير لبعض الوقت عديم الهدف مثل ورقة قيقب أو صخرة، أن يترك تلك الأوامر القلقة والطاقت الناقّة التي أثرت بها فيه

* وهي كرة صلبة ثقيلة مكسوة بالجلد يتقاذفها اللاعبون للتريض .

الحضارة، وأن يتخلى عن العادات المرهقة من تخطيط النشاط وتخطيط التفكير لقاء الانجرار عديم الاتجاه عديم التوجيه للروح. بكلمة، إنه يتطلب ألا يفعل المرء شيئاً. انظر، وقتاً ما، إلى نمر أو ثعلب يستريح، انظر إلى قطتك. إن هذه العيون الهادئة غير الرائبة مثبتة على لا شيء، هذه العضلات تستقر هادئة هدوء حجر، لقد جرى تسكين الانشغالات الاعتيادية تماماً.

إن الحيوان يتكاسل. إنها تجربة من الطبيعية، لها، كطبيعية الأكل أو النوم- ولكنها شيء عليك أن تتعلمه. وعندما تكون تعلمتها، سينفتح أمامك عالم جديد كامل من الإحساس، عالم ادراك من الهدوء والرقّة بحيث أنك لم يسبق أن عرفت قط، عالم له قوى لا شبيه لها لإنعاش الروح الإنسانية المتعبة.

قم بتجربتك الأولى في الكسل الآن. عندما تكون قد أنهيت المقاطع القصيرة التي تلي، ضع المجلة جانباً وأوقف عن وعي كل الحركات الصغيرة التي كنت تؤديها بشروء ذهن... طبطبة القدم، رمش العينين بعصبية، نقر ذراع كرسيك بأصابعك. فيما كنت تقرأ، كان تنفسك سريعاً وضحلاً، وهو الإيقاع النموذجي لأيامنا البالغة الاستعجال. أرخ رئتيك. تنفس عميقاً، بطيئاً. شعور بهيج بشكل غريب، أليس كذلك؟ لو كنت تضع نظارة، اخلعها. إن ذلك الضغط الخفيف على جسر أنفك إلهاء وإغاظه. وكذلك هو التثبيت المحكم لحزامك ووضعية ياقتك. ارخهما. تمدد الآن وارتح. لا تحاول أن تتبع أي سلسلة أفكار. سيكون تفكيرك عديم الهدف تماماً الآن. ستنجر روحك وتتجول كما تهوى.

ستتحرك الآن أنصاف أفكار وذكريات وشعور غائمة في وعيك الذي تحرر حديثاً. لأن إرهاب الفكر وإرهاب العمل هما في لا فعالية مؤقتة على النحو نفسه الآن، فإن لدى روحك فرصة أن تعي- لنقل- أريج الزهور في تلك الزهرة.

لقد كان الأريج موجوداً برقّة في الغرفة اليوم كله، ولكن روحك لم تكن حرة لتذوقه. تنفس ذلك الأريج إلى رئتيك عميقاً، لأنه يمكن أن يكون مثيراً سحريراً للذكريات بالنسبة لروح الانجرار. والآن جاء إدراك آخر- إنه إحساس ذلك الشعاع من نور الشمس على يدك. صار العالم شيئاً ما ليس شيئاً تماماً، مع عطر الزهور في منخريك وإحساس نور الشمس على بشرتك. تراجع، وكن في سلام. أية موسيقا غريبة هو طنين تلك الذبابة. بأية زرقة خلافة للألأباب هي تلك القطعة من السماء.

إن شعور الكرسي على عضلاتك المرتخية نوع من المباركة والنوم البطيء الذي يسحب نفسك قد صنع سلماً منفرداً. تأتلك ذكريات منحرفة ومشظاة... رائحة البحر تلك السنة في (ماين)، منظر نياسم الغزلان التي رأيتها ذات مرة في غابة مثلجة، الوهج المتذكر للجناحي تدرج* على عصر يوم تشريني غائم. ها قد دخلت كلياً الآن، أخيراً، إلى ذلك العالم السري البديع الذي هو الترويض الذي لا يعرفه إلا أساتذة فن الكسل. إن إعادة نفسك إلى الطرق الهادئة للحياة فن جدير بأن تتعلمه.

بتكنيك السيد ديغو تخطو عبر الباب الأول المؤدي إلى الغرفة الداخلية لعالم السر الذي لا يمكن التوغل فيه إلا من جانب التخلية التامة، الصعبة، والخطرة أحياناً، للذهن كما تعلمها الصوفية الشرقية ونادراً ما تجري ممارستها في العالم الغربي.

٤- تشمل صور "آبتون سنكلير" الراديوية الذهنية التالي، الذي يعاد إنتاجه بموجب إذنه (ص ص). في كل حالة، يكون الرسم على اليسار هو الأصل، وما كتبته "كرايغ" أو رسمته على اليمين. في اثنين من الأمثلة المبينة هنا- الشوكة والنجمة- أدتهما بالضبط.

كان ثمة المزيد من الحالات المشابهة. ولكن الحالات التي أثارتني أكثر من غيرها هي تلك التي من نوع الأمثلة التالية، التي بدت فيها وكأنها ترى الشيء جزئياً ولكن ليس بالضبط، وليس كاملاً.

٥- لفت المطران "آرثر أ. فورد"، من الكنيسة الرومانية الانتباه أولاً في النيويورك تايمس، ١٠ تشرين الأول ١٩٢٧، أثناء مسار مناظره بينه وبين الساحر المسرحي الشهير "هاوارد ثورستون" في قائمة "كارنيغي". بعد بضعة أشهر في ١٠ شباط ١٩٢٨ (تايمس، ١١ شباط)، بعد سنة ونصف من وفاة "هاري وديني"، أعلن "فورد"، في جلسة للروحانيين في منزله- رقم ٣١٥ غربي الشارع ٩٧- أعلن أنه سبق أن تلقى رسالة من والدة "هوديني" تحوي الكلمة- المفتاح "اغفر"، التي كانت ستصير دليلاً على أن ثمة حياة بعد الموت. يفترض أنه قد سبق الاتفاق على هذه الكلمة بين هوديني ووالدته، التي توفيت سنة ١٩١٣، بوصفها رمز الحياة المقبلة.

على كل حال، بعد التحري المناسب، ظهر أن زوجة هوديني سبق أن كشفت القناع

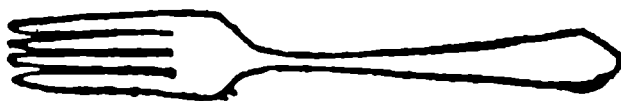
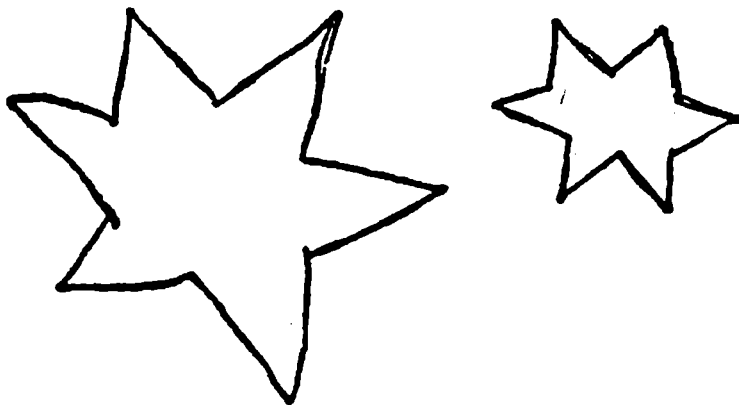
* طائر طويل الذيل يشبه الحجل .

بالتفصيل عن اتفاقية "ما بعد الحياة" بين زوجها وأمه في مقابلة في صحيفة "ايغل" البروكلينية بتاريخ ١٣ آذار، ١٩٢٧ أعلن فورد أنه لم يكن يعرف شيئاً عن المقابلة. في ٩ كانون الثاني ١٩٢٩، في نشوة بمنزل السيدة هوديني- في الرقم ٦٧ بجادة "بايسون"، بمدينة نيويورك- أعلن فورد- بوصفه قسيساً في الكنيسة الروحانية الأولى- أنه تلقى رسالة من هاري هوديني نفسه. لم يتأثر أصدقاء هوديني على الإطلاق. وذهب "جوزف رين" ابعد من ذلك، بحيث أنه عرض على فورد ١٠٠٠٠ دولار إذا ما تمكن من تكرار فحوى حديث سبق لـ "رين" أن أجراه مع هوديني سنة ١٩٢٦، في مضمار نيويورك. كذلك أعلن "رميغوس وايس"، من الرقم ٩٥٤ شمالي الشارع الخامس في (فيلادلفيا). إن هوديني سبق أن ترك معه مفتاحاً سرياً، يختلف عن مفتاح السيدة هوديني. واتفاقاً، وضعت جائزة بمبلغ ٢١٠٠٠ دولار للوسيط الذي يمكن أن يتواصل بنجاح مع هوديني. إن رسالة "فورد" المزعومة، التي جذبت اهتماماً كبيراً في وقتها، كان نصها- عند فك شفرتها- هو "أؤمن"، وقد رُتبت الكلمة قبل وفاة هوديني بوصفها دليلاً على الحياة بعد الموت. يفترض أن زوجته وحدها كانت على علم بالكلمة.

في ذلك الوقت، ذكرت الأخبار أن السيدة هوديني كانت مقتنعة بأن فورد كان حقاً على تواصل مع زوجها المتوفى. ولكنها امتعصت من الأمر وانكرته كله.

كان لديها ولدى زوجها عقلان مفتوحان فيما يتعلق بإمكان الحياة بعد الموت، كما كان واضحاً في محاولاتها للتواصل. وقد خابت آمال السيدة هوديني، ولم يطالب فورد بالواحد والعشرين ألف دولار المعروضة لتواصل "الحياة بعد الموت" مع هوديني.

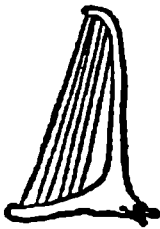
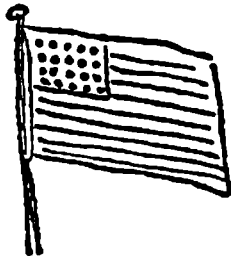
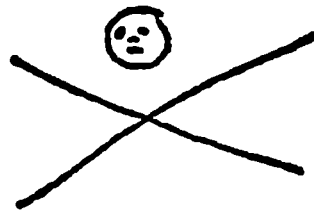
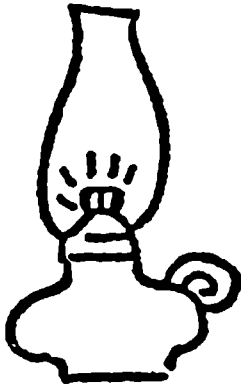
في ٢٤ كانون الثاني اندهش العالم الروحاني إذ سمع بأن فورد قد علقت عضويته في جماعة (مانهاتن) للعصبة الروحانية المتخذة لأنه سبق أن كان مذنباً في "سلوك لا يناسب قسيساً روحانياً" في "جلسة استحضار" هوديني قبل أسبوعين. اتخذ الإجراء، كما قال رئيس الجماعة، على أساس تحريات صحفية للرسالة التي يفترض أن يكون فورد تسلمها من هوديني. ولكن "جون هايس" (هايسر؟)، رئيس الهيئة التنفيذية للعصبة، أعلن أنه لم يسبق تقديم أي دليل ضد فورد، وقد عارض العمل على أساس أنه يخرق القوانين الفرعية للجماعة.



Ref. Fork July 13, 1928 11:50

July 13, 1928
See a table
fork. Nothing
else.



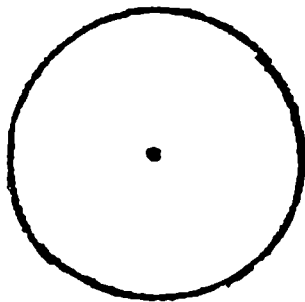
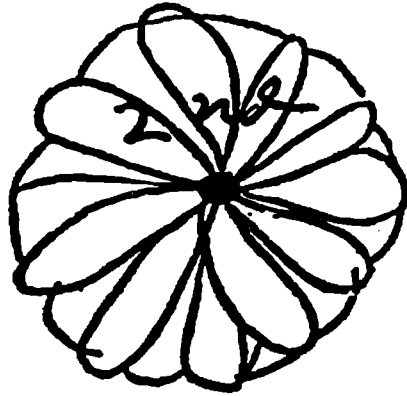


Put down watch, and
look alternately at
the open face of the watch
and the picture



WATCH

July 9-1928



في ٢٤ شباط، بعد شهر واحد، بُرئ فوردي من التهم من جانب هيئة أمناء الكنيسة الروحانية الأولى، برئاسة "جون هابس" المذكور آنفاً، الذي كان أيضاً رئيس جماعة ولاية نيويورك.

في جلسة تثبيت فوردي، أعلن أن الإشاعات سبق أن راجت بما مؤداه أنه سبق أن طلب منه روحانيون بارزون أن يغادر إنكلترا. عرض جائزة بمبلغ ألف دولار لأي شخص يستطيع أن يبرهن على حقيقة هذه الإشاعات.

في ٢٧ شباط ذهبت في سباحة إلى الولايات الاميركية في الغرب الأوسط، وفي صيف تلك السنة كان يفترض أن يذهب في سباحة أوروبية مع "السير آرثر كونان دويل". وقُدِّمت ذروة لجدل هوديني- فوردي في ٣١ تشرين الأول ١٩٣٦، بعد وفاة هوديني بعشر سنوات، عندما رفضت الـ"روح" أن تتواصل- بعد أن أجريت تحضيرات تفصيلية في هوليوود من جانب السيدة هوديني للتواصل- إن أمكن- مع روح زوجها الراحلة. في ١٢ تشرين الثاني، أفضت السيدة هوديني للأسوشيتيد برس في (ليتل روك)، بـ (اركنساس)، بأنها كانت "مقتنعة بشكل راسخ أن التواصل مع الموتى استحالة إنسانية، وأنا أتحدى أي وسيط يدعي دليلاً مادياً.

في سنة ١٩٣٨ ظهرت صورة (العريد الديني) ترسم السيدة هوديني، من قبل منتجة هوليوودية مستقلة: "فرانكون روبر غالآخر"، تناولت محاولة ما قبل سنتين للتواصل مع روح هوديني، وكشفت طرائق يُزعم أن الروحانيين يستخدمونها.

في ٢١ حزيران ١٩٣٦، حملت الاسوشيتيد برس من (بوفالو) قصة تفيد بأن الروحانيين سبق أن بدؤوا حملة لاستئصال القصف والعريضة في الحركة.

كان فحوى التقرير أن فوردي، الذي انتخب رئيساً للجماعة العالمية الجديدة، التي تضم "بضع مئات" من الكنائس في كندا والولايات المتحدة والمكسيك وكوبا، بوصفه رئيساً للجمعية العمومية للروحانيين في أميركا (مقرها في بوفالو) يهدف إلى استئصال عنصر العريضة في الروحانية وحماية لا أنفسنا فقط بل والجمهور أيضاً.

وكان يفترض في هذا، عَرَضاً، أن يكون الاجتماع السنوي الأربعين للجماعة. كان فوردي الآن صائداً لجزء كبير من الحركة الروحانية في أميركا الشمالية. وقد بني أيضاً أن المنظمة الجديدة ستعاون مع الشركة لطرد المحتالين من الشغل. وأعلن أن "وسيطاً

حقيقياً ستكون لديه أوراق من الجمعية وسيكون دائماً عضواً في كنيسة محلية. وستقوم هيئة امتحان بفحص طالبي العمل وستكون المستويات التعليمية عالية. في جمعية عمومية عالمية لاجتماع الروحانيين في (بليتيمور) (الاسوشيتيد برس، ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٧)، أعلن فورد، بوصفه رئيساً، أن الروحانيين سيفكرون في وقف أموال على مدرسة للوسطاء والمحاضرين. وأعلن أن الهدف سيكون "تشديد القيود على المهنة واستئصال الزائفين".

في مقابلة "ايغل" بروكلين مع "جون جي اونيل" في ٢٧ تشرين الأول ١٩٣١، سبق أن ادعى فورد أنه كان على تواصل مع روح السير "آرثر كونان دويل"، الذي صح- عبر فورد- بروفات سيرته التي كانت تحت الطبع حينذاك، والتي كتبها القسم جون لاموند"، عميد الكنيسة السكوتلندي. وادعى فورد أيضاً أن دويل سبق أن تواصل قبل سنة عن طريقه مع اللايدي "دويل" طالباً أن يكتب لاموند الكتاب.

تم هذا أثناء سياحة فورد الأوروبية سنة ١٩٣١، في مقابلة لد "ورلد تلغرام" مع جورج بریت" مؤرخة في ٢١ حزيران ١٩٣٣، قيل إن تعليم فورد كان "لاهوتياً بتشدد". وبين "بريت" أيضاً أن فورد كتب قصصاً ومقالات قصيرة تحت تأثير روحاني. بيع أغلب قصصه إلى نمط مجلات "قصص الأشباح". قال "بريت" إن فورد سبق أن أخبره أنه قد تجنب الخسارة المالية في انهيار "وول ستريت" سنة ١٩٢٩، وهكذا صار مستشاراً، يبحث عنه الكثيرون، لرجال الأعمال.

في ليلة ٢١-٢٢ آذار ١٩٣٥، رتب فورد جلسة استحضار في طائرة تقوم بالطيران فوق مطار (نيوآرك). كان يستضيف أربعة عشر ضيفاً بمن فيهم ممثلو الاسوشيتيد برس. ادعى أنه سبق أن سمع "دويل"، "ويلبدر رايت" و"رولد اموندسن"، المستكشف علق أحد رجال الاسوشيتيد برس أن "اموندسن" سبق أن نسي لكنته النرويجية أثناء جلسة الاستحضار.

أثناء مناظرة فورد في ٩ تشرين الأول ١٩٢٧، مع "ثورستون" في (قاعة كارنيغي)، سبق أن شرح فورد تعاليم كنيسته الروحانية كما يلي:

"إن عقيدتهم المركزية هي خلود الروح والصلاة من أجل الملاحقة داخل البوابة. وأعلن فورد كذلك أن دراسة الظاهرة النفسانية ستحل مشكلات دور المجانين المزدحمة.

قال: "إن كثيرين جداً من نزلاء مصحاتنا العقلية أدخلوا عن أعمالهم غير مسؤولين عنها. يمكننا- بدراسة القوانين النفسانية وكيفية السيطرة على الهواجس- أن نعيد أغلبية كبرى من المجانين إلى الوجود الطبيعي. في كاليفورنيا، رأيت ثلاثة أشخاص أطلقوا من مصح عقلي عندما تحرروا من سيطرة الأرواح الدنيا التي كانت تتملكهم. في (ميشيغان) تقلص عدد النزلاء بفضل أمثال هذه الدراسات. إن ظاهرة الروحانية العصرية لا تختلف عن الظاهرة التي سجلها الزعماء الدينيون العظام في الماضي. لقد أظهر يسوع القوى النفسانية ذاتها التي يعرضها وسطاء اليوم، ولكن قواهم- بالطبع- ذات نظام أدنى.

"عندما سئل كيف كان يتلقى الرسائل الروحية، قال فورد: "إنني اسمعها، ولكن "أسمع" ليست الكلمة الصحيحة لوصف تلقيها، لأنني لو كنت اسمعها فقط بالطريقة الاعتيادية لكنت أنت تسمعها في الوقت الذي اسمعها فيه. لا أدري من أين جاء الانطباع، ولكن التأثير في ذهني هو نفسه لو كانت الأصوات تلتقطها أذني وتحملها إلى دماغي بالطريقة الاعتيادية".

بعد الوعظ في قداس "بالكنيسة الكونية للأبوية الإلهية"، في (سنترال بارك الغربي) والشارع ٧٦، (التايمس، ٧ مايس ١٩٣٤)، "قدم القس آرثر أ. فورد، المبعوث العام للجمعية العمومية للحركة الروحانية في أميركا، عرضاً للروحانية" على الدرجات المؤدية إلى هيكل الكنيسة. تلقى الرسائل الذي قال إنها جاءت من أقارب متوفين لأعضاء الكنيسة. نادى أسماء وتساءل إن كان أي من الحاضرين يعرفها. عندما أعطي الجواب- وفي أغلب الحالات أعطي- قال إن روح الشخص المذكور كانت تقف قريباً منه، وإن عندها رسالة. في أغلب الحالات كانت الرسالة أن الشخص المغادر مسرور جداً وأنه (أو أنها) بعث تحياته. أثناء التكلم، ادخل فورد أيضاً أسماء أفراد آخرين من العوائل التي كان يتحدث عنها وكذلك بعض التفاصيل عن أعمار الراحلين ومظاهرهم. وقد استقبل عرضه بحرارة.

يقول فورد إن حوالي ثلاثين مليون شخص في أنحاء العالم المختلفة يؤمنون بالروحانية. وأعلن فورد أيضاً: "كان عدونا الأعظم هو الكنيسة. إننا لا نؤمن بأنه

كانت ثمة معجزة في أي يوم. لقد بدت معجزات في حينها لأنها لم تكن مفهومة. في كل يوم نجد أشياء لا نستطيع فهمها، وهي تبقى كذلك حتى يأتي من يستطيع أن يفسرها لنا. إن الروحانية حقيقة علمية قد برهنت بشكل قاطع أن من الممكن في أوقات معينة وتحت ظروف معينة الاتصال بالموتى".

كانت سمة اجتماع (بوفالو) سنة ١٩٣٦ هي عرض ال وساطة العقلية" - التكهن النفسي*، التنبؤ بجمهور الحاضرين، والاستبصار".

وعُرف التكهن النفسي بأنه "لمس روحاني لجسد كما لو لأخذ اهزازاته".

من كل المعطيات المتوافرة، يدعي فورد أنه على اتصال مع أرواح الموتى، وأن بإمكانه أن ينقل - إلى حد معين - رسائل منها إلى الآخرين عبر وساطته، ويمكنه أن يتنبأ بالمستقبل.

إن أي عدد من الناس هم أتباع للروحانية. من بين أتباع فورد السريين رجال من "ول ستريت" ذوو أسماء مشهورة، وعضو محكمة عليا لولاية. لو كان بمقدور احد أن يتنبأ بالمستقبل في "ول ستريت"، فإن بمقدوره أن يمتلك ول ستريت ويحطمه. لو كان بمقدور احد أن يتنبأ بحكم عضو هيئة محلفين فسيتعين علينا أن نخترع شيئاً جديداً يحل محل المحاكم.

في مؤتمر (بوفالو) الأخير كُشف عن المخلصين التالية أسماؤهم بوصفهم رسميين في جمعية الدكتور فورد: السيدة "م. س. ماكغواير" من (تورنتو)، نائبة الرئيس، "ف. و. كونستانتين"، من (بوفالو)، سكرتير، روبرت ب. كولوب"، من (أكرون) ب (أوهايو)، أمين صندوق، "دانا ماك هنري"، من (لوس انجليس)، نائب ثانٍ للرئيس. وكانت الأسماء الأخرى التي التُقطت هي: "الدكتور ف. أ. ويفين" من (بوسطن)، "الدكتور ألكسندر جي. ماكيفور - تيندال" من (لندن)، خطيب الحركة، الذي يُزعم أن روح "جوزف جفرسون" تسيطر عليه، ودكتور باسم "جورج أ. لينغباخ" من (بتسبورغ) أو ضاحيتها. وفي تخمين متحفظ، ثمة قريب من مليون مؤمن بالروحانية في الولايات المتحدة.

* القدرة المزعومة على اكتشاف شخصية امرئ، أو صفاته عن طريق لمس شيء سبق أن لمسه .

الفصل "٦"

١- إن واحداً من السواميين الذين يعرفون التلميححات، هو رئيس دير الرهبان التيبتي، تشاو- كونغ، المعروف في أميركا باسم "تيموثي لينكولن"، المولود أصلاً باسم "اغناطيوس تريبيتش".

من ديره التيبتي، بمعونة ال يونائيتيد برس" والبرقيات، قذف في ١٩ كانون الأول ١٩٣٩، إنذاراً للعالم، من سادة العالم الساكس رومرين، ذلك الإنذار الذي اثر في الهيرالدتربيون بما يكفي لتعيد توجيهه (سواء أكان ذلك من باب السخرية أم لا، فذلك شأن يخصها هي) مع صورته، تحت هذه العناوين:

"يحذر المتحاربين الأوروبيين من إقدام تيبتي"
"تريبيتش لينكولن يدعو غضب بوذا على الأمم المتقاتلة"
ويقول العنوان الفرعي:

"ينذر الراعي السابق، عضو البرلمان البريطاني والجناسوس، الموجود الآن في آسيا باسم "رئيس دير الرهبان تشاو- كونغ"، ينذر القوى (باستثناء فنلندا) بأن تحقق السلام وإلا تُدمر".

ويقول التقرير:

شنغهاي، ١٩ كانون الأول، (يونايتدبرس)- أعلن رئيس دير الرهبان تشاو- كونغ"، الذي عرف ذات مرة باسم "اغناطيوس تيموثي تريبيتش لينكولن"، الراعي السابق، عضو مجلس العموم البريطاني والجناسون الدولي، أعلن للعالم اليوم أنه ما لم تتراجع حكومات البلدان الأوروبية المتحاربة الرئيسة على الفور بحيث يمكن عقد مؤتمر للسلام، فإن "السادة الاعلين" لبوذي التيب ستأصلونها من ميدان العمل بإطلاق العنان لقوى ما من دفاع أمامها.

وقال رئيس الدير إن هذا هو النداء الأخير من أجل السلام. سبق أن وجه نداءً أولياً، إذ توقع الحرب، في ربيع ١٩٣٩ .

ظاهراً من المختلى البوذي الذي كان قد عزل فيه نفسه مدة بضع سنوات، طلب رئيس دير الرهبان أن تتراجع الحكومات البريطانية، الفرنسية، الألمانية والروسية، في وقت واحد على الفور. وأعطى (فنلندا). وقال رئيس الدير إنه يجب تشكيل حكومات جديدة وإن عليها أن تدعو إلى عقد مؤتمر للسلام على نطاق العالم. وحذر:

"وإلا، فسيطلق السادة الأعلون البوذيون التيبتيون، من دون تحيز، أو توجيه مسبق أو تمييز، قوى وقوات لا تعرفون حتى بوجودها وانتم عاجزون أمام عملياتها. وأشار تربيتش لينكولن إلى أن الزعماء العالميين هم مجرد كائنات بشرية، تخضع لكل التقييدات البشرية. وقال إن الاستثناءات الوحيدة هم "السادة الأعلون" البوذيون، الذين حطموا- بمعرفتهم غير المحدودة وغير المقيدة لأسرار الطبيعة ولقدرةهم على استخدام قوات معينة، قد شقوا الطريق عبر هذه التقييدات.

"وقال إن الولايات المتحدة كان بمقدورها أن تمنع الحرب الأوروبية، ولكنها اختارت أن تتبع طريق "المحابة المكشوفة، التحيز وعدم العدالة الصريح، المغطى بعبارات تتظاهر بأنها كل ما هو ذو قيمة".

"قال إن الحكومات البريطانية والفرنسية والألمانية جميعاً مذنبات بتأجيج الحرب. "ولدى مناقشة الحرب الصينية اليابانية، قال إنه- بصرف النظر عن خلفيتها- واليابان كانت راغبة في بحث السلام، ولكن الصين واصلت "سياستها المجنونة للأرض المحروقة".

غادر تربيتش لينكولن، الذي ولد يهودياً قبل نحو ثمان وخمسين سنة، قريته الهنغارية ليبحث عن حظه في إنكلترا. دخل كنيسة إنكلترا وصار راعي أبرشية، ثم دخل دنيا السياسة فانتُخب إلى مجلس العموم بوصفه ليبرالياً. حقق الثراء في مشاريع تطوير النفط.

"جعل رقيباً في دائرة البريد البريطانية عند اندلاع الحرب العالمية، ولكن بعد فترة حاول فيها- كما زعم البريطانيون- أن يتصرف باعتباره عميلاً سرياً لبريطانيا وألمانيا، هرب إلى الولايات المتحدة. وقد تسلموه وأبقوه في السجن حتى انتهاء الحرب.

"تم تهجيرهم، فذهب إلى ألمانيا ولعب دوراً كبيراً في العصيان الكبير المسلح لسنة ١٩٢١، عندما استولى المتآمرون على برلين. وبعد سنوات إذا به في الصين ليصبح كاهناً بوذياً.

"كان اسمه عند الولادة اغناتيوس تربيتش، وأضاف اسم لينكولن لأن "أبراهام لينكولن" كان مثاله في طفولته".

لقد كان رؤساء أديرة الرهبان، والرهبان والأساتذة التيبتيون والمتحولون الغربيون إلى ديانتهم، يوحون منذ قرون بأن بمقدورهم أن يفعلوا هذه الأشياء. إن الرئيس لشكي هو أنهم لم يفعلوا ذلك قط.

اعتقد أن القذائف هي ساطعة البريق، وإن لم تكن بحرارة وصعق خيط طائرة فرانكلين الورقية، ولكنني ما أزال أتساءل إن كان فيها أي قوة، ما دامت لم تحدث حتى الآن إلا ناراً خُلباً.

الفصل "٧"

٤- إن معادلات نوسان الدراويش بين الاسكيمو قد وصفها بالتفصيل "بيتر فرويشن" على الصفحات ١٢٩- ١٣٧ من كتابه المغامرة القطبية"، الذي نشرته دار "قارار وراينهارت" سنة ١٩٣٥ .

إن لدى المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي عدداً من الرسومات التي تصور هذه الطرق المختلفة التي يتمدد بها الصوفيون وعراقفو الاسكيمو مقيدين، ليحثوا على حالات النشوة والرحلات إلى عالم ما فوق الاعتيادي.

يقول السيد فرويشن:

"أعلن العجوز "سوركاك"، الذي كان يصطاد هو أيضاً في المنطقة، أنه سيحاول الذهاب في سفره إلى العالم السفلي.... سبق له أن قابل الشيطان وغلبه- ربما أمكنه أن يفعل ذلك ثانية.

"على كل حال، برهنت تحضيراته للهبوط على صدقه. صام حتى نظف داخله تماماً، واختبر برازه حتى اطمأن إلى حاله. بعد ثلاثة أيام أعلن نفسه جاهزاً للرحلة، وتم تعيين وقت المغادرة في الليلة التالية. تسلق العجوز في هذه الأثناء عالياً إلى الجبال باحثاً عن الوحدة ليصوغ خطابه للأرواح وليدرب نفسه على السباحة في الصخور- التي سيتعين عليه بالتأكيد تقريباً أن يتوغل فيها لكي يلاقي الشيطان.

"انشىء كوخ جليد* ضخم بإضافة كتل عدة من الجليد إلى اكبر منزل في المستوطنة. عمل عليه عدة رجال، وجرى قطع كتل الجليد من قبل الشيوخ الذين تأكدوا من جدية المهمة. بعد أن أنجز ذلك، جرت تغطية الداخل بستائر من جلود الخيام القديمة.

* يقيمه الاسكيمو . ويكون عادة مقبباً .

اختبر "سوركاك" المسرح الذي كان سيشهد أعاجيبه، لم يقل شيئاً، وانصرف إلى تأمل جديد.

في هذه الأثناء، طُلب إلى الأهالي أن يجتمعوا وجرت قيادتهم إلى أماكنهم من قبل "كريلرنيك"، مساعد "سوركاك". وكان كريلرنيك نفسه رجلاً مسناً، ولكن عيناه تتأججان بحماسة، وإشارات سريعة، ومشيته عصبية.

"مثل نجم مسرحي يجعل ظهوره في عجلة عتيقة، كان سوركاك آخر رجل يدخل المنزل، وأعلن عن اسمه ثلاث مرات قبل أن يصل أخيراً. حيناً جميعاً بالقول إننا قطع من الحمقى لأننا قد جننا: فما اقترح أن يفعله لم يكن شيئاً، وإضافة إلى ذلك فهو لم يكن يستطيع أن يفعله قط.

"خلع ملابسه، التي أخذها "كريلرنيك"، وجلس عارياً تماماً. ثم عقد كريلرنيك بضعة حبال من جلود الفقمة وقيده بإحكام، شاداً ذراعيه إلى جانب جسده وربطاً ساقيه معاً، بحيث كانت تنغرز عميقاً في عضلاته. أبقى الشيخ نفسه متصلباً أثناء العمل. وفي بعض الأحيان كانت تندّ عنه تنهيدة عميقة.

"عندما لم تعد ثمة حبال تحت اليد، وضع كريلرنيك طبله وجزءاً كبيراً من جلد الفقمة المجفف على الرف الصخري. أطفئت الأنوار وكانت الإضاءة الوحيدة تأتي من شعلة صغيرة واحدة. كنا لا نكاد نميز وجوه أحدنا الآخر، لم نكن نستطيع أن نرى أي شيء على نحو دقيق.

"ثم اتخذ كريلرنيك مكانه بيننا ليتأكد من عدم اقتراب أحد من الشيخ، لأن ذلك معناه الموت.

"بعد بضع دقائق من الصمت المطبق سمعنا صوت سوركاك في أغنية. كان ضعيفاً ومهتزاً، ولكنه قوي بالتدرج وبدا منبثقاً من أجزاء مختلفة من الكوخ الجليدي. بعد لحظة سمعنا صوت طبل، كما لو كان يُقرع بعصا ملفوفة، وبصوتٍ بطيئاً، أيضاً. ارتفع صوته، حتى امتلأ البيت بالأغنية، بدويّ الطبل وخشخشة الجلد الجاف، مرة فوق رؤوسنا وأخرى تحت أقدامنا!

"كان الضجيج يكاد يكون لا يطاق، وقد أمسكت بذراع كريلرنيك، متظاهراً

بالفرع، لكنني كنت- في الواقع- أريد أن أتأكد أكان يشارك في الضجيج أم لا. كان واضحاً أنه لا يفعل.

"لا أستطيع تقرير كم استغرق الضجيج. أتذكر أنني، عندما هداً أخيراً، شعرت كما لو كنت أحلم. في هذه الأثناء كنا جميعاً قد انضمنا إلى أغنية سوركاك، ولكن بدا، ببطء، أن صوت الشيخ كان يتلاشى. أخيراً، شعرت بشكل محدد أنه كان يصلنا عبر جدران الكوخ الجليد، ربما من فوق أو من تحت. ثم صار بمقدورنا فجأة عندئذ أنه لم يعد بمقدورنا أن نسمعه.

لم يدرك أيُّ منا ما جرى أو متى جرى، ولكن عندما رفع كريلنيك اللهب بحيث أمكن الرؤية بشكل أوضح قليلاً- لم يكن ثمة سوركاك على الرف الصخري.

"كان الطبل هناك وكان الجلد هناك، ولكن ذلك كان كل شيء. سكرتُ بالحرارة ورائحة الأجساد والأغنية، وربما لم أتفحص الكوخ الجليد بانتباه كاف.

ولكنني نظرت إلى الأغطية والستائر لأرى أكان بمقدوره الاختباء وراءها، لكنه لم يكن.

"كنا نجلس هناك جميعاً نغني كما كنا قبلاً. كانت النشوة على وجه كل رجل وامرأة. كانت الوجنات منتفخة، وعيونهم تبرق. تتدلى أفواههم مفتوحة، وأجسادهم معرّاة من الحضور إلى فوق كي يتحملوا الحرارة. كانوا يتميلون إلى وراء وإلى أمام على إيقاع الأغنية، وتؤشر رؤوسهم القرع المزدوج. ما كان يبدو على أحد أنه يرى شيئاً، بل كانوا يستخدمون عيونهم كأضواء منارات. في وسط الأرضية، كان كريلنيك يتلوى ويتمايل مثل راقص.

"كانت تجلس إلى جانبي فتاة شابة، "ايفالو". كان جسدها العاري مضغوطاً على جسدي، واكتسحتني رائحتها الفتية القوية. حاولت أن أتكلم إليها، ولكنها لم تسمع. بدلاً عن ذلك، تبعت عيناها كريلنيك مباشرة أمامنا. نشرت شعرها الطويل طليقاً من العقدة فوق رأسها، فراح يتمايل من جانب إلى آخر، فيما هي تغني سلب الهسيس الموقع لشعرها إحساسي كما بقيتهم....

"عندما نظرت إلى وجوه هؤلاء الناس لم أكد أستطيع التعرف فيهم على الأصدقاء الهادئين الصامتين الذين انحدروا إلى ال (ثول) ليتاجروا معنا.

من أين جاء هذا الميل نحو الصوفية؟ لا أحد يعرف أصل الاسكيمو، ولكن ليس صعباً تقصي أثرهم إلى طقس معتدل، إن كثيراً من تقاليدهم مشتق من عبادة الأشجار والأفاعي والضفادع. ربما كانوا آسيويين أصلاً وقد اخذوا من الشرق الأقصى اعتمادهم على ما فوق الطبيعي. هنا رأيتهم تملكهم روح ربما لم يكن بمقدورهم أن يفهموها، كونهم فرائس العواطف والنزعات التي تحيرهم في حياتهم اليومية.

"استمرت الأغنية ووقعتُ كلياً تحت قوة الروح. لم أعد قادراً على ملاحظة ما يحدث من دون عاطفة. كانت "أيفالو" تتمدد عارية أمامي، وكان بمقدوري أن أحس واحدة أخرى تعلق شعري، وتخمش وجهي. فاجأتني الضجة، رائحة الأجساد وغموض اللحظة من دون تهيو كلياً.

"ثم فجأة تغير كل شيء. أعلن كريلرنيك، قائد الجنون، إن سوركاك كان يحاول أن يعود.

توسل إلينا جميعاً أن نتخذ مواضعنا الأصلية وأمرنا أن نجلس ونغني. لا ينبغي لأية أفكار أن تشغلنا غير أفكار الشيخ الذي كان في تلك اللحظة يناضل كي يشق طريقه عبر الغرانيت تحت الكوخ الجليد. كنا لا نزال غير قادرين على سماعه، ولكن كريلرنيك، الذي سبق له أن قام بالحجج عدداً من المرات، قال إنه كان بمقدوره أن يحس وصوله الوشيك، واشتكى من المعاناة التي كان يخوضها. شارك كريلرنيك، بوصفه مساعداً، كدَّ صديقه الذي كان عليه أن يرقص عبر الصخور كما لو كانت ماءً...

"هدوءاً! هدوءاً! إن الظل نضج. إن الظل نضج"....

أصغينا جميعاً، وكان بمقدورنا أن نسمع من بعيد صوت سوركاك. أطفأ كريلرنيك الضوء كلياً، بما أنه يجب ألا ينظر أحد إلى الشيخ "عاري العضلات" - فقد اضطر إلى ترك جلده عندما كان يصعد إلى الأرض - كي لا يموت....

ولكننا عرفنا أخيراً، بطريقة سحرية، أنه سبق أن عاد - من السماء أو من أعماق "ظلّه" الذي "نضج". ضج الكوخ الجليد بضجة طبله وخشخش جلد الفقمة المطلق أحياناً فوق رؤوسنا، وأحياناً تحت أقدامنا. رفعت يدي كي أحاول أن امسك الجلد

فتلقت لكمة على ذراعي كانت من القوة بحيث إن العظم أوشك أن يتهشم. لقد جاءت الجحيم ذاتها فجأة إلى الأرض.

"ثم توقف كل شيء. تمت كريلرنيك هراء طويلاً، وكان الكوخ الجليد هادئاً فيما عدا صراخ الأطفال. ربما كانوا يصرخون الوقت كله، ولكن لم يسبق أن عرف بذلك أحد. كان صوت كريلرنيك الرتيب يدعو الشيخ الذي يفترض أنه الحالي أن يتعلم الأسرار التي سبق أن تعلمها فيما يتعلق بسبب الحوادث. أجاب صوت سوركاك:

"ما زالت ثلاث ميتات في الطريق. إن "الطبيعة العظمى" يربكها البيض الذين جاؤوا لحيوا معنا، وترفض أن تكشف السبب الحقيقي لغضبها. ولكن لن تقع علينا مصيبة عظمى لو أن نساء العشيرة امتنعن عن أكل لحم أنثى الفظ* حتى تغيب الشمس ثانية في الخريف".

سبق أن قام الشيخ بواجبه وانتهى العرض. لا فكرة عندي كم استغرق. جلب أحدهم النار من الكوخ الجليد التالي وأوقد المصابيح.

ها هو ذا سوركاك جالس على الرف الصخري لا يزال ملتفاً بشرائطه العديدة من جلد الفقمة. لم تتح لي فرصة تفحصه لأرى أكان قد أطلق وربط ثانية.

كان ضعيفاً للغاية، مغطى بالعرق، والريق يجري نازلاً على صدره. حذرني كريلرنيك ألا أمس سوركاك ما دامت نار الأرض لا تزال فيه، وستبقى كذلك حتى يتحرك ثانية.

جلس هادئاً حتى أزال كريلرنيك الحبال، ثم سقط إلى وراء واضطجع في غيبوبة. أخيراً فتح عينيه. كان صوته ضعيفاً وفمه جافاً. حاول أن يتنسم عندما رأيته. قال: "مجرد أكاذيب وهراء، الأمر كله! لا تصدق أي شيء. لستُ شيخاً. لا أقول شيئاً غير الأكاذيب. ليست حكمة الأسلاف في!، وسقط إلى وراء ثانية، وأكدنا جميعاً بعضنا لبعض أننا شهدنا حقاً شيئاً مذهلاً وكنا في محضر الحقيقة ذاتها.

* حيوان ثديي بحري شبيه بالفقمة ولكن أكبر منها .

في اليوم التالي حاولت أن أتكلّم مع الأهالي عن عرض الأُمس، ولكنهم كانوا صامتين. قالت "إيفالو" ومضيفتي، "ابنواهو"، إن العرض جعلهما تتأكّدان من أنني رجل أبيض- فما كان الاسكيمو ليريد أن يناقش الأمور التي لم تذكر قط، وإنما فُعلت فقط". وبيروي "فرويشن" أيضاً مأساة مثيرة للمشاعر وقعت ذات يوم حين كان بعض الأطفال الاسكيمو، وهم يلعبون لعبة تمايل الدراويش، قد فقدوا السيطرة على الأمر. يميل الأطفال، كما يفعل الراشدون، إلى الصوفية، وإحدى طرق انتقالهم إلى اللاوعي والغشية هي أن يعلقوا أنفسهم من خطاطيفهم. يقول السيد "فرويشن":

"عندما تتوتر الخطاطيف حول أعناقهم لا يصل الدم إلى رؤوسهم ويفقدون أخيراً الوعي. ينزل بهم الأطفال الآخرون في البيت بمجرد أن تصير وجوههم أرجوانية اللون. يقول الأطفال إن حالة اللاوعي من الإبهاج بحيث أنهم يلعبون هذه اللعبة في كل فرصة، مراراً وتكراراً. كانوا يلعبونها في اليوم الذي كان فيه الشيخ وزوجته بعيدين. كان ابن الشيخ أكبر صبي في المجموعة. كان يعلق الأطفال الأصغر واحداً بعد الآخر وينزلهم عندما يصيرون أرجوانيين، ويضعهم على الرف الصخري ليتعافوا. عندما أخذوا جميعاً نوباتهم، ساعدهم على تعليقه. في الآخر استحال وجهه أرجوانياً وراح يرفس بساقيه علامة لهم كي ينزلوه.

حاول الأطفال أن يرفعوه عن الخطّاف، ولكنه كان ثقيلاً جداً. بذلوا كل جهد ومع ذلك لم يستطيعوا أن يحركوه، ثم- بما أنه سرعان ما كفّ عن الرفس والدوس في الأنحاء- نسي الأطفال أمره وركضوا خارجين إلى الهواء الطلق كي يلعبوا، تاركينه مدلى أمام النافذة فوق الباب.

عندما عادت الزحافات إلى الديار اعتنت الأم بالكلاب وأسرع الشيخ- بارداً من الجلوس النهار كله- إلى الداخل. زحف عبر المدخل المعد على هيئة نفق فرأى قدمي ابنه تتدليان من فوق فتحة الباب...

"رأينا موكب الجنائز الصغيرة الحزين. لم يستعمل للتابوت إلا أفضل الجلود. اقتاد الأب الكلاب صاعداً إلى التلال، وقد عاند بعضها وخالف. تعني على كل فرد أن يتوقف ويعاقب الكلاب، التي أضاف نباها إلى كآبة المناسبة.

تركت العائلة المسكينة، التي كان حرماناتها شديدة بما يكفي أصلاً، هدايا عدة للصبي، لا سيما بندقية صغيرة سبق أن أرادها. وسكين كبيرة، والغلايين والتبغ العائدة للعائلة كلها- سيكون هناك وقتاً طويلاً وسيحتاج إلى هذه الأشياء جميعاً. كما تركت أيضاً كل قفازات العمل* التي استعملت في بناء قبره الحجري.

* هي التي تعد لوقاية أربع أصابع اليد معاً، والإبهام منفرداً.

المحتويات

9	ملاحظات المترجم
11	المقدمة: تفجير استنباط خلفي جائم على قرون معضلة ما
	القسم الأول: الساحرة ودميتها
21	١- عن الدمى بشكل عام
25	٢- دمية الساحرة ومقارنها
31	٣- دمية رهيبة في أفريقيا
45	٤- حانوت دمي بقيمة عشرة سنتات للواحدة في فرنسا
55	٥- دمية خشب في كهف
63	٦- دمية من نشارة الخشب في عُليقات
75	٧- دمية فاخرة في لندن
87	٨- دمية مزينة بالأظفار في طولون
	القسم الثاني: مصاص الدماء والمستنذب
105	١- بخصوص مصاصي الدماء والمستنذبن عموماً
109	٢- مصاصة الدماء البطلة العالمية في كل العصور
121	٣- مصاص دماء سنة ١٩٣٢ من بروكلين في نيويورك
129	٤- الرجل- الفهد من ساحل العاج
137	٥- السيدة الضبع ذات الأقراط المطعمة بالجواهر
145	٦- المستنذبة البيضاء المحبوسة في قفص من سارابان
155	٧- مستنذب في ساحة واشنطن

القسم الثالث: السحر الأبيض، البروفسور راين، ما فوق الطبيعي وجوستين

- ١- طرح سؤال مفتوح، قد لا يكون الجواب السالب الكلمة النهائية بشأنه 169
- ٢- الجسم الوهمي " على زورق 181
- ٣- كاغليوسترانا الجديدة 191
- ٤- "الراديو الذهني" لأيتون سنكلير 217
- ٥- و. ي. وودوارد مع دبوس قبعة 229
- ٦- درويش جوستين يتدلى 239
- ٧- جوستين مقنعة 249

القسم الرابع: ملحق: ملاحظات تكميلية، حكايات ورسوم

- ملاحظات على المقدمة 265
- ملاحظات على القسم الأول 273
- ملاحظات على القسم الثاني 290
- ملاحظات على القسم الثالث 298



كان ويليام سيبروك رحالة مغامراً، وكاتباً يبحث عن أسرار الحياة في كل أنحاء العالم، كما كان رساماً وروائياً بارزاً، وهو من أوائل المستشرقين الأمريكيين الذين كتبوا عن الشرق. وهو في كتابه هذا يكشف أسراراً مجهولة عن السحر في طقوسه وتأثيراته في حياة الناس في مناطق مجهولة وغنية بالتفاصيل. أول كتبه التي ترجمت الى العربية «مغامرات في بلاد العرب» الذي صدر عن دار المدى.

